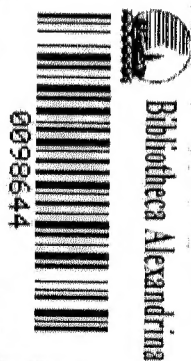


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٩

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

دراسة
والعقبات ٢



Bibliotheca Alexandrina





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد التاسع

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

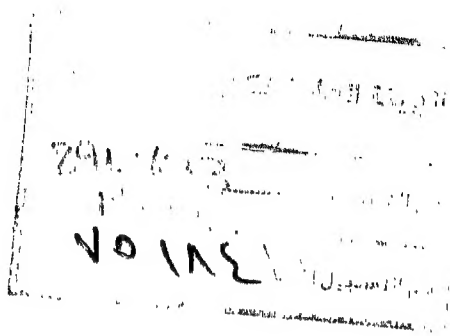
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥



الجريدة
والعقاب
٢

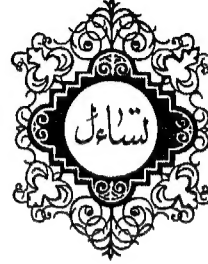
جميع الحقوق محفوظة

« الجريمة والعقاب » (Prestouplénié) nakazanié

ظهرت في مجلة « الرسول الروسى » في اعداد سنة ١٨٦٦ ،
من كانون الثانى (يناير) الى كانون الاول (ديسمبر) ، المجلدات
من ٦١ الى ٦٦ •

الجزء الرابع

الفصل الأول



راسكولنيكوف مرةً أخرى : « هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمى ؟ » • وأخذ يتفرس في الزائر الذى لم يكن يُنتظر ، أخذ يتفرس فيه محاذراً مرتاباً • ثم قال أخيراً ، بصوت عالٍ ، وقد استولى عليه اضطراب كبير وحيرة شديدة :

– سفدريجاييلوف ! ولكن هذا مستحيل ، مستحيل •

ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر •

– جئت اليك لسببين ، أولهما رغبتى فى أن أتعرف اليك شخصياً ، لأننى أسمع عنك مديحاً كثيراً منذ مدة طويلة • والثانى أنى أتعجباً فأمل أن لا ترفض مساعدتى فى أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا • فأنى اذا لم أعتد الا على نفسى ، ولم يوص بى أحد ، لا يكون لى أمل كبير فى أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلنى ، لأنها تسيء الظن بى • أما اذا عاونتنى أنت •••

قاطعهُ راسكولنيكوف قائلاً :

– لا تعوّل على معاونتى •••

– انهما لم تصلا الا أمس ، أليس كذلك ؟ اسمح لى أن ألقى عليك

هذا السؤال •

لم يجب راسكولنيكوف •

— وصلنا أمس • أعرف ذلك • وأنا نفسي لم أصل الا أمس الأول • اليك ما أريد أن أقوله لك في هذا الصدد يا روديون رومانوفتش • انتى لا أرى داعياً الى تبرئة نفسي ، ولكن أرجو أن تأذن لى بالقاء هذا السؤال : ما هو الذنب العظيم الذى اقترفته أنا ، اذا نحن أردنا أن نحكم فى الأمر حكماً سليماً مبرراً من الغرض ؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت •

— أليس ذنبى هو أننى لاحقت فى بيتى فتاة لا تملك عن نفسها دفاعاً ، وأننى « أسأت اليها بعروض دنيئة » ؟ هذا هو ذنبى ، اليس كذلك ؟ هأت ذ ترى أننى أسبق غيرى الى وصف ذنبى • ولكن أرجو أن تسلّم معى بأننى أنا أيضاً انسان ، وأنه ما من انسان * • • • أقصد أننى أنا أيضاً يمكن أن أفقن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون ارادتنا) • فمتى سلّمت معى بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شىء تفسيراً طبيعياً الى أبعد الحدود • ان السؤال الوحيد الذى يجب طرحه هو السؤال التالى : أنا شيطان أم ضحية ؟ فماذا لو كنت ضحية ؟ لعلى حين عرضت على الفتاة التى ألهمت هواى أن تسافر معى الى أمريكا أو الى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام ، وأننى كنت فوق ذلك أظن أننى أحقق السعادة لنا كلينا ! ما العقل الا خادم الأهواء ! وهكذا كنت أسىء الى نفسى مثلما كنت أسىء اليها • • •

قاطعه راسكولنيكوف يقول باشمثراز :

— ليست هذه هى المسألة • فسواء أكنتَ مخطئاً أم كنتَ مصيباً ، فأنت تشير الاشمئزاز • لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك ، بل أطرّدك ، وما عليك الا أن تنصرف !

انفجر سفديرجايلوف يقهقه على حين فجأة •



سفدریچایلو ف

بریشه الفنانة السوفياتية الکسندرا کورساکوا

ثم قال وهو يضحك ضحكاً صريحاً :

— يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل • كنت أريد أن أعمد في معاملتك الى الحيلة والمكر ؟ أما وأنت وضعت اصبعك على النقطة الحساسة ، فسوف ...

— دعك من هذا الكلام ! انك لثمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!

فقال سفدريجايلوف مردداً وهو ما يزال يقهقه :

— ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ولكن أليست هذه « حرباً مشروعة » ؟
أليس هذا مكرراً « مسموحاً به » ؟ ... لكنك قطعت على طريق الكلام مع ذلك • مهما يكن من أمر ، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد ، لولا حادث الحديقة • ان مارتا بتروفنا ...

— مارتا بتروفنا ! يقال انك أرسلتها الى العالم الآخر ، مارتا بتروفنا ...

كذلك قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة • فأجاب سفدريجايلوف قائلاً :

— أسمعت عن هذا أيضاً ؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال ؟ أما سؤالك فأننى لا أدري حقاً بهم أجيبك عنه ، رغم أن ضميرى مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية • ولا يذهبن بك الظن خاصة الى أن هناك أى أمر أخشاه • ان كل شئ قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق : لقد أثبت الفحص الطبى أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتوفاة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة ! ... ولم يمكن اكتشاف أى شئ آخر ... لا ، ليس هذا ما يقلقنى • ولكننى قد تساءلت طوال الرحلة فى القطار : ألم أساهم فى هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة ،

بأحداث اضطراب نفسى أو شيء من هذا القبيل • على أننى انتهيت الى أن هذا أيضاً مستحيل •

أخذ راسكولنيكوف يضحك ، وقال له :

— هناك ما يدعوك الى القلق حقاً •

— ولكن لماذا تضحك ؟ فكّر قليلاً : اننى لم أضربها بالسوط الا ضربتين اثنتين ... • • • ضربتين لم تخلّفاً أنراً • لا تحسبى رجلاً مستخفاً مستهتراً ، أرجوك ! أنا أعرف أن سلوكى كان دنيئاً ، الفخ • ولكننى أعلم أيضاً أن دلائل « الاهتمام » هذه لم تكن تسوء مارتا بتروفا • كانت مارتا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة الى أن تقبع فى البيت • لم يكن قد بقى أى سبب يدعوها الى الظهور فى المدينة ، بعد أن أغرقت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً) • وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها من السماء • فكان أول هم لها أن تقرن الحيل بالعربة • • • لست فى حاجة الى أن ألفت نظرك الى أن بعض النساء يشعرون بلذة قوية حادة حين تلحق بهن اهانة ، مهما يكن غضبهن منها • بل ان جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف : فالنوع الانسانى يحب الاهانات كثيراً ، هل لاحظت هذا ؟ ولكن النساء يجبنها حباً خاصاً ، حتى ليتمكن أن يُقال انهن لا يمكن أن يعشن بغير اهانات أو اساءات •

خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختم الحديث • ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدّاه عن ذلك ، فسأل فى ذهول :

— هل تحب الضرب كثيراً ؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء :

— لا كثيراً جداً • فأنا ومارتا بتروفنا ، مثلاً ، لم نكد نتضارب قط • كنا نعيش دائماً فى وفاق ووئام ، وكانت راضية عنى فى جميع الأحيان • ولم أعمد الى استعمال السوط ، طوال السنين السبع التى عشناها معاً ، الا مرتين اثنتين (هذا اذا استثنينا مرة ثالثة مشبهة) : فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين ، أى منذ وصولنا الى الريف ، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم • وأنت تظن مع ذلك أننى شيطان رجيم ، اننى رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية !... هـ هـ هـ • بالمناسبة : هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الفتى — لقد نسيتُ أنا أسمه ! — الذى لُطِّخَ بالوحل على مرأى من الناس ، منذ بضع سنين ، فى عهد « النقد المفيد » * ، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية فى قطار ؟ هل تتذكر ؟ أظن أن ذلك حدث فى نفس السنة التى وقعت فيها الفاحشة التى تحدثت عنها مجلة « العصر » * (لا شك فى أنك تتذكر المحاضرة العامة عن « لياى مصر » ، ألا تتذكرها ؟ آه •• العيون السوداء ! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية ؟) • فإليك رأى : أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذى ضرب المرأة الألمانية بالسوط ، لأنه لا مجال هنا للاستحسان حقاً ••• ولكننى لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصريح بأن المرء يصادف فى بعض الأحيان « ألمانيات » يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من « تقدمى » ، فيما يخيّل الىّ ، يستطيع أن يسيطر على نفسه ازاءهن

سيطرة كاملة وأن يكون مسئولاً عن سلوكه معهم • ان أحداً لم يعالج المسألة عندئذ من هذه الزاوية • ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد الذى يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجةً تتصف بالانصاف •

قال سفدرىجايلوف هذه الكلمات ، وعاد يضحك فجأة • واتضح لراسكولنيكوف أن الرجل يبيّت مشروعاً ثابتاً •

قال له راسكولنيكوف :

— أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام ، هه ؟

— هذا صحيح تقريباً • ماذا ؟ هل يدهشك أن ترانى ليّن الطبع ؟

— بل يدهشنى أن أراك مسرفاً فى لين الطبع ؟

— ألانى لم أستا من فظاظة أستلتك ؟ أهذا هو السبب ؟ ولكن علام أستاذ ؟

ثم أضاف سفدرىجايلوف يقول معبراً عن سذاجة تثير الاستغراب :

— أنت سألتنى ، وأنا أجبتك !

ثم تابع يقول وقد لاح فى وجهه التأمل :

— أنا لا أكاد أهتم بشيء • وفى هذه اللحظة خاصة ، لا يشغلنى أى شاغل • لك أن تظن أننى أسعى الى خطب ودك ، لا سيما وأن لى شأناً مع أختك ، كما سبق أن أعلنت لك ذلك • ولكننى أقول لك بصراحة اننى أشعر بضجر شديد وسأم قوى ، ولا سيما منذ ثلاثة أيام ، حتى لقد أحسست من لقائك بهجة ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتش اذا أنا

صارحتك بأنك تبدو لى غريباً غرابة رهيبة • لك أن تزعم ما تشاء ، ولكن فيك شيئاً ما ، ولا سيما فى هذه اللحظة ، ليس فى هذه اللحظة نفسها ، بل الآن على وجه عام ••• هياً ! سأكف عن الكلام ، سأكف عن الكلام ، لا تقطب حاجيك هكذا •• لست دباً الى الحد الذى تظن ••

- قد لا تكون دباً البتة ! بل انه ليدو لى أنك تنتمى الى مجتمع راق جداً ، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل ينتمى الى المجتمع الراقى •

أجاب سفدرىجايلوف يقول بلهجة جافة ، بل بلهجة فيها شيء من
التعالى :

- لا يهمنى رأى أحد ، لذلك لا يقلقنى أن أسلك سلوك لص • ولعل هذا هو الثوب الذى يسهل ارتداؤه أكثر مما يسهل ارتداء أى ثوب آخر فى أجوائنا ومناخنا ••• ولا سيما اذا كان بالمرء ميل طبيعى الى ذلك •••

أضاف سفدرىجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من
جديد •

- سمعت أنك تعرف ناساً كثيرين هنا • فلست بمن يمكن أن يسمى رجلاً « بغير علاقات » ، كما يقال ، فما مجيئك الى اذا لم يكن لك هدف محدّد !

استأنف سفدرىجايلوف كلامه ، فقال دون أن يجيب عن السؤال
الرئيسى :

- صدقت • اننى أعرف ناساً كثيرين • وقد التقيت حتى الآن بعدة

أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التي قضيتها هنا ، فتعرفتهم ، وتعرفوني فيما يخيّل الى * . اننى ارتدى ثياباً حسنة ، أليس كذلك ؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شيء . أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعى لم تمسنا بسوء * ولما كانت أملاكى غابات ومراعى فى الدرجة الأولى ، فالموارد مستمرة . . . ولكننى لن أذهب الى أولئك الناس . لقد كنت أضجر منهم حتى فى الماضى . . . وأنا منذ أخذت أطوف هنا ، لم أعقد صلةً بأحد . . . أهذه مدينة ؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة كهذه المدينة ؟ هلاًّ شرحت لى هذا ، من فضلك ! هى مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع ! حقاً ان أشياء كثيرة قد فاتتني حين كنت أنسكع هنا منذ ثمانى سنين . وقد أصبحت الآن لا أعود الا على التشريح ، شهد الله . . .

— أى تشريح ؟

— أما هذه النوادى ، وهذه المطاعم التى تسمى مطاعم دوسو *، وهذه الحلقات . . . أما جميع مشاريع التقدم هذه . . . ففى وسعها أن تستغنى عنى . ثم أية لذة يمكن أن يجدها المرء فى الغش ؟

كذلك تابع سفدرىجايلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذى ألقى عليه .

— هل كنت تغش أيضاً ؟

— كيف لا أغش ؟ كنا منذ ثمانى سنين جماعة من أناس محترمين نحاول أن نقلل الوقت ، وكنا — لاحظ هذا ! — على جانب عظيم من رقى الآداب . وكان بيننا شعراء ، ورؤساءليون . . . ان الناس الذين هم على جانب عظيم من رقى الآداب هم على وجه العموم ، عندنا ، فى مجتمعنا

الروسي ، أوغاد ... لا شك أنك لاحظت ذلك ، هه ؟ ومنذ آقيمت في الريف انما عزفت عن هذا • غير أنني قد أوشكت ، قبل ذلك الأوان ، أن أودع في السجن ، لديون علىّ ، وذلك بسبب يوناني صغير من نيجين * ، وفي ذلك الوقت انما ظهرت مارتا بترفونا ، فساومت ، ثم فدتني بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التي علىّ سبعين ألف روبل) • وتزوجنا زوجاً شرعياً • وسرعان ما أخذتني الى عندها في الريف ، كما يؤخذ كنز من الكنوز • كانت أكبر مني سنّاً بخمسة أعوام • وكانت تعجني كثيراً • لاحظت أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالى الذى وقته لاسم شخص آخر ، من أجل أن تستخدمه ضدى عند اللزوم ، بحيث تدمرنى متى حاولت أن أتحرك من تحت النير • أوه ! ما كانت لتتردد فى أن تفعل ذلك ! ان تناقضات كثيرة تعجّمع لدى النساء ، أليس كذلك ؟

- ولولا ذلك السند لكنت هربت ، هه ؟

- لا أعرف بماذا أجيبك • كان السند لا يضايقنى كثيراً • لم أكن أشتهى أن أذهب الى أى مكان • ومارتا بترفونا قد اقترحت علىّ السفر الى الخارج مرتين ، حين لاحظت ضجرى • ولكن علام السفر ؟ كنت قد سافرت الى الخارج قبل ذلك ، فلم أشعر هنالك بارتياح • ليس هذا هو الأمر تماماً ... ولكن كان ثمة شمس تشرق ، وكان ثمة خليج نابولي ، وكان ثمة البحر ... فكنت أنظر ، فأشعر بحزن شديد • والأنكى من هذا أن المرء يكون عندئذ حزينا حقاً • لا ، لا ، ان البقاء فى البلاد أفضل من ذلك • هنا على الأقل يستطيع المرء أن يهتم الآخرين بكل شيء ، وأن يرىء بذلك نفسه • قد أحب أن أسافر الآن راضياً الى القطب الشمالى ،

لأن « خمرتي فسدت » * ، فأصبحت أكره أن أشرب ، بينما الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله هو أن أشرب .. لقد جرّبت هذا .. بالمناسبة : يقال ان بيرج * سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد، وانه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر ، هل هذا صحيح ؟

— ماذا ؟ تسافر في منطاد ؟

— أنا ؟ لا ... وانما قلت هذا هكذا ...

كذلك جميعهم يقول سفديريجاييلوف ، كما لو كان يفكر في السؤال الملقى فعلاً .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « الى أين يريد أن يصل من هذا كله ؟ » .

وتابع سفديريجاييلوف كلامه فقال حالماً شارد الفكر :

— لا ، كان السند لا يزعمجني . فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف . ثم ان مارتا بتروفنا قد ردت الى السند منذ سنة تقريباً ، بمناسبة عيدى ، حتى لقد أضافت اليه مبلغاً محترماً . كانت تملك ثروة ، هه ؟ قالت لي : « هأنت ذا ترى مدى ثقتي بك يا آرКАДى ايفانوفتش » . أؤكد لك أن هذا ما قالته لي . لا شك في أنك لا تصدّق أن هذا ما قالته لي . اعترفْ بأنك لا تصدّق ! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً . وكنت معروفًا جداً في المنطقة . وكنت أستحضر كتباً ايضاً . شجعتنى مارتا بتروفنا على ذلك في أول الأمر ، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهدنى القراءة .

— يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارتا بتروفنا ، أليس كذلك ؟

- أنا ؟ ربما ! هذا جائز جداً • قل لى بالمناسبة : هل تؤمن بعودة الأرواح ؟

- أية أرواح ؟

- الأرواح العائدة • ما هذا السؤال ؟

- وأنت ، هل تؤمن بذلك ؟

- نعم ولا ، اذا شئت • أقصد اننى لا أؤمن بها تماماً ؟

- هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ألقى سفيديريجاييلوف على راسكولنيكوف نظرة خاصة • ثم قال له وقد انعقف فمه بإتسامة غريبة :

- ان مارتا بتروفنا لا يفوتها أن تزورنى •

- كيف ؟ تزورك ؟

- نعم ، زارتنى حتى الآن ثلاث مرات • فأما المرة الأولى ففى يوم دفنها نفسه ، عشية رحيلى ، بعد العودة من المقبرة بساعة • وأما المرة الثانية فأمس الأول ، أثناء السفر ، قبيل طلوع الصباح ، فى محطة مالايا فيشيرا * • وأما المرة الثالثة ، فمنذ ساعتين ، فى مسكنى ، فى الغرفة التى أقيم بها • كنت وحدى •

- وكنت ••••• يقطاً ؟

- يقطاً كل اليقظة • ولقد كنت يقطاً فى المرات الثلاث جميعاً •
تأتى ، فتكلمنى دقيقة ، ثم تنصرف خارجة من الباب • حتى ليخيّل الى
أننى أسمع خطواتها •

قال راسكولنيكوف فجأة :

- لماذا كنت أقدرّ أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شىء من هذا

القبيل ؟

ثم دُهِش من أنه قال هذا الكلام •
كان راسكولنيكوف منفعلًا انفعاليًا شديدًا • سأله سفديريجايلوف
مذهولًا :

— ح • • قَمًا ؟ كنت تقدّر ذلك ؟ حقًا ؟ ألم أقل لك ان بيننا شيئًا
مُشترَكًا ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

— لم تقل لى شيئًا من ذلك قط !

— ألم أقل لك ذلك ؟

— لا !

— غريب • خيّل الىّ أنني قلته لك • منذ قليل ، حين دخلت
عليك ، فرأيتك مضطجعًا مغمضًا عينيك متظاهرًا بالنوم ، قلت لنفسى
فوراً : « هذا هو ! هذا هو بعينه » •

صاح راسكولنيكوف يسأله :

— ماذا تقصد بقولك : « هذا هو بعينه » ؟

— ماذا أقصد ؟ بصراحة : لا أدري !

بهذا أجاب سفديريجايلوف متممًا ، مرتبكًا ارتباكًا صادقًا •

وساد الصمت دقيقة • وكان كل من الرجلين ينظر فى عينى الآخر؟

هتف راسكولنيكوف يقول غاضبًا :

— ذلك كله سخف • وماذا تقول لك حين تزورك ؟

— هى ؟ تصوّر أنها تكلمنى فى أتفه السفاسف • والاسنان يبلغ

من غرابة الطبع أن هذا بعينه هو ما يفضبنى • حين زارتنى فى المرة

الأولى ، كنت متعبًا كما تعلم : القداس ، صلاة الجنازة ، الموكب ، المأدبة •

وكنت وحيداً فى حجرة مكتبى ، وكنت أدخن سيجاراً • ها هى ذى

تدخل ، فتقول لى : « أَسبب هذه المشاكل كلها اذن انما نسيتَ يا آر كادى
ايفانوفتش أن تعبى اليوم ساعة الجدار فى المطبخ ؟ » وكنت أنا الذى
أتولى تعبئة ساعة الجدار تلك فى كل أسبوع فعلاً ، منذ سبع سنين ، فاذا
نسيت أن أفعل ذلك ، ذكرتني به . وفى الغد ، كنت فى طريقى الى هنا .
ودخل القطار ، عند الفجر ، الى محطة من المحطات . كنت محطماً من
التعب . وكانت عيناى محتقتين من شدة النعاس ، لأننى لم أكن قد نمت
تقريباً طوال الليل . أمرت لنفسى بفنجان شاي . وهأنا ذا أرى مارتا
بتروفا تجلس الى جانبى وفى يديها ورق لعب . قالت لى : « هل تحب ،
يا آر كادى ايفانوفتش ، أن تعرف مايقوله ورق اللعب فى أمر سفرك ؟ »
كانت مارتا بتروفا خيرة جداً فى فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب . لن
أغفر لنفسى ما حييت اننى لم أقبل اقتراحها . لقد هربت مذعوراً .
صحيح أن الجرس قد رنَّ فى تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار . واليوم ،
بينما كنت جالساً أشعر بثقل فى معدتى بعد غداء ردىء جىء الىَّ به من
المطعم ، وفيما أنا أدخن سيجاراً - اننى ما ان أجلس حتى أدخن -
دخلت علىَّ مارتا بتروفا على حين بغتة ، متزينة بأجمل زينة ، مرتدية
ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً ، وقالت لى : « يومك
سعيد يا آر كادى ايفانوفتش ! هل ثوبى الجديد يوافق ذوقك ؟ ما كان
لآيسكا أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب » . (آيسكا * خياطة فى القرية
كانت فى الماضى من الأثنان وقد تعلمت الحياطة بموسكو ، فتاة حلوة
جداً) . وأخذت مارتا تبختر أمامى . أنعمت النظر فى ثوبها ، وتفرست
فيها بانتباه ، وجهاً لوجه ، ثم قلت لها : « حقاً لا داعى يا مارتا بتروفا ،
الى أن تكلفى نفسك غناء المجرىء الىَّ لتحديثنى فى مثل هذه الترهات ! »
فقلت لى : « آه ! آه ! آه ! رباة !... هل صار حراماً علىَّ حتى أن
أزعجك ؟ » ، فقلت لها عندئذ لأغيطها : « أريد يا مارتا بتروفا أن أتزوج

مرة ثانية ، فقالت لى : « هذا شأنك أنت يا آر كادى ايفانوفتش • ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانية بعد دفن زوجتك فوراً • وهبك اخترت اختياراً موفقاً ، فإن الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هى ، وستكونان أضحوكة الشرفاء من الناس ، هذا كل شئ ! » • قالت ذلك ثم خرجت حتى لكأننى كنت أسمع حفيف ذيل ثوبها • سخف ، أليس كذلك ؟

سأله راسكولنيكوف :

- قل لى : أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً ؟

فأجابه سيفدريجايلوف شارداً الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال :

- يندر أن أكذب •

- وقبل ذلك ، هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

- مرة واحدة فى حياتى ، منذ ست سنين • كان عندى خادم اسمه فيلكا • * فما ان تمّ دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً : « يا فيلكا ، هات غليونى ! » • فإذا هو يدخل ، فيمضى قدماً الى الخزانة التى كانت تُصَفُّ فيها غلايينى • كنت جالساً فقلت لنفسى : « هو يفعل ذلك لينتقم منى » • ان مشاجرة عنيفة كانت قد شبت بينى وبينه قبل موته بقليل • قلت له : « كيف تجرؤ أن تمثل أمامى بكمٍ مثقوبة عند الكوع ؟ اخرج من هنا أيها الحقير ! » • فاستدار على عقبيه ، وخرج ، ثم لم يرجع بعد ذلك قط ! لم أقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لمارتا بتروفنا • أردت فى لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه ، ولكننى ترددت بعد ذلك •

- هلم استشر طبيباً !

- لست فى حاجة اليك حتى أعلم أننى مريض ، وان أكن لا أعرف

ما هو مرضى حقاً • وفى رأى أن صحتى خير من صحتك خمس مرات •

أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وإنما سألتك هل تؤمن
أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة *

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب :

- لا ، لا يمكن أن أؤمن بوجودها في حال من الأحوال !

جمعهم سفيدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه ، وهو ينظر الى

جانب ، مائل الرأس قليلاً :

- ماذا يقال لك عادة ؟ يقال لك : « أنت مريض ، وكل ما تراه

اذن ليس الا نتيجة هذيانك » * ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم *

أنا أسلّم بأن الرؤى لا تظهر الا للمرضى ، ولكن هذا يبرهن على أن

الرؤى لا يمكن أن تظهر الا للمرضى ، دون أن يبرهن على أن الرؤى

لا وجود لها في ذاتها *

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً :

- لا وجود لها حتماً !

فتابع سفيدريجايلوف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو

راسكولنيكوف ببطء :

- لا ؟ أنت تؤمن بأنها لا وجود لها ؟ ولكن اذا فكّرنا في الأمر

على النحو التالي (ساعدي ، من فضلك) : الأرواح العائدة أجزاء من

عوالم أخرى هي بداية هذه العوالم ان صح التعبير * والانسان السليم

المعافي ليس في حاجة بطبيعته الى أن يراها ، لأن الانسان السليم المعافي

ينتمي الى هذه الحياة الدنيا كل قبل كل شيء ، وعليه اذن أن يحيا هذه

الحياة الأرضية وحدها ، في سبيل النظام والانسجام * ولكن ما ان يمرض

هذا الانسان ، ما ان يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلى

على الفور امكانية عالم آخر ، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك

العالم الآخر ، فإذا مات انتقل الى ذلك العالم الآخر رأساً • « • اننى
أجرى هذا التفكير منذ زمان طويل • فإذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة ،
كان فى إمكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذى أجريه •
قال راسكولنيكوف :

— أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة •

وظل سيفدريجايلوف حالماً شاردا الفكر • ثم قال فجأة :
— هه ! ... ماذا اذا لم يكن فى الحياة الآخرة الا عناكب أو أشياء
من هذا القيل ؟! ...

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه مجنون ! » •
وتابع سيفدريجايلوف كلامه :

— نحن تصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها ،
على أنها شيء ضخم ، ضخم ! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة ؟
تصور فجأة أنه ليس هناك ، بدلاً من هذا كله ، الا حجرة صغيرة ،
الاشياء يشبه حماماً فى قرية ، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب فى جميع
أركانها ، وتصور أن هذا هو الأبدية كلها • أنا مثلاً انما تبدو لى
الأبدية فى هذه الصورة أحياناً •

صاح راسكولنيكوف يقول منزعجاً :

— هل يمكن ، هل يمكن حقاً أن لا يكون فى ذهنك تصور أبعث
على العزاء وأقرب الى الصدق ؟

أجاب سيفدريجايلوف وهو يبتسم ابتسامة غير محددة :

— أقرب الى الصدق ! هل تعلم ؟ لو كان الأمر بيدى لصنعت الأمور
على هذا النحو نفسه ! ...

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجئ، يسرى في جسمه .

ورفع سفيدريجايلوف رأسه ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، ثم انفجر ضاحكاً ، وهتف يقول :

- لا ، لا ، ان أمرنا لعجيب حقاً ! منذ نصف ساعة فقط ، لم تكن قد التقينا بعد ، وكنا نعد نفسينا عدوين + وبيننا ، عدا ذلك ، مسألة لم نخرجها الى النور بعد ، ومع هذا تركناها واسترسلنا في هذا النوع الغريب من الأدب . هل كذبت عليك حين قلت لك اننا ثمرتا أرض واحدة ؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة :

- من فضلك : قل ما تريد أن تقوله بغير إبطاء ، واذكر لي السبب الذي دفعتك الى تشريفي بهذه الزيارة ... ذلك أنني ... مستعجل ... يجب أن أخرج ...

- طيب ، طيب ... ان أختك آفدوتيا رومانوفنا ستزوج السيد لوجين ، السيد بطرس بتروفتش لوجين ، أليس كذلك ؟

- ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختي ، وأن لا تذكر اسمها ؟ اننى لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضورى ، اذا صحّ أنك أنت سفيدريجايلوف حقاً !

- ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث في أمرها ؟

- طيب . تكلم . ولكن أسرع !

- أنا على يقين من أنك قد كوَّنت رأياً في السيد لوجين (الذى يمت الى بقرى مصاهرة) ، اذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة ،

أو كنت قد جمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة • هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا • فى رأى أن آفدوتيا رومانوفنا انما تضحى فى هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة فى سبيل ••• فى سبيل أسرتها • لقد بدا لى ، بعد كل ما سمعته عنك ، أنك ، من جهتك ، سيسرك كثيراً أن لا يتم هذا الزواج ، شريطة أن لا يُساء الى أختك • وأنا الآن ، بعد أن عرفتكَ شخصياً ، مقتنع بهذا أكثر من اقتناعى به فى أى وقت مضى • قال راسكولنيكوف :

— هذا كله سذاجة من جانبك ••• معذرة ••• أردت أن أقول ان هذا كله وقاحة من جانبك •

— هل تقصد بذلك أننى أدافع عن مصلحتى ؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش ! لو كنت أتكلم فى سبيل مصلحتى ، لما كنت صريحاً هذه الصراحة ، فما أنا غبى غباوة كاملة على كل حال • بالمناسبة : سأكشف لك عن أمر سيكولوجى غريب ! منذ قليل ، حين كنت أهرّز الحب الذى أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسى اننى أنا ضحية • ألا فاعلم أننى لا أشعر الآن بأى حب ، لا أشعر الآن بأى حب البتة ، حتى اننى استغرب أنا نفسى كيف شعرت فى الماضى فعلاً •••

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً :

— مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ ، وما فطرت عليه من فسق

وغير •••

— حقاً ! أنا رجل عاطل داعر • ولكن أختك ، من جهة أخرى ، لها من المزايا والحسنات ما جعلنى لا أستطيع أنا نفسى أن أمتنع عن أن أتأثر ببعض التأثير ••• ولكن ذلك كله لم يكن الا لغواً وعبثاً ••• أنا أدرك هذا الآن •

- وهل تدركه منذ مدة طويلة ؟

- بدأت أدركه منذ بعض الوقت ، ولكننى لم أقتنع به اقتناعاً مطلقاً
الا أمس الأول ، تقريباً فى نفس الدقيقة التى وصلت فيها الى بطرسبرج.
وحتى فى موسكو كنت ما أزال أتصور أننى آتٍ من أجل أن أخطب
آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسى منافساً للسيد لوجين .

- اغفر لى مقاطعتك *** ولكن أرجوك *** رحماك *** ألا
تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً الى الكلام عن الغرض من زيارتك ؟
اننى مستعجل *** يجب أن أخرج .

- بكل سرور . حين وصلت الى هنا عازماً على القيام *** برحلة ،
أردت أولاً أن أتخذ بعض الاجراءات . لقد أبقيت أولادى عند خالتهم .
وهم أغنياء لا حاجة بهم الى . . . وأى أب أنا لهم على كل حال ؟ لم أحمل
معى الا المال الذى أهدته الى مارتا بتروفنا منذ سنة . هذا يكفينى .
معذرة ، اننى أصل الى الوقائع بسرعة شديدة . اننى قبل سفرى الذى
قد يتم على كل حال ، أريد أن أفرغ من السيد لوجين . ليس يعنى
هذا أننى أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة ، ولكنه هو السبب
فى الشجار الذى وقع بينى وبين مارتا بتروفنا ، حين علمت أنها
دبّرت أمر هذا الزواج . اننى أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا
بواسطتك ، وبحضورك اذا شئت ، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير
يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين ، بل وأن هناك شروراً كبيرة يجب أن
توقعها منه ؛ وأن أطلب منها ثانياً ، بعد التماس غفرانها عن المتاعب التى
سببتها لها ، أن تأذن لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فى سبيل أن
أسهّل لها القطيعة مع السيد لوجين ، وهى قطيعة أحسب أنها لن تسوءها
اذا هى تصورت امكانها .

صاح راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه :

— ألا انك لمجنون فعلاً ، ألا انك لمجنون فعلاً • كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام ؟

— كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة • ولكننى أحب أن أقول لك أولاً اننى على كونى لا أملك ثراءً كبيراً ، أستطيع التصرف فى هذه العشرة آلاف روبل • بتعبير آخر : ان هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذى لا غنى لى عنه ، فاذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنا ، فسأنفقه انفاقاً أشد غباوة وحماقة • هذه أولى • وأما الثانية فهى أن ضميرى مرتاح كل الارتياح : اننى أقدم هذا المال دون أى حساب • صدق أو لا تصدق ، ولكنكما ، أنت وآفدوتيا رومانوفنا ، ستدركان هذا فيما بعد • الحقيقة أننى سببت بعض المتاعب وبعض الازعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة ، واذ كنت أشعر بندامة صادقة وأعانى من عذاب الضمير ، فأننى أرغب من كل قلبى لا أن أكفّر عن خطيئتى ، فأقدم لأختك تمويضاً مالياً ، بل أن أكون ، بكل بساطة ، نافعاً لها فى أمر من الأمور على نحو من الأنحاء ، لأننى على كل حال لست بالإنسان الذى لا يمتاز الا باقتراف الشر • ولو كان فى عرضى هذا جزء من مليون جزء من حساب ، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها • ثم اننى ما كان لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فحسب ، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع • أضف الى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج احدى الفتيات فى وقت قريب كل القرب ، وهذا ينفى عنى كل شبهة فى اضممار أى شر لآفدوتيا رومانوفنا • وأقول فى الختام ان آفدوتيا رومانوفنا ، اذا هى تزوجت السيد لوجين ، ستقتضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتش ••• بل احكم على الأمر بنفسك فى هدوء وسكينة •

وكان سفيدريجايلوف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، هادئاً كل الهدوء ، ساكناً كل السكينة .

قال راسكولنيكوف :

- أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام ، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال زاحر بوقاحة لا تغتفر .

- أبدأ . من يسمعك يظن أن الانسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الانسان الا شراً في هذا العالم الأرضي ، وأنه لا يجوز أن يفعل له أى خير ، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة . ألا ان هذا المضحك حقاً . هل اذا مت مثلاً ، فأورثت أختك الصغيرة فى وصيتى هذا المبلغ نفسه ، هل ترفض أختك قبوله حتى فى هذه الحالة ؟

- جائز جداً أن ترفضه .

- لا ! ودعنا من هذا على كل حال . المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جليل ! ومهما يكن من أمر ، فانتى أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث .

- لا ، لن أطلعها عليه .

- فى هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتش أن أسعى بنفسى الى الحصول على موعد منها ، وقد يزعجها هذا .

- واذا أطلعتها على هذا الحديث ، ألن تسعى بنفسك الى الحصول على هذا الموعد ؟

- لا أدري بماذا أجيبك . اننى أود كثيراً أن أراها مرة .

- لا تعوّل على هذا !

- خسارة . على أنك لا تعرفنى . أفليس من الجائز أن تتوقع العلاقات بيننا ؟

— أأنت تظن حقاً ان العلاقات بيننا قد تتونق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

— لم لا ؟ ليس معنى هذا أننى أحرص هذا الحرص كله على أن
أزعجك هنا ... حتى اننى لم أكن أعوّل على أن ... رغم أن هيئتك
قد لفتت نظرى كثيراً فى هذا الصباح ...

سأله راسكولنيكوف فى قلق :

— أين رأيتنى فى هذا الصباح ؟

— رأيته بمحض مصادفة ! ما يزال يخيّل الىّ أن فيك شيئاً قريباً
منى كل القرب • ولكن لا تقلق أى قلق ، ما أنا بالرجل المزعج : لقد
استطعت أن أتفاهم مع غشاشين ؟ ولم أضجر الأمير سفرباى الذى يمت
الىّ بقربى بعيدة والذى هو سيد من كبار السادة ؟ وتسنى لى أن أكتب
فى « ألبوم » مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن « مادونا » رافائيل * وعشت
سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارتا بتروفنا ؟ وقضيت قبل ذلك لىالى
بكاملها فى عمارة فيازمسكى * بميدان « سوق العلف » ؛ وقد أظير بالمنطاد
مع بيرج ...

— رائع • فاسمح لى الآن أن أسألك أأنت تزمع القيام برحلتك
قريباً ؟

— أى رحلة ؟

— عجيب ! الرحلة التى حدثتنى عنها منذ قليل •

— رحلة ؟ آ ... نعم ... رحلة ... فعلاً ... لقد حدثتك عن
رحلة ... ولكن هذه مسألة واسعة جداً ... لیتك تعرف عن أى شىء
تسألنى !

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة • ثم أردف :

- قد أنزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة : هناك خطيبة تُقترح
عليّ •

- هنا ؟

- نعم •

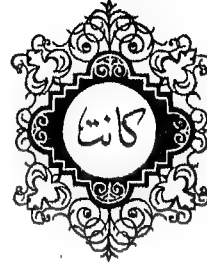
- متى اتسع وقتك لأن •••

- أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا • اننى
أسألك جاداً أن تؤدى لى هذه الخدمة • هيّا ••• الى اللقاء مرة أخرى •
آ ••• نسيت ••• قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش ان مارتا
بتروفنا قد أورثتها فى وصيتها ثلاثة آلاف روبل • هذه هى الحقيقة
دقيقة • لقد اتخذت مارتا بتروفنا هذه الاجراءات قبل موتها بأسبوع •
اتخذتها بحضورى • وفى وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ
فى غضون أسبوعين أو ثلاثة •

- تقول ••• هذه هى الحقيقة ؟

- نعم هذه هى الحقيقة • أرجوك أن تبلغها اياها • هيّا ••• الى
اللقاء مرة أخرى • هل تعلم أننى أسكن قريباً جداً منك ؟
قال سفيدريجاييلوف ذلك واتجه نحو الباب ؛ وفيما هو يجتاز
العتبة ، التقى برازوميخين !

الفصل الثاني



الساعة قريبة من الثامنة : أسرع الاثنان نحو
عمارة باكاليف ليصلا قبل لوجين •
وسأل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا في
الشارع :

— قل لى : من ذلك الرجل ؟

— هو سفيدريجايلوف ، ذلك الملاك الذى أهنت أختى فى منزله
حين كانت تعمل عنده مربية • وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحظاته
الغرامية : طردتها زوجته مارتا بتروفنا • ومارتا بتروفنا هذه قد اعتذرت
لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة ؛ وعنهما انما كان يجرى
الحديث منذ قليل • لا أدري لماذا أنا خائف من هذا الرجل • لقد وصل
الى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً • هو رجل غريب جداً ؛ يخيّل الى
أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة • لكأنه يعرف شيئاً ما ••• يجب
أن نحصى دونيا منه ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك ، هل تسمع ؟

— نحميها منه ؟ ولكن أى أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل
بأفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، أشكر لك يا روديا أنك تقول لى هذا
الكلام • لسوف نحميها • أين يسكن ؟

— لا أدري •

- لماذا لم تسأله ؟ خسارة ! سأعرف ذلك على كل حال *
- سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت :
- هل رأيته ؟
- طبعاً * لاحظته ، لاحظته جيداً *
- وألح راسكولنيكوف سائلاً :
- هل رأيته رؤية واضحة ، مميزة ؟
- نعم ، وأتذكره تذكراً واضحاً مميزاً . لو رأيته بين ألف شخص لعرفته * اننى أملك ذاكرة الوجوه *
- وصمتا من جديد *
- وجمعهم راسكولنيكوف يقول :
- هم ... ذلك أننى ... ذلك أننى ... هل تعلم ؟ لولا ذلك ... لكان يمكن أن أظن ... ما أزال أظن ... أن ذلك لم يكن الا أضغاث أحلام *
- عمّ تتكلم ؟ لست أفهم بوضوح *
- تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوى فمه بابتسامة :
- اسمع : لما كنتم تقولون جميعاً اننى مجنون ، فقد تصورت منذ قليل اننى قد أكون مجنوناً بالفعل ، وأن ما رأيته لم يكن الا شبحاً *
- ما هذا الذى تقوله ؟
- من يدري ؟ لعلنى مجنون مع ذلك ، ولعل كل ما جرى فى الآونة الأخيرة انما جرى فى خيالى وحده !
- روديا ! هل شوشوا عقلك من جديد ؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل ؟ لماذا جاء ؟

لم يجب راسكولنيكوف • وفكّر رازومихين لحظة • ثم بدأ يتكلم فقال :

- طيب ، اسمع تقريرى : لقد جئت اليك ، فوجدتك نائماً • ثم تغدينا ، ثم ذهبت الى بورفير • كان زاميتوف عنده • أردت أن أبدأ الحديث ، ولكن ذلك لم يشر • لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم • لم يفهما شيئاً ؟ كانا لا نستطيعان أن يفهما شيئاً ؟ ولكنهما لم يظهرا أى ارتباك • جذبت بورفير الى النافذة وأخذت أتكلم ، ولكن هذا لم يشر أيضاً • كنت أنظر الى جهة ، وكان هو ينظر الى جهة أخرى • وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت بوزه ، وقلت له اننى سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية • فلم يزد على أن نظر الى • عندئذ بصقت على الأرض ، وانصرفت • هذا كل شيء • ما أغبى هذا كله ! أما زاميتوف فلم أبادله كلمة واحدة • ومع ذلك اعتقدت أننى أفسدت الأمر كله ، الى أن تراءت لى فجأة ، وأنا أهبط السلم ، فكرة وضعت بلسماً على قلبي • قلت لنفسى : لماذا نصدّع رأسينا ، أنا وأنت ؟ لو كان هناك خطر يتهددك ، لو كان هناك شيء حقاً ، لما قلت كلمة واحدة • ولكنك لا شأن لك فى هذا الأمر كله • ما شأنك أنت وهذا الأمر ؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر • فما عليك اذن الا أن تستخف بهم ، أن تبصق عليهم • ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزئ بهم • لو كنت فى مكانك لأخذت أضللهم وأغرّر بهم ! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد ! ابصق على هذا الأمر كله ، لماذا لا تبصق عليه ؟ قد نستطيع فى المستقبل أن نضربهم أيضاً • ولكن فلنضحك الى أن يحين ذلك الحين !

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- طبعاً ، طبعاً !

ولكنه قال بينه وبين نفسه : « ما عساك قائلًا في الغد ؟ » •

شيء غريب : ان راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن « ما عسى يفكر فيه رازومихين حين يعلم الحقيقة » • فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدّق الى صديقه بنظرة ثابتة • أما ما رواه له رازومихين عن زيارته لبورفير فانه لم يهتم به كثيراً : ان أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة !•••

وفيما كانا يعبران الدهليز الثقيل بلوجين • لقد وصل لوجين في الساعة الثامنة تماماً ، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدى الى الغرفة ، وها هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً ، ولكن دون أن ينظر أحد منهم الى أحد ، ودون أن يحيى أحد منهم أحداً • دخل الشابان أولاً ، وتلبث بطرس بتروفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللبابة ، وخلع هنالك معطفه • وتقدمت بولشيريا ألكسندروفنا الى لقاءه عند عتبة الغرفة فوراً • وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحيي أخاها •

دخل بطرس بتروفتش ، وسلم على السيدتين بلطف ومودة ، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء • على أنه كان يبدو مرتبكاً بعض الارتباك ، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد • وأسرت بولشيريا ألكسندروفنا التي كانت تبدو مرتبكة هي أيضاً ، أسرعت تجلس الجمع كله حول المائدة المستديرة التي كان عليها سماور يغلي ماؤه • فكان مكانا دونيا ولوجين متقابلين ، وكان مكانا رازومихين وراسكولنيكوف أمام بولشيريا الكسندروفنا ، فأما رازومихين فالى جانب لوجين ، وأما راسكولنيكوف فالى جانب أخته •

خيم الصمت برهة من الوقت • وأخرج بطرس بتروفتش من حفيه ، بغير تعجل ، مندبلاً من قماش الباتيسه تفوح منه روائح عطر ، وتمخط كما يتمخط رجل يحس أن كرامته قد أهنت ، فهو عازم لذلك

على أن يطالب بايضاحات ، ولكنه ظل محافظاً على بشاشة هيئته • كان قد خطر بباله وهو فى حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه ، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية ، وليفهمهما الوضع كله • ولكن لم يعزم أمره على انفاذ هذه الفكرة التى خطرت بباله • ثم ان هذا الرجل يكره الأمور التى يعوزها اليقين الثابت ، وهناك نقطة لا بد من ايضاحها : لئن خالفت هاتان السيدتان أوامره صراحةً ، فلا بد أن هناك سبباً دعا الى ذلك ، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة ، وفى وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب •

قال يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة رسمية :

— أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة •

— نحمد الله يا بطرس بتروفتش !

— يسرنى أن أعرف هذا • ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً ؟

أجابت دونيا قائلة :

— أنا شابة وقوية فلا أتعب • أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة •

— ما العمل ؟ ان طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة • ان « أمانا روسيا » كما يقال ، واسعة كثيراً ••• أما أنا فأننى ، رغم رغبى القوية ، لم أستطع أن آتى الى المحطة لاستقبالكما • آمل مع ذلك أن يكون كل شئ قد تمّ بدون مزعجات •

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بنبرة خاصة :

— لا يا بطرس بتروفتش ! لقد لقينا مزعجات كثيرة ، وشعرنا

بضيق شديد • ولولا أن الله أرسل إلينا بدمترى بروكوفتش بالأمس ، اذن لضئنا •

ثم أضافت تعرفّ لوجين بدمترى بروكوفتش :

• - هذا دمترى بروكوفتش •

فدمدم لوجين يقول وهو يلقي على رازوميجين نظرة موارد خالية
من المودة :

• ولكن *** سبق لى أن سُرتت *** أمس ***

• ثم قطب حاجبيه وصمت •

نستطيع أن نصف بطرس بتروفتش على وجه العموم بقولنا انه
ينتمى الى تلك الفئة من الناس التى تبدو فى المجتمع لطيفة ودوداً ، أو
قل تبدو متطلعة الى اللطف والمودة ، ولكن ما ان يسؤها شئ حتى تفقد
على الفور وسائلها ، فاذا هى تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه
فرساناً مرحين يزخرون نشاطاً ويحفظون باعتبار الناس عامة •

وساد صمت شامل من جديد • فراسكولنيكوف مصرّ على السكوت
أصراراً عنيداً ، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة
المناسبة ، ورازوميجين ليس عنده ما يقوله • وهكذا شعرت بولشيريا
ألكسندروفنا بنذر الخطر • فلهجأت الى آخر ما تملك من موارد ، فبادرت
تقول :

• مانت مارتا بتروفتنا ، هل تعرف هذا ؟

• أعرفه طبعاً • علمت به منذ أخذت تسرى الشائعة *** وأزيدك
علماً فأقول ان آرКАДى ايفانوفتش سيفيدريجايلوف قد أسرع يجىء الى
بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً • هذه هى على كل حال الأخبار
الدقيقة التى وصلتنى •

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق ، وهى تبادل أمها نظرة
سريعة :

• الى بطرسبرج ؟ الى هنا ؟



بترس بتروفتش لوجين

- نعم • ولا شك فى أن له نيات يضمورها ، اذا نحن نظرنا الى
استعجاله السفر ، والى الأحداث التى سبقت هذا السفر على وجه العموم •
صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- رباه ! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحة هنا أيضاً ؟
- يخيّل الى أنكما يجب أن لا تبالغا فى القلق ، لا أنت ولا آفدوتيا
رومانوفنا ، على شرط أن ترغبا طبعاً فى أن تتحاشيا كل صلة به • أما أنا
فسأكون يقظاً ساهراً ، وسأبادر منذ الآن الى استطلاع محل سكناه •
وتابعت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت :

- آه يا بطرس بتروفتش ! انك لا تعرف مدى ما أحدثته فى نفسى
من خوف ورعب • اننى لم أره فى حياتى الا مرتين ، ولكنه بدا لى
مريعاً ، مريعاً ! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارتا بتروفنا !

- يصعب القطع برأى فيما يتعلق بهذه النقطة • أنا أملك معلومات
دقيقة محدّدة • لست أنكر أنه قد عجزل مجرى الأمور بما أحدثته
الاهانة فيها من أثر نفسى ان صح التعبير • أما عن سلوك الرجل وعن
أخلاقه عامة فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • لا أدرى هل أصبح
الآن غنياً ، ولا أدرى كم أورثته مارتا بتروفنا على وجه الدقة ، ولكننى
سأعرف هذا بعد مدة لن تطول • ومهما يكن من أمر ، فمما لا شك فيه
أنه ، وقد أصبح يملك مالا ، سوف يستأنف فوراً ، هنا ببطرسبرج ،
طراز الحياة التى كان يعيشها فى الماضى • هذا انسان هو أكثر أشباهه
احلال خلقى ، وفساد طبع • وهناك أسباب قوية تدعونى الى الاعتقاد بأن
مارتا بتروفنا التى شاء سوء حظها أن تُفتتن به وأن تحرره من ديونه منذ
ثمانى سنين ، قد خدمته فى ميادين أخرى : فبفضل جهودها وحدها ،
وبفضل تضحياتها انما استطاعت أن تخلق فى المهة قضيةً اجرامية وحشية

فضيحة كان يمكن أن تؤدي به الى سيريا • ذلك هو هذا الرجل اذا كنت
تحرصين على معرفته !

صاحت بولشيريا ألكسندروفا تقول :

- آه ! رباه !

وكان راسكولنيكوف يصغى بانتباه •

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة :

- هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك ؟

- أنا انما أكرر ما سمعته بنفسى من فم المرحومة مارتا بتروفنا
مختوماً بخاتم السر • يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة
النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً • فى ذلك الوقت كانت تعيش
هنا - ويظهر أنها ما تزال تعيش الى الآن - سيدة أجنبية اسمها ريسليش،
وهى مرايية صغيرة لها عدا ذلك أعمال أخرى • ولقد كان السيد
سفيدريجايلوف على صلات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل •
وكانت تعيش معها فتاة تمت اليها بقرابة بعيدة ، فتاة صغيرة فى الخامسة
عشرة من عمرها أو فى الرابعة عشرة ، كانت صماء خرساء ، وكانت
السيدة ريسليش تمحضها كرهاً لا حدود له ، وتلومها على كل لقمة خبز
تأكلها ، حتى لقد كانت تضربها ضرباً خالياً من أية شفقة انسانية • وفى
ذات يوم وُجدت الفتاة مشنوقة فى الطابق الذى يقع تحت سقف المنزل •
وقد انتهى التحقيق الى أن الفتاة ماثت منتحرة ، فطويت القضية بعد اتمام
الاجراءات المعتادة • غير أن وشاية جاءت بعد ذلك تقول ان الطفلة قد
اعتدى عليها السيد سفيدريجايلوف اعتداء مشيناً قاسياً • صحيح أن هذا
كله ظل يكتنفه الغموض ، فان الوشاية قد صدرت عن ألمانية أخرى هى
امرأة سيئة السمعة لاتوحى بأية ثقة • ولم تتبع ذلك أية اجراءات : ففضل

جهود مارتا بتروفا وبفضل مالها بقى كل شىء فى حدود الشائعة • غير أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة • ولا شك أنك سمعت يا آفدوتيا رومانوفنا ، حين كنت عندهم ، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات منذ ست سنين على أثر معاملات سيئة ، فى العهد الذى كانت فيه القناة ما تزال قائمة •

— بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً •
— تماماً ، ولكنه أجبر على الانتحار ، أو قولى دفع اليه ، بتأثير نظام الازعاجات والاضطهادات التى كان يمارسها السيد سفيدريجاييلوف •
قالت دونيا بخشونة :

— لم أكن أعرف ذلك • ولكننى سمعت قصة غريبة جداً تروى أن فيليب هذا كان فتي مصاباً بمرض الوسواس ، وأنه كان نوعاً من فيلسوف قابع فى البيت • كان الناس يقولون عنه ان قراءاته هى التى ذهبت بعقله ، وانه انتحر هرباً من سخریات السيد سفيدريجاييلوف ، لا من ضرباته • ومهما يكن من أمر فان السيد سفيدريجاييلوف ، كان طوال مدة اقامتى عندهم ، يعامل الخدم بحضورى معاملة حسنة ، حتى لقد كان هؤلاء يجبنونه ، رغم أنهم يتهمونونه فى الواقع بأنه كان السبب فى موت فيليب •

قال لوجين وهو يلوى فمه بابتسامة ملتبسة المعنى :
— أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة الى التسامح • هذا رجل مكر فعلاً ، وهو الى ذلك مغرور داعر • أليست مارتا بتروفا ، التى مانت تلك الميتة الغريبة ، دليلاً محزوناً على ذلك ؟ أنا انما أردت أن أساعدكما بنصائحى ، أنت وأملك ، لأننى أتبأ بمحاولات جديدة سيقوم بها وأتتما تجهلانها • وانى من جهتى لعل اقتناع جازم بأن

هذا الرجل سيودع فى السجن يوماً من الأيام بسبب ديون • ان مارتا بتروفا التى كانت لا تفكر الا فى اولادها لم يكن فى نيتها حتماً ، فى يوم من الأيام ، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها ، واذا أورثته شيئاً مع ذلك ، فان هذا الميراث لا يمكن أن يكون الا مبلغاً زهيداً « عارضاً » ، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفى صاحبه الذى عُرِفَ بعادات خاصة الا سنة واحدة فى أكثر تقدير •

قالت دونيا :

— بطرس بتروفتشى، أرجوك، لا تتكلمن عن السيد سفيدريجايلوف!
ان الكلام عنه يؤلمنى •

وقال راسكولنيكوف فجأة ، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة :
— جاء الىّ منذ قليل •

فاذا بصيحات التعجب تتعالى فى جميع الجهات ، واذا بجميع الوجوه تلتفت اليه • وانفعل حتى بطرس بتروفتشى •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

— جاء الىّ منذ ساعة ونصف ، بينما كنت ما أزال نائماً • دخل ، فأيقظنى ، وعرفنى بنفسه • كان منطلقاً مرحاً ، وكان يأمل جازماً أن تتعقد بينى وبينه صلات • وقد ألحّ خاصةً على أن يلقاك يا دونيا ، وطلب منى أن أكون وسيطاً له فى تهية هذا اللقاء • هناك عرض يريد أن يبسطه لك • وقد ذكر لى ما هو هذا العرض • ومن جهة أخرى أبلغنى رسمياً أن مارتا بتروفا قد اتسع وقتها ، قبل وفاتها بشمانية أيام ، أن تورثك فى وصيتها ثلاثة آلاف روبل ، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا فى أقرب فرصة •

هتف بولشيريا الكسندروفنا تقول وهى ترسم اشارة الصليب :

— الحمد لله ! صلىّ لها يا دونيا صلىّ لها !

قال لوجين :

— هذا صحيح •

وقالت دونيا مستطلعة :

— هيه ، وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك قال انه هو نفسه ليس غنياً ، وان الثروة كلها قد آلت

الى اولاده الذين بقوا الآن عند خالتهن • ثم أضاف انه قد نزل فى مكان ما ،
غير بعيد عن بيتى ، ولكننى لا أدرى أين يقع مسكنه على وجه الدقة ،
ولا سألته عن ذلك على كل حال •

سألت بولشيريا الكسندروفنا مرتاعةً :

— ولكن ماذا يريد ، ماذا يريد أن يعرض على دونيا ؟ هل قال لك

ماذا يريد أن يعرض عليها ؟

— نعم ، قال لى •

— فما الذى يريد أن يعرضه عليها ؟

— سأذكر فيما بعد •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم صمت وعاد يشرب الشاى •

فأخرج بطرس بتروفتش ساعته ونظر فيها ، ثم قال :

— اننى مضطر الى أن أترككم حتماً ، فهناك عمل ملحق مستعجل

ينادىنى •

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهرأ بعض الانزعاج :

— وبذلك لن أضايقكم •

فقلت دونيا :

– ابق يا بطرس بتروفتش ! ألم تكن تنوى أن تقضى السهرة معنا ؟
 ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش ماما ؟
 فقال بطرس بتروفتش بوفار شديد :
 – هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا •

وجلس ، لكنه ظل ممسكاً قبضته بيده ، وتابع يقول :
 – كنت أريد فعلاً أن أناقشك وأناقش أمك المحترمة فى أمور خطيرة جداً • ولكن كما أن أخاك لا يستطيع أن يشرح أُمَامِي شيئاً عن عروض السيد سفيرديجايلوف ، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن أشرح شيئاً أمام *** أشخاص آخرين *** فى أمور هى على درجة عظيمة جداً من خطورة الشأن ! *** ثم ان احداً لم يكثر اطلاقاً برجائى الملح ***

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة ، وصمت فى وقار ورصانة •
 قالت دونيا :

– أنا وحدى السبب فى أن رغبتك فى أن لا يحضر أخى حديثنا لم تُحَقَّقْ • لقد كتبت تقول ان أخى أهانك ، وأنا أرى أنه يجب ايضاح الأمور بأقصى سرعة ، وأن عليكما أن تتصالحا • اذا كان روديا قد أهانك حقاً ، فانه يكون من « واجبه » أن يعتذر لك ، و « سوف يفعل » ذلك • •
 فسرعان ما استرد بطرس بتروفتش ثقته ، فقال :

– يا آفدوتيا رومانوفنا ، هناك أمور لا يمكن أن ينساها المرء مهما يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة • ان لكل شئ حدوداً لا يمكن أن يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها ، ومتى تجاوزها كانت العودة الى الوراء مستحيلة استحالة كاملة •

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاذ الصبر :

- ليس هذا تماماً ما كنت أكلّمك فيه • افهم جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن على نقطة واحدة : هل يمكن ايضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا ؟ اننى أُنَبِّهك بصراحة ، منذ البداية ، الى أننى لا أرى لنا أى مخرج آخر ، فإذا كنت تحرص علىّ أى حرص فيجب أن تنتهى هذه القصة فى هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر • اعود فأكرر أن أخى سيعتذر لك اذا هو كان مخطئاً •

قال لوجين وقد ازداد احتياجه شيئاً بعد شيء :

- يدهشنى يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحى المسألة هذا الطرح • اننى على ما أكنه لك من اعتبار عظيم ، ومن حب كبير ان صح التعبير ، أستطيع جداً أن لا أحب فرداً من أفراد أسرتك • واننى على تطلعى الى أن أسعد بزواجك أستطيع جداً أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع •• قاطعته دونيا تقول مندفة :

- مهلاً مهلاً ! دعك من فرط الحساسية هذا يا بطرس بتروفتش • ولتكن ذلك الرجل الذكى النبيل الذى رأيته فيك دائماً والذى أحب أن أراه فيك • لقد وعدتك وعداً صريحاً ، وأنا خطيبتك • فلتشقى بى اذن فى هذه القضية ، ولتكن على يقين من أننى أستطيع أن أقضى فى الأمر محايدةً غير متحيزة • ان وقوفى موقف الحكم يدهش أخى مثلما يدهشك • وحين دعوته اليوم ، بعد تلقى رسالتك ، الى حضور لقائنا هذا حتماً ، فاننى لم أقل له شيئاً عما أتوبه • ألا فافهم أننى سأكون مضطرة الى أن أختار أحكما وأترك الثانى اذا أتما لم تتصالحا • ان المسألة مطروحة على هذا النحو ، من جهتك ومن جهته على السواء • فلا أستطيع ولا ينبغي لى أن أُخدع فى أمر اختياري • أنت ترى أن علىّ أن أقطع

صلتي بأخي ، وهو يرى أن عليّ أن أقطع صلتى بك • فأنا أريد وأستطيع
أن أعرف في هذه اللحظة أهو أخ لي حقاً ، وأستطيع أن أعرف أيضاً
أأنا عزيزة عليك حقاً ، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمني ، هل أنت
زوج لي حقاً •

قال لوجين منزعجاً :

– يا آفدوتيا رومانوفنا ، ان أقوالك هذه زاخرة بالمعاني في نظري ،
بل في وسعي أن أقول انها جارحة جداً اذا نحن نظرنا الى الوضع الذي
يشرفني أن أحتله بالنسبة اليك • فبغضّ النظر عن طريقتك الغريبة
المثيرة هذه في الموازنة بيني أنا وبين ••• شاب مغرور ، فأنني أرى أنك
تتصورين امكان تراجعك عن الوعد الذي قطعته لي • فأنت تقولين « أنت
أو هو » ، مبرهنةً بذلك على ضعف شأنى عندك ، وقلة قيمتى في نظرك •
ألا فاعلمى أنني لا أستطيع أن أقبل هذا ، نظراً للعلاقات التى بيننا ،
و ••• الالتزامات التى تربطنا •

صرخت دونيا وقد احمر وجهها من الغضب احمراراً شديداً :

– كيف تقول هذا الكلام ؟ لقد وضعتُ مصلحتك في منزلة أئمن
ما ملكت حتى الآن ، وضعتها في منزلة كل ما كان حتى الآن حياتى
« كلّها » ، وهأنت ذا تشكو فجأة من ضعف شأنك عندى وقلة قيمتك
في نظري ! •••

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاكمة ، وغضب رازوميخين غضباً
شديداً •

ولكن بطرس بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض ، وأن
يفهم ذلك الدليل ، حتى لقد كان يغدو أشدّ شراسة وأميل الى المشاجرة

عند كل كلمة جديدة ، فكأنه يجد لذة في أن الأمور قد صارت الى هذه الحال .

قال متفخماً :

— ان حب رفيق الحياة ، ان حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الأخ . ومهما يكن من أمر ، فأنا لا أرضى أن أوضع في ميزان واحد مع ... وعلى كل حال ، ورغم أنني قد أعلنت صراحةً منذ لحظة أنني لا أستطيع ولا أريد أن أعرض ، بحضور أخيك ، جميع الموضوعات التي تشغل بالي ، فأنني أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرّني كثيراً .

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا :

— ان ابنك قد أهانني أمس بحضور السيد رازودكين* (أو السيد ... هذا اسمك ، أليس كذلك ؟ معذرة ... لقد نسيت اسمك — كذلك قال لرازوميخين وهو يحييه تحية متلطفة —) ، أقول ان ابنك قد أهانني أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرة سبق أن عبرت لك عنها في حديث حميم جرى بيني وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة ، اذ قلت انني أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاة ذاقت مباهج اليسر والرخاء والدعة ، لأن ذلك يكفل السعادة ، بل ويضمن الأخلاق أيضاً . ولكن ابنك قد تعمد أن يضخم دلالة هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة ، فاتهمني بأبشع التهم ، ونسب إلى أسوأ الأهداف والخطط ، مستنداً في ذلك الى رسالتك أنت فيما أظن . لسوف يسعدني كثيراً يا بولشيريا ألكسندروفنا أن تقنعيني بأن الأمر لم يكن كذلك ، فيحمل إلى هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة . اذكرى لي الكلمات التي

عمدت الى استعمالها لنقل أقوالى والتعبير عن آرائى فى الرسالة التى بعثت بها الى روديون رومانوفتش !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا مجبجة :

- لا أتذكر • لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسى • لا أدرى كيف أعادها لك روديا ••• لعله بالغ قليلاً •••

- ما كان ليستطيع أن يبلغ لولا ما أوحيت به اليه •

قالت بولشيريا ألكسندروفنا فى وقار :

- يا بطرس بتروفتش ، الدليل على أننا ، أنا ودونيا ، لم نؤول أقوالك تأويلاً سيئاً جداً ، هو وجودنا كلثنا « هنا » •

قالت دونيا مؤيدة محبذة :

- أحسنت يا ماما !

فقال لوجين مستاء :

- اذن أنا المخطئ !

فبادرت بولشيريا ألكسندروفنا تضيف قولها متشجعة :

- اسمع يا بطرس بتروفتش ، انك لا تبرح تتهم روديون ، وقد كتبت أنت نفسك فى حقه أشياء غير صحيحة •

- لا أذكر أننى كتبت أى شىء غير صحيح •

قال راسكولنيكوف بلهجة لاذعة ، حتى دون أن يلتفت نحو

لوجين :

- كتبتَ أننى وهبتُ بالأمس مالاَ لا لأرملة الموظف الذى داسته

الحيل - وهذه هى الحقيقة - بل لابنته (التى لم أكن قد رأيتها فى الواقع

قبل الأمس يوماً) • كتبتَ ذلك لتوقع بينى وبين أهلى ، ولتزرع فى

قلوبنا الشقاق ؟ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات ذئبة تقدر
في سلوك فتاة لا تعرفها • فهذا كله ليس فيه الا نيمية وحقارة •
أخذ لوجين يرتجف من فرط الغضب ارتجافاً شديداً وقال :

— معذرة أيها السيد ، لئن أفضت في الكلام ، في رسالتي ، عن
أعمالك وصفاتك ، فانما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين
رجتاني أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذي تحدثه في نفسي • أما
رسالتي فانني أتحداك أن تجد فيها سطوراً واحداً يشتمل على غير الصدق،
أى بتعبير آخر أن تبرهن لى على أنك لم تبدد مالك ، وأن تبرهن لى على
أن تلك الأسرة ، مهما تكن فقيرة بائسة ، ليس بين أفرادها أحد ساقط •
— أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوى اصبع تلك الفتاة
المسكينة التى ترميها بالحجر •••

— معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأهلك وأختك ؟
— فعلتُ هذا ، ان كنت تحرص على أن تعلم ذلك • أجلسنها الى
جانب أمى ودونيا فى هذا اليوم نفسه •
صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تنادى ابنها :
— روديا !

واحمرت دونيتشكا • وقطب رازوميخين حاجبيه • وابتسم لوجين
ابتسامة مسمومة فيها احتقار • وقال يخاطب دونيا :

— احكمى بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا : هل من سبيل الى تفاهم ؟
أمل أن تُحل هذه القضية الآن ، وأن توضح مرة واحدة الى الأبد •
أما أنا فاننى انسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلى
الملطيف ، وحتى تتناقلوا أسراركم بحرية •

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته • ثم واصل كلامه قائلاً :

– ولكننى أسمح لنفسى وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم الى أننى آمل أن لا أُجبر فى المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح • واليك أنت خاصة يا بولشيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً انما أتقدم بهذا الطلب ، لا سيما وأن رسالتى قد بعثتُ بها اليك أنت ، لا الى أى شخص آخر غيرك •

انزعجت بولشيريا ألكسندروفنا وقالت :

– أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بطرس بتروفتش ؟ لقد شرحت لك دونيا ، مع ذلك ، الأسباب التى جعلتنا لا نلبى رغبتك • لقد كانت نياتنا حسنة • ثم انك حين تكتب الى انما تكتب بلهجة من يلقى أوامر • فهل يجب أن نعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ ؟ ألا ان عكس هذا هو ما ينبغى أن يكون • فأنت أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف فى معاملتنا ، لأننا محضناك ثقة كاملة فتركنا كل شىء فى سبيل أن نجىء الى هنا ، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيتك ، واقعيتين تحت سلطانك •

– ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولشيريا ألكسندروفنا ، لاسيما وأنكم ستقبضون ، كما أبلغتم ذلك منذ قليل ، مبلغ ثلاثة آلاف روبل أورتكم اياها مارتا بتروفنا فى وصيتها • يبدو لى أن هذا المبلغ قد جاء فى أوامره ، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة فى مخاطبتى • هذا ما أضافه لوجين بصوت حائق •

فألت دونيا مهتاجة غاضبة :

– فى وسع المرء حقاً ، حين يسمع قولك هذا ، أن يفترض أنك كنت تعول على فقرنا وعوزنا •••

– على كل حال ، لم يبق في امكاني الآن أن أعوّل على هذا الفقر
وهذا العوز ؟ وأنا خاصة لا أريد أن أعرقل اطلاقكم على العروض
السرية التي عرضها أركادي ايفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيك ،
والتي أرى أن لها عندك شأنًا كبيراً ، حتى لقد تسرك كثيراً •

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

– آه ! يا رب !

وأصبح رازوموخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه •

سأل راسكولنيكوف أخته :

– ألا تشعرين الآن بالحجل يا أختي ؟

ف قالت دونيا :

– نعم ، أشعر بالحجل •

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً ،

صرخت تقول لبطرس بتروفتش :

– بطرس بتروفتش ! اذهب من هنا !

لم يكن يبدو على بطرس بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخائنة •

لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه ، وبقوته ، وأسرف في الاعتماد على ضعف

ضعيفته • وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه •

شحب وجهه ، وتشنجت شفثاه • ثم قال :

– اذا اجتزت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا ، مودّعاً بكلمات

كهذه الكلمات ، فاعلمي أنني لن أرجع قط • يجب أن تفكّري في هذا •

وليس من عادتي أن أنكل عن أقوالى •

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها بوثبة واحدة :

— يا للوقاحة ! ألا تعلم أنني لا أريد أن ترجع قط ؟

— ماذا ؟ أهكذا اذن ؟

بهذا هتف لوجين الذى لا شك فى أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة ، فإذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه ، ويتابع كلامه قائلاً :

— هكذا اذن ؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن فى وسعى أن أحتج ؟

فتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

— ما الذى يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة ؟ ثم كيف يكون فى وسعك أن تحتج ؟ أتظن أنني أَرْضَى أن أزوج بنتى رجلاً مثلك ؟ هيّا اذهب ! اتركنا الى الأبد ! ألا اننا نحن الذين أئمتنا حين تورطنا فى قضية غير شريفة ؟ وأنا الأئمة أكثر من أى شخص آخر ***

— ولكنك ، يا بولشيريا ألكسندروفنا ، قد ربطتني بالوعد الذى قطعته لى ، وتشكين عنه الآن . ثم *** ثم *** ثم اننى قد جررت الى تكبد نفقات ***

ان هذا الادعاء الذى يدعيه بطرس بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذى كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التى كان يبذلها لكبح جماح نفسه ، لم يطق عندئذ صبراً ، فانفجر يضحك ضحكة صاخبة معربة .

وخرجت بولشيريا ألكسندروفنا عن طورها ، فأخذت تصرخ سائلة :

— نفقات ؟ أية نفقات ؟ أنراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا ؟ ولكن

موظف القطار قد شحنها لك بالمجان ! ثم ما هذا الكلام الذى تقوله عن
الارتباط ؟ أحسن الذين ربطناك اذن ؟ ألا فلتذكر يا بطرس بتروفتش
أنتك أنت الذى ربطتسا ، بل أنت الذى كبّلتنا تكيلاً ، كبّلت أيدينا
وَأَرْجَلَنَا ***

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متوسلة :

— كفى يا أمى كفى ! أرجوك !

والتفتت الى بطرس بتروفتش فقالت له :

— هلاً ذهب ، من فضلك ، يا بطرس بتروفتش !

فقال بطرس بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه :

— أنا ذاهب ، غير أن هناك كلمة أخيرة أحب أن أقولها : يبدو أن

أملك نسيت نسياناً تاماً أننى قررت أن أتخذك زوجة لى حين كانت سمعتك
مضغوطة فى جميع الأقواء * وأحسب أننى اذ خالفت رأى الناس ورددت
اليك حسن السمعة كان فى وسعى أن انتظر تعويضاً فى أقل تقدير ،
بل وأن أطلب بمكافأة * آه *** لقد كانت عيناي مغمضتين حتى هذه
اللحظة ! اننى لأدرك الآن أننى قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أقم
أى وزن للشائعات التى كانت تلوّكها الألسن عنك ***

صرخ رازومихين يقول وهو يشب عن كرسيه ويستعد للعراك :

— انه يريد أن أهشّم له رأسه !

وقالت دونيا :

— أنت رجل دنىء سافل !

وهتف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازومихين :

— لا كلمة ، ولا حركة !



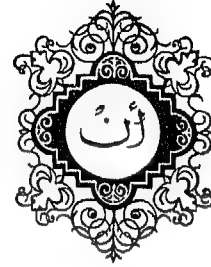
رازومېځن

ثم اقترب من لوجين ، وقال له تحت أنفه بصوت أجش لكنه واضح :

– هيّا اخرج • اياك أن تقول كلمة واحدة ، والا •••
فتأمله بطرس بتروفتش بضع لحظات شاحب الوجه متقبض القسما
من الكره ، ثم استدار وخرج •

فلما حمل قلب انسان من الحقد على انسان مثلما حمل قلب هذا
الرجل من الحقد على راسكولنيكوف • لقد عدّه مسئولاً عن كل شيء •
ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن ، أثناء هبوطه السلم ، كان
يتخيّل أنه لم يخسر القضية ، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال
يمكن تدبيرها •

الفصل الثالث



النقطة الأساسية هي أن بطرس بترفنش كان حتى آخر دقيقة لا يصدق أن الأمور ستنتهي هذه النهاية • لقد تفاخر وتعاظم وتبجح الى ابعاد حدود التفاخر والتعاظم والتبجح، وكان لا يتصور حتى امكانية أن تستطيع امرأتان بأستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه • ان غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبرياه ، ان هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه • هو رجل بدأ من الصفر ، وتعود أن يعجب بنفسه اعجاباً شديداً ، وأن يقدر ذكاه وكفاءته قدراً عظيماً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان ، حين يخلو الى نفسه ، يتأمل وجهه في المرأة مدة طويلة ، فرحاً كل الفرح • على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى ، وينزله في المقام الأول من الاحترام ، انما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً • ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند والند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة ؟

وحين ذكّر دونيا ، بمرارة ، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقّها ، فانما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل • على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف جميع تلك الشائعات ، التي حرصت مارتا بترفنا نفسها على أن تدحضها ، والتي

أصبحت لا تتناقلها الألسن في المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة ، بعد أن أعاد الناس الى دونيا اعتبارها ، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً . وما كان له على حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة . ومع ذلك كان يحس أنه قد منَّ على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها الى مستواه ، حتى لقد كان يعدُّ هذا عملاً بطولياً من جانبه . وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه انسان محسن ، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخير ، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات الثناء والمديح . لذلك كان بطرس بتروفش ، أثناء هبوطه السلم ، يشعر بأنه انسان لم يُفهم حق فهمه ، ولم يقدر حق قدره ، وأنه أهين اهانة بالغة .

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته . حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور امكان العدول عنها . لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة ، منذ بضع سنين ، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشى سكرآ ، ويعدُّ له العدة ويجمع من أجله المال . كان يتخيل ، في قرارة قلبه ، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة) ، فتاة في ريعان الصبا وغضارة الشباب ، على جانب عظيم من الحسن والجمال ، تنتمي الى أسرة كريمة ، وتتمتع بثرية حسنة ، ولكنها مروعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمت بها ، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً ، وأن تدعن لمشيئته اذعاناً تاماً ، وأن تظل ترى فيه ، طوال حياتها ، الرجل الذي أحسن اليها وأنعم عليها ، ففقدسه تقديساً ، وتمحضه نفسها مخلصاً ، ولا تنتمي الى أحد سواه . ما أكثر المشاهد الجميلة والصور اللذيذة التي تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغرى المتع ، في اللحظات التي كانت تهدأ فيها نفسه قليلا حين يخلد الى الراحة من أعماله ! وها قد أوشك هذا الحلم الذي هدهد خياله طوال تلك السنين ، ها قد أوشك أن يتحقق : ان جمال آدوتيا رومانوفنا

وحسن تربيتها قد اذهلاه ، وان وضعها السيء وحالتها اليائسة يحضنها عليها ويشدانه اليها كثيراً ؛ بل ان فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله : ان الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشمم ، والنشاط والقوة ، والعفة والفضيلة ، وهى أوسع منه ثقافة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا) ، وان انسانة كهذه الانسانة هى التى ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتان وعاطفة العرفان ، وهى التى ستمسحى أمامه من فرط احترامها له وتقديسها اياه ، فليس عليه الا أن يأمر حتى تطيع ! .. وقد شاءت المصادفات بما يشبه العمد والقصده ، أن يقرر صاحبنا ، قبيلاً لقيها بقليل ، وبعد تاجيلات كثيرة ، أن يغير ميدان عمله وأن يفتح مجالاً أوسع ، وأن يشق لنفسه طريقاً فى ذلك المجتمع الراقى الذى طالما شدته اليه أحلامه . كان صاحبنا قد قرر أن يجرب حظه فى بطرسبرج . وهو يعلم حق العلم أن للنساء دوراً عظيماً فى هذا المجال ، وأن فيهن نفعاً كبيراً . ان الفتنة التى تشع من امرأة أخاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجمل حياته ، وأن تجتذب اليه مودة الناس ، وأن تحيطه بهالة من المهابة والسحر ...

ولكن ها هو ذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة ! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة نزول الصاعقة . هذه مهزلة قطيعة ، هذا سحق رهيب ! انه لم يزد على أن « تبجح » قليلاً ، ان وقته لم يتسع لأن يقول كل ما فى نفسه ؛ لقد كان يمزح ، لقد اندفع بعض الاندفاع ... هذا كل شيء ... فكيف ينتهى الأمر هذه النهاية الخطيرة ؟! انه يحب دونيا على كل حال ، يحبها بطريقته الخاصة ... لا ، لا ، يجب اصلاح كل شيء غداً ، غداً ... لا بد من معالجة الأمور ، لا بد من مداواة الأمور ، ولا بد خاصة من احباط أعمال ذلك الغر الوقح الذى كان سبب البلاء كله .

وتذكر رازومихين وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً ، لكنه

لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية • قال يحدث نفسه
ساخراً : « لا ينقصني الا هذا ••• لا ينقصني الا أن أوازن بيني وبينه ،
أن أضع نفسى فى مستواه ! » •

ان الشخص الذى كان لوجين يخشاه حقاً انما هو سفيدريجايلوف
الحلاصة : ان هموماً كثيرة كانت تنتظره •

• • • • •

• • • • •

قالت دونيا وهى تعانق أمها وتقبلها :

— لا بل أنا المذنبه ، أنا المذنبه ! لقد استسلمت لاغراء ماله ؛ ولكننى
أقسم لك يا أخى أننى لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً الى هذا الحد من
الدناءة • ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لاغراء أى شئ
فى هذا العالم ! لا تهمنى يا أخى !

فتمتت بولشيريا ألكسندروفنا تقول دون شعور ، كأنها لما تدرك
ما جرى بعد :

— الله خلّصنا منه ! الله خلّصنا منه !

وكانوا جميعاً مبهجين مغتبطين ، حتى لقد انطلقوا بعد خمس
دقائق يضحكون • غير أن دونيا كان يشحب لونها من حين الى حين ،
وكانت تقطب حاجبيها حين تتذكر ما عاتته فى هذه الآونة الأخيرة • ما كان
لبولشيريا ألكسندروفنا أن تعتقد فى يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسرَّ
لحادث كهذا الحادث • كانت فى ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن
القطعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة ! أما رازومихين فكان يشعر
بسعادة قصوى • انه لا يجرؤ بعد أن يظهر فرحته اظهارةً كاملاً ، ولكنه

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه كمن انتبأته حمى • لكان قلبه قد تخلص من عبء ضخّم وحمل ثقيل • سيكون فى وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته ، وأن يضع نفسه فى خدمتهما • وما أكثر ما يستطيع أن يفعله منذ الآن ! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنه مشاريع المستقبل خائفاً من خياله •

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً فى مكانه متجهماً الوجه تقريباً ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شارد الفكر • انه وهو الذى ألحّ أكثر منهم جميعاً على أن يطرد لوجين ، يبدو الآن أقلهم اهتماماً بما جرى • وقدّرت دونيا ، رغم ارادتها ، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها ، وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة •

سألته دونيا وهى تقترب منه :

— ماذا قال لك سفيدريجايلوف ؟

وصاحت بولشيريا ألكسندروفنا :

— آآآ نعم نعم آآآ ماذا آآآ

فرفع راسكولنيكوف رأسه ، وقال :

— انه يصبرُ على أن يهدى اليك عشرة آلاف روبل ، وقد أعرب عن رغبته فى أن يراك مرةً أخرى بحضورى •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

— أن يراها ؟ مستحيل • لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال • وكيف يجزؤ أن يقدم اليها مالا ؟

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه وبين سفيدريجايلوف من حديث ، مغفلاً ذكر ماقصه عليه سفيدريجايلوف

من أن مارتا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها ، وذلك حتى لا يتعد عن الموضوع ، ولا شمتزازه من قول أية كلمة زائدة .

سألته دونيا :

— بماذا أجبتك ؟

— قلت له أولاً اننى لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه . فأعلن لى عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل الى أن يحصل منك على موعد . وقد أكد لى أن العاطفة الحامجة التى كان يشعر بها نحوك لم تكن الا هوى طارئاً ، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأية عاطفة . كل ما يريد هو أن لا تتزوجى لوجين . على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة مبهمة .

— ما رأيك فى هذا الرجل يا روديا ؟ ما هو الانطباع الذى أحدثه فى نفسك ؟

— أعترف بأننى لم أفهم حق الفهم . انه يقدم عشرة آلاف روبل ، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً . يصرّح بأنه سيسافر الى مكان لا أدرى أين هو ، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسى ما قاله . وفجأة يذكر أيضاً أنه سيتزوج ، وأنهم قد وجدوا له خطيبة . . . أغلب الظن أنه يخفى خطأ معينة قد تكون سوداء . ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيّن لك نيات سيئة ، والا لما عمد الى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماقة . ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال عرضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال . مهما يكن من أمر ، فقد بدا لى انساناً غريب الأطوار . . . حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون . ولكن ربما أكون مخطئاً . على أن موت مارتا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلّف فى نفسه أثراً كبيراً .

— رحمة الله عليها ! لسوف أظل أصلى لها دائماً ، دائماً • ما الذى كان يمكن أن نصير اليه ، أنا ودونيا ، لولا هذه الثلاثة آلاف روبل ؟ رباه ! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء ! آه يا روديا ! فى هذا الصباح كان كل ما بقى لنا من مال هو ثلاثة روبلات ، ولم يكن قد بقى علينا الا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة ، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه •

بدا على دونيا أن عرض سفيدريجاييلوف قد أدهشها وأذهلها •
فبقيت واقفة ، ساكنة مفكّرة •

قالت فى دمدمة وهى ترتعش :

— ان فى ذهنه أمراً رهيباً !

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد • فقال لدونيا :

— أظن أنه سيتاح لى أن ألقاه أكثر من مرة •
وهتف رازوميشين قائلاً ببلهجة قوية :

— لا تخافوا ، سوف نراقبه مراقبة دقيقة • لن يغيب عن بصرى •
لقد اذن لى روديا بذلك • قال لى هو نفسه منذ قليل : « عليك أن تحمى دونيا » • هل تأذنين لى بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ابتسمت دونيا ، ومدّت اليه يدها ، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق • وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تنظر اليها وجلة مرتاعة .
غير أن الأمل فى الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدأ روعها وطمأن نفسها •

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا فى محادثة حامية • وحتى راسكولنيكوف ، الذى لزم الصمت ، كان يصنى بانتباه • كان رازوميشين يتكلم فى اسهاب وحرارة كأنه يلقي خطاباً :

— لماذا ، لماذا تسافران ؟ ما عساكما تعملان في مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك ؟ أستم هنا قد اجتمع شملكم ، وكل واحد منكم محتاج الى الآخر ، محتاج اليه اشد الاحتياج . ابقيا بعض الوقت على الاقل .
 أما أنا فاقبلوني صديقاً ، اقبلوني شريكاً . واني لأؤكد لكم أننا سنتشبع مشروعا ممتازاً . اسمعوا : سأعرض عليكم مشروعى بأدق تفاصيله .
 لقد وافقتى هذه الفكرة منذ الصباح ، قبل أن يحدث شيء مما حدث الآن اليكم الموضوع : ان لى عمأ (سأعزفكم به ، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً) وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل ، ويعيش من راتب تقاعدى يفي بحاجاته . وهو ما برح منذ سنتين يلح على أن أقترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة في المائة . اننى أدرك حيلته : فكل ما يريد هو أن يساعدنى . فى العام الماضى لم أكن محتاجاً الى هذا المبلغ ، أما فى السنة الحالية فاننى لا أنتظر الا وصول عمى لأطلبه منه . فاذا أضفتم ألف روبل من عندكم الى هذه الألف روبل كان معنا ما يكفينا لبده المشروع ، فنكون شركاء . فما هو ذلك المشروع ؟ .
 هنا طفق رازومخين يشرح مشروعه ، فأفاض فى الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم ، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً ، وأكد أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة ، وأنها ربما درت أرباحاً طائلة . كان رازومخين يحلم أن يصبح ناشراً ، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه « ضعيف » * فى الألمانية ، والحق أنه لم يزعم له ذلك الا ليشجبه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدد ترجمته ، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفة : لقد كذب ، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف) .
 وتابع رازومخين كلامه قائلاً بحرارة وحماسة :

— فلماذا ، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع اننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح ، أعنى رأس المال ؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً ، ولكننا سوف نعمل ، نعملين أنت يا آفدوتيا رومانوفنا ويعمل روديون وأعمل أنا • ان نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة ، وان ما سيعيننا وما سيكون مصدر قوتنا ، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التي يجب أن تُترجم • سوف نترجم ، ونشر ، ونتابع في الوقت نفسه دراستنا • اننى أستطيع أن أكون الآن نافعاً ، لأننى حصلتُ خبرة واسعة • لقد سلخت سنتين كاملتين في العمل مع الناشرين ، فأصبحت أعرف شئون النشر معرفة تامة • صدقونى اذا قلت لكم ان الأمر أيسر مما تظنون • فلماذا ، لماذا لا ننتهز الفرصة التي تعرض لنا ؟ اننى أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدث عنها أحداً قط ، ويكفى أن أعرض فكرة نشرها حتى أجنى من ذلك مائة روبل عن كل كتاب ؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته بخمسمائة روبل ! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشررون الحمقى أىَّ تردد اذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب ! أما الجانب المادى من المشروع ، أعنى الطباعة والورق والبيع وما الى ذلك ، فانكم تستطيعون أن تعتمدوا علىَّ فيه كل الاعتماد • اننى أعرف هذه الأمور معرفة عميقة • وسوف نبدأ بداية متواضعة ، ولكننا سنوسّع المشروع في المستقبل • ومهما يكن من أمر فسوف نجنى ما يسدُّ حاجتنا ونفى بنفقاتنا •

كانت عينا دونيا تسطمان • قالت :

— ان ما تقوله يعجبني كثيراً يا دمترى بروكوفتش !

وتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا فقالت :

— أنا لا أفهم في هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال • قد يكون هذا كله

حسناً جداً ، الله أعلم ••• ولكن ••• من جهة أخرى ••• طبعاً •••

حين يشرع المرء فى شىء ما ، فانه يسير قليلاً فى المجهول !... على كل حال سيكون علينا حتماً ، اذا نحن قررنا المضى فى هذا المشروع ، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت .

ونظرت الى راسكولنيكوف .

سألته دونيا :

— ما رأيك أنت يا أخى ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

— رأى أن فكرته ممتازة . ولكن لا ينبغي لنا ، بعد ، أن نفكر فى انشاء دار نشر كبيرة . يجب علينا أن نكتفى بأن ننشر فى البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح . أنا نفسى أعرف كتاباً سيُباع حتماً . أما عن كفاءة رازوميخين ، فيجب أن تكونوا مطمئنين . لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح . على كل حال ، سيتسع وقتنا للكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى ...

صاح رازوميخين يقول :

— مرحى ! والآن اسمعوا : توجد هنا ، فى هذا المنزل نفسه ، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذين أجروكم هذه الغرفة . انها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف . هى مفروشة . وليس أجرها باهظاً . فيها ثلاث حجرات . خذوها مؤقتاً . سأمضى أرهن ساعتك غداً ، فأجيئكم بالمال ، ثم يُدبّر كل شىء . الأمر الأساسى هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا ، ومعكما روديا ... ولكن الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

سألت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعة :

— كيف يا روديا ؟ أنت ذاهب ؟

وصاح رازوميخين يسأله مستكراً :

— أفي مثل هذه اللحظة تذهب ؟

وكانت دونيا تنظر الى أخيها بدهشة تمازجها ريبة • كان راسكولنيكوف ممسكاً قبعته يتهيأ للخروج • وقال بلهجة غريبة :

— لكأنكم حقاً ستدفنوني ، أو لكأنكم تودعونني الى الأبد على الأقل •

وكان يتسم ، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام في شيء • وأضاف يقول :

— ومن يدرى على كل حال ؟ لعلنا نلتقى الآن آخر لقاء فعلاً !

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه ، فإذا هي تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير ارادة منه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

— ماذا أصابك يا روديا ؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة :

— الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق بما يريد أن يقوله :

— نعم ، لا بد أن أذهب ...

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يُقرأ في وجهه الشاحب • وتابع كلامه :

— أقصد ... حين جئت الى هنا ... كنت أريد أن أقول لك

يا أماء ، ولك أنت أيضاً يا دونيا ، ان من الأفضل لنا أن نفترق بعض الوقت • أنا أحس بأنني مريض ، أنا لست هادئ البال ، سأرجع في

المستقبل ، حين ... حين يصبح ذلك فى الامكان • لن أنساكم ، وسأظل
أحبكم ... دعونى ، دعونى وحيداً ! ذلك ما كنت قد قررته • وقد
قررته واعياً كل الوعى ، مدركاً كل الادراك ! ... أريد أن أكون
وحيداً مهما يحدث لى ، سواء أهلك أم لم أهلك ! انسونى نسياناً
تاماً ، ذلكم أفضل ... لا تسألوا عنى ، لا تستطلعوا أخبارى • سوف
أجىء من تلقاء نفسى متى وجب أن أجىء ... أو سوف أدعوكم الى •
ولعل كل شىء سيبعث بعثاً جديداً حينذاك • أما الآن فاعدلوا عن رؤيتى
وتنازلوا عن لقائى اذا كنتم تحبوننى ، والا شعرت نحوكم بكره وبغض •
اننى أحس بهذا ... وداعاً !

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

— رباء ! يا رب !

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياعاً لا سبيل الى مغالبتها • وكذلك
كان رازوميخين •

قالت الأم المسكينة تتوسل الى ابنها :

— روديا ، روديا ! فلتصالح يا روديا ! فلنعد كما كنا !

استدار راسكولنيكوف ببطء ، واتجه نحو الباب ، فأدركته دونيا ،
وهمست تقول له مشتعلة العينين استياءً واستككاراً :

— أخى ، ماذا تفعل بأمننا !

فألقي عليها نظرة ثقيلة • وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعى
ما أراد أن يقول وعياً تاماً :

— ما هذا بشىء ، سأرجع ، سأرجع ...

• وخرج

هتفت دونيا تقول :

— انسان خالٍ من الاحساس ! أنا نى فطيع !
 — بل هو مجنون ، لا خالٍ من الاحساس ! لقد فقد عقله ،
 كيف لا ترين هذا ؟ أنت الحالية من الاحساس ...
 كذلك دمدم رازوميخين هامساً فى أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو
 يضغط يدها ضغطاً عنيفاً • ثم هتف يقول لبولشيريا ألكسندروفنا التى
 أصبحت أقرب الى الموت منها الى الحياة •
 — سأرجع حالاً !
 وأسرع يخرج من الغرفة •
 كان راسكولنيكوف ينتظره فى آخر الدهليز • وقال له :
 — كنت أعرف أنك ستهرع الىّ لتلحق بى • عد اليهما ، وابق
 معهما • وكن عندهما غداً ... وكن عندهما دائماً ... قد أرجع اذا
 استطعت ... وداعاً !
 وابتعد دون أن يمد اليه يده مصافحاً •
 غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك ، حائراً أبلغ الحيرة :
 — ولكن الى أين تذهب ! ماذا بك ؟ ما الذى أصابك ؟
 فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى •
 — أقول لك مرة أخيرة الى الأبد : لا تسألنى عن شىء ، فليس
 عندى ما أجيبك به ... ولا تأت الىّ ! قد أرجع أنا الى هنا .. دعنى ..
 أما هما فلا تتركهما ... هل تفهم ؟
 كان الظلام يسود الدهليز • وكان الشابان قرييين من مصباح •
 لبنا قرابة دقيقة ينظر كل منهما فى صاحبه صامتاً • سوف يتذكّر
 راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته • ان النظرة الحارة الثابتة التى
 تصدر عن عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفاً وقوة فى كل

لحظة ، وكانت تنفذ الى أعماق نفس رازوميخين ، وتنغوص في قرارة وجدانه • ارتعش رازوميخين فجأة • كأن شيئاً غريباً قد مرَّ بينهما ••• هي فكرة تتسلل خفية ، تندس خلسةً ، ولكنها فظيعة ، رهيبة ، جهنمية ، سرعان ما فهمها هذا وذاك !••• اصفرَّ وجه رازوميخين اصفرار الموت ! قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً :

- هل فهمت الآن ؟

ثم أضاف :

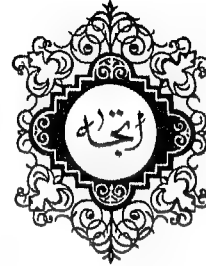
- ارجع الى هناك • عد اليهما •

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة ، ومضى •••

لن أصف ما جرى في ذلك المساء عند بولشيريا ألكسندروفنا • لن أصف كيف رجع رازوميخين الى المرأتين ، كيف هدأ روعهما ، كيف أكد لهما أن من الواجب أن يترك روديا للراحة بعد المرض ، وكيف حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة ، وأنه سيأتي يزورهما ، بل وأنه سيجيء اليهما كل يوم ، وإنما يجب أن لا يُزعج الآن لأنه في حالة عصبية شديدة ، وأنه ، هو رازوميخين ، سيمضى اليه ، ليسهر عليه ، ويعتنى به ، ويحيئه بطيب حاذق ، بأحسن طبيب في المدينة ، بل بعدد من الأطباء يفحصونه في آن واحد •

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمرأتين ، منذ ذلك المساء ، ابناً وأخاً •

الفصل الرابع



راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذى تسكن فيه
صونيا قرب القناة • هو منزل من طابقين ، هو
بنى قديم مطلى بلون أخضر •

استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه
على معلومات موجزة مقتضبة أتاحت له مع ذلك أن يصل الى مسكن الحياط
كابرنائوف • لمح فى ركن من الفناء مدخل سلّم ضيق مظلم ، فصعد
أخيراً الى الطابق الأول ، ودخل الرواق الذى يدور حوله • وفيما هو
يطوّف فى الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرنائوف ، فتّح على
حين فجأة بابٌ يقع على مسافة ثلاث خطوات منه ، فتشبّث بهذا الباب
على غير ارادة منه •

— مَنْ هنا ؟

كذلك سأل صوت امرأة مضطرب •
فأجاب راسكولنيكوف :

— هذا ••• هذا أنا ••• جئت لأراك !

واجتاز الباب الى حجرة المدخل الصغيرة • كان فى الحجرة كرسى
خاسف وضعت عليه شمعة صغيرة فى طبق متعقف من نحاس •
هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف :
— أهذا أنت ؟ رباه !

• ووقفت فى مكانها كالشجرة •

— من أين الدخول الى غرفتك ؟ من هنا ؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال ، ثم مضى ينتقل الى الغرفة محاولاً أن لا ينظر الى صونيا •

وتبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة ، فوضعتها فى مكانها ، ووقفت أمامه بالغة من شدة القلق والرعب لهذه الزيارة التى لم تكن متوقعة ان الاضطراب الذى اجتاحت نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه • واحمر وجهها الشاحب فجأة ، حتى لقد صعدت الى عينيها دموع • كانت تشعر بخجل وخزى وسعادة فى آن واحد •••

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة ، وجلس على كرسى موضوع قرب المائدة • لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتش الغرفة كلها •

هى غرفة واسعة سعة كافية ، لكن سقفها واطئ جداً • انها الغرفة الوحيدة التى أجبرها كابرناؤموف • وهى تتصل بمسكنه بباب فى الجدار الأيسر • وعلى الجهة اليمنى ، يوجد فى الجدار باب آخر ، يظل مقفلاً بالمفتاح دائماً ، ويفضى الى شقة أخرى • ان الغرفة تشبه أن تكون سقيفة ، لها شكل مضلع رباعى غير منتظم ، فمنظرها لهذا السبب يؤذى البصر • ان حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة ، يقطعها قطعاً موارباً ، فأحدى الزوايا ، وهى زاوية حادة جداً ، تغور فى آخر الغرفة ، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً فى ضوء الشمعة الضئيل الضعيف • أما الزاوية الأخرى فهى منفرجة انفرجاً كبيراً • ولا يكاد يوجد فى الغرفة أثاث • هناك سرير فى الركن الأيمن ، وهناك الى جانب السرير كرسى أقرب الى الباب • وعلى طول الحائط نفسه ، قبالة الباب المؤدى الى الشقة الثانية ، توجد مائدة من خشب أبيض ، يغطيها غطاء أزرق ، وبقرىها كرسيان من قش • وفى حذاء الحائط المقابل ، على مقربة من

الزاوية الحادة ، تقبع منضدة صغيرة غير مدهونة ، وكأنها تائهة في الفضاء •
ذلك كل ما تضمه الغرفة • أما ورق الجدران فأصفر مهترىء مدخّن
مسودّ في الأركان • لا بد أن الغرفة تكون شديدة الرطوبة في الشتاء •
ان الفقر يخطف البصر ، حتى ان السرير لم يكن له ستارة •

كانت صونيا تنظر صامتة الى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة
بانتياب يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر
الأمر ، كأنها واقفة أمام قاض سيتوقف عليه مصيرها كله •

قال لها دون أن يرفع عينيه :

- اننى أصل في ساعة متأخرة جداً ••• أليست هي الحادية عشرة ؟
فدمدمت صونيا تقول :

- نعم •

ثم أسرعت تضيف ، كأن ذلك خروج لها من المأرق :

- نعم نعم ، هي الحادية عشرة ••• منذ قليل دقت ساعة أصحاب
البيت • هي الحادية عشرة فعلاً •••

قال راسكولنيكوف متجهماً الوجه :

- أجبني اليك الآن آخر مرة • وقد لا أراك بعد اليوم قط •

قال لها ذلك مع أن هذه هي المرة الأولى التي يزورها فيها •

سألته :

- أأنت مسافر ؟

- لا أدري ••• سيتقرر كل شيء غداً •

- اذن لن تذهب غداً الى عند كاترين ايفانوفنا ؟

وكان صوت صونيا يختليج •

- لا أدري *** كل شيء رهن بالغد *** بصباح الغد * ثم ان
المسألة ليست هذه : لقد جئت لأقول لك ان ***

ورفع اليها نظرة حاملة ، فأدرك فجأة أنه جالس ، على حين أنها
ما تزال واقفة أمامه *

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة ، فأصبح فيه رقة وعذوبة
ومودة :

- لماذا تبقين واقفة ؟

فجلست * وظل يتأملها قرابة دقيقة ، ظل يتأملها بمحبة ، بعاطفة ،
بما يشبه أن يكون شفقة * ثم قال لها :

- ما أشد نحولك ! ما هذه اليد ؟ انها لتكاد تكون من هزالها
شفافة ! أصابعك أصابع ميت ***
فأجابته قائلة :

- هكذا كنت دائماً *

- حتى حين كنت تقيمين مع أهلك ؟

- نعم *

- نعم نعم *** هذا طبعى ***

كذلك قال بلهجة متقطعة * ان تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبدلا
من جديد فجأة * ونظر مرة أخرى حواله *

- أמן أسرة كابرنأؤموف استأجرت هذا ؟

- نعم *

- هل يقطنون وراء هذا الباب ؟

- نعم *** لهم غرفة كهذه *

- هل يعيشون جميعاً فى غرفة واحدة ؟
- نعم ، يعيشون جميعاً فى غرفة واحدة •
- قال راسكولنيكوف متجههم الهيئة :
- لو كنت أعيش فى مثل هذه الغرفة لشعرت فى الليل بخوف •
- فأجابت صونيا ، وكأنها لم تشب الى رشدتها بعد ، ولا جمعت شتات أفكارها :
- أصحاب البيت لطاف جداً • وجميع الأناث ، جميع الأناث لهم هم • انهم طيبون جداً ، وكثيراً ما يأتى أولادهم الى عندي •
- هم ثنائون ، أليس كذلك ؟
- نعم هو يثنائى ويعرج • وامراته أيضاً • بل قل انها لا تثنائى ، ولكن كأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها • انها طيبة جداً • كان هو قناً • ولهما أولاد • الكبير وحده يثنائى • • أما الآخرون فهم عليلون فحسب لكنهم لا يثنئون •
- ثم أضافت تسأله مدهوشة بعض الدهشة :
- كيف عرفت أنت هذا ؟
- أبوك قص على كل شىء • قال لى كل شىء عنك وحكى لى أيضاً كيف خرجت فى الساعة السادسة من الصباح لتعودى بعد الساعة الثامنة ، وكيف ركعت كاترين ايفانوفنا أمام سريرك •
- اضطربت صونيا • ثم دمدمت تقول مترددة :
- رأيته اليوم رؤية واضحة مميزة •
- مَنْ ؟
- أبى • كنت سائرة فى الشارع ، غير بعيد عن هنا ، عند الناصية ،

فى نحو الساعة العاشرة ، فترأى لى أنه يسير أمامى • لكانه هو حقاً •
حتى لقد خطر ببالى أن أسرع الى كاترين ايفانوفنا ...

— كنت تتجولين ؟

فقلت صونيا بصوت متقطع ، وقد اضطربت من جديد ، وخفضت
عينها :

— نعم •

— هل كانت كاترين ايفانوفنا تسيء معاملتك حتى لتكاد تضربك
حين كنت تعيشين معهم ؟

صاحت صونيا تقول وهى تنظر الى راسكولنيكوف نظرة فيها مايشبه
الذعر :

— لا ، لا ، ما هذا الذى تقوله ؟

— أأنت تحيينها اذن ؟

— هى ؟ أظن ...

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية ، وصوت بطئ ، ضامةً يديها
بحركة تنم على الألم • وواصلت كلامها تقول :

— ليتك ... ليتك تعرفها ! انها كالطفلة تماماً • عقلها مضطرب
اضطراباً تاماً • • • لقد قاست فى حياتها آلاماً كثيرة • • • ومع ذلك ،
ما أذكاهما ! ما أكرمها ! انها طيبة جداً ! أنت لا تعرف ، أنت لا تستطيع
أن تعرف ! آه ! • • •

قلت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد • كان الألم يهصر قلبها ،
فكانت تلوى يديها من فرط الكمد ، واحمرّت خداهما من جديد ، حتى
صارا بلون الأرجوان • كان العذاب يُقرأ فى عينها • واضح أن وترأ
حساساً جداً قد مُسّ الآن فى نفسها ، وأنها ترغب رغبة قوية فى أن

تعبّر عن شيء ، فى أن تتكلم ، فى أن تدافع عن كاترين ايفانوفنا • ان نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفئ أوارها يرتسم الآن على قسّات وجهها •

وتابعت كلامها تقول :

— تضربنى ؟ هى تضربنى ؟ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ وهبها ضربتني ! أى خير فى ذلك ؟ انك لا تعرف شيئاً ، لا تعرف شيئاً البتة ! هذه انسانة تعيسة شقية بائسة ••• وهى مريضة ••• انها تنشد العدالة ••• انها تسعى الى العدالة ••• هى طاهرة نقيّة • انها من شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد فى كل شيء ، تطلب العدالة فى كل شيء • قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هى لا تقترف أى ظلم يجافى العدالة • انها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر ، وهى لذلك تغضب كما يغضب طفل ، كما يغضب طفل ! انها امرأة عادلة ، عادلة •••

— وما الذى ستصيرين اليه ؟

كذلك سألها راسكولنيكوف ، فألقت عليه نظرة مستفهمة • قال لها :

— سيقون على ذراعيك • صحيح أنك كنت قبل الآن تحمّلين كل شيء على ذراعيك ، وأن أباك كان يجيء اليك أنت ليطلب مالا « يُذهب به سكره » • ولكن ما الذى سيحدث الآن ؟

قالت صونيا بحزن :

— لا أدري •

— هل يقون هناك ؟

— لا أدري • ان أجر المسكن لم يُدفع ، ويظهر أن صاحبة البيت

قد أرادت اليوم أن تطردهم ؟ فأعلنت كاترين ايفانوفنا أنها لن تمكث دقيقة واحدة •

— لماذا تتعاطف هذا التعاطف ؟ أعليك تعتمد ؟

— لا تتكلم هكذا ، لا ...

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد ، أو قل اهتمت من جديد ، كما يفعل طائر من طيور الكنارى أو غيرها من الطيور :

— نحن نشترك فى كل شيء ، أنا وهى ...

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة :

— ماذا تريد لها أن تكون ؟ آه ... ما أكثر ما ذرفت من دموع ، ما أكثر ما ذرفت من دموع فى هذا اليوم ! ان عقلها مضطرب ، ألم تلاحظ أنت هذا اذن ؟ نعم ، عقلها مضطرب ، عقلها مختل : تارة تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شيء على ما يرام غداً ، من أجل أن يكون على المائدة مقبلات ... ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغي أن تضمه من أطعمة ؛ وتارة تلوى يديها كمدأ وحسرة ، وتبصق دماً ، وتذرف دموعاً ، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس . ثم ما تلبث أن تتعزى من جديد ، واضعةً أملها فيك ، قائلة أنك الآن سندها ، وانها ستقترض مالاً من أحد الناس ، لتعود بى الى مسقط رأسنا ، فنشئ هناك مدرسةً لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مفتشة فيها ، ونبدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة . وهى فى هذه الحالة تأخذ تقبلنى وتضمنى الى صدرها وتواسينى وتعزىنى . آه ما أقوى ايمانها باحلامها هذه ، ما أقوى ايمانها بهذه الأحلام ! هل يمكننا أن نعارضها ؟ مستحيل ! ... اليوم قضت النهار كله فى مسح الأرض وغسل الملابس وترقيع الثياب . ورغم ضعفها الشديد صعدت الى غرفتها بطشت ، فما ان وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطعت ، وحتى خارت قواها فلم تملك الا أن تنهوى على سريرها مهدودة . وفى هذا الصباح ذهبنا كلتنا الى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينا ، لأن أحذيتهما قد تمزقت تمزقاً تاماً ،

ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال ، رغم جميع حساباتنا ، لأنها اختارت
أحذية جميلة لطيفة ، فهي صاحبة ذوق كما تعلم ، فما كان منها الا أن
أجهشت تبكى ، هنالك ، فى وسط الدكان ، أمام الباعة • لقد بكت لأن
ما معنا من مال لم يكن كافياً • حقاً كان منظرها يثير أعماق الألم •••

قال راسكولنيكوف وهو يتسهم ابتسامة مرة :

— يفهم المرء بعد هذا أن تعيشى هذه الحياة التى تعيشينها •••

فهمت صوتيا تقول :

— ولكن هى ، هى ، ألا ترئى لحالها ؟ ألا تشفق عليها ؟ أنا أعلم
أنك وهبت لها آخر قرش تملكه ، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد •
فماذا لو كنت قد رأيت كل شيء ؟ آه ! يارب ! كم من مرة ، كم من مرة
أبكيتها • ألا اننى لأشعر بالحزى والعار ! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبى
بأسبوع ! نعم ، كنت قاسية ، قاسية ! كم من مرة تصرفت هذا التصرف !
آه ••• ما أشد ما أشعر به اليوم من خذى وعار حين أتذكر هذا !

كانت صوتيا تلوى يديها حسرةً وهى تتكلم ، من فرط ما كانت
تحس به من ألم •

قال لها راسكولنيكوف :

— أأنت القاسية اذن ؟

— نعم أنا القاسية ، أنا •••

وعادت تتابع كلامها وهى تبكى ، فقالت :

— جئت أزورهم فى ذلك اليوم ، فقال لى المرحوم : « اقرئى لى
يا صوتيا ، فانى أحس صداً فى رأسى ••• اقرئى لى هذا الكتاب » •
هو كتاب أغاره إياه أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف الذى يسكن فى

هذا المنزل ويقتنى كنباً عجيبة ! قلت له : « أن لى أن أذهب » ، ولم أشأ أن أقرأ له ، لأننى قد أتيت الى عندهم خاصة من أجل أن أرى كاترين ايفانوفنا ياقات صغيرة : كانت اليزابت السمسارة قد جاءتنى بياقات وأكمام جميلة جداً ، جديدة كل الجدة ، تزينها رسوم حلوة ، مع أنها بخسة الثمن ، وقد أعجبت كاترين ايفانوفنا بها كثيراً ، فجربتها على نفسها فوجدتها جميلة ، جميلة جداً . فقالت لى : « صونيا ، اهديها لى » ، أرجوك . نعم هذا ما قالته لى : « أرجوك » ، لأنها هامت بها هياماً جنونياً . ولكن ما عساها تصنع بها ؟ ما حاجتها اليها ؟ المهم أنها أخذت بها ، هكذا ، لأنها تذكّرُها بالعهد الجميلة الماضية ! ان كاترين ايفانوفنا تنظر فى المرأة ، فتعجب بنفسها ، وليس عندها ثوب تلبسه ، ليس عندها ثوب واحد ، ليس عندها شيء البتة ، منذ سنين عدة ! وهى لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً فى يوم من الأيام ، لأنها شديدة الاء والكبرياء ، وتؤثر على ذلك أن تعطى ما بقى عندها . ومع ذلك طلبت منى أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة ، لأنها وجدتها جميلة جداً . ولم أشأ أنا أن أحرم نفسى منها ، فقلت لها : « فيم تنفعك هذه الياقات يا كاترين ايفانوفنا ؟ » . نعم ، ذلك ما قلته لها . آه . . . ما كان ينبغى أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال ! ألقى علىَّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب . . . عبر وجهها عندئذ عن حزن فطيع . . . لأننى رفضت أن أعطيها الياقات . . . وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال . . . ليست الياقات هى التى أحزنتها ، وانما أحزنها رفضى أنا . . . لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح . آه . . . ليتنى أستطيع أن أرجع الى وراء ، وأن أسترده كل ما أفلت من لسانى ! آه . . . اننى . . . ولكن ماذا ؟ لا بد أن هذا كله لا يعينك فى شيء !

سألها راسكولنيكوف :

- أأنت عرفت اليزابت السمسارة ؟

فأجابته مدهوشة " بعض الدهشة :

- نعم ... هل عرفتُها أنت أيضاً ؟

قال راسكولنيكوف بعد صمت ، دون أن يجيب عن سؤال دونيا :

- كاترين ايفانوفنا فى آخر درجات مرض السل ، وستموت

قريباً ...

- لا ، لا ، لا تقل هذا الكلام .

قالت صونيا ذلك ، وتناولت يديه على غير شعور منها ، كأنها تتوسل

اليه أن لا يحدث هذا الأمر .

قال راسكولنيكوف :

- ولكن الأفضل أن تموت !

فأخذت صونيا تردد مروعة " تائهة العقل زائغة النظرات :

- لا ، ليس هذا أفضل ، ليس هذا أفضل ...

- والأولاد ، ما أنت صانعة بهم عندئذ ، ما دمت لا تستطيعين أن

تأخذهم الى بيتك وأن تضميهم اليك ؟ ...

- آه ... لا أدري ...

بذلك هتفت صونيا يائسة وهى تمسك رأسها بيديها . كان واضحاً

أن هذه الفكرة قد وافقتها غير مرة ، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن

أيقظها .

وعاد الفتى يلجح فى السؤال بغير رحمة فيقول :

- وماذا اذا مرضت أنت فنقلت الى المستشفى قبل موت كاترين

ايفانوفنا ؟ ما الذى سيحدث عندئذ ؟

— آه ... ما هذا الذى تقوله ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ ذلك مستحيل.

وتقبَّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب *

وتابع راسكولنيكوف القاء أسلته وهو يتسم ابتسامة لا رحمة فيها :

— مستحيل ؟ كيف ؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضى * فما الذى

سيحدث لهم حين تمرضين ؟ سيصيرون فى الشارع ، وستمضى هى تسعل

وتستجدى وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون *

ثم تنهوى ، فتُنقل الى قسم الشرطة ، ثم الى المستشفى ، تموت * أما

الأولاد ...

— لا ، لا ، لن يأذن الله بهذا *

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مخنق * كانت قد

استمعت لكلامه صامتةً تنظر اليه مروعةً ، ضامةً يديها فى ضراعة

خرساء كأن كل شيء متوقف عليه *

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً * وانقضت

دقيقة * كانت صونيا واقفةً ، متهدلة الذراعين ، خافضة الرأس ، تعاني

ألماً شديداً وعذاباً رهيباً *

سألها وهو يتوقف أمامها فجأة :

— وما من وسيلة لادخار أى مال للأيام السود ، أليس كذلك ؟

فدمدمت تجيبه :

— طبعاً ... لا ...

ثم أضاف ساخراً :

— ولكن هل حاولت ؟

— حاولت *

- ولم تفلح المحاولة ؟ طبعاً لم تفلح ! لا داعى الى السؤال ...
وعاد يسير فى الغرفة • وانقضت دقيقة أخرى • قال :
- وسيكون مصير بوليتسكا كمصيرك حتماً •
فهتفت صونيا تقول بصوت قوى ، طائش ، كأنها طُعت بخنجر :
- لا ، لا ، هذا مستحيل • ان الله ، ان الله لن يسمح بمثل هذا
السقوط !

- دعيك من هذا الكلام ! انه يسمح بمثله وأكثر •
فرددت صونيا تقول خارجةً عن طورها :
- لا ، لا ، ان الله سيحميها !
أجاب راسكولنيكوف بفرح خبيث :
- ولكن قد لا يكون هناك اله !
ثم ضحك ونظر اليها •
عندئذ تشوه وجه صونيا تشوهاً فظيماً ، وسرت فى قسماتها رعدة
من تشنج • وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعقب قوى ولوم
شديد ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكن لم توافها كلمة واحدة ؛ وفجأة
انفجرت تشنج نشيجاً مرأ ، نشيجاً مرأ جداً ، وهى تغطى وجهها
بيديها •

قال راسكولنيكوف بعد صمت :
- تقولين ان كاترين ايفانوفنا قد فقدت عقلها ، ولكننى أرى أنك
أنت نفسك قد فقدت عقلك •
وانقضت خمس دقائق • كان راسكولنيكوف يسير فى الغرفة طولاً
وعرضاً ، دون أن يتكلم ، ودون أن ينظر اليها • واقترب منها أخيراً •

كانت عيناه تسطعان • أمسك كنفها بيديه ، وأنعم النظر الى وجهها
الغارق فى الدموع • كانت نظراته جافة ، ملتتهبة ، حادة • وكانت شفتاه
تختلجان اختلاجاً قوياً جداً • وانحنى فجأة بحركة سريعة ، فسجد
أمامها ، وقبّل قدميها • تراجعت صونيا مروعة كأنها ترى مجنوناً •
والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون •

تمتت تقول شاحبة الوجه ، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً :

— ماذا تفعل ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ أأمامى أنا تسجد ؟

فسرعان ما نهض ، وقال لها بلهجة وحشية :

— أنا لا أسجد أمامك أنت •••

ثم ابتعد نحو النافذة • وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود الى
قربها :

— اسمعى : لقد قلت منذ قليل لرجل كان يهينك انه لا يساوى

طرف اصبعك ••• واننى قد شرقت أختى حين أتحت لها اليوم أن
تجلس الى جانبك •

هتفت صونيا تقول مرتاعة :

— آه ••• ما هذا الذى قلته ؟ هل قلته أمامها ؟ جلوسها الى جانبى

يشرفها ؟ ولكننى ••• ولكننى أعيش فى العار ! آه ••• ما هذا الذى
قلته ؟

— أنا لم أقل ذلك مفكراً فى العار والخطيئة ، وانما قلته مفكراً

فى عذابك العظيم •••

ثم أضاف يقول فى حماسة :

— أما أنك خاطئة فهذا صحيح • وخطيئتك الكبرى هى أنك

ضحيت بنفسك وأهلكك نفسك « سدى » • نعم ، انه لأمر فظيع ، انه لأمر فظيع أن تعيشى كما تعيشين ، فى الوحل الذى تكرهين ، عالمة أنت نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً ، ولا تستطيعين أن تنقذى أحداً (يكفى المرء أن يفتح عينيه) •

ثم قال خارجاً عن طوره :

- ولكن قولى لى أخيراً : كيف يمكن أن يجتمع فى نفسك مثل هذا العار ومثل هذه الحطة مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر ؟ ألا انه ليكون أقرب الى العدل كثيراً ، وأقرب الى العقل كثيراً ، أن تلقى بنفسك فى الماء منكسة الرأس ، وأن تنتهى من هذا الوضع مرة واحدة الى الأبد ! •••

سألته صونيا بصوت ضعيف ، وهى ترفع نحوه نظرتها الأليمة :

- وما عسى يصيرون اليه ، هم ، اذا أنا فعلت ذلك ؟

غير أن هذه الفكرة التى أوحى اليها راسكولنيكوف لم يبد أنها أدهشتها • وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة خاصة •

لقد قرأ راسكولنيكوف فى نظرة الفتاة كل شيء • ان تلك الفكرة كانت تراودها اذن • لعلها من بأسها قد فكرت تفكيراً جاداً ، مرات كثيرة ، فى امكان وضع حد لحياتها آخر الأمر ، وبلغت من جد التفكير فى هذا أن النصيحة التى أسداها اليها راسكولنيكوف لم تثر فى نفسها أية دهشة تقريباً • حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التى قالها لها (لقد فاتها طبعاً معناها الحقيقى ، ولم تدرك الزاوية الخاصة التى كان راسكولنيكوف ينظر منها الى موضع العار ، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك) • ولكن راسكولنيكوف أدرك ادراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب وضعها الشائن ، وأدرك ادراكاً تاماً أنها تعاني هذا العذاب منذ مدة طويلة •

وتساءل راسكولنيكوف : « ما الذى أمكن أن يمنعها حتى الآن من انفاذ عزمها على التخلص من حياتها ؟ » • وعندئذ فقط انما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى فى نظر صونيا ، وقيمة هذه المسكينة كاترين ايفانوفنا المصدورة ، شبه المجنونة ، التى تدق رأسها بالحيطان •

ولكن هذا لم يمنع أن يدرك ادراكاً واضحاً كذلك أن صونيا ، بحكم طبعها وبحكم تربيتها ، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة ؛ حتى انه ليحيره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى فى هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجِنَّ هى أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتتجرع غرقاً فى الماء • صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس الا حادثة طارئة فى المجتمع ، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة واأسفاه ! ليست وحيدة البتة ، ولا هى استثنائية ! غير أن كون هذه الحادثة طارئة ، بالإضافة الى ما بقى للفتاة من تربيتها الماضية ، وبالإضافة الى ماضيها كله ، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التى قطعتها على هذا الطريق الدنيء الذى سلكته • فما الذى كان يبقياها على هذا الطريق اذن ؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً ، فان هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مسّاً خفيفاً بحكم طبيعة الأشياء ، أما قلبها فلم تتسلل اليه قطرة واحدة من رذيلة • ان راسكولنيكوف يرى هذا كله : لقد كانت صونيا واقفةً أمامه على حقيقتها •••

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هناك ثلاثة طرق تفتح أمامها : أن تلقى بنفسها فى القناة ، أن تصير الى ملجأ للمجانين ••• أن تندفع فى الدعارة التى تخبل العقل وتجمد القلب • • » ان هذه الفكرة الأخيرة هى التى ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين ، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن ، وهو الى ذلك شاب ، وهو الى ذلك ذو فكر مجرد ، والفكر المجرد

قاسٍ ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يتمتع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث ، أعني افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات الى الصدق ...

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه : « ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ هل يمكن أن تفوص نفس ما تزال طاهرة نقية ، هل يمكن أن تفوص في هذا المستقع واعية شاعرة ؟ هل بدأ هذا الغوص في المستقع القدر فعلاً ؟ هل من الجائز أنها لم تستطع أن تحتمل حياة كهذه الحياة حتى الآن الا لأن الرذيلة لا تبدو لها كريمة حقيرة الى هذا الحد ؟ » فلما وصل راسكولنيكوف من تساؤله الى هنا ، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل : « لا ، لا ، ان الشيء الذي صدّها عن اغراق نفسها في القناة حتى الآن انما هو فكرة « الخطيئة » ، وكذلك « هم » ... ولئن لم تبجن حتى الآن ... ولكن من ذا الذي يزعم أنها لم تبجن حتى الآن ؟ أصبح أنها ما تزال تملك عقلها ؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هي ، وأن تفكر كما تفكر ، اذا كان ما يزال سليم العقل ؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو ، أن يبقى هذا البقاء أمام المستقع القدر الذي أخذ يغوص فيه ، وأن يحرك يده في الوقت نفسه بإشارة تنم على العجز ، وأن يسدّ أذنيه كلما حُدث عن الخطر ؟ أليس معجزة من المعجزات أنها تنتظر ؟ نعم ، لا شك في ذلك . ولكن أليست هذه علامات جنون ؟ »

وتلبث راسكولنيكوف على هذه الفكرة في اصرار وعناد . ان حلاً كهذا يرضيه أكثر من أى حل آخر . وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد .

سألها :

– اذن أنت تصلين لله يا صونيا ؟

لم تجب صونيا ، وكان واقفاً أمامها ينتظر جوابها •

ودمدت صونيا تقول بسرعة بقوة عنيفة ، وهى تلقى عليه نظرة مختلطة ساطعة :

– ما الذى يمكن أن أصير اليه ان لم أؤمن بالله ؟

وتناولت يده ، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً •

قال يحدث نفسه : « نعم ، تلك هى الحقيقة » •

وسألها ليجبرها على الكلام :

– وماذا يفعل الله من أجلك ؟

فلبث صونيا صامتة مدة طويلة ، كأنها لا تستطيع أن تجيب • وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف • وهتفت تقول له أخيراً وهى تنظر اليه بقسوة وغضب :

– اسكت ، لا تسألنى عن شىء بعد الآن • أنت لا تستحق أن •••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً فى عناد واصرار : « تلك هى الحقيقة ، تلك هى الحقيقة • » •

ودمدت صونيا تقول بسرعة وهى تخفض عينيها من جديد :

– الله يفعل كل شىء !

وبعاطفة جديدة كل الجدة ، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مرضاً ، كان راسكولنيكوف يتفرس فى هذا الوجه الصغير ، النحيل ، الشاحب ، غير المتسق ، المتكسر الزوايا ، ويتفرس فى هاتين العينين الزرقاوين الرقيقتين العذبتين الحلوتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسعنا بلهيب قوى



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وأن تعبرا عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والعنف ؛
 ويفرس في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذى ما يزال يرتجف استياءً
 وغضباً ••• فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد
 شيء ، حتى ليكاد يكون مستحيلاً • وكان يردد قائلاً لنفسه : « هذه
 مخلوقة ضعيفة العقل ، هذه مخلوقة ضعيفة العقل • • »

وكان على المنضدة كتاب لاحظته راسكولنيكوف عدة مرات حين
 مروره أمام المنضدة • فيها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه • انه
 الانجيل باللغة الروسية : كتاب مجلّد ، عتيق مهترى •

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة :

— من أين هذا الكتاب ؟

وكان ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه على بعد ثلاث خطوات من
 المائدة •

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر اليه :

— جىء الىّ به •

— من جاءك به ؟

— اليزابت • كنت قد طلبته منها •

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه : « اليزابت ! ما أغرب هذا ! »
 ان كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً أكثر فأكثر ، من لحظة الى أخرى •
 وقرّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتصفحه •

وسألها فجأة :

— أين يجىء ذكر لعازر ؟

فطلت صونيا مطرقةً الى الأرض بعناد ولم تجبه • وكانت واقفة
غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة •

– أين الحديث عن قيام لعازر ؟ * أرنيه يا صونيا •
فألقت نظرة مواربة • ودمدمت تقول له بقسوة دون أن تقترب منه :
– لست تبحث عنه فى موضعه • انه فى الانجيل الرابع •
قال لها :

– ابخى عنه واقربه لى يا صونيا •

ثم جلس ، ووضع كوعيه على المائدة ، وأسند رأسه الى يده ، لافتاً
عينيه ، متجههم الهيئة ، متهيئاً للاصغاء ، قائلاً لنفسه : « بعد ثلاثة أسابيع ،
سأكون الفرسخ السابع * ، فيما أظن ، اللهم الا أن يحدث لى ما هو
شر من ذلك » •

دنت صونيا من المائدة مترددة ، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف
فى شك وريب • وتناولت الكتاب مع ذلك •

سألته وهى تنظر اليه من فوق المائدة بطرف عيناها :

– ألم تقرأه اذن من قبل ؟

وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء • أجابها راسكولنيكوف :

– قرأته منذ زمن طويل ••• فى أيام الدراسة •

– وفى الكنيسة ، ألم تسمعه ؟

– لا أذهب الى الكنيسة • هل تذهين أنت الى الكنيسة أحياناً

كثيرة ؟

تمتمت صونيا تقول :

— ل... لا

فايتسم راسكولنيكوف *

— فهمت * وأغلب الظن أنك لن تحضري دفن أبيك في الغد
أيضاً ، أليس كذلك ؟

— بل سأحضر *** لقد ذهبت الى الكنيسة في الأسبوع الماضي
أيضاً * وأقيمت قداساً *

— لمن ؟

— لاليزابت * لقد قتلت بساطور *

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر * وأخذ يشعر
بدوار *

— هل كنت صديقة لاليزابت ؟

— نعم *** كانت اليزابت امرأة صالحة *** وكانت تنجى الى ***
نادراً *** لم يكن في وسعها أن تزورنى أكثر من ذلك * وكنا نقرأ
معاً *** وكنا نتحدث *** سترى الله * ***

ترجعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً فى نفس
راسكولنيكوف * وقال لنفسه : « وهذه معلومات جديدة ! أحاديث سرية
بين اليزابت وصونيا *** بين مخلوقتين كلتاهما ضعيفة العقل ! هنا يصبح
المرء نفسه ضعيف العقل *** بالعدوى ! *** » *

وهتف يقول لها بالحاح وحق :

— اقرئى !

ولكن صونيا ما تزال مترددة * كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً *

لأنها لا تجرؤ أن تقرأ له • وكان هو ينظر إليها معذباً ، قائلاً لنفسه :
« يا للمجنونة المسكينة ! » •

تمتتم تقول له بصوت خافت ، كأنها مقطوعة الأنفاس :
- ما حاجتك الى ذلك وأنت لا تؤمن ؟
فأجابها يقول مصرّاً :

- بل اقرئى ! أريد أن تقرئى ! أما كنت تقرئين لاليزابت ؟...

فتحت صونيا الكتاب ، ووجدت العبارات المطلوبة • كانت يداها ترتجفان ، وكان صوتها مختنقاً • حاولت مرتين أن تبدأ القراءة ، ولكنها لم تفعلح فى نطق الكلمة الأولى • ثم قرأت أخيراً :

« وكان انسان مريضاً ، وهو لعازر ، من بيت عنيا *** » * •

ولكن صوتها اختلج وتحطم منذ الكلمة الثالثة ، كما يتحطم وتر مشدود • لقد انقطع تنفسها • وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً •

أدرك راسكولنيكوف بعض الادراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على أن تقرأ له ، فكان كلما ازداد ادراكاً لهذا ، ازداد الحاحاً فى طلب القراءة بفضاضة وغضب • كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز فى نفسها أن تكشف عما يخصها « هى » ، وأن تبوح به • أدرك أن هذه العواطف هى « سرّها » فعلاً ، ربما منذ مراهقتها ، منذ الوقت الذى كانت تعيش فيه مع أسرتهما بين أب شقى وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة ، قرب أطفال جاع ساعين ، فى بيئة لا ترتفع فيها الا صرخات مسعورة وملامات متصلة لا تنقطع • ولكنه كان يعلم فى الوقت نفسه - هو واثق من هذا - أنها على تألمها الشديد وخوفها القوى تحس رغم حزنها وخشيتها برغبة جارفة مؤلمة فى أن تقرأ ، وفى أن تقرأ له « هو » ، من أجل

أن يسمع ، ومن أجل أن يسمع « الآن » خاصة ، « مهما يحدث بعد ذلك » • كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة ، وكان يدركها من احتياج أعصابها •

تحاملت صونيا على نفسها ، وبذلت جهداً كبيراً ، فكبحت التشنج الذى ألمَّ بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى ، وتابعت قراءة الاصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، ووصلت الى الآية التاسعة عشرة :

« وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما • فلما سمعت مرثا أن يسوع آت لاقتنه • وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت • فقالت مرثا ليسوع : يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى • لكننى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله اياه •»

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرة أخرى ، وهى تشعر بالحجل من أن صوتها يختلج وأنه سيتحطم من جديد ••• ثم تابعت القراءة :

« قال لها يسوع : سيقوم أخوك • قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة ، في اليوم الأخير • قال لها يسوع : أنا القيامة والحياة • من آمن بى فسيحيا ولو مات • وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت الى الأبد • أتؤمنين بهذا ؟ » •

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد ، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بايمانها هى نفسها على رءوس الأشهاد :

« قالت له مرثا : نعم يا سيد • أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله ، الآن الى العالم • • » •

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة ، ولكنها رفعت عينيها «إليه»
بحركة قوية ، فسرعان ما ثابت الى نفسها ، واستمرت تقرأ • كان
راسكولنيكوف يصغى الى القراءة ساكناً جامداً ، دون أن يلتفت ،
واضعاً كوعيه على المائدة ، ناظراً الى جانب • وبلغت صونيا الآية الثانية
والثلاثين :

« فلما أتت مريم الى حيث كان يسوع ورأته ، خرَّت عند رجله
قائلة : يا سيد ، لو كنتَ ههنا لم يمت أخى • فلما رآها يسوع تبكى
واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب • وقال : أين
وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظر • بكى يسوع • فقال اليهود :
انظروا كيف كان يحبه • وقال بعض منهم : ألم يكن يقدر هذا الذى
فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » •

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر اليها منفعلاً
مضطرباً • نعم ، صدق ظنه ! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعانى من
حمى حقيقية • انه توقع ذلك • وكانت تقترب من الآيات التى تروى
المعجزة العظيمة الكبرى ، فكان شعور بالانتصار يحتاج نفسها • ان
صوتها يرن رنين معدن • ان الفرخ والظفر يترجعان فى نفسها ويشدان
ازرها • واختلطت الأسطر أمام عينيها ، واضطرب بصرها ، لكنها كانت
تعرف ما تقرأه على ظهر القلب • انها حين قرأت الآية الأخيرة : « ألم
يكن يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » ،
قد خفضت صوتها ، معبرةً بحماسة ملتبهة عن شك واستياء أولئك
اليهود العمى الذين سيركمون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة ،
وسيجهشون باكين ، وسيؤمنون • قالت لنفسها : وهو ، « هو » أيضاً ،
الأعمى ، الذى لا يؤمن ، هو أيضاً سيسمع ، وهو أيضاً سيؤمن ،

نعم ، نعم ، سيؤمن ، سيؤمن فوراً ، حالاً • فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً • وثابتت قراءتها :

« فانزعج يسوع أيضاً في نفسه وجاء الى القبر • وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر • قال يسوع : ارفعوا الحجر • قالت له مرثا أخت الميت : يا سيد ، قد أنتن لأنه هنا منذ أربعة أيام • » •

أبرزت صونيا في قراءتها كلمة « أربعة » • وثابتت تقرأ :

« قال لها يسوع : ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله • فرفعوا الحجر ، ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : أيها الأب ، أشكرك لأنك سمعت لي • وأنا كنت أعلم أنك تسمع لي في كل حين • ولكن لأجل هذا الجمع الواقف حولي قلت هذا ، ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني • ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلمّ خارجاً • فخرج الميت • • • »

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوى ظافر ، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينها •

« • • • ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل • فقال لهم يسوع : حلّوه ودعوه يذهب • » •

« فكثيرون من اليهود الذين جاءوا الى مريم ومرثا ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به • • » •

لم تمض صونيا في القراءة الى أبعد من هذا • لقد عجزت عن ذلك • فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية شيطانية ، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع :

— هذا كل ما يُروى عن قيام لعازر •

وتجمدت فى مكانها مشيخةً وجهها ، كأنها تستحى أن ترفع
عينها نحو راسكولنيكوف • وكانت ما تزال ترتجف من الحمى •

كان عقب الشمعة التى ذابت فى الصحن المتعقف منذ مدة ، تلقى
ضياءً ضعيفاً على القاتل والموس وقد ضمّنهما قراءة « الكتاب الخالد »
فى هذه الغرفة البائسة •

وانقضت خمس دقائق أو تزيد •

ونهض راسكولنيكوف ، واقترب من صونيا ، وقال لها فجأة بصوت
قوى وقد اكفهر وجهه :

— انما جئت لأحدثك فى أمر بعينه •

فنظرت اليه صونيا صامتة • وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية
قال :

— تركت اليوم أهلى : أمى وأختى • فلن أذهب اليهما بعد الآن •
لقد قطعت صلتى بهما قطيعة تامة •
فسألته صونيا مصعوقة :

— لماذا ؟

ان اللقاء الذى تمّ بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل
قد ترك فى نفسها أثراً خارقاً ، رغم أنها لم تستطع أن تحدّده • فلما
سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذعراً •

أضاف راسكولنيكوف يقول :

— لم يبق لى سواك • هلمى نسافر معاً • لقد جئت اليك • نحن
ملعونان كلانا ، فلنسافر معاً !

وكانت عيناه تسطعان • قالت صونيا لنفسها هي أيضاً : « ان هيئته
تدل على أنه مجنون » •

وسألته مرتاعة :

- نسمافر الى أين ؟

وتراجعت متقهقرة على غير ارادة منها • قال لها :

- أتسى لى أن أعرف ! كل ما أعرفه أن الطريق الذى سنقطعه
واحد • أنا واثق بهذا ، ولا أعرف شيئاً سواه • وان هـدفنا واحد
أيضاً •

كانت تنظر اليه ولا تفهم • كل ما كانت تدركه هو أنه انسان
شقى شقاء رهيباً ، شقى الى غير نهاية •

وأضاف راسكولنيكوف يقول :

- ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه • أما أنا فقد
فهمتك • أنا فى حاجة اليك • ولهذا السبب انما جئتك •

تمت صونيا قائلة :

- لست أفهم ...

- ستفهمين فى المستقبل • ألم تفعلنى مثل الذى فعلت أنا ؟ أنت
أيضاً خرقت القانون ، أنت أيضاً ... أنت أيضاً دمّرت حياة ... هي
حياتك طبعاً ، ولكن ما الفرق ؟ كان يمكنك أن تعيشى بروحك • ولسوف
ينتهى بك المطاف فى المستقبل الى قرب « سوق العلف » • ولكنك لن
تستطيعى أن تحتملى ذلك ، فان بقيت « وحيدة » فسوف تفقدين عقلك
مثل • انك منذ الآن أشبه بمجنونة • فلماذا لا نسمافر اذن معاً ، لماذا
لا تتبع طريقاً واحداً ؟ فلنسمافر !

تمت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً
قوياً :

— لماذا ، لماذا تقول هذا الكلام ***

— لماذا ؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً . هذا هو
السبب . لا بد للمرء آخر الأمر من أن يبكي ، بدلاً من أن يصرخ
قائلاً كطفل صغير : « الله لن يسمح بهذا » . قولى لى : ما الذى سيحدث
إذا اقتادوك غداً الى المستشفى ؟ ان الأخرى قد فقدت عقلها ، وهى مصابة
بداء السلى ، وستموت قريباً . والأولاد ؟ هل يمكن أن لا تضع بوليتسكا
هى أيضاً ؟ ألم ترى هنا ، فى نواصى الشوارع ، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم
فى طلب الصدقات ؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات ، وفى أى
ظروف تعيش . ان الأطفال لا يمكن أن يبقوا فى أمثال تلك الأماكن
أطفالاً . فى أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذى عمره سبع سنين ،
يصبح داعراً أو لصاً . والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح ، « لهم
ملكوت الرب » * ؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم . هم اسنانية
المستقبل ***

رددت صونيا تقول وهى تلوى يديها ألماً وتجهش باكية بكاء
هسترياً :

— ما العمل اذن ؟ ما العمل اذن ؟

— ما العمل ؟ نحطّم مرة واحدة كلّ ما يجب تحطيمه ، ولا شيء
غير ذلك . نتحمل العذاب . ماذا ؟ ألا تفهمين ؟ سوف تفهمين
فى المستقبل ! الحرية والسيطرة ، السيطرة خاصة ! السيطرة على جميع
المخلوقات المرتجفة ، على كل هؤلاء النمل . ذلك هو الهدف ! تذكرى
هذا ! تلك هى وصيتى لك . لعل هذه آخر مرة أكلّمك فيها . اذا لم

أجىء غداً ، فستعلمين كل شيء بنفسك ، فاذكري حينئذ كلماتي • قد تفهمين معناها فى يوم من الأيام ، بعد سنة ، ولكن اذا جئت غداً ، فسأقول لك من الذى قتل اليزابت • وداعاً !

ارتعشت صونيا ذعراً • وسألته وهى ترمقه بنظرة متوحشة :

— أأنت تعرف حقاً ... من الذى قتلها ؟

— أعرف ذلك ، وسأقوله لك ... لك وحدك ! لقد وقع اختيارى عليك • لن أجىء اليك لاستغفرك ؛ وانما لأحدثك ببساطة • لقد اخترتك منذ مدة طويلة لأحدثك ، اخترتك منذ اللحظة التى كلمنى فيها أبوك عنك ، وكانت اليزابت ما تزال حية • وداعاً ! لا تناولينى يدك ! الى الغد ! •

وخرج • كانت صونيا تنظر اليه وكأنها تنظر الى مجنون ، ولكنها كانت هى نفسها أشبه بمجنونة ، وكانت تشعر بذلك • وكانت تحس بدوار •

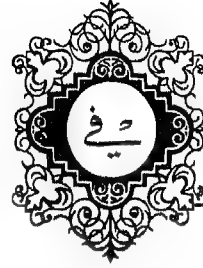
تساءلت : « رباه ! كيف يعرف من الذى قتل اليزابت ؟ ما معنى هذه الأقوال ؟ فطيع ، فطيع ! ... » • ولكن لم يخطر ببالها « أن ... » • لم يخطر ببالها هذا فى لحظة من اللحظات ، لم يخطر ببالها فى أية لحظة من اللحظات ! وقالت تحدثت نفسها : « لا بد أنه شقى ، لا بد أنه شقى شقاء رهيباً ! ترك أمه وأخته • لماذا ؟ ماذا جرى ؟ ما نيته ؟ ماذا قال لى ؟ لقد لثم قدميَّ وقال لى ... قال لى ... نعم ... قال لى ذلك بوضوح ... قال لى انه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدونى • آه ... رباه ! ... »

قضت صونيا الليل كله فى حمى وهذيان • فتارة تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكى وتلوى يديها الماءً ، وتارة تهوى الى نوم محموم

فترى فى الحلم بوليتشكا وكاترين ايفانوفنا واليزابت وقراءة الانجيل ••
وتراه هو ••• هو ••• بوجهه الشاحب ، وعينه المتقدتين ، يلثم قدميه ،
ويبكى ••• آه ••• يارب !•••

وراء الباب ، وراء ذلك الباب نفسه الذى يفصل غرفة صونيا عن
شقة جرتروود كارلوفنا ريسليش ، كانت توجد غرفة وسيطة ، خالية منذ
مدة طويلة ، هى جزء من شقة السيدة ريسليش ، وكانت السيدة ريسليش
تريد أن تؤجرها ، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعة على باب مدخل
العمارة ، والأوراق الصغيرة الملتصقة على زجاج النوافذ التى تطل على
القناة • وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خالية غير مسكونة • غير
أن السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق بالباب فى هذه الغرفة الخالية ،
فأصغى الى كل الحديث الذى جرى بين صونيا وراسكولنيكوف ، حتى اذا
خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظة يفكر ، ثم رجع سائراً على رءوس
الأصابع الى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية ، فتناول كرسيّاً وجاء يضعه
برفق وهدوء على الباب المؤدى الى غرفة صونيا • لقد شاقه الحديث الذى
جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً ، ورأى أنه جدير بأن يُسمع
وأن يحفظ ؛ وبلغ من شدة اعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه
به أنه حمل الكرسي وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر فى المرة القادمة
التي قد يكون الغد موعدها - من يدري ؟ - أن يزعم نفسه بالبقاء واقفاً
طوال ساعة كاملة • هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة ، فتكون
متعته من جميع النواحي كاملة •

الفصل الخامس



الغد ، في الساعة الحادية عشرة تماماً ، حين وصل راسكولنيكوف الى قسم الشرطة ، ودخل على مكاتب مفوض التحقيق*، وطلب مقابلة بورفير بتروفيتش ، أدهشه أنه طُلب اليه أن ينتظر . لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى ، وكان يتبأ أن يُستقبل فوراً .

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار ، بينما كان يذهب ويجيء من حوله أناس لا يبدو عليهم أنهم يكثرثون به أى اكتراث . وفي الغرفة المجاورة التى يدلّ مظهرها على أنها غرفة مكتب ، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة ، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذى يعمله هناك .

وكان راسكولنيكوف يُجبل على ما حوله نظرة قلقة فيها ارتياب ، متسائلاً : ترى ألا يوجد هنا ، على مقربة منه ، شخص سرّى ما ، جاسوس* ما ، مكلف بمراقبته ، وبمنعه من الخروج اذا هو أراد أن يخرج ؟ ولكن لا . . . لم يكن ثمة شىء من هذا القبيل . لم يكن ثمة الا مستخدمون صغار ، غارقون فى أعمالهم الصغيرة ، وأشخاص آخرون ، لكن هؤلاء الأشخاص الآخرين كانوا هم أيضاً لا يهتمون به ، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواه . وها هى ذى فكرة تبتت فى ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً : لو كان ذلك الشخص اللغز الذى لقيه بالأمس ، لو كان ذلك الشيخ الذى ظهر له من تحت الأرض ، لو كان يعلم كل شيء ، لو كان قد رأى كل شيء ، أفكان يُترك له ، هو راسكولنيكوف ، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً ؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة ، حتى الساعة التى ارتأى فيها أن يجيء من تلقاء نفسه ليدلى بإفادته ؟ اذن لم يش به ذلك الرجل بعد ... او أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أى شيء على كل حال ؟) • واذن لم يكن كل ما حدث له بالأمس ، هو راسكولنيكوف ، الا سراياً ، الا رؤيا ضخّمها خياله المهتاج المريض • ان هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس ، فى لحظة هى من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات احساسه باليأس •

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر فى هذا كله مرةً أخرى ، وفيما كان يتهيأ لكفاح جديد ، شعر فجأةً بارتعاش ، فعلت نفسه غلياناً شديداً اذ تصور أنه انما يرتعش خوفاً ، لأنه سيقف أمام بورفير بتروفتش الكريه • ان أقطع شيء هو أن يلقى هذا الرجل من جديد • انه يكرهه كرهاً لا حدود له ، كرهاً ليس له نهاية • وكان يخشى أن يؤدي به هذا الكره ، على نحو من الأنحاء ، الى أن يفضح نفسه • وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعاشه فوراً • وأعدّ راسكولنيكوف، نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء ، وحلف ليقيناً صامتاً الى أبعد حدود الصمت ، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر فى هذه المرة على مزاجه المهتاج المريض ، مهما يحدث من أمر ...

وفى اللحظة التى اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار ، دُعى الى الدخول على بورفير بتروفتش •

كان بورفير بتروفتش عندئذ وحيداً فى غرفته • انها حجرة لا هى

بالكبيرة ولا هي بالصغيرة ، تضم مكتبة كبيرة موضوعاً أمام ديوان مغطى
بقماش مشمّع ، وتضم منضدة ، وخزانة في ركن من الأركان ، وعدة
كراسي من خشب أصفر نقش طلائده ؛ وهذا كله من أثاث الإدارة •
وفي الجدار الذي يقع في آخر الغرفة ، أو قل في الحاجز الذي يقع في
آخر الغرفة ، يوجد باب مغلق : فلا بد إذن أن وراء هذا الحاجز حجرات
أخرى •

فما إن أُدخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفير بتروفتش ذلك
الباب الذي كان قد دخل منه ، وبقي الرجلان وحيدين •

استقبل مفوض الشرطة زائره طلق المحيا متودداً متحياً في ظاهر
الأمر ؛ ولم يستطع راسكولنيكوف إلا بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض
العلامات أن بورفير بتروفتش مرتبك بعض الارتباك ، فكأنه أزعج أثناء
قيامه بمهمة سرية •

بدأ بورفير بتروفتش يتكلم وهو يمد إلى راسكولنيكوف يديه
فقال :

— آ ••• عزيزي ••• هأت ذا اذن ••• في نواحيننا ... تفضل...
اجلس يا عزيزي ! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولي يا عزيزي ،
« فقط » ، هكذا ! ••• لا تحسب هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم التخرج ،
أرجوك ••• ولكن لماذا لا تجلس ؟ اجلس هنا ، على الديوان •••

جلس راسكولنيكوف دون أن يحوّل عنه عينيه •

وقال يحدث نفسه مرتاباً : « في نواحيننا ••• اعتذارات عن رفع
الكلفة وعدم التخرج ••• هذا التعبير الفرنسي « فقط » ••• صحيح أنه
مدّ إلى يديه ، لكنه لم يناولني لا هذه ولا تلك منهما ، بل سحبهما
في الوقت المناسب ••• » •

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصده ، ولكن ما ان تلتق
نظراتهما حتى يحولّاهما بسرعة كومض البرق •

قال راسكولنيكوف :

— جئتك بالعريضة الصغيرة ••• في موضوع الساعة ••• اليك
هي • أهكذا يجب أن تُحرَّر أم علىَّ أن أُعيد كتابتها ؟

— ماذا ؟ أى عريضة ؟ آ ••• نعم ، نعم ، اطمئن ، هذا هو
المطلوب تماماً •

كذلك قال بورفير بتروفتش بسرعة كأن أمراً ما كان يستحسّه ،
ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة • وواصل كلامه بذلك التعجل
نفسه فقال مؤكداً :

— ذلك هو المطلوب تماماً • لا يجب أكثر من هذا •••

ووضع الورقة على مكتبه • ثم بعد دقيقة ، بينما كان يتكلم في أمر
آخر ، تناول الورقة من جديد ومضى يرتبها في درج المنضدة •

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

— قلت لى بالأمس ، « فيما يخيّل الىّ » ••• انك تودّ ••• أن
تستجوبنى •• رسمياً •• عن علاقائى ••• بالمرأة القتل •••

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه : مؤنباً : « عجيب ••• لماذا
أضفت جملة « يخيّل الىّ » هذه ؟ » •

ثم أسرع يقول لنفسه على الفور : « ولكن لماذا ألقى هذا القلق كله
من قولى « يخيّل الىّ » ؟ » •

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفير بتروفتش ، وهذه

الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها قد كانت كافية لأن تحدث في نفسه ارتياباً شديداً ... وأن هذا كله خطر ، خطر خطراً رهيباً ، فقال لنفسه مقررأ : « غلط ، غلط ، سأفصح أمرى من جديد » *

جمعهم بورفير بتروفتش يقول :

— نعم ، نعم ، اطمئن ... ليس الأمر بمستعجل ... ليس الأمر بمستعجل البتة ... *

وكان بورفير بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً ، ولكن دون ما هدف فيما يبدو ، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة ، ثم يجذبه نحو مكتبه ، ثم يجذبه نحو النافذة فالمكتب من جديد *

وكان وهو يسير يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الريّابة ، ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة ، فيحدّق الى محدّته وجهاً لوجه * انه لمشهد غريب ، مشهد هذا الرجل القصير السمين ، المدوّر ككرة ، الذي كان كأنه يتدحرج من هنا وهناك ، ثم يعود يثب على الفور من جميع الجدران ، وجميع الأركان *

— أماننا متسع من الوقت ، أماننا متسع من الوقت ... هل تدخّن ؟ هل تملك ما ... اليك سيجارة (قال ذلك وهو يفتح علبة سجائره) ... اننى استقبلك هنا ، ولكن شقتى هناك ، وراء هذا الحاجز * أنا أسكن على نفقة الدولة ، ولكنى أسكن مؤقتاً فى خارج الدائرة كما تعلم ... نعم ، ذلك أن هناك اصلاحات صغيرة وجب اجراؤها هنا ، وقد أوشكت الآن أن تنتهى * شئ عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة ، هه ؟ شئ عظيم جداً * ما رأيك ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

— نعم ، شيء عظيم جداً !

فردد بورفير بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف :

— شيء عظيم جداً ، شيء عظيم جداً

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً ، وهو يحدّق الى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه :

— نعم ، شيء عظيم جداً *

ان هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة (أن السكنى على نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض بعض المناقضة ما كان قاضى التحقيق يرمى به راسكولنيكوف من نظرة جادة ، متأملة ، مغلظة. ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش ، فيسأل بورفير بتروفتش فجأة ، وهو يلقي عليه نظرة تكاد تكون وقحة ، حتى لكانه يجد في وقاحته هذه لذة ومثعة :

— هل تعلم أن هناك ، فيما يقال ، قاعدة قضائية ، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق ، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة ، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذى يستجوبه ، أو قل من أجل أن يسهّيه ، من أجل أن ينوّم انتباهه ، ثم اذا هو يهوى على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب ؟ أليس هذا

صحيحاً ؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبّق حتى الآن تطبيقاً دقيقاً ،
وروعى مراعاة تامة •

– اذن ، اذن ، أنت تظن أنني انما حدثتكَ عن المساكن التي تقدمها
الدولة على نفقتها ، من أجل أن ... هه ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ، وغضّضَ جفنيه وطرف بعينه وبان في
وجهه تعبير عن مرح ومكر ، وامحت تجاعيد جبينه الدقيقة ، وتضيق
عيناه الصغيرتان ، وتمددت أخيراً قسماته، فحدّق الى عيني راسكولنيكوف
وانفجر يضحك ضحكاً عصبياً طويلاً يهزُّ جسمه كله • وأراد
راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته في الضحك ، فهمّ أن
يضحك هو أيضاً ، ولكن بورفير بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف
يوشك أن يشاركه ضحكه ، اتابته نوبة مسعورة من ضحك بلغ من
القوة أن وجهه احمر احمراراً شديداً ، فتغلب اشمزاز راسكولنيكوف
عندئذ على تعقله ، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر الى بورفير
بتروفتش طويلاً ، نظرة كارهة حاقدة ، وظل لا يحوّل عنه بصره الى ان
انتهى بورفير من ضحكه المصطنع المفتعل • والحق أن الرجلين كليهما لم
يلتزما جانب الحكمة والتبصر والتعقل : فأما بورفير فكان كمن يسخر من
زائره صراحةً ، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره
شديد ، وهو كره لم يظهر على القاضى أنه ضاق به أو انزعج منه على كل
حال • وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف : لقد أدرك راسكولنيكوف
أن بورفير لم يكن مرتبكاً أى ارتباك منذ قليل ، وأنه هو الذى وقع

فى الفخ ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك ، أمراً مبيتاً مخبأً سينصب على رأسه بعد لحظة ...

لذلك انتقل الى الجرد قُدماً ، فنهض متناولاً قبعته ، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها احتياجاً قوياً :

— يا بورفير بتروفتش ، لقد أعربت أمس عن رغبتك فى أن ترانى من أجل أن تستجوبنى (أبرز راسكولنيكوف كلمة « تستجوبنى » هذه) ، وهأنا ذا قد جئت ، فإن كنت فى حاجة الى أن تعرف شيئاً ما ، فاستجوبنى ، والا فاسمح لى أن أنصرف . ليس فى وقتى متسع . هناك أمور تنادىنى ... يجب على أن أحضر دفن ذلك الموظف الذى داسته الحيل أمس ...

وأضاف يقول :

— وقد سمعت أنت عن الحادثة التى وقعت له ...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فإزداد من ذلك غضبه ، وتابع كلامه فقال :

— لقد تعبت من هذا كله ، تعبت ، هل تفهم ؟ تعبت منذ زمن طويل ... ولعل ذلك أحد الأسباب التى جعلتنى مريضاً ...

وشعر مرةً أخرى بأن الجملة التى أضافها عن مرضه ليست فى محلها أيضاً ، فتابع يقول رافعاً صوته :

— الخلاصة ... استجوبنى من فضلك ... أو دعنى أنصرف فوراً . ولكن اذا استجوبتنى فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول

المطلوبة والقواعد المتبعة ، وبغير ذلك لا أسمح لك به • لذلك أودّعك الآن فليس علينا أن نجتمع فى خلوة •

صات بورفير بتروفتش يقول مغتيراً لهجته ووضعه على حين فجأة ، منقطعاً عن الضحك دفعةً واحدة :

– عجيب ! ماذا جرى لك ؟

ثم أردف يقول :

– اطمئن ، أرجوك ...

وكان يذهب ويحىء مهموم البال • وفجأةً طلب الى راسكولنيكوف أن يجلس ، وقال له :

– لدينا متسع من الوقت ، لدينا متسع من الوقت ، وهذا كله لقيمة له البتة • بالعكس : أنا مسرور جداً من أنك جئت إلينا أخيراً ! اننى استقبلك كما يُستقبل ضيف • أما عن ذلك الضحك اللعين ، فاعذرني يا عزيزى روديون رومانوفتش ... هذا هو اسمك ، أليس كذلك ؟ روديون رومانوفتش ... ان ملاحظتك المرحفة قد أثارت فى نفسى مرحاً شديداً ... حقاً انه ليتفق لى أحياناً أن أثواب ككرة من المطاط طوال نصف ساعة • اننى سريع الى الضحك • حتى اننى أخشى أن أصاب بنوبة قلبية • ولكن لماذا لا تجلس ؟ هلاًّ جلست ! أرجوك أن تجلس يا عزيزى ، والا اعتقدت أنك زعلان !

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغى ويلاحظ ، وما يزال مقتطّب الحاجبين من الغضب • وقد جلس ، لكنه ظل ممسكاً قبضته بيده •

وتابع بورفير بتروفتش كلامه وهو ما يزال يتجول فى الغرفة ، ويتحاشى نظرة ضيفه ، فقال :

- سأذكر لك شيئاً يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لأعطيك فكرةً عن طبيعتى . أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى ، فأنا اذن لا أعاشر الناس ولا أختلف الى المجتمع كثيراً ، وأنا اذن رجل غامض ، مجهول . وأنا عدا ذلك انسان مكتمل التكوين ، متعظم الجسم ، متخدر الاحساس ، و . . . و . . . هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أنه عندنا ، أقصد عندنا فى روسيا ، ولا سيما فى أوساطنا البطربرجية ، ما ان يلتق شخصان ذكيان - مثلنا نحن ، أنا وأنت ، ان صح التعبير - حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للآخر ؟ ان كلاهما ينظر الى صاحبه ككليين من خزف ، وان كلاهما يخشى صاحبه ويخاف منه . ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، السيدات مثلاً . . . أو أفراد المجتمع الراقى . . . أفراد الطبقة العليا . . . نعم ، ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، « ذلك واجب لا مفرّ منه » * . ولكن أفراد الطبقة المتوسطة . . . الأفراد الذين هم مثلنا . . . يكونون دائماً مرتبكين صموتين . . . أعنى منهم أولئك الذين يفكّرون . فما سبب هذا يا عزيزى ؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هى التى تعوزنا ، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحداً أن يخدع صاحبه ؟ لا أدرى . . . فما رأيك أنت ؟ ولكن هلاً تركت قبعتك ! لكأنك تريد أن تنصرف فوراً . هذا مؤسف . أما أنا فمسرور حقاً . . .

ترك راسكولنيكوف قبعته ، ولكنه ظل صامتاً متجهماً الوجه يصغى بجدي ورصانة الى ثمرات بورفير بتروفتش المفككة ، متسائلاً بينه وبين نفسه : « أيريد حقاً أن ينوّم انتباهى بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه السخيف ؟ » .

وواصل بورفير بتروفتش كلامه يقول :

— لست أقدم لك قهوة ، فليس هذا بالمكان المناسب • ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق ••• لتسليه قليلاً •• هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم ••• وأرجوك خاصةً يا عزيزى أن لا تزعج إذا رأيتنى على هذه الحال أسير فى الغرفة طويلاً وعرضاً ••• معذرةً يا عزيزى ••• اننى أخشى كثيراً أن أزعلك ••• ولكن لا بد لى من شيء من الرياضة ••• اننى جالس دائماً •• ويسرنى كثيراً أن يتاح لى الآن أن أمشى قليلاً خلال خمس دقائق ••• هى البواسير يا عزيزى ••• وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية •• يقال ان رجالاً من مستشارى الدولة ، رجالاً من كبار موظفى الدولة ، يقفزون على الجبل كل يوم على نظام مطرد ، ويجدون فى ذلك لذة • نعم ، ان العلم هو الذى يطالب بهذا فى أيامنا ••• أما التزامتى هنا ، أما هذه الاستجابات وهذه الشكليات كلها التى جئت على ذكرها ، فعليك أن تعلم حقاً يا عزيزى روديون رومانوفتش أن هذه الاستجابات كثيراً ما تحيّر القاضى أكثر مما تحيّر المتهم ••• كما أملت أنت الى ذلك بكثير من رهاقة الملاحظة ونفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمح الى شيء من هذا البتة) • نعم ، ان المرء ليرتبك ، ان المرء ليرتبك حقاً ، وتختلط عليه الأمور • وهذا يتكرر هو نفسه دائماً ، يتكرر هو نفسه دائماً ، على وتيرة واحدة ، كقرع الطبل •• نعمة واحدة •• على أننا موعودون الآن باصلاحات ، فستغير اسمائنا * على الأقل • هى • هى • هى •! ••• أما عن أساليبنا القضائية — على حدّ تعبيرك الظريف الفكه — فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • قل لى من فضلك : أى متهم لا يعرف ، ولو كان أجهل فلاح ، أن المحقق انما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حدّ تعبيرك المناسب الموفق) ، بأن يلقي عليه أسئلة لا تمت الى الموضوع بصلة ، ثم يهوى على رأسه بالموضوع كأنه يهوى عليه بساطور •••

هىء هىء هىء تعبيرك الموفق أيضاً هىء هىء ! اذن لقد
ظننتَ فعلاً أننى حين حدثتك عن مسألة السكنى على نفقة الدولة انما
كنت أريد هىء هىء ! يا لك من فتى ملء بالسخرية ! لا ، لن
أفعل شيئاً من هذا . آ بالمناسبة ان كلمة تستدعى كلمه
أخرى ، وان فكرة تستحضر فكرة ثانية لقد أشرت ، منذ قليل ،
الى أصول الاستجواب وقواعده ، كما تذكر أشرت الى الشكل
الذى يجب التقيد به فى الاستجواب . ولكن قل لى : ما هو الشكل ؟
ان الشكل ، فى كثير من الأحيان ، لا يكون له أى معنى . ورب حديث
ودى أنفع كثيراً من استجواب يتقيد فيه المحقق بالشكل ، ويلتزم فيه
القواعد والأصول . طبعاً لا يمكن أن يختفى الشكل اختفاء تاماً ،
فى وسعك أن تطمئن من هذه الناحية . ولكن ما الشكل فى حقيقة
الأمر ؟ ليس ينبغي للشكل أن يعرقل عمل قاضى التحقيق فى كل لحظة .
ان مهنة قاضى التحقيق فنٌ حر ان صرح التعبير أو هى شىء يشبه
أن يكون هىء هىء هىء !

توقف بورفير بتروفتش ليسترد أنفاسه . كان يتكلم متدفقاً
كالسيل ، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل ،
وتارةً يدس كلمة صغيرة أشبه بلغز ، ليعود بعد ذلك فوراً الى هذره
التافه ولغو السخيف . وكان كمن يركض فى الغرفة ركضاً ، هائلاً
ساقيه القصيرتين السمينتين مزيداً من الهز ، واضعاً يده اليمنى وراء
ظهره ، محرّكاً يده اليسرى باشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً .
ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو
ثلاثاً أمام الباب ، وبدا عليه أنه يصيح بسمعه لحظة . تساءل راسكولنيكوف :
« أهو ينتظر شيئاً ؟ » .

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال مرحباً وهو يلقي نظرة فيها طيبة أرعشت الشاب وأثارت شكوكه وريبه :

- الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من اجراءاتنا القضائية...
هـىء هـىء... ان أساليبنا - بعضها لا كلها طبعاً - توهم بأنها مستوحاة من سيكولوجيا عميقة ، مع أنها فى حقيقة الأمر مضحكة تماماً ، بل هـى فى كثير من الأحيان عقيمة ، ولا سيما عند التقيد بالشكل تقيداً دقيقاً .
ولكن... فلنعد الى مسألة الشكل هذه نفسها : لنفرض أننى مكلف بالتحقيق فى قضية ، وأننى أعرف أو قل أعتقد اننى أعرف أن الجانى هو فلان أو فلان... أنت تتهماً لمهنة القضاء يا روديون رومانوفتش ، أليس كذلك ؟

- نعم ، كنت أدرس القانون .

- طيب ، هذا اذن مثال صغير يمكن أن يفيدك فى المستقبل ، ان صح التعبير . آ... لا يذهبن بك الظن الى أننى أريد أن ألقنك دروساً أنت الذى تكتب مقالات عن الاجرام . لا ، فانما أنا أضرب لك هذا المثال من حيث هو واقعة . لنفرض أننى ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو الجانى . فعلام أقلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة ، حتى ولو ملكت أدلة عليه ؟ صحيح أننى قد أضطر أن أعقل فلاناً بأقصى سرعة ، ولكن فلاناً الآخر الذى ليس له ذلك الطبع نفسه ، قد أتركه يتجول فى المدينة ، هـ ؟ أحسب أنك لا تفهم عنى تماماً ، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد من الوضوح . لنفرض أننى قبضت عليه قبل الأوان ، أفلمت أمنحه بذلك نوعاً من عون نفسى ؟ هـىء هـىء ! أضحكك هذا الكلام ؟ (ان راسكولنيكوف لم يخطر بباله قط أن يضحك . كان جالساً ، كازاً شفّيته ، لا يحوّل عن عينى بورفير بتروفتش نظرته المتقدة المتهبة) .

هذا هو الأمر رغم ذلك ، ولا سيما مع بعض الأفراد • نعم نعم ، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً ، ولا بد من تنوع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد • قد تقول لى ان هناك اثباتات ••• طيب : لنسلم بأن هناك اثباتات ! ولكن الالابانات يا عزيزى تكون فى أكثر الأحيان ذات حدّين ، وانا قاضى تحقيق ، فعندى اذن نواحى ضعف ، أعترف لك بذلك • أنا أتمنى أن يكون دليلى قاطعاً صارماً كاستدلال رياضى ، كبرهان رياضى • انا فى حاجة الى برهان بديهي كقولك ان اثنين واثنين أربعة ، أو الى شىء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً فى وضوحه وجلالته • فاذا اعتقلت الشخص قبل الأوان ، فأننى مهما يكن اقتناعى قوياً بأنه هو الجانى ، أحرم نفسى بذلك من الوسائل التى ستحمّله على الكشف عن نفسه كشفاً أتم • لماذا؟ لأننى أكون قد ألزمته بوضع معيّن ان صح التعبير ، أى أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية ، فيفلت منى ويدخل فى قوقعته ، لعلمه بأنه اعتقل وانهى الأمر • يقال ان الناس الأذكياء فى سياستوبول ، بعد معركة ألما * رأساً ، قد خافوا كثيراً فى أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولى على سياستوبول فى الحال • فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار على الأصول ، فبدأ يحفر الخندق الأول ، سرّوا سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً • فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر ، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت • ما بالك تضحك أيضاً ؟ أما تزال لا تصدقنى ؟ أنت على حق ، من وجهة نظرك ، على حد •• ق ! هذه حالات خاصة ، وأنا أوافقك كل الموافقة • ان الحالة التى أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً • ولكن يجب علينا يا عزيزى روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التى تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة ، والتى على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتسجّل فى الكتب ، لا وجود لها ، وذلك لسبب بسيط هو

أن كل فعل (ولنفرض أنه جريمة) سرعان ما يتحول الى حالة خاصة ، بل الى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أى فعل آخر . وفى بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة فى نوعها . وفى تلك الحالات أَدع الشخص وحيداً ، لا أزعجه ، لا أعتقله ، ولكنه اذا علم أننى فى كل ساعة ، بل فى كل دقيقة ، أعرف كل شيء ، وأننى أراقبه ولا تغمض عيني عنه ؛ اذا أصبح فريسة ارتياب مستمر وخوف متصل ، فيميناً ليأخذته عندئذ دوار ، وليأتين من تلقاء نفسه . وقد يحدث أيضاً أن ينساق الى اقتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة ، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضى . وتلك هى المتعة واللذة فى الأمر . يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط ، ويمكن أن يحدث لرجل من أشباهنا ، لرجل ذكى عصرى مثقف . ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزى أن نعرف الاتجاه الذى تطور فيه شخص من الأشخاص . ثم ان هناك الأعصاب ، الأعصاب ، أثراك نسيت الأعصاب ؟ الأعصاب هى الضعيفة الآن ، هى المريضة ، هى المستثارة . وما قولك فى الاهتياج ؟ ان اهتياجاً كثيراً قد تجمع وتراكم فى الناس ! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب ! فهل يضيرنى اذن أن أترك الرجل يتجول فى المدينة حراً طليقاً ؟ ألا فليستمر على التجول . اننى لا أعترض على هذا أى اعتراض . فأنا أعلم ، مهما يحدث ، أنه «فريستى الصغيرة» وأنه لن يفلت منى ! الى أين عساه يهرب ؟ الى الخارج ؟ قد يهرب بولندى الى الخارج ، أما « هو » فانه لن يهرب ، لا سيما وأنه تحت بصرى وسمعى ، واننى اتخذت الاحتياطات اللازمة . أثراه يفر الى آخر البلاد ؟ ولكن فى آخر البلاد لا يعيش الا فلاحون ، لا يعيش الا روس حقيقيون ، أما هو الذى تتقف ثقافة حديثة ، فانه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا هى على أن هذا كله أمازيح

على الهامش • ما الهرب ؟ أمر شكلي صرف • ليس هذا هو الشيء
الأساسي • فالرجل لن يهرب ، لا لأنه لن يعرف الى أين يذهب فحسب ،
بل هو لن يهرب لأسباب «سيكولوجية» أيضاً • هيء هيء • • • تعبير موفق
جداً ، هه ؟ لا ، لا ، انه لن يهرب ، وذلك بفعل قانون طبيعي ، حتى
ولو عرف الى أين يذهب ! أما رأيت فراشة حول الشمعة ؟ ألا انه
سيدور حولي دوران الفراشة حول الشمعة • ستأخذ تثقل عليه الحرية ،
وسأخذ يفكر ، وسيرتبك ؟ سيقع في شباك ينسجها هو نفسه ، سيخلق
لنفسه خوفاً رهيباً • بل انه سيهييء لي مهزلة رياضية يدعها هو ، مهزلة
من نوع « $2 + 2 = 4$ » ، شريطة أن أدع له فرصة بطبيعة الحال •
وسيفل ، بغير انقطاع ، يحوم حولي على دوائر ما تنفك تضيق ، ثم اذا هو
يسقط في فمي دفعة واحدة ، فأبلعه ، وما ألد هذا ! هيء هيء ،
ما رأيك ؟

لم يجب رسامكولنيكوف • ظل جالساً ، شاحب الوجه ، جامداً ،
ما ينفك يحدق الى وجه بورفير بتروفتش بانتباه ثابت •
حدث نفسه يقول متجمداً من الرعب : « هذا درس رائع • • •
ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تبعث بالفأرة كما كانت بالأمس • لا ،
ليست قوته هي ما يريد اليوم أن يظهره لي في غير طائل ، أو أن يوحى
اليّ به • • • هو أذكى من أن يفعل ذلك • ان له الآن هدفاً آخر ، فما هو
هذا الهدف ؟ دعك يا صاحبي ، غباءاً ما تفعل ، سخافات • • • أنت تحاول
أن تخيفني • • • أنت تمكر وتحتال • • • ليس لديك أي دليل • ورجل
الأمس لا وجود له • أنت تحاول أن تربكني وأن تشوشني وأن تنير
أعصابي سلفاً حتى تهوى عليّ بالضربة المفاجئة متى انهدت قواي • • •
ولكن خاب فألك ، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً ، نعم ،
سوف تطيش ضربتك • • • ولكن ما باله يوحى اليّ بما يجب أن أعمله !

الى هذا الحد ، ليس الأمر طبيعياً !... أهو يعوّل على أعصابى المريضة ؟
لا ، لا يا صاحبى ، لقد أخطأ ظنك ، وعمى بصرك ... ومهما تكن قد
أعددت من شيء ... طيب ، سنرى ماذا ما أعددت !... »

واستجمع راسكولنيكوف قواه كلها ، يستعد لمواجهة نازلة رهيبه
مجهولة . ودّ فى بعض اللحظات لو ينقض على بورفير بتروفتش فيخنقه
فى الحال . انه منذ دخوله قد خشى أن يشعر بمثل هذا الغضب . وهو
يشعر الآن بأن فمه جاف ، وبأن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، وبأن الزبد
يتقاطر على شفثيه . ومع ذلك قرر أن يصمت ، وأن لا يقول كلمة واحدة
قبل أن يحين الحين . أدرك أن هذه هى الحطة المثلّ فى ظرف كظرفه ،
فهو بذلك يتجنب فضح نفسه بكلامه ، وهو بذلك أيضاً يثير أعصاب
محدثه بصمته ، فلعل محدثه هو الذى سيفضح نفسه ويكشف عن
نياته اذ يتكلم . ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل .

استأنف بورفير كلامه بمزيد من المرح ، حتى لقد كان ينقنق
تلذذاً ، فقال وهو ما يزال يدور فى الغرفة :

— لا ، أنت لا تصدقنى . أرى أنك لا تصدقنى . تظن أننى أمطرك
بأمازيح صغيرة تافهة . وانك لعلّى حق طبعاً . فان الله نفسه قد وهب لى
مظهراً جسيمياً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين الا خواطر مضحكة . أنا
مهرّج ! ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك ، بل أن أكرره على مسامعك ،
يا عزيزى روديون رومانوفتش : يجب عليك أن تعذر الشيخ الذى
يكلمك . أنت شاب ، أنت فى زهرة العمر ان صحّ التعبير ، وأنت لذلك
تقدر الذكاء الانسانى قدراً كبيراً كسائر الشباب . ان حدة الفكر وحجج
العقل المجردة تفتك . أنت على وجه العموم تشبه « المجلس الحربى
الأعلى » * الذى كان بالتمساق فى الماضى ، هذا اذا صدق حكمى فى الشؤون
العسكرية : ان أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابوليون وأمروه ،

فى خططهم التى وضعوها على الورق • نعم ، انهم فى مكاتبهم ، قد هياؤا كل شىء ، ورتبوا كل شىء ، بدقة كاملة ، ونظام رائع • ذلك ما فعلوه على الورق • أما فى الواقع فان قائدهم الجنرال ماك هو الذى استسلم مع جيشه كله ••• هىء هىء هىء ••• أننى أرى ، يا عزيزى روديون رومانوفتش أنك تسخر منى ، لأننى أنا المدنى أضرب أمثلة مستمدة من التاريخ الحربى • ولكن ما حيلتى ؟ هذه نقطة الضعف فى ، اننى أحب فن الحرب ، وأبلغ من حبه أننى أقرأ جميع ما يتصل بالحرب من قريب أو بعيد • لا شك أننى خطأت اختيار مهنتى فى هذه الحياة • كان على أن أعمل فى الجيش • هذا حق • لوعملت فى الجيش ، فلعلنى لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون ، ولكننى أصبح « ميجر » ناجحاً ••• هىء هىء هىء ••• الخلاصة ••• ما دمت الآن بسبيل أن أقول لك الحقيقة عن هذه « الحالة الخاصة » ، فان الواقع والطبيعة ، يا سيدى العزيز ، هما من الأمور الهامة جداً • نعم ، صدق شيخاً مثلى • اننى أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين قال بورفير بتروفتش هذا الكلام ، فانه وهو الذى لا يكاد يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً ؛ حتى ان صوته تغير ، وظهره تحدب) • ثم اننى رجل صريح • أليست رجلاً صريحاً ؟ ما رأيك ؟ أظن أن هذا واضح • الخلاصة : أنا أقول لك هذا كله مجاناً ، لا أطلب جزاء ولا شكوراً • فلأكمل كلامى : أن يكون المرء ذكياً فتلك ميزة لامة فى رأى • ان الفكر زينة الطبيعة ان صح التعبير ، وهو عزاء الحياة • وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكى أن يعتمد اليه من حيل • فكيف تريد لقاضى تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل فى شعاب هذه الحيل ، ولا سيما اذا كان خياله نفسه يضلله لأنه انسان كسائر البشر ؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب الى نجدة قاضى التحقيق المسكين ،

فتخرجه من الارتباك وتثقله من المأزق • وذلك هو البلاء ، وذلك ما ينسبنا « الذكي » الذي « يتخطى جميع الحواجز » (على حد التعبير الذى استعملته أنت بالأمس فى كثير من الرهافة والمكر) • قد يعمد صاحبنا الى الكذب - أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعيين ، عن « حالة خاصة » ، عن رجل مجهول - وقد يكذب كذبا فيه غاية البراعة والمكر • وقد يظن عندئذ أنه سينتصر ، أنه سيقطف ثمرات مكروه ، ولكن هاهو ذا يغمى عليه فجأة فى اللحظة الحرجة الخطرة ! لنسلم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه • فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد فى غرفة فاسدة الهواء • ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدم لنا قرينة من القرائن • صحيح أنه ذرّ الرماد فى العيون بكثير من الخلق والبراعة ، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة الى درجة كافية وذلك هو الفخ ! وفى مرة أخرى ينساق مع ذكائه المتوقد ، فيأخذ يعتصم بالشخص الذى يشتبه فيه ؟ فيشحب لونه عمداً كأنما ليتسلى ، ولكن شحوبه لا يخلو عندئذ من عنصر طبيعى فكانه شحوب حقيقى ، وهذه قرينة أخرى يقدمها • وهبه استطاع أن يخدع محدثه فى تلك اللحظة ، فان محدثه لا بد أن يرجع عن خطئه فى الليل • نعم ، هكذا تجري الأمور فى كل خطوة • ثم انه يبادر هو نفسه الى السبق ، فيأخذ يتدخل فى أمور لا يسألها أحد عنها ، ويشترط دون انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه ، ويسترسل فى تلميحات والماعات • نعم يجيء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة : « لماذا لم يُعتقل حتى الآن ؟ » الخ • هى • هى • وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكى رجل ، يمكن أن يقع لعالم نفسى ، يمكن أن يقع لأديب • ان الطبيعة مرآة ، ان الطبيعة أصفى مرآة ، فيكفى المرء أن ينظر فيها • نعم ، هذا هو الأمر •

ولكن ما بالك تصفر اصفراراً شديداً يا روديون رومانوفتش ؟ هل ينقصك هواء ؟ أفتتح النافذة ؟

هتف راسكولنيكوف يقول :

- لا ، لا تزعج نفسك !

ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله :

- أرجوك ، لا تزعج نفسك !

وقف بورفير أمامه ، وانتظر قليلاً ، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضحكاً مجلجلاً . فنهض راسكولنيكوف قطعاً ضحكه الهستري فجأة ، وقال بصوت قوى متميز ، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكتين :

- يا بورفير بتروفتش ، اننى أرى أخيراً بوضوح أنك تشبه فى

وتنسب الى مقل المعجوز واختها اليزابث . وانى لأعترف لك من جهتي بأننى قد سممت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة . فان كنت تعتقد أن من واجبك أن تلاحقنى ملاحقه قانونية فلاحقنى ، وان كنت تعتقد أن من واجبك أن تعتقلنى فاعتقلنى ، ولكننى لا أسمح لأحد أبداً بأن يضحك علىّ وأن يعذبنى هذا التعذيب .

وأخذت شفتاه ترتجفان ، وسطعت عيناه غضباً ، ودوى صوته دويّاً قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكظوماً . قال يصرخ بكل قواه ، وهو يضرب المكتب بقبضة يده :

- لا ، لن أسمح بهذا أبداً ، هل تسمع يا بورفير بتروفتش ؟ لن أسمح بهذا أبداً !

فصاح بورفير بتروفتش يقول مرتاع الهيئة :

- آه . . يا رب ! ماذا هنالك ؟ عزيزى روديون رومانوفتش

صديقى ، ماذا أصابك ؟

فصرخ راسكولنيكوف يردّد مرة اخرى قوله :

— لن أسمح بهذا أبداً !

فدمدم بورفير بتروفتش يقول بارتياح ويكاد يلصق وجهه بوجه راسكولنيكوف :

— طيب ، طيب ، اخفض صوتك ! والا قد يسمعون فيجيئون ، فما عسى نقول لهم اذا جاءوا ؟ هلاًّ فكرت فى هذا !

فكان راسكولنيكوف يردّد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً :

— لن أسمح بهذا أبداً ، لن اسمح بهذا أبداً !

فاستدار بورفير وهرع الى النافذة يفتحها بسرعة شديدة ، قائلاً :

— ليدخل شئ من هواء . وأنت تحسن صنعاً يا عزيزى اذا شربت قليلاً من الماء ، فهذه نوبة ***

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء ، غير أن ابريقاً ملآن كان يوجد هناك فى ركن من أركان الغرفة ، فدمدم يقول وهو يركض نحو الابريق :

— اشرب يا صديقى العزيز ، فعسى أن يحسن اليك شرب قليل من الماء .

دُهِش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا العطف اللذين أظهرهما له بورفير بتروفتش ، فوقف فاغر الفم يلاحظ صاحبة باستطلاع شديد . ولكنه رفض الماء .
قال بورفير بتروفتش :

— روديون رومانوفتش ، عزيزى ! لسوف تفقد صوابك ان أنت أصررت هذا الاصرار ، أوكد لك *** خذ *** اشرب *** اشرب ولو جرعة واحدة .



قاضى التحقيق ، بورفير بتروفيتش
بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديا كورساكوفا

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس • وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس الى شقيقه بطريقة آلية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة ، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمزاز •

قال بورفير بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاحظة والمراعاة ، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب :

— نعم ، هذه نوبة حقاً ! ••• هأنت ذا قد عدت الى مرضك القديم • رباه ! هل يمكن أن لا يدارى المرء نفسه الى هذا الحد ؟ لقد جاءنى دمتري بروكوفش أيضاً ، أمس ••• أنا أوافق ••• أوافق على أن لى طبعاً سيئاً ••• أتكلم ••• وأتكلم ••• وهذه هى النتائج التى تستخرجانها من كلامى ! •• رباه ! نعم ، جاءنى أمس ، مساءً ، بعدك ، وتعشينا ، وتكلم ، وتكلم ، فلم أفعل الا أن أرفع ذراعى الى السماء ! بالمناسبة ، يخطر ببالى الآن هذا السؤال : أترأك أنت أرسلته ؟ ولكن اجلس يا عزيزى ! هلاًّ جلست ! اجلس ، ناشدتك الله ! •••

أجاب راسكولنيكوف بلمهجة قاطعة :

— لا ، لم أرسله أنا ••• ولكنى علمت أنه جاء اليك ، وكنت أعرف سبب مجيئه أيضاً •••

— كنت تعرف سبب مجيئه ؟

— نعم ، كنت أعرف سبب مجيئه ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

— يا عزيزى روديون رومانوفتش ، هل تظن أننى أجهل أى عمل من أعمالك ؟ اننى أعرف كل شئ ، اننى مطلع على كل شئ ! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت « تستأجر تلك الشقة » عند هبوط الليل ، وأنتك شددت حبل الجرس ، وأنتك ألقيت أسئلة عن الدم ، وأنتك حيرت العمال

والبوابين • اننى أفهم حق الفهم الحالة النفسية التي كنت عليها • ولكننى
أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً ، أحلف لك ! • • سوف
يستولى عليك الدوار • ان الغضب الذى أثارته فيك الاساءات ، اساءات
القدر أولاً ، واساءات رجال الشرطة بعد ذلك ، ان هذا الغضب ، مهما
يكن غضباً نبيلاً ، يغلى غلياناً شديداً فى نفسك ، وأنت لذلك تمضى الى
هنا وهناك ، لتجبر الناس ، ان صبح التعبير ، على أن يصغوا اليك ،
ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدة الى الأبد • نعم ،
لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات ، وشئت جميع هذه الشبهات •
أليس هذا صحيحاً ؟ ألم أدرك حالتك النفسية ؟ • • • ولكننى أقول لك
أنك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك ، وانما ستجعل صديقنا
رازومبخين يفقد عقله أيضاً • انه « أطيب » كثيراً من أن يُقحمَ فى مثل
هذه الأمور ، وأنت تعلم ذلك حق العلم • أنك أنت مريض ، أما هو
فإنسان طيب ، وسيلتصق مرضك به • • • سأقصُ عليك هذا حين تهدأ
يا عزيزى • • • ولكن ما بالك لا تجلس ؟ اجلس يا عزيزى ناشدتك
الله ! ارجوك ، استرح ، ان وجهك منقلب • • • هلاًّ جلست ! • • •

جلس راسكولنيكوف • لقد انقطع ارتجاعه ، ولكن جسمه كله كان
يحترق من الحمى • وكان يصغى الى بورفير بتروفتش الذى يتحرك
حوله بكثير من المودة والصداقة ، كان يصغى اليه بدهشة ذاهلة واتباه
شديد • ولكنه كان لا يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضى
التحقيق ، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً الى التصديق • ان الأقوال
المفاجئة ، غير المتوقعة ، التى قالها بورفير عن الشقة قد صعقته صعقاً :
« كيف ؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه ؟ ويتحدث عنها هو
نفسه ؟ » •

تابع بورفير كلامه فقال بسرعة :

- نعم ، فى حولياتنا القضائية حالة تشبه هذه الحالة تقريباً ، حالة سيكولوجية مرضية ، كالحالة الراهنة • انهم رجل نفسه بارتكاب جريمته قتل • يا لها من قصة ! لقد اخترع عالماً بكامله من الأوهام ، وقدّم وقائع ، ووصف ظروفًا شاك بعضها ببعض ! لماذا ؟ لأنه ، على غير ارادة منه اطلاقاً ، كان مسئولاً بعض المسئولية عن جريمة القتل تلك - بعض المسئولية فقط - فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسبب دفعهم الى ارتكاب جريمة القتل ، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب ، وأخذ يرتكب حماقات ، وأخذت تترأى له أخيلة وأوهام ، واختلطت فى عقله الأمور ، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل • ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً ، فبرّئ المسكين ، وجعل تحت الوصاية • شكراً لمحكمة النقض ! آ • آ • • • • • طبعاً يا عزيزى • • • • • من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جاذحة الى الاحتياج هذا الجنوح ، وحين يذهب فى الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء • • • • • ان هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية • حتى لقد يحدث لاسان فى مثل هذه الحالات أن يرغب فى القاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس • هذا احساس له اغراء شديد • هو المرض يا روديون رومانوفتش ، هو المرض ! أنت قد أسرفت فى اهمال معالجة مرضك ! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً ، لا صاحبك السمين البسيط ذاك ! هو الهذيان يا صاحبي ! كل شيء مردّه عندك الى الهذيان !

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عيني راسكولنيكوف ، لحظة •
 « هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن ؟ مستحيل ، مستحيل ، ومع ذلك • • • » • ان هذه الفكرة الأخيرة قد روعت راسكولنيكوف ، وكان يحس مدى ما تدفعه اليه من حنق مسعور ، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله •

صاح يقول وهو يرتجز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ الى لعبة بورفير :

- أنا لم أكن أهذى ! كنت أملك نفسى تماماً ، أملك نفسى تماماً ، أملك نفسى تماماً ؟ هل تسمع ؟

- نعم ، أسمع وأفهم • أمس أيضاً قلت انك لم تكن تهذى ، حتى لقد ألححت على هذه النقطة • كل ما يمكن أن تقوله ، أنا أفهمه • هىء هىء !... ولكن اصنع الى قليلاً يا عزيزى الشهم ، يا عزيزى الطبيب روديون رومانوفتش • هبنا سلّمنا بهذا ••• لو كنت أنت الجانى حقاً ، لو كنت أنت الجانى فعلاً ، أو لو كان لك أى شأن فى هذه القضية المشؤمة ، أكنت تلح هذا الاحاح على أنك لم تكن تهذى ، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعياً كل الوعى ؟ أهذا ممكن ؟ فى رأى أنك كنت ستعتمد عندئذ الى نقيض ذلك تماماً ! لو كنت تشعر بأنك الجانى ، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلحّ ، خلافاً لذلك ، على أنك انما فعلت ما فعلت وأنت فى حالة هذيان ؟ أليس كذلك ؟

كان فى هذا السؤال مكر • ارتد راسكولنيكوف الى الوراء مستنداً الى ظهر الأريكة ؛ ومال بورفير بتروفتش نحوه صامتاً ، فأخذ راسكولنيكوف يحدّق الى مدهوشاً متحيراً •

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

- كلمة أخرى عن السيد رازوميخين ، أقصد عن مسألة كونه أتى الى من تلقاء نفسه أو بتحريض منك • لقد كان من الأفضل لك أن تقول انه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك ، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء الى بتحريض منك •
لم يكن راسكولنيكوف قد ألحّ على هذا فى وقت من الأوقات •

وشعر بقشعريرة تسرى في ظهره • ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد
تقبضت شفتاه على ابتسامة أليمة :

— ما تزال تكذب •

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلماته كما
يجب أن يزنها :

— أنت تريد أن تبيّن لي من جديد أنك ترى مكرى رؤية واضحة،
وأنك تعرف كل أجوبتي سلفاً • أنت تحاول أن تخيفني ، أو أنت
تسخر مني لا أكثر •

وفيما كان يقول له هذا الكلام ، ظل يحدثّ إليه ، ثم اذا بعداوة
لا حدود لها تسطع في عينيه ، فهتف يقول :

— أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • انك تعلم حق العلم أن خير
خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق في حدود الامكان ، وأن
لا يخفي ما لا حاجة الى اخفائه • أنا لا أصدّقك !

قال بورفير ضاحكاً ساخراً :

— ما أحذّك ! ان المرء لا يعرف حقاً من أي طرف يمسكك •
هذه اذن فكرة ثابتة عندك ! أنت اذن لا تصدقني ؟ ولكنني أؤكد لك أنك
تصدقني ، وأنك صدقتني حتى الآن بعض التصديق ، وسأفعل ما يجعلك
تصدقني تصديقاً كاملاً ، لأنني أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً ، ولأنني
أتمنى لك الخير مخلصاً •

أخذت شفتا راسكولنيكوف ترتجفان •

وتابع بورفير بتروفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف
امسكاً رقيقاً ، بمودة وصدافة ، فوق الكوع قليلاً :

- نعم ، أتمنى لك الخير ، نق بهذا ... وأقول لك مرةً أخيرة ان عليك أن تعتنى بصحتك . من أجلك انما جاءت أسرتك ، فكّر في هذا ولا تنسه ! يجب عليك أن تهدي روع أهلّك ، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة ، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروّعهم ...

- ما شأنك أنت وهذا ؟ ثم من أين علمته ؟ وفيم يهملك ويعينك ؟ أنت اذن تراقبني ، وأنت تحرص على أن أعرف هذا !

- اسمع يا عزيزي ، أنا انما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت ، منك أنت ! أأست تلاحظ اذن أنك من شدة ثورة أعصابك أول من يقصّ كل شيء ، على وعلى الآخرين ؟ ولقد عرفت أيضاً ، في مساء أمس ، تفاصيل شائعة جداً ، من السيد رازوميخين ، دمترى بروكوفتش رازوميخين . لقد قاطعتني الآن ، ولكنني أقول لك انك رغم رهافة فكرك قد أفقدك شكك وحذرّك القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً . انظر مثلاً في مسألة الجرس تلك التي أتينا على ذكرها منذ قليل ، والتي هي واقعة هامة جداً ، ثمينة جداً (هي كذلك بلا جدال) : طيب ، لقد أطلعتك بنفسى على هذه الواقعة ، أفلا تستخرج أنت من هذا شيئاً ؟ هل كنت أفعل ذلك لو كنت أرتاب فيك أى ارتياب ؟ بالعكس ، فلو كنت أرتاب فيك حقاً ، لكان على أن أنوّم مخاوفك ، وأن لا أدعك ترى أنني على علم بهذه الواقعة ، وأن أوجّهك في اتجاه آخر تماماً ثم أهوى عليك بها فجأة كأنها ضربة مطرقة (على حد تعبيرك) . لو كنت أرتاب فيك أقل ارتياب لأخذت ألقى عليك أسئلة كهذه الأسئلة : « قل لي أيها السيد : ما الذى ذهب بك الى شقة المجنى عليها ، فى الساعة العاشرة من المساء ، بل فى الساعة الحادية عشرة تقريباً ؟ لماذا شددت جبل الجرس ؟ ولماذا ألفت أسئلة عن الدم ؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيّر البوابين ، وأردت أن تقاد الى قسم الشرطة ؟ » كان ينبغي لى ، وفقاً للأصول المتبعة ،

أن انتزع منك افادة ، ثم أن أفتش منزلك ، وربما أن أعثلك • ولكننى فعلت خلاف ذلك تماماً • واذن فانا لا أشبه فيك أى اشتباه • حقاً لقد فقدت القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً ، فأنت لا ترى شيئاً ••• أكرر لك هذا !•••

ارتجف راسكولنيكوف من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفير بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك •

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة :

– أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • لست أفهم نيأتك ، ولكنك تكذب ، تكذب • منذ قليل لم تكن تكلمنى بهذا المعنى • لا يمكن أن يخطئنى ظنى • أنت تكذب !

استأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال متحمساً ، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية ، دون أن يبدو عليه أى اكتراث بما قد يكون رأى راسكولنيكوف فيه :

– أنا أكذب ؟ أنا أكذب ؟ عجب كلامك ! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل ، أنا قاضى التحقيق ؟ لقد أوحيت اليك أنا نفسى بالوسائل التى تستطيع أن تدافع بها عن نفسك ؟ لقد عرضت عليك أنا نفسى تلك السيكلولوجيا كلها : « المرض ، الهذيان ، عنت الالهانات ، الكتابة ، رجال الشرطة ••• » ، الخ الخ • هىء هىء هىء ! ومع ذلك أسارع فأقول لك ان جميع حجج الدفاع السيكلوجية هذه ، وجميع أساليب التملص هذه ، وجميع هذه الأعذار والتعلات ليست قوية مثينة ، حتى انها ذات حدين • فإذا أنت تعللت « بالمرض والهذيان » وإذا أنت قلت « انك قد راودتك هلوسات ، وانك أصبحت لا تتذكر شيئاً » ، فان كلامك هذا كله يكون جميلاً ، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ : لماذا تراودك هذه

الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها ؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوساتك غير هذه تماماً ، أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟
هـى هـى هـى ! ...

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبرياء واحتقار . ثم قال بصوت قوى وهو ينهض فيصدم بورفير قليلاً :

— باختصار يا بورفير بتروفتش : أريد أن أعرف أثنت تعدنى مبراً من كل شبهة أم لا ؟ تكلم يا بورفير بتروفتش ، تكلم كلاماً واضحاً ، بسرعة ، حالاً !

هتف بورفير بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أى ارتباك :
— حقاً انك لمتعب ! ... ما حاجتك الى أن تعرف هذا ، الى أن تعرف هذا كله ، مع أن أحداً لم يبدأ حتى فى أن يقلق راحتك أى اقلق ؟ يا لك من طفل ! لسان حالك يقول : « أريد أن ألعب بالنار ! » . فلماذا ، لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب كله ؟ هلاً شرت لى الأسباب التى تدفعك الى أن تلقى علينا هذه الأسئلة كلها ؟ هه ؟

صاح راسكولنيكوف حائقاً :

— أكرر لك أننى أصبحت لا أطيق أن أحتمل ...

— أن تحتمل ماذا ؟ عدم اليقين ؟

كذلك قاطعه بورفير . فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد :

— كفى سخرية ! لا أستطيع ! هل تفهم ؟

— اخفض صوتك ، اخفض صوتك ، والا سمعوك ! اننى أنبهك الى هذا جاداً . حذار ! لست أمزح !

كذلك قال بورفير متمتماً ، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن
 عما كان عليه منذ قليل ، حين كان أشبه بتعير وجه امرأة مروّعة +
 بالعكس : هو الآن « يلقي أوامر » + انه قاسى الهيئة ، مقطب الحاجبين ،
 فكأنه عدل دفعة واحدة عن جميع الأسرار وجميع الاماعات الملتبسة +
 ولكن ذلك لم يدم الا لحظة *

اضطرب راسكولنيكوف ، وأوشك أن يندفع فى نوبة غضب
 جديدة ، ولكن الشيء الغريب أنه خضع فى هذه المرة أيضاً للأمر الذى
 صدر اليه ، فخفض صوته *

وهمس يقول من جديد :

– لن أَرْضَى بأن أُعَذِّب هذا التعذيب ...

لقد أدرك ، وهو يشعر بألم يمازجه كره ، أنه لا يستطيع الا أن
 يخضع لهذا الأمر القاطع + ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحقناً +
 وأضاف يقول :

– اعتقلنى ! فتش بيتى ! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من
 أن تعبت بى هذا العبث ! ... ليس من حَقِّك أن ...

فقاطعه بورفير قائلاً وهو يتنسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها ،
 مع تظاهره بالسرور من رؤية راسكولنيكوف :

– ما هذا الكلام يا عزيزى ؟ انا انما دعوتك بغير كلفة ، دعوتك
 كما يدعو صديق صديقه *

– لا أريد صداقتك ، لا أريدها ، أنا أبصق عليها ، هل تسمع ؟
 انظر : هاأنا ذا أتناول قبعتى وأنصرف + فما عساك تقول الآن اذا كان
 فى نيتك أن تعتقلنى ؟

وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب +

فقال بورفير مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد ، فوق الكوع قليلاً ، ويوقفه قرب الباب :

— ولكن ألا تريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة ؟

كان مرح بورفير يزداد ازدياداً واضحاً ، وكان مزاحه يظهر ظهوراً أقوى ، فأنتهى ذلك الى اخراج راسكولنيكوف عن طوره • فقال وهو يتجمد في مكانه فجأة ، وينظر الى بورفير مذعوراً :

— أية مفاجأة صغيرة ؟ ماذا تعنى ؟

— المفاجأة الصغيرة قابعة هناك ، وراء هذا الباب ، هىء هىء هىء ! حتى لقد أقفلت عليها بالمفتاح ، مخافة أن تهرب •

قال بورفير ذلك وهو يومئء بيده الى الباب المغلق فى الحاجز ، الباب المفضى الى شقته •

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه :

— ماذا ؟ أين ؟

ولكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح فعلاً •

قال بورفير :

— الباب مقفل • اليك المفتاح !

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبه •

زأر راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه :

— أنت تكذب ! أنت لا تفعل غير أن تكذب ! أنت تكذب أيها

المهرج اللعين !

قال راسكولنيكوف ذلك وهجم على بورفير ، فتراجع بورفير نحو الباب ، ولكن دون أن يظهر عليه أى رعب . وقال :

- ولكن ، يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لست تستطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا . لقد خرجت عن طورك . لا تصرخ ، والا استدعيت رجالى !

- أنت تكذب ! لن يحدث شئ ! استدع رجالك ! لقد كنت تعلم أننى مريض ، فأردت أن تهيج أعصابى وترهقنى ارهاقاً يدفعنى الى أن أفضح نفسى ! تلك كانت غايتك . لا . لا بد لك من وقائع ! أريد وقائع ! لقد فهمتُ الآن كل شئ . أنت لا تملك وقائع ، أنت لا تملك الا افتراضات تافهة سخيفة حقيرة ، هى افتراضات زامبوتوف ! كنت تعرف طبعى ، فأردت أن تخرجنى عن طورى لتفقدنى بعد ذلك صوابى بقساوسة ونواب* . . . ألسنت تتفطرهم هم ؟ ماذا تنتظر ؟ أين هم ؟ ائت بهم !

- أى نواب تعنى يا عزيزى ؟ ما هذا الكلام العجيب ؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها ! ليس فى وسعى ، من باب « التقيد بالشكل ومراعاة الأصول » ، على حد تعبيرك ، ليس فى وسعى أن . . . انك تجهل أصول الاجراءات القانونية يا عزيزى ! ولكنك سترى . . . سوف تقيد بالشكل ونراعى الأصول .

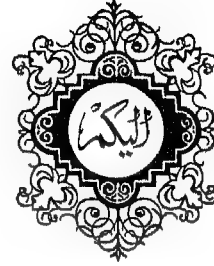
بهذا جمجم بورفير ، وكان أثناء ذلك يصيخ بسمعه صوب الباب .
وفعلًا ، سمعت فى تلك اللحظة ضجة فى الغرفة المجاورة .
هتف راسكولنيكوف يقول :

- آ . . . ها هم أولاء يجيئون ! لقد استدعيتهم ، لقد كنت

تنتظرهم ، لقد كنت تعولّ عليهم طيب انت بهم جميعاً الى هنا
... انت بالنواب ، وبالشهود ، وبجميع من تشاء انت بهم ! أنا
مستعد ، مستعد !

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينذاك ، حادثاً يبلغ من البعد عن
التوقع والتنبؤ في سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفير بتروفتش
كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة •

الفصل السادس



كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره
في المستقبل :

ان الضجة التي سمعت من وراء الباب قد
ازدادت بسرعة شديدة ، ثم شقَّ الباب قليلاً .
فصاح بورفير بتروفتش يسأل غاضباً :

— ماذا هنالك ؟ ألم أنبهكم مع ذلك ؟

فلم يحصل على جواب ، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين
كانوا يقفون وراء الباب يحاولون أن يصدُّوا أحد الناس عن اقتحامه .
فسأل بورفير بتروفتش متوجساً :

— ماذا هنالك ؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً :

— جئء بالمعتقل يقولوا .

فصرخ بورفير قائلاً وهو يهرع نحو الباب :

— لا داعي الى ذلك ! اذهبوا ! يمكن الانتظار ! من الذي جاء به
الى هنا ؟ ما هذه الفوضى ؟

فبدا ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال :

– ولكنه ***

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة •
ان صراعاً حقيقياً قد نشب في ثانيّين ؛ وبدا أن أحداً من الناس
كان يُصدّ بالقوة عن الدخول ، ثم اذا برجل شاحب الوجه جداً يقتحم
غرفة بورفير بتروفتش •

ان مظهر هذا الرجل كان في أول الأمر غريباً كل الغرابة • كان
شاخصاً بهصره الى أمام ، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً • وفي عينيه
يسطع عزم وحشي ، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه في الوقت
نفسه ، كأنه قد اقتيد الى المقصلة • وشفتاه بيضاوان بياضاً تاماً ، وهما
تختلجان قليلاً •

هو رجل ما يزال شاباً ، يرتدى ثياب عامل ، متوسط الطول ،
تحيل الجسم ، قد قصّ شعره على صورة صحن ، وقسمات وجهه دقيقة
قاسية •

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثيرون ، وكان بعضهم يحاول
أن يدخل •

ان هذا المشهد الذي وصفناه الآن لم يدم الا دقيقة واحدة •
قال بورفير بتروفتش مدمماً من بين أسنانه ، منزعجاً أشد
الانزعاج ، خارجاً عن طوره :

– اذهب ! لم يحن الحين بعد ! انتظر حتى أستدعيك ! لماذا أسرعتم
في المجيء به هذا الاسراع كله ؟

ولكن يقولوا جسا على ركبتيه • فهتف بورفير بتروفتش يقول
مذهولاً :

— ماذا دهالك ؟

فقال نيقولا فجأةً ، بصوت مختنق لكنه قوى :

— أنا الجانى ! هذه جريمتى ! أنا القاتل !

فخيم صمتٌ مطبق خلال عشر ثوان ، حتى لكأن جميع الحضور قد جمدوا * وحتى الحارس سقطت يده ، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً ، ولبث هناك ساكناً لا يتحرك *

وهتف بورفير بتروفتش يسأل نيقولا بعد أن خرج من زهوله القصير :

— ماذا هنالك ؟

فكرر نيقولا بعد صمت قصير :

— أنا ... القاتل !

— كيف ؟ أنت ؟ من ذا قتلت ؟

— آيونا ايفانوفنا وأختها اليزابت ايفانوفنا * قتلتهما بضربات

ساطور ...

وأضاف يقول فجأةً :

— كنت قد فقدت عقلى ...

وصمت مرةً أخرى ، وكان ما يزال راكعاً *

بدت علائم التفكير على بورفير بتروفتش بضع لحظات ، ولكنه استرد نشاطه وحماسه فجأةً ، فأومأ للحضور بحركة من يده أن اخرجوا * فأسرعوا يطيعون أمره ؟ وأُغلق الباب من جديد * وبعد ذلك ، نظر بورفير بتروفتش الى راسكولنيكوف الذى كان واقفاً فى ركن من الغرفة يتأمل نيقولا زائع الهيئة * وهم أن يكلمه ، ولكنه أمسك فجأةً ،



تَقُولَا ، الدَّهَان

بِرَيْسَةِ الْفَنَانَةِ السُّوْفِيَّاتِيَّةِ الْكُسْنَدَا كُورْسَاكُوفَا

وتفرس فيه ، ثم أسرع ينتقل ببصره الى نيقولا ، ثم الى راسكولنيكوف ،
ثم الى نيقولا مرةً أخرى •

لا يدري المرء ما هو ذلك الغضب الذى استبد ببورفير بتروفتش
على حين فجأة ، فاذا هو يهجم على نيقولا فيقول له بلهجة تشبه أن يكون
فيها كره :

— لماذا تجيء تقول لى منذ الآن انك كنت قد فقدت عقلك ؟ أنا لما
أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا ! قل : أأنت الذى قتلت ؟

قال نيقولا :

— نعم ، أنا الذى قتلت • أصرّح بذلك •

— هيه ••• وبماذا قتلت ؟

— بساطور كنت قد حملته •

— ألا انك لتعجل حقاً • وحدك ؟

لم يفهم نيقولا السؤال •

— هل قتلتهما وحدك ؟

— نعم • ميتكا برى • لم يشارك فى الجريمة أية مشاركة •

— لا تتعجل هذا التعجل كله فى الكلام عن ميتكا • هيه ••• ولكن

كيف فعلت ، كيف فعلت لتنزل السلم ؟ لقد رآكما البوابون كليكما •

أجاب نيقولا متعجلاً ، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى

سرعة :

— انما ركضت عندئذ ••• مع ميتكا ••• دفعاً للشبهات •

هتف بورفير بتروفتش يقول :

- هذا هو الأمر ، هذا هو الأمر •

وجمجم يقول بينه وبين نفسه :

- انه يكرر ما لُقِّن من كلام •

ولمح راسكولنيكوف فجأةً من جديد •

أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيقولا أنه كان قد نسي وجود راسكولنيكوف لحظة من الزمان • وها هو ذا قد تذكره الآن فجأةً ، حتى لقد اضطرب •

قال لراسكولنيكوف وهو يرتبى نحوه :

- روديون رومانوفتش ، عزيزي ، معذرة • ليس في امكانك أن تبقى هنا ، أرجوك ••• حقاً لم يبق لك هنا شأن ••• وأنا نفسي ••• يا للمفاجأة ! ••• أرجوك •••

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه ، ويشير له الى الباب •
طبعي أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعدُ ماذا جرى ، ولكنه قد استرد ثقته • فقال يخاطب بورفير بتروفتش :

- لكأنك لم تكن تتوقع هذا •
فأجابه بورفير :

- ولا كنتَ تتوقعه أنت يا عزيزي ! انظر كيف ترتجف يدك !
- وأنت أيضاً ترتجف يا بورفير بتروفتش !
- نعم ، أنا أيضاً أرتجف ••• لأنني لم أكن أتوقع هذا •

وكانا قد وصلا الى الباب. وكان بورفير ينتظر خروج راسكولنيكوف نافذ الصبر •

قال راسكولنيكوف فجأة :

— وأين المفاجأة الصغيرة ؟ لماذا لم تطلع علىَّ بها ؟

قال بورفير بتروفتش مقهقهاً :

— انه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك ! هيه ! انك لا تخلو
من سخرية • هيّا ، الى اللقاء !

— أحسب أن من الأفضل أن تقول : « الوداع » !

فغمغم بورفير بتروفتش يقول متقبّض الشفتين كأنه يبتسم :

— كل شيء مرهون بإرادة الله ، كل شيء مرهون بإرادة الله •

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت
تحدّق اليه • وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى في وسط الجمهور
بوابي « تلك » العمارة اللذين اقترح عليهما في ذلك المساء أن يقتاده الى
قسم الشرطة • كانا واقفين ، وكأنهما ينتظران شيئاً ما • لكنه ما ان صار
في السلم حتى سمع وراءه صوت بورفير بتروفتش من جديد • فلما
التفت رآه قد أدركه وهو يلهث لهائناً قوياً •

— كلمة ، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش • فيما يتعلق بكل
ما حدث ستجرى الأمور على مشيئة الله ، ولكن ما يزال علىَّ ، من باب
التقيد بالشكل ومراعاة الأصول ، أن ألقى عليك بعض الأسئلة • لهذا
سنلتقى مرةً أخرى ، أليس كذلك ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسماً • ثم أردف يقول
مرةً أخرى :

— أليس كذلك ؟

في وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، ولكن
من الواضح أنه لم يستطع ذلك •

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً ، وأصبح يشعر برغبة
قوية في التفاخر :

— وأنت أيضاً ، يا بورفير بتروفتش ، لا تؤاخذني على ما بدر مني
منذ قليل • لقد اندفعت بعض الاندفاع •••

فعاد بورفير بتروفتش يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح :

— لا قيمة لهذا ••• لا قيمة لهذا ••• أنا أيضاً ساء الطبع •••
أعترف بذلك ، اعترف بذلك • ولكننا سنلتقي من جديد ، ان شاء الله •
سنلتقي أكثر من مرة •

قال راسكولنيكوف :

— وسنتعارف تعارفاً نهائياً • أليس كذلك ؟

فقال بورفير بتروفتش مؤيداً :

— نعم ، سنتعارف تعارفاً نهائياً •

قال ذلك وهو ينظر الى راسكولنيكوف في جد ورسانة ، رغم أنه
يعمز بعينه • وأضاف يسأله :

— أأنت ذاهب الآن الى عشاء عيد ميلاد ؟

— بل الى عشاء جنازة •

— نعم نعم ، عشاء جنازة ! راع صحتك •• الصحة أهم شيء ، هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

— لا أدري حقاً يا بورفير بتروفتش ما الذي يجب أن أتمناه لك •

ولكنه التفت فجأة ، فأضاف يقول وهو يقابل بورفير وجهاً لوجه :

- اننى أتمنى لك نجاحاً كبيراً * ولكن ما أسخف وظيفتك !

وكان بورفير بهم³ أن ينصرف ، ولكنه ما ان سمع هذا الكلام حتى

سأل ناصباً أذنيه :

- وظيفتى سخيفة ؟ لماذا ؟

- دعك *** دعك !

لا شك فى أنك عذبت هذا المسكين نيقلوا عذاباً شديداً ، عذاباً سيكولوجياً *** على طريقتك *** الى أن اعترف * لا شك فى أنك ظلمت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك : « أنت القاتل ، أنت القاتل » * والآن وقد اعترف ستمضى تحقنه بنغمة أخرى قائلاً له : « أنت تكذب * لست أنت القاتل * لا يمكن أن تكون أنت القاتل * لقد دُفعت الى التظاهر بأنك أنت القاتل ، ولكن *** » * فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة والحالة هذه ؟

- هـىء هـىء هـىء *! اذن لقد لاحظت منذ قليل ما قلته أنا لنيقولا من أنه « يردد ما لُقن » ؟

- كيف لا ألاحظ ذلك ؟

- ها *** انك لحاضر الذهن حقاً ! انك تلاحظ كل شيء ! ان لك فكراً فكهاً حاداً ! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية * هيه *** يقال ان جوجول كان ، بين سائر الكتاب ، هو الذى يملك هذه الموهبة الى أقصى درجة ، أليس كذلك ؟

- نعم ، جوجول *

- صحيح * هو جوجول * الى اللقاء !

عاد راسكولنيكوف الى بيته رأساً • وكان قد بلغ من شدة الارهاق والاعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتقى على ديوانه ، فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء الا ليستريح ويستجمع شتات أفكاره • لم يحاول حتى أن يعلل سلوكه يقول • كان مذهولاً مشدوهاً • كان يرى في اعترافه يقول شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب ، شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه وأن ينفذ الى كنهه • ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية : ان كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ، ولا بد أن يعودوا اليه ويتشبهوا به من جديد • على أنه سيقى حراً الى أن يحين ذلك الحين • فينبغى له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته ، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه !

لا يمكن تفاديه ؟ الى أى حد ؟ وأخذ الموقف يتضح • فحين تذكر راسكولنيكوف ، « على وجه الاجمال » ، المشهد الذى جرى بينه وبين بورفير ، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً • صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفير بعد ، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته • ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته ، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من « اللعبة » التى حاولها بورفير • لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماً بأن يقدم لبورفير وقائع ثابتة • كان بورفير يعرف ما يتصف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضى ، وقد نفذ الى حقيقة طبعه منذ أول نظرة ، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة ، وان يكن قد أسرف فى التعجل بعض الاسراف • صحيح أن راسكولنيكوف قد تورط فى كلامه مع بورفير ، ولكنه لما تقدم له « وقائع ثابتة » • فليس هناك حتى الآن الا ظنون وتخمينات • ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته ؟ ألم يكن مخطئاً البتة ؟ ما هى النتيجة المعينة المحددة التى كان بورفير يسعى اليها اليوم ؟ هل كان قد دبّر

شيئاً لهذا اليوم نفسه ؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة ؟ آكان يتوقع شيئاً ما ؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لولا أن نزلت ، بفضل نيقولا ، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان ؟ كان بورفير قد اكتشف كل لعبته تقريباً • صحيح أنه قد أسرف في التعجل بعض الاسراف ، ولكنه قد اكتشف لعبته على كل حال (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) • ولو كان يملك معلومات أخرى لما قصر في اظهارها والاستناد اليها • ثم ما هي تلك المفاجأة التي ألمع اليها ؟ أكانت هذه مزاحاة ؟ وهل لهذه المزاحاة من معنى أم هي ليست بذات معنى ؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة ؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس ؟ وأين اختفى ذلك الرجل ؟ أين هو اليوم ؟ ذلك أنه اذا صدق أن بورفير يملك شيئاً اثباتياً ، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس •

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره ، ماثلاً الى أمام ، واضعاً كوعيه على ركبتيه ، دافئاً وجهه في يديه • وما يزال ارتعاش عصبى يهز جسمه كله • ونهض أخيراً ، فتناول قبعته ، ولبث يحلم خلال لحظة ، ثم اتجه نحو الباب •

ان نوعاً من احساس تنبؤى كان يقول له انه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان • وشعر فجأة بشيء من فرح : أراد أن يذهب الى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة • كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً ، ولكنه يستطيع أن يصل الى المأدبة في حينها ، فيرى هنالك صونيا فوراً •

توقف ، وفكّر ، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة • وقال يردد بينه وبين نفسه :

– اليوم ! اليوم ! فى هذا اليوم نفسه يجب ***

وفى اللحظة التى همّ فيها أن يفتح الباب ، فُتح الباب من تلقاء نفسه فجأة • ارتعش راسكولنيكوف ، وتراجع الى الوراء بوثبة • كان الباب ينفّج ببطء ورفق • وظهر شكل انسانى ، هو شكل الرجل الذى خرج بالأمس « من تحت الأرض » •

وقف الرجل على العتبة ، ونظر الى راسكولنيكوف صامتاً ، ثم تقدم فى الغرفة خطوة • هو اليوم كما كان بالأمس حزين الوجه جداً ، وها هو ذا يزفر زفرة كبيرة بعد لحظة قصيرة • ليس يعوزه الا أن يسند خده على راحة يده ، وأن يميل برأسه الى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه •

سأله راسكولنيكوف كالمجنون :

– ماذا تريد ؟

فلزم الرجل الصمت لحظةً أخرى ، ثم انحنى أمامه فجأة حتى كاد يلامس الأرض ، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال • صاح راسكولنيكوف يسأله :

– ماذا تفعل ؟

فقال الرجل بصوت خافت :

– أنا مذنب !

– ما ذنبك ؟

– أُننى راودتنى أفكار شريرة خبيثة !

ونظر كل منهما الى الآخر • وتابع الرجل كلامه فقال :

– كنتُ منزعباً • فلما جثتُ أنت فى ذلك اليوم ، ولعلك كنت

عندئذ في حالة سكر ، فطلبت من البوابين أن يقتادوك الى قسم الشرطة ، وألقيت أسئلة عن الدم ، آلمني أن أرى أنهم لم يكثرثوا بالأمر ، وعدوك سكران لا أكثر ، وبلغت من شدة الألم أنني أرقفت فلم أستطع الى النوم سيلاً • واذ حفظت عنوانك ، فقد جئت مساء أمس أسألك •••

قاطعته راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك :

- من الذي جاء ؟
- أنا ، أنا الذي أسأت اليك •
- أأنت اذن من تلك العمارة ؟

- نعم ، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين ، ألا تتذكر ؟
لى هنالك دكان صغيرة ، منذ زمن طويل • أنا أعمل في اصلاح الفراء ، وأقوم بعمل في بيتي • والأمر الذي آلمني خاصة •••

تذكر راسكولنيكوف تذكراً واضحاً ، على حين فجأة ، كل المشهد الذي جرى أمس تحت الباب الكبير • فقال لنفسه : حقاً كان هنالك ، عدا البوابين ، أشخاص عدة بينهم نساء • وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترح اقتياده الى قسم الشرطة • انه لم ير وجه الرجل الذي تكلم حينذاك ؟ ولو قد رآه لما كان في وسعه أن يتعرفه على كل حال . ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه •

هذا هو اذن تفسير ليلة أمس تلك المروعة ! وأفطع ما في الأمر أنه كاد يضيّع نفسه فعلاً بسبب حادثة « تافهة » الى هذا الحد من التفاهة • ان هذا الرجل لا يستطيع اذن أن يروي شيئاً آخر غير ذهابه الى الشقة وسؤاله عن الدم • معنى هذا أن بورفير أيضاً لا يملك أى دليل قاطع ، لا يملك أية واقعة ثابتة ، عدا ذلك « الهذيان » ، عدا تلك « السيكلوجيا ذات الحدين » • هو لا يتصور اذن واقعة أخرى

(ولا يجب عليه أن يتصور ، لا يجب عليه ، لا يجب عليه) * * ما الذى كان يمكن أن يصنعوه به اذن ؟ كيف كان يمكن أن يربكوه وأن يورطوه فى الاعتراف ولو اعتقلوه ؟ وينتج عن هذا اذن أن حادثة ذهابه الى الشقة لم يعلم بها بورفير بتروفتش الا منذ قليل ، وكان قبل ذلك يجهلها * .

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت فى ذهنه فكرة مباغتة :

- أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفير * * * اننى ذهبت الى هناك ؟

- بورفير ؟

- نعم ، قاضى التحقيق * .

- صحيح * قلت له ذلك * فلأن البوابين لم يذهبوا اليه فى ذلك اليوم ، ذهبتُ اليه أنا * .

- اليوم ؟

- قبلك بدقيقة واحدة * وقد سمعت كل شيء ، كل شيء ، سمعت

كيف كان يعذبك ؟

- أين ؟ كيف ؟ متى ؟

- منذ قليل ، هناك ، عنده ، وراء الحاجز * بقيت هنالك طول

الوقت * .

- كيف ؟ أأنت « المفاجأة الصغيرة » اذن ؟ ولكن كيف تمَّ

هذا ؟ قل !

بدأ الرجل يتكلم فقال :

- حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطيعونى ، ويرفضون أن

يذهبوا الى قسم الشرطة بحجة أن الوقت متأخر ، وأن قاضي التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا اليه بسرعة أكبر ، تضايقت كثيراً ، وأرقت طول الليل ، وحصلت على معلوماتي . فلما حصلت عليها ، ذهبت الى قسم الشرطة في هذا الصباح . في المرة الأولى لم يكن القاضي هناك ، فرجعت بعد ساعة ، فلم أستقبل . وفي المرة الثالثة قبلوني . رويت للقاضي الأشياء كما وقعت ، فأخذ يركض في الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده ، ويقول : « ماذا تفعلون معي يا عصابة من قطاع الطرق ؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجيئونني به ! » . وبعد ذلك خرج راكضاً ، ونادى أحداً ، فأخذ يكلمه في ركن . ثم عاد نحوي ، وأخذ يلقي عليّ أسئلة ويشتمني . لا مني كثيراً . وقصصت أنا عليه كل شيء ، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيئني ، وقلت له أنك لم تتعرفني . عندئذ عاد يجري في الغرفة ويلطم صدره . كان يركض ركضاً ، وكان غاضباً . . . ومنذ ذلك أتيك ، قال لي : « أسرع ، اختبي وراء الحاجز ، وابق هنالك بدون حراك ، مهما تسمع » . وحمل الى نفسه كرسيّاً ، وأغلق على الباب قائلاً : « قد استدعيتك » . ولكن حين جيء بنيقولا ، صرفني بعد أن صرفك فوراً . وقال لي : « سأستدعيتك مرة أخرى لأستجوبك » .

- وهل استجوب نيقولا أمامك ؟

- صرفني بعد أن صرفك فوراً ، وأخذ يستجوب نيقولا .

توقف الرجل عن الكلام ، وانحنى مرة أخرى ، ولامست إحدى أصابعه الأرض مرة أخرى ، وقال :

- اغفر لي وشايتي والاساءة التي ألحقتها بك .

فأجابه راسكولنيكوف :

– الله يغفر لك !

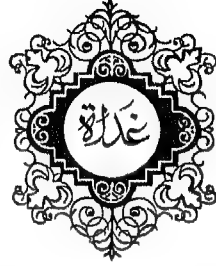
وبعد أن نطق الرجل بذلك الكلام انحنى مرة ثالثة ، ولكنه لم
ينحن في هذه المرة حتى الأرض ، بل حتى الحزام فقط ، ثم استدار على
عقبه ببطء وخرج من الغرفة •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « كل شيء ذو حدين ، كل شيء
هو الآن ذو حدين » • ثم غادر الغرفة هو أيضاً ، وقد أصبح واثقاً بنفسه
أكثر من أى وقت مضى •

قال وهو يهبط السلم ويتسهم ابتسامة ساخرة : « الآن سنتابع
الصراع » • وكانت الابتسامة الساخرة موجهةً ضدّ نفسه في هذه المرة :
كان يتذكر عندئذ « جبنه » ، بكره واحتقار •

الجزء الخامس

الفصل الأول



اليوم المشنوم الذي جرت فيه المناقشة الحادة بين بطرس بتروفتش وبين دونيا وبولشيرييا ألكسندروفنا ، استيقظ بطرس بتروفتش من نومه وثاب الى صوابه ، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض ، أنه مضطر الى أن يقبل ، قبوله لواقع رامن حاسم ، الأمر الذي كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدودها فعلاً . ان الأفعى السوداء ، أفعى الأناية الجريئة المهانة ، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل . فما ان نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر الى وجهه في المرأة . لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد في افراز الصفراء . غير أن كل خطر من هذه الناحية كان ، حتى الآن على الأقل ، قد تمّ تفاديه . فلما تأمل في المرأة وجهه النحيل الأبيض المتعجّن قليلاً منذ بعض الوقت ، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد في مكانٍ ما خطيئة قد تشوقه أكثر مما شاقته دونيا . ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه ، فبصق بصقة قوية من شدة غضبه ، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة في شفتي صديقه الشاب أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف الذي يسكن معه . ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بطرس بتروفتش الذي أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينه وبينه في الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجلها له . وتضاعف غضبه وحنقه حين قدّر فجأة أنه ما كان ينبغي

له أن يطلع آندره سيميونوفتش على نتائج المقابلة • هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ أمس بشدة الاندفاع ، وفورة الغضب ، وتسرع البوح • • • وشامت المصادفات طوال ذلك الصباح ، كأنما عن قصد وعمد ، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات ، وأن تلاحقه المنفصات بعد المنفصات • فحتى في مجلس الشيوخ كان ينتظره اخفاق في القضية التي كان يعالجها • وقد أحقته خاصة مالك الشقة التي استأجرها بطرس بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب ، وأصلحها على نفقته هو • فان مالك الشقة هذا ، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بعض الغنى ، وأصله ألماني ، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بنداً واحداً من بنود عقد الايجار ، وأصرّ على أن يدفع له بطرس بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد ، رغم أن بطرس بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جددت تجديداً شبه تام • وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث ، فان صاحب المتجر لم يشأ أن يرد اليه روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث ، رغم أن قطعة واحدة من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد • قال بطرس بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه : « لن أتزوج مع ذلك خصيصة من أجل أثاث ! » • وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد ، فتساءل : « أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع ، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً ؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة ؟ » • وتراعت له صورة دويتشكا الفاتنة الأخاذة ، فتمزق قلبه حسرةً ولوعةً من جديد ، وعانى عذاباً أليماً خلال دقيقة ، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتله ، لرغب تلك الرغبة على الفور • وقال لنفسه وهو يعود الى غرفة ليزياتنيكوف كاسف البال مكتئب النفس حزينا : « من أخطائي أيضاً أنني لم أعطيهم مالا ! شيطان يأخذني ! »

ما بالى تصرفت تصرف يهودى ؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح ،
وانما أنا أردت أن أبقئهم فى حالة الحاجة والعوز ، حتى أجعلهم يعدوننى
منقذا ومخلصاً ... آه ... لو أننى أعطيتهم خلال هذه المدة ... ألفاً
وخمسمائة روبل مثلاً ، لاعداد جهاز العرس ... لو أننى قدمت هدايا
صغيرة ، لو أننى قدمت أنواعاً من تلك اللعب الصغيرة واللوازم الضرورية
والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التى يجدها المرء
فى متجر كنوب أو فى المتجر الانجليزى * بأثمان بخسة ، لو أننى فعلت
ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح ، ولقامت المسألة على أسس أقوى
وأوطد . ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف .
ذلك شأن هذا النوع من الناس : يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ
الخطوبة الى ردّ الهدايا والمال جميعاً . فلو كنت قد قدمت اليهم هدايا
ومالاً لعزّ عليهم ولشقى عليهم أن يردّوها ... ثم ان ضميرها كان
سعيدها اذا هى فكرت فى فسخ الخطوبة : كانت ستقول لنفسها : كيف ؟
أأطرد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً فى جميع الأوقات ؟ هم
... لقد ارتكبت خطأً فاحشاً . ، ثم أسرع بطرس بتروفتش ينعت
نفسه بأنه غبى وهو يصرف بأسنانه من جديد - بينه وبين نفسه طبعاً .

فلما وصل الى هذه النتيجة عاد الى بيته وقد ازداد الشر والحق
فى نفسه أضعاف ما كانا عليه عند خروجه منه . وقد لفت انتباهه
الاستعدادات التى كانت قائمة فى غرفة كاترين ايفانوفنا للمأدبة الجنائزية .
كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ أمس كلاماً غامضاً ، حتى لقد كان
يخيّل اليه أنه يتذكر أنه دُعى الى هذه المأدبة ، ولكنه لاستغراقه فى
همومه الخاصة لم ينتبه الى اى شئ عداها . وأسرع يستطلع مدام
لييفكسل التى كانت أثناء غياب كاترين ايفانوفنا فى المقبرة منهمكةً حول
المائدة ، وكانت تهمّ أن تنهض ، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع

المستأجرين مدعوون إليها ، حتى الذين لم يعرفوا منهم المتوفى ، بل وحتى آندره سيمونوفتش لينزياتنيكوف ، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترين ايفانوفنا ، وأنه هو نفسه ، بطرس بتروفتش ، ليس مدعواً فحسب ، بل هو الى ذلك يُستَظر حضوره بفارغ صبر ، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأنًا وأعظمهم قدراً • وقد دُعيت أيضاً آماليا ايفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال ، رغم ما وقع بينها وبين كاترين ايفانوفنا فى الماضى من حوادث طارئة مؤسفة ، وهى الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت ، ولا يخلو ذلك من أن يُحدث لها لذة ومسرة • وهى فوق هذا كله ، رغم ارتدائها ثياب الحداد ، تتبخر بثوب من حرير ، جديد أنيق رشيّق ، مزدان بزخارف كثيرة ، تبدو فخورة به متباهيةً معتزة •

هذه الوقائع كلها وهذه المعلومات كلها أُوحت الى بطرس بتروفتش بفكرة ما ، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندره سيمونوفتش لينزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة ، ذاهلاً بها عما عداها • ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعين •

لسبب من الأسباب قضى آندره سيمونوفتش ذلك الصباح كله فى غرفته • وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بطرس بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال : كان بطرس بتروفتش يحترق لينزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره ، تقريباً منذ اليوم الذى أقام فيه عنده ؛ ومع ذلك كان يبدو عليه فى الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية • لقد نزل عند آندره سيمونوفتش منذ وصوله الى بطرسبرج ، لا بسبب البخل الشديد فحسب — رغم أن هذا هو الدافع الرئيسى فى حقيقة الأمر — بل لسبب آخر أيضاً • انه ، وهو فى الريف ، قد سمع عن ربيبه اليتيم آندره سيمونوفتش ، أنه شاب تقدمى متطور ، بل وأنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التى أصبحت أشبه بالأساطير • فتأثر بطرس بتروفتش

بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه • ان هذه الفئات القوية ،
العامة بكل شيء ، التي تحتقر جميع الناس ، وتفرض جميع الناس ، كانت
توحى اليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال .
لا شك أنه لاقامته بالأقاليم لم يستطع أن يكون لنفسه فكرة دقيقة (حتى
ولا تقريبية) عن شيء « من هذا النوع » • كل ما هنالك أنه سمع ،
كسائر الناس ، أنه يوجد ، في بطرسبرج خاصة ، أناس يسمون تقدميين
أو عديمين أو مصلحين * ، الخ ، ولكنه كان ، كثير من الناس ، يضخم
دلالة هذه الألفاظ ومعناها ، حتى ليشوَّها تشويهاً عجيباً • وهو منذ بضع
سنين انما يخشى « الشهيرات » العامة أكثر مما يخشى أى شيء آخر •
نعم ، ذلك هو الأساس الرئيسى الذى تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة ،
ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله الى بطرسبرج • بهذا
المعنى نستطيع أن نقول انه كان « مروَّعاً » حقاً كما يروِّع الأطفال
الصغار فى بعض الأحيان • انه قبل هذه الآونة بضع سنين ، قد شهد
فى الريف ، وكان ما يزال فى بداية مزاولته مهنته ، حالة رجلين من
أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك الشهيرات العامة فنالت منهما بقسوة
شديدة • وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكانا يحميانه ويرعبانه بعد
ذلك • فأما احدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذى ناله التشهير الى
الفضيحة والجلسة ، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من
المتاعب والنكد • ذلكم هو السبب الذى جعل بطرس بتروفتش يحرص
منذ وصوله الى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء ، وأن يفهم
الأحوال ، وأن لا تفوته المبادرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، فى سبيل أن ينال
الحظوة لدى « أجيالنا الشابة » • وكان يعوّل فى هذا على آندره
سيميونوفتش • وعلى هذا النحو انما استطاع ، مثلاً ، حين التقى
براسكولنيكوف ، أن يقول بضع عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره •

وهو لم يلبث ، بطبيعة الحال ، أن اكتشف في آندره سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غراً الى أبعد الحدود . ولكن ذلك لم يغيّر رأيه ، ولبث قلقاً غير مطمئن . انه على وجه الاجمال لا شأن له بهذه الأفكار كلها (التي كان آندره سيميونوفتش يقرع بها أذنيه ، ويصدّع بها رأسه) ، وانما كانت له غاية معينة وهدف محدّد : كان يريد أن يعرف ، بأقصى سرعة ، « ماذا » حدث هنا و « كيف » حدث ؟ هل هؤلاء الناس أقوياء لهم حول وطول ، وسلطان ونفوذ ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما ؟ أتراه يوشى به اذا هو شرع في هذا الأمر أو ذاك ؟ واذا وشى به ، فما هي النقاط التي ستكون محل الوشاية وموضع التديد والتشهير ؟ بل أكثر من ذلك : ألا يستطيع المرء ، اذا هم كانوا أقوياء ذوى سلطان ، أى يتسلل اليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضلّهم ؟ أهذا ضرورى حقاً أم لا ؟ أليس في وسع المرء ، بواسطتهم ، أن يهيء لنفسه نجاحاً في عمله وتقدماً في مهنته مثلاً ؟ بايجاز : كانت ماث من الأسئلة تلقى نفسها عليه .

وكان آندره سيميونوفتش هذا ، وهو مستخدمٌ في مكان ما بمثابة موظف ، كان رجلاً هزلياً بائساً عليلًا ؛ وهو قصير القامة ، أشقر شقرة غريبة ، له على جانبيه خديه لحيّتان يبدو مزهواً بهما زهواً شديداً . وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع في عينيه دائماً على وجه التقريب . واذا كان طبعه رخواً فان أحاديثه تدل على غرور يبلغ في بعض الأحيان حد الغطرسة الوقحة ، وذلك يتنافى مع شكله وقامته تنافياً مضحكاً .

على أنه كان عند آماليا ايفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين ، لأنه كان لا يشرب ، ولأنه كان يدفع أجر غرفته في موعده على نظام مطرد لا يتخلف . غير أن آندره سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا



ليڤيزيا تيكوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديا كورساكوفا

رجلاً غيباً في حقيقة الأمر • ان العاطفة الهوجاء هي التي ربطته بالآراء
التقدمية و « أجيالنا الصاعدة » • انه واحد من تلك الفئة الكبيرة من
الأغبياء والفاشليين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي
يعرفون أنها رائجة رواج « الموضة » ، والذين يفسدون ويشوهون كل
ما يستعملونه ، ولو كان تعلقهم به صادقاً مخلصاً •

ثم ان ليزياتنيكوف ، رغم أنه مسالم الى أبعد حدود المسالمة ، قد
أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحبه بطرس بتروفتش الذي كان في الماضي
ولى أمره والوصى عليه ، حتى أصبح لا يطبق احتمال مساكنته في غرفته.
ونشأ بين الرجلين كليهما نفور متبادل من تلقاء نفسه • لقد أخذ آندره
سيميونوفتش يلاحظ ، رغم غيابه ، أن بطرس بتروفتش يسخر منه
ويضحك عليه ويحتقره ، وأنه ليس في حقيقته ما يحب أن يبدو •
وكان آندره سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه
ودارون ، ولكن بطرس بتروفتش أصبح يحلو له ، ولا سيما في الأيام
الأخيرة ، أن يصنفي الى كلامه ساخرأ مستهزئاً ، حتى لقد أصبح يمضى
في ذلك الى حد اهاتته • وانما نشأ ذلك عن أن بطرس بتروفتش قد
اكتشف بغريزته أن ليزياتنيكوف ليس رجلاً غيباً فحسب ، بل أنه
أيضاً رجل متبجح ليس له أية علاقات هامة في بيئته ، وأنه لم يسمع
ببعض الأفكار الا على نحو غير مباشر ، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء
من المقدرة في مجال « الدعاية » ، لأنه يضطرب في الكلام ويرتبك في
الحديث ، فلا يستطيع كثيراً أن يشهر بأحد أو بشيء • وفي هذه المناسبة
يجب أن نشير عابرين الى أن بطرس بتروفتش كان خلال تلك الأيام
العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل ، برضى وارتياح ، الأماديج التي
كان يكيلها له آندره سيميونوفتش ، حتى ولو كانت غريبة جداً ، أو قل
على الأقل انه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها • كان يصمت مثلاً حين

ينسب اليه آندره سيمونوفتش أنه يتنوى أن يعاون قريباً ، بل قريباً جداً ، فى اشاء « كومون » جديدة فى مكان ما بشارع ميشتيانسكايا (شارع البورجوازيين) أو حين ينسب اليه أنه ينوى أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هواها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج ؛ أو حين ينسب اليه أنه لن يعمد الأولاد الذين سيولدون له ، الخ . كان بطرس بتروفتش ، على عادته ، لا ينكر المزايا التى تنسب اليه ، حتى لقد كان يسمح بأن تكال له أماديح من ذلك النوع ، فالى هذا الحد كان يحب أن يُمدح .

ان بطرس بتروفتش الذى بدّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب ، جالس الآن الى المنضدة يراجع عدد حزم الأوراق المالية . وهذا آندره سيمونوفتش الذى لم يكده يملك مالا فى يوم من الأيام يتجول فى الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر الى حزم الأوراق المالية بغير اكتراث ، بل وباحتقار . ولكن بطرس بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدق أن آندره سيمونوفتش ينظر الى هذه الحزم بغير اكتراث حقاً . وكان آندره سيمونوفتش من جهته يتصور بكثير من المראה أن بطرس بتروفتش ربما كانت تدور فى رأسه تلك الفكرة ، وربما كان يجد فيها لذة ، وربما كان يريد أيضاً ، بعرض هذه الأوراق المالية ، أن يسخر من صديقه الشاب ، وأن يذكره على هذا النحو بكل تفاهته ، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التى تفصلهما .

وقد وجده فى ذلك اليوم أكثر حدة ، وأقل انتباهاً منه فى أى وقت مضى ، رغم أنه هو آندره سيمونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضلة فى ضرورة اقامة « كومون » جديدة من نوع خاص . ان الملاحظات القصيرة التى كان يرسلها بطرس بتروفتش مع انشغاله بتقيل الكرات على أسلاكها فى جهاز العد ، كانت تتسم بسخرية واضحة

وتتصف بقلّة الكياسة • ولكن آندره سيميونوفتش ، هذا الداعية من دعاة « الأفكار الاساسية » ، كان ينسب اعتكار مزاج بطرس بتروفتش الى الأثر الذى أحدثه فى نفسه فسخ الخطبة ؛ وكان يحترق شوقاً الى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة ، لأنه يريد أن يدلى فى هذا الصدد ببعض الآراء التقدمية التى قد تواسى صديقه المحترم ، والتى « لا بد » أن تكون نافعة فى تطوره المقبل •

قاطع بطرس بتروفتش صاحبه فى أهمّ موضع من حديثه سائلاً على حين فجأة :

— ما مأدبة الجنازة هذه التى تُهيأ عند تلك ... الأرملة ؟
فأجابه آندره سيميونوفتش باستغراب قائلاً :

— كأنك لا تعلم ! لقد حدثتك عن أمر هذه المأدبة أمس ، حتى لقد شرحت لك آرائى فى هذا النوع من الاختلافات • ثم اننى قد سمعت أنها دعيت أنت أيضاً • وقد كلمتها أنت نفسك بالأمس •

— ما كنت أتوقع أن تبدد هذه الغيبة التى صارت شحاذة ، ما كنت أتوقع أن تبدد فى سبيل حفلة عشاء كل المال الذى أخذته من ذلك الغيبى الآخر • • • أقصد راسكولنيكوف ! لقد دُهِشت منذ قليل حين مررت بمسكنها • استعدادات عظيمة ! حتى الحمر لا ينقص هذه المأدبة !

وتابع بطرس بتروفتش كلامه يريد أن يجبر الحديث الى غاية لا يعرف المرء ما هى :

— دُعِ أشخاص كثيرون • • • الشيطان وحده يعلم • • •
ثم أضاف يسأل فجأة وهو يرفع رأسه :

— ماذا ؟ تقول اننى مدعو أيضاً ؟ متى دعيت ؟ لا أذكر أننى دُعيت !

على أننى لن أحضر • ما عسانى فاعلاً هناك ؟ كل ما فى الأمر أننى قلت لها بالأمس ، عابراً ، ان فى وسعها أن تحصل ، لأنها أرملة موظف معوزة ، على معونة يساوى مقدارها مرتبات سنة • أتراها دعتنى لهذا السبب وحده ؟ هـ هـ هـ ! • • •

قال ليزياتنيكوف :

— أنا أيضاً لا أنوى أن أحضر •

— آمل ذلك • فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك ، فمن الطبيعى جداً أن يعذبك ضميرك اذا أنت فكرت فى الذهاب الى عندها •

سأله ليزياتنيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه :

— من ذا ضربت ضرباً مبرحاً ؟ عمن تتكلم ؟

— عن كاترين ايفانوفنا طبعاً • لقد ضربت كاترين ايفانوفنا مند شهر ؟ أو هذا ما سمعته أمس على الأقل • انظروا الى رجال المبادئ والعقائد هؤلاء ! هذه طريقتهم فى حل قضية المرأة ! هـ هـ هـ !

وكانما خففت هذه الكلمات عن بطرس بتروفتش ، فعاد ينهمك فى حساباته •

وصاح ليزياتنيكوف يقول بلهجة حائقة مغتظة ، وكان لا يطيق أن يذكره أحد بتلك القصة :

— ما هذه الاحماقات ونمائم • ما هكذا جرت الأمور ، وانما جرت الأمور على نحو آخر تماماً ! لم يطلعوك على الواقع كما حدث • هذه أقاويل ، هذه أقاويل لا أكثر ! أنا انما دافعت عن نفسى فحسب ! فهى التى هجمت على مكشّرة عن أنيابها منشبةً مخالباها ، فما زالت بى حتى

تفت لى حيةً بكاملها ! أحسب أن من حق كل انسان أن يدافع عن نفسه • ثم اننى لا أسمح لأى مخلوق أن يعتمد فى معاملتى الى العنف ، وذلك ايماناً منى بمبدأ لا أحيده عنه ، لأن العنف استبداد • فماذا كان يجب علىّ أن أفعل ؟ أبقى أمامها مبسوط الذراعين ؟ كل ما فعلته هو أننى دفعتها عنى •

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية :

— هـىء هـىء هـىء هـىء ••••

— أنت تسعى الى مشاجرتى ، لأنك معتكر المزاج • وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة إطلاقاً ، إطلاقاً • لقد فهمت الأمر مقلوباً • اننى لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساوية للرجال فى كل شىء ، حتى فى باب القوة (كما يؤكد هذا منذ الآن) ، فقد وجب الابقاء على المساواة فى هذه الحالة أيضاً • طبعاً •••• أنا قلت لنفسى بعد ذلك ان أمثال هذه المسائل ينبغى أن لا تُطرح أصلاً ، لأن المنازعات ما ينبغى أن توجد ، حتى انها ستكون فى مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها ، وانه لشىء غريب ، تبعاً لذلك ، أن نشهد المساواة فى مشاجرة • أنا لست غيباً الى الحد الذى •••• رغم أن المشاجرات ما تزال قائمة طبعاً بانتظار ذلك •••• أعنى أن المشاجرات ستزول فى المستقبل ، لكنها ما تزال الى اليوم موجودة •••• هو ! ان المرء ليرتبك حين يكلمك ، وتختلط عليه الأمور •••• مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب فى اننى لن احضر العشاء • وانما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبدأ ، حتى لا أشارك فى هذه العادة السخيفة من العادات الاجتماعية ، أعنى مأدبة الجنائز • نعم ، ذلك هو السبب • على اننى قد أحضر المأدبة ، ولو لأضحك منها ، واستهزئ بها •••• من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس ، والا لما فوتت على نفسى فرصة الحضور •

- أى أنك كنت ستجلس الى مائدة الناس لتبصق بعد ذلك فى الأطباق ، ولتبصق أيضاً على أولئك الذين دعوك ؟ أليس كذلك ؟

- ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج • أنا ان فعلت ذلك فانما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة • ففى وسعى بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر • ان على كل انسان أن يساهم فى تنمية الدعاية ، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى • ان فى امكانى أن ابذر الفكرة ، أن ألقى البذرة • ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة • فمى اسىء اليهم اذا أنا فعلت ذلك ؟ قد يشعرون فى أول الأمر طبعاً بأن اساءةً لحقتهم ، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أننى كنت نافعاً لهم • انظر الى قضية المرأة تيربيفا عندنا (المرأة التى تنتمى الآن الى الكومون) • • • • • لقد تركت أهلها واستسلمت لرجل ، فأخذوا عليها أنها كتبت الى أبويها قائلةً انها أصبحت لا تريد أن تعيش فى الأوهام الاجتماعية ، وانها تؤثر الزواج الحر • لقد قال الناس عندئذ ان تصرفها ازاء أبويها كان فيه كثير من الغلظة ، وانها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما ، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل فى رسالتها أسلوباً أرق • أما أنا فأرى أن هذا الكلام كله سخف ، وان على المرء أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً • بالعكس : لا بد من الاحتجاج • • • • • وانظر الى المرأة فارتس : لقد عاشت مع زوجها سبع سنين ، ثم تركته وتركت ولديها ؛ وفى الرسالة التى بعثت بها اليه لم تتخرج من شرح رأيها بوضوح تام ، فقالت : « أدركت أننى لن أستطيع أن أكون سعيدة معك فى يوم من الأيام • ولن أغفر لك ، ما حييت ، أنك أخفيت عنى أن هناك تنظيماً آخر للمجتمع على أساس الكومون • لقد عرفت ذلك حديثاً من رجل عظيم استسلمت له وسأشئ معه كوموناً • أقول لك هذا بصراحة ، لأننى أعتقد أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف فى شئ أن أكذب عليك وأن أخدعك • دبّر

أمورك على النحو الذى يرضيك ، ولا تأمل أن ترانى عائدة اليك ...
 انك متخلف مسرف فى التخلف • أتمنى لك أن تكون سعيداً • «
 هكذا انما ينبغي أن تكتب أمثال هذه الرسائل •

— أليست تريبيفا هذه هى تلك التى قلت لى انها الآن فى زواجها
 الحر الثالث ؟

— لا بل هى فى زواجها الحر الثانى اذا نحن أحسنا النظر فى
 الأمور • وهبها فى زواجها الحر الرابع أو الخامس ، فأى خير فى هذا ؟
 لئن أسفت يوماً على موت أبوى فأنما أسفت على ذلك فى هذا اليوم •
 حتى لقد اتفق لى مراراً أن قلت لنفسى : لو كان أبوى حين لعرفت كيف
 أحتج عليهما ! نعم ، لو كانا حين لفعلت ذلك عامداً ، فأظهرتهما على
 آرائى ، وأدهشتهما أيما ادهاش ! حقاً اننى أتمنى لو أراهما حين ...
 حقاً انه ليؤسفنى أنهما ماتا !

قاطعه بطرس بتروفشس قائلاً :

— لتستطيع أن تدهشهما ؟ هى • هى ! • • • طيب • • • افعل ما يحلو
 لك • • • ولكن قل لى : أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً ، تلك الفتاة الصغيرة
 النحيلة ، فهل صحيح ما يقال عنها ؟

— ما قيمة هذا ؟ فى رأى ، أعنى فى قناعى الشخصية أن وضعها
 هو الوضع الطبيعى للمرأة • لم لا ؟ أقصد • • • « يجب أن نميز » • •
 لا شك أن وضعها هذا ليس فى المجتمع الحالى وضعاً طبيعياً ، لأنه ناشئ
 عن اضطراب واکراه ، أما فى المجتمع المقبل ، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً ،
 لأنه سينشأ عن اختيار حر • ثم ان هذه الفتاة من حقها ، الآن أيضاً ،
 أن تعيش كما تعيش • انها تتألم ، وألمها هو رأس مالها ان صحَّ التعبير ،
 ففى وسعها أن تصرف فيه على النحو الذى تشاء • صحيح أن رموس

الأموال هذه لن تبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود ، ولكن دور البنى
سيتم دلاله أخرى ، وسيتم تنظيمه تنظيمياً عقلياً . ولنرجع الآن الى
شخص صوفيا سيميونوفنا : اننى أرى أن سلوكها هو فى هذه الأزمنة
احتجاج قوى مجسّد على نظام المجتمع ؛ وأنا لهذا السبب احترمها
احتراماً عميقاً ، بل أكثر من ذلك اننى أعتب لرؤيتها على هذه الحال .

– لكننى سمعتُ أنك قد طردتها من هذا البيت .

اعترت ليزياتيكوف حالة غضب شديد عنيف ، وزأر يقول :

– هذه أيضاً نمائم ! ان الأمور لم تجر على هذا النحو ، لم تجر
على هذا النحو قط ! حقاً انها لم تجر على هذا النحو ! ان كاترين
ايفانوفنا هى التى اخترعت كل شيء ، لأنها لم تفهم شيئاً . أنا لم أحاول
فى يوم من الأيام أن أحظى بصوفيا سيميونوفنا : كنت أكتفى بتثقيفها
بعيداً عن كل مصلحة بريثاً من كل غاية ؛ كنت أحاول أن أنمى فيها
روح الاحتجاج . لم أكن فى حاجة الا الى احتجاجها وحده . ثم ان
صوفيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الادراك أنها أصبحت لا تستطيع
أن تقيم هنا فى مسكن مفروش .

– هل كنت تدعوها الى الاشتراك فى الكومون ؟

– أنت لا تجيد الا السخرية ، ولكنك تخطئ هنا خطأ فادحاً .
اسمح لى أن أقول لك ذلك انك لا تفهم من أمر الكومون شيئاً .
فى الكومون ، لا وجود لهذا الدور . وانما نُظِمَّت الكومون من أجل
أن لا يكون لهذا الدور وجود . فى الكومون سيتغير هذا الدور تغيراً
تاماً ، فما هو غبى هنا سيصبح ذكياً هنالك ، وما يبدو هنا فى الظروف
الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً . كل شيء مرهون بالبيئة

التي يعيش فيها الانسان • كل شيء تحدده البيئة ، والانسان في ذاته لا شأن له • أما صوفيا سيميونوفنا فان علاقتي بها ما تزال طيبة ، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً • نعم ، انني أحاول الآن أن أجتذبها الى الكومون ، ولكن لأسباب أخرى تماماً • لماذا تضحك ؟ اننا نريد أن ننشئ كوموناً خاصة بنا ، ولكننا نريد أن ننشئ هذه الكومون على أسس أوسع من الأسس السابقة • لقد مضينا في اعتقاداتنا الى مدى أبعد ، وأنكرنا أشياء أكثر ، فلو خرج دوبروليوفوف من قبره لتشاجرت معه حتماً ، ثق بذلك ! أما بيلنسكي فلو خرج من قبره لأبدته ابادة ! * وأنا الآن مستمر في تنشئة صوفيا سيميونوفنا • ان لها طبيعة طيبة حسنة ، حسنة جداً !

— هيا ! انك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة ! هيا هيا .. !

— أنا ؟ لا ، لا ! بالعكس

— بالعكس ؟ أنت تقول هذا الكلام ؟

— في وسعك مع ذلك أن تصدقني • ما هي الأسباب التي يمكن أن تدفعني الى اخفاء الحقيقة عنك ؟ هلاً أجبتي من فضلك ؟ نعم ، هناك ظاهرة غريبة : لكانها معي متحرجة ، وجلة ، بل وخجلة !

— وأنت أثناء ذلك مستمر في تنشئتها ! هيا ! .. تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذه كلها ما هي الا غباوات وبلاغات ! ..

— لا ، لا ! آه • • • ما أغلظ وما أغبي تأويلك هذا لكلمة « التنشئة » ، اعذرني ! ألا انك اذن لا تفهم شيئاً على الإطلاق ! آه • • • يا رب ! • • • ما أشد تخلفك حتى الآن ! • • • نحن ننشد حرية المرأة ، وانت ليس في رأسك الا • • • اذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام ، وهي شيء لا جدوى منه في ذاته ، بل هي شيء سخيف أيضاً ، فأنني

أقبل تحفظها معى كل القبول : فما دامت هذه ارادتها فمن حقها أن ••
طبعاً ، اذا قالت لى فى ذات يوم : « أنا أريدك » ، فسأعد ذلك حظاً
سعيداً ، لأن هذه الفتاة تعجبني كثيراً • أما الآن ، الآن على الأقل ، فربما
كان لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومدارة
ومراعاة • اننى انتظر وآمل ، هذا كل شىء •

— الأفضل أن تقدم إليها هدية صغيرة • أراهن أن هذه الفكرة لم
تخطر ببالك ، أليس كذلك ؟

— أنت لا تفهم شيئاً ، سبق أن قلت لك ذلك ! صحيح أنها مومس ،
ولكن المسألة ليست هنا ، ليست هنا البتة ! أنت تحتقرها ، لا أكثر
ولا أقل • انك بالاستناد الى واقعة مخلة بالشرف فى رايك ، تابى على
كائن انساني أن ينظر إليها نظرة فيها روح انسانية • الا انك تجهل حتى
طبيعتها ! ان هناك شيئاً واحداً آسف له ، هى أنها منذ زمن قد انقطعت
عن القراءة انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستعير منى أى كتاب •
كانت قبل ذلك تستعير منى كتباً • ومما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم
كل ما تملكه من طاقة كبيرة ، ورغم كل ما تتصف به من عزم على
الاحتجاج — لقد سبق أن برهنت على ذلك مرة — لا يبدو فيها قدر
كاف من الاستقلال ، قدر كافٍ من ••• من السلبية ، قدر كافٍ من
التأهب للتحرر نهائياً من أوهامها الاجتماعية ••• وسخافاتها • ومع ذلك
فهى تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً • لقد أدركت أكمل الادراك مسألة
تقييل اليد ، مثلاً • لقد أدركت أحسن الادراك أن الرجل حين يقبل يد
المرأة انما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً • لقد ناقشنا هذه المسألة
عندنا ، فسرعان ما ناقشتها معها • وقد أصغت الىّ باتباه شديد أيضاً
حين كلمتها عن النقابات العمالية فى فرنسا • وأنا الآن بسبيل أن أشرح

لها مسألة حرية دخول الغرف على نحو ما ستطرح هذه المسألة في المستقبل •

— ما هذه المسألة أيضاً ؟

— لقد أثبتت في الآونة الأخيرة هذه المسألة : هل من حق عضو في الكومون ، رجلاً كان أو امرأة ، أن يدخل غرفة عضو آخر ، رجلاً كان أو امرأة ، في أية ساعة من الساعات ... وقد تقرر أن له هذا الحق •

— غريب ! ماذا لو كان العضو ، الرجل أو المرأة ، مشغولاً في تلك الساعة بتلبية حاجة طبيعية ؟ هيء هيء ! ...

غضب آندره سيميونوفتش ، وصاح يقول مبغضاً :

— آه ... هانت ذا تعود الى هذه المسألة ! ان الأمر الهام في نظرك انما هو هذه « الحاجات » اللعينة ! ألا اننى لأحقد على نفسى لأننى تكلمت أمامك عن هذه الحاجات اللعينة ! شيطان يأخذك ! هذه عثرتك وعثرة جميع أشباهك • وأنكى ما فى الأمر أنهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن يعرفوا ما هي المسألة • كأن ذلك من حقهم ! وكأن فى ذلك ما يدعو الى الفخر والاعتزاز ! آ ... لقد سبق أن قلت غير مرة ان هذه المسألة ما ينبغي أن تعرض أمام أعرار مبتدئين الا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم الى المذهب • بتعبير آخر : ما ينبغي أن يعالج هذه المسألة الا انسان تطور تطوراً كافياً وتحققت له تنشئة مناسبة • ثم قل لى : ما الذى تراه فى المراحض من شيء مخجل الى هذا الحد محقر الى هذه الدرجة ؟ اننى مستعد لأن أنظف ما تشاء من مراحض • وصدقتى اذا قلت لك ان هذا لا ينطوى على أى تضحية من جهتى • ذلك عمل كثيره من الاعمال ، بل انه الأكبر كثيراً من عمل رجلٍ مثل رافائيل أو بوشكين ، لسبب بسيط هو أنه أكثر نفعاً * •

— وأكثر نبلاً ، أكثر نبلاً ، هيء هيء !...+

— ما معنى كلمة « النبل » هذه ؟ اننى لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط انساني + « أكثر نبلاً ! » + هذه ترهة ، هذه سخافة ، هذا وهم اجتماعى بالٍ أرفضه وأحتقره . الشيء النبيل هو الشيء « النافع » للانسانية . ذلك هو الشيء النبيل حقاً . أنا لا أفهم الا كلمة واحدة ، وهذه الكلمة هي : « النافع » . اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك ، فذلك هو اعتقادى !

كان بطرس بتروفتش يتمطى + لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتب ماله + ولكنه أبقى جزءاً من هذا المال على المائدة ، لا يدرى أحد لماذا +

ان مسألة المراهيض هذه كانت ، رغم تفاهتها ، سبباً لمشاجرات عدة بين بطرس بتروفتش وصديقه الشاب + والغباء فى الأمر أن آندره سيمونوفتش كان ينفب فعلاً ، أما لوجين فما كان يرى فى هذا الا فرصة للتسلية والاسترخاء + وكان فى تلك اللحظة خاصة يشتهى أن يغيط ليزياتنيكوف +

— بسبب اخفاك مساءً أمس انما أنت معتكر المزاج الى هذا الحد اليوم +

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليزياتنيكوف الذى كان رغم كل « استقلاله » ورغم كل روح « الاحتجاج » لديه ، لا يجرؤ فى العادة ان يعارض بطرس بتروفتش معارضة صريحة ، وكان على وجه العموم يلتزم فى معاملته ما ألف أن يلتزمه فى معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام +

وقد قاطعه بطرس بتروفتش قائلاً بتعالٍ وامتعاض :

— قل لى : هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي الى هنا حالاً ؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة . لقد سمعت وقع أقدام ، و ... أودُّ لو أرى هذه الفتاة •

سأله لينزياتسكوف مدهوشاً :

— ولكن لماذا ؟

فأجابه :

— هكذا ... يجب أن أكلمها • اننى مسافر بين يوم ويوم ، وأحب أن أنقل اليها ... فى وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال ، بل ذلك أفضل ، والا فقد تتخيل ما لا يعلمه الا الله ! ... •

— لن أتخيل شيئاً البتة • وانما أنا ألقىت سؤالى هكذا ... فاذا كنت فى حاجة الى أن تراها فلا أسهل من احضارها • أنا ذاهب لأجيبك بها • وثق اننى لن أزعجك •

وعاد لينزياتسكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق • دخلت صونيا مدهوشة أشدَّ الدهشة ، خجلة وجلة الى أقصى حد ، على عادتها • انها خجلة وجلة دائماً فى مثل هذه الأحوال • كانت منذ طفولتها تخشى التعرف الى أناس جدد ، وتخاف من الوجوه الجديدة ، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن •

استقبلها بطرس بتروفتش استقبالاً « لطيفاً مهذباً » ، ولكنه أضاف الى هذا الاستقبال ، والحق يقال ، نوعاً من المرح والألفة يلقيان ، فى رأيه ، برجل يبلغ ما يبلغه هو من نجد ووقار واحترام ، حين يعامل مخلوقة شابة الى هذا الحد ، « شائقة » الى هذه الدرجة ، بمعنى من المعانى •

وأسرع بطرس بتروفتش «يطمئن» صونيا سيميونوفنا ، ويجلسها أمام المائدة قبلته. جلست صونيا وألقت نظرةً حولها - على ليزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة ، ثم على بطرس بتروفتش فجأةً من جديد . ومنذ تلك اللحظة لم تحوّل بصرها عنه ، كأن شيئاً ما كان يشدها إليه .

اتجه ليزياتنيكوف نحو الباب ، فنهض بطرس بتروفتش ، وأمسك ليزياتنيكوف وهو يدعو صونيا بإشارة من يده الى أن تبقى جالسة . وقال يسأل صاحبه همساً :

— هل راسكولنيكوف ذاك هناك ؟ هل جاء ؟

فأجابه ليزياتنيكوف :

— راسكولنيكوف ؟ نعم ، هو هناك . فماذا ؟ نعم ، هو هناك . وصل منذ قليل ، رأيته . فماذا ؟

— أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا ، أن لا تتركني في خلوة مع هذه . . . الفتاة . هذه قضية لا قيمة لها ، ولا يعلم الا الله ما عسى يستنتج منها اذا . . . لا أريد أن يمضى راسكولنيكوف يقول « هناك » . . . هل تفهم الى ماذا أشير ؟

أجاب ليزياتنيكوف وقد أدرك الأمر :

— أفهم ، أفهم . نعم ، أنت على حق . في قناعتي الشخصية أنك تضخّم الأخطار تضخيماً كبيراً . . . ولكنك مع ذلك على حق . طيب . سأبقى . سأمكث هنا ، قرب النافذة ، حتى لا أضيقك . . . في رأيي أنك على حق . . .

عاد بطرس بتروفتش نحو الأريكة ، وجلس قبالة صونيا ، ونظر

اليها بانتباه ، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية ، وهو يقول لها بينه وبين نفسه « لا تخطرن ببالك الحواطر يا جميلة ! »

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها • وبدأ بطرس كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد ، ولكنها لهجة متوددة فى الوقت نفسه :

— أرجوك أولاً أن تتكرمى يا صونيا سيميونوفنا ، فتعذرى عنى لأملك المحترمة ••• أليست كاترين ايفانوفنا بمثابة الأم لك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كان يبدو على بطرس بتروفتش أنه يضمر أحسن نيات الصداقة • فأسرعت صونيا تجيبه مروعة مذعورة :

— نعم ، حقاً ، هى لى بمثابة الأم •

— فاعتذرى لها عن أننى لا أستطيع ، بسبب ظروف مستقلة عن ارادتى ، أن أجيء الى عندكم فأكل المعجنات ••• أقصد أن أشارك فى مأدبة الجنائز ، رغم الدعوة اللطيفة التى وجهتها الى •

— سأقول لها هذا ، فوراً •••

قالت صونيا ذلك ونهضت بسرعة •

فقال بطرس بتروفتش وهو يمنمها من القيام ، ويتيسم لسذاجة الفتاة ولجهلها بالمواضعات الاجتماعية :

— ليس هذا كل شىء « بعد » • انك لتجهليننى اذن ، يا صونيا سيميونوفنا اللطيفة جداً ، اذا كنت تتصورين اننى لسبب يبلغ هذا المبلغ

من التفاهة ولا يتعلق الا بى أنا ، يمكن أن أسمح لنفسي بأن أزعج شخصاً مثلك . ان لى هدفاً آخر تماماً .

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة . وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تتراقص أمام عينيها من جديد ، فسرعان ما اشاحت وجهها عنها بقوة ، ونظرت الى بطرس بتروفتش . لقد لاح لها فجأة أنه عار رهيب عليها أن تنظر الى مال ليس مالها ، لا سيما « وهى ما هى » . تلبث بصرها فى أول الأمر على النظارة ذات الاطار الذهبى ، التى كان بطرس بتروفتش يمسكها بيده اليسرى ، وتلبث فى الوقت نفسه على الحاتم الجميل جداً ، الضخم جداً ، المزدان بحجر أصفر ، الساطع فى الأصبع الوسطى من تلك اليد نفسها . ولكنها حوّلت بصرها فجأة ، واذ لم تصرف الى أين توجه عينيها ، حدثت بهما الى عيني بطرس بتروفتش لا تحركهما يمنة ولا يسرة .

وبعد فترة من صمت تابع بطرس بتروفتش كلامه بلهجة فيها مزيد من الجدل أيضاً :

- أتيحت لى أمس فرصة تبادل بضع كلمات مع المسكينة كاترين ايفانوفنا ؟ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدها أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى حالة منافية للطبيعة ، ان صح التعبير .
فقلت صونيا مؤيدة :

- نعم ... فى حالة منافية للطبيعة .

- أو فى حالة مرضية اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح .

- ، نعم ، اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح ... نعم ... هى مريضة .

— هذه هي المسألة ... وقد هزنتى مشاعر انسانية ومشاعر عطف
ان صح التعبير ، فوددت لو أنفعتها فى شيء ما ، لأننى أتنبأ بالمصير الشقى
البائس الذى سيشول اليه لا محالة • يُخِيلُ الىَّ أن الأسرة التعيسة كلها
قد أصبحت تعتمد عليك وحدك •

سألته صونيا فجأة :

— اسمح لى أن أسألك ... هل صحيح أنك كلمتها أمس عن
امكان الحصول على معاش تقاعد ؟ لقد قالت لى أمس انك مستعد
لأن تتولى القيام بالمساعى اللازمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش •
فهل هذا صحيح ؟

— غير صحيح البتة ، بل هو أيضاً سخف • كل ما فعلته هو اننى
أشرت الى جواز الحصول على نجدة موقته يمكن أن تدفع لأرملة موظف
مات أثناء الخدمة — وهذا لا يتحقق طبعاً الا اذا كان هذالك أناس يرعون
هذه الأرملة ويحمونها — ولكننى أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين
المطلوبة فى الوظيفة ، حتى انه فى الآونة الأخيرة فقد صفة الموظف •
ومعنى ذلك ، باختصار ، أن الأمل الصغير الذى كان يمكن أن يراودنا
يضعف فى هذه الأحوال مزيداً من الضعف ، لأن حق أبك فى التعويض
لا وجود له ... بالعكس ... فما أغرب أن تفكر أمك منذ الآن فى
معاش ! ... هى ، هى ، هى ! يا للسيدة المتعجلة ! • •

— نعم ... هى • • معاش • • لأنها سريعة التصديق • • وطيبة • •
وهى لأنها طيبة ، تظن أن • • • وتصدق • • • ثم ان فكرها قد خلق
هكذا • • نعم • • معذرة • •

كذلك قالت صونيا مشوشة وهى تنهض من جديد لتتصرف •
قال بطرس بتروفتش :

- اسمحى لى ! ... انك لم تسمعى بعد' كل شىء •

فجمجمت صونيا تقول :

- نعم ، لم أسمع بعد' كل شىء •

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك والاضطراب •

وتابع بطرس بتروفتش كلامه فقال :

- اننى ، وقد رأيت الحالة التى هى فيها مع ولدين بائسين ، رغبت ، كما سبق أن قلت لك ذلك ، فى أن أكون نافعاً لها بمقدار ما تتيحه لى وسائلى ، نعم بمقدار ما تتيحه لى وسائلى لا أكثر من ذلك • فمن الممكن مثلاً أن ننظم اككتاب تبرعات ، أو حتى أن ننظّم سحب يانصيب ، أو أى شىء آخر من هذا القليل ... كما يحدث هذا فى حالة كهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجناب يريدون أن يهبوا الى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر • فعن هذا المشروع انما أردت أن أحدثك • انه مشروع ممكن التحقيق •

ثأثأت صونيا تقول محدقةً الى بطرس بتروفتش فى عناد واصرار:

- نعم ، ذلك شىء حسن جداً ... جزاك الله خيراً ...

- الأمر ممكن ، ولكن ... سنتكلم عن هذا فيما بعد ... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم • على كل حال سنلتقى فى هذا المساء ، وسنتفق • سنرسى الأسس ، كما يقال • تعالى الى هنا فى نحو الساعة السابعة ... وسيحضر آندره حديثنا فيما آمل ... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه ابرازاً خاصاً منذ الآن • ومن أجل هذا الأمر يا صونيا سيميونوفنا انما أبحت لنفسى أن أزعجك باستدعائك الى هنا • فى رأى أن المال الذى سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترين ايفانوفنا نفسها ، حتى ان فى ذلك

خطراً • ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك : ان كاترين ايفانوفنا وهى لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً ، ولا تملك حذاءين تتعلمها فتقى نفسها السير حافية ، لا تحجم اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكى بل والتبذير الماديرى والقهوة ، اذا لم يخطئ ظنى • لقد رأيت هذا كله عابراً • وغداً يقع كل شئ على عاتقك أنت ، ويكون عليك أن تقدمى لهم حتى خبزهم اليومى ، وذلك أمر لا يُعقل ! لهذا أرى أن ينظم اكتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال ان صح التعبير ، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت • ألسنت على حق ؟

— لا أدري ! ... فى هذا اليوم وحده انما هى •• ذلك لا يحدث الا مرة واحدة فى الحياة •• انها شديدة الرغبة فى أن تكرم ذكرى الراحل •• وهى ذكية جداً • على كل حال ، افعلى ما تراه مناسباً •• وسأكون •• وسيكونون جميعاً •• وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء •• واليتامى ••

لم تكمل صونيا جملتها ، وأجهشت باكية •

قال بطرس بتروفتش :

— فكّرتى جيداً فيما قلته لك • والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبل عن أمك هذا المبلغ مشاركة منى فى اكتاب التبرعات • وانى لأمل خاصة أن لا يُذكر اسمى فى هذه المناسبة • يؤسفنى أن أعبأى الكثيرة لا تسمح لى بالتبرع بأكثر من هذا المبلغ •••

قال بطرس بتروفتش ذلك ومدّ الى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عُنِي بطيهاً طياً دقيقاً • فتناولت صونيا الورقة المالية محمّرة الوجه خجلاً ، ثم نهضت بوثبة واحدة ، ودمدت ببضع كلمات ،

واستأذنت بالانصراف بسرعةٍ اسراعاً شديداً • فشيّعها بطرس بتروفتش حتى الباب بأبهة وجلال • وخرجت آخر الأمر من الغرفة متمجّلة عصيةً مرهقة ، وعادت الى كاترين ايفانوفنا وهى على حال من الاضطراب الشديد •

طوال المدة التى استغرقها هذا المشهد كان آندره سيمونوفتش الذى لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث ، كان يبقى ساكناً قرب النافذة تارة ، أو يسير فى الغرفة تارةً أخرى • فلما خرجت صونيا اقترّب من بطرس بتروفتش فجأةً ، ومدّ اليه يده يصافحه برصانة ووقار ، قائلاً له :

ـ لقد سمعت كل شيء و « رأيت » كل شيء (ألحّ آندره سيمونوفتش على كلمة « رأيت » هذه إلحاحاً خاصاً) • هذا عمل نبيل ، أقصد هذا عمل انساني ! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان ، لاحظتُ أنا ذلك • صحيح أنني من ناحية المبدأ أعارض كل احسان أو بر ، لأن الاحسان أو البر لا يستأصل الشر بل يقيه ويغذيه ، ولكننى لا أملك مع ذلك الا أن اعترف بأننى تأملت عملك بشيء من الرضى والمسرّة واللذة • نعم نعم ، أعجبني عملك •

جمعهم بطرس بتروفتش يقول متسائراً بعض التائر ، متأملاً ليزياتنيكوف فى شيء من الحذر والريب :

ـ هذه كلها أمور تافهة !

ـ لا ، ليست أموراً تافهة ! ان رجلاً جُرح جرحاً حاداً كما جُرحت أنت باسادة الأمس ، ثم هو قادر فى الوقت نفسه على أن يفكر فى شقاء الآخرين وبؤسهم ، ان رجلاً كهذا الرجل - رغم أنه بتصرفه على هذا النحو يرتكب خطأ من الناحية الاجتماعية - جدير بالتقدير

خليق بالاحترام • الحق أننى لم أكن أتوقع هذا منك يا بطرس بتروفتش ، لا سيما وأن آراءك ••• آه ••• ما أشد الحرج الذى ماتزال تسببه لك هذه الآراء ! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك ! (بهذا هتف آندره سيمونوفتش الطيب ، وقد شعر نحو بطرس بتروفتش بمودة ومحبة على حين فجأة) ولكن لماذا ، لماذا حرصت هذا الحرص كله على ذلك الزواج « الشرعى » ، يا بطرس بتروفتش ، النيل جداً ، اللطيف جداً ، ما حاجتك الى هذه « الشرعية » فى الزواج ؟ اضربنى ان شئت ، ولكنى أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم ، وأنت حر ، وأنت لم تمت بعد ، موتاً تاماً بالنسبة الى الانسانية • نعم ، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك • هأت ذا ترى أننى أصارحك بما فى قلبى •

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما :

— اذا كنت أحرص على الزواج ، فلأننى لا أريد أن ينبت لى قرنان ، وأن أربى أولاد الآخرين ، كما يحدث فى الزواج الحر الذى تدعون اليه •

ضرب آندره سيمونوفتش الأرض بقدمه كحصان المعركة سمع صوت البوق ، وسأل صاحبه متحمساً :

— الأولاد ؟ قلت الأولاد ؟ اننى أسلّم بأن الأولاد يثيرون مشكلة اجتماعية هامة جداً ، ولكن مسألة الأولاد ستُحل بطريقة أخرى تماماً . ان بعضهم يمضى الى حد انكار الأولاد انكاراً تاماً ، كما ينكر كل اشارة الى الأسرة على كل حال • وسنتحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد • أما الآن فلنقف على مسألة القرنين هذه ، لأننى أحبها حباً خاصاً • ألا فاعلم ان هذا التعبير السئ المستمد من لغة الفرسان ، المستعار من كلام رجال مثل بوشكين ، سوف يُنبذ من معاجم المستقبل نبذاً تاماً • ما هذه القرون

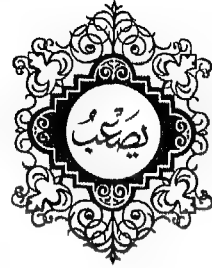
التي تتحدثون عنها ؟ هه ! لماذا تتحدثون عن قرون ؟ نعم ، هناك قرون .
ولكن الزواج الحر هو الذى لن يكون فيه قرون ! ليست القرون الا
نتيجة طبيعية للزواج الشرعى . انها الاقتصاص منه ان صح التعبير .
انها الاحتجاج عليه . وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى
شيء من مذلة . فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً - وهذا
افتراض مستحيل - لكان يسرنى ويسعدنى أن ينبت لى قرنان من تلك
القرون التى تتحدثون عنها . سوف أقول عندئذ لزوجتى : « يا صديقتى ،
أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحبيتك ، أما الآن فانى أضيف الى
الحب احتراماً ، لأبك عرفت كيف ترفعين احتجاجاً » . أتضحك ؟ أنت
تضحك لأبك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الأوهام
الاجتماعية . أنا أفهم أن يتمتع الزوج من خيانة زوجته فى الزواج
الشرعى ، ولكن هذا بعينه انما هو النتيجة البائسة لواقعة هى أيضاً بائسة ،
بالنسبة الى الطرفين كليهما . أما حين يحمل الرجل قرنين صراحة ،
كما هى الحال فى الزواج الحر ، فان القرنين يندم عندئذ وجودهما ان
صح التعبير ، ويصبح من غير الممكن تصورهما ، ويفقدان حتى اسم
القرنين ؛ بل ان فى وسعى أن أقول ان امرأتك تبرهن لك بذلك على
مدى احترامها لك ، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها
وبين سعادتها ، وبأنك متطور متقدم الى الحد الذى يمنحك من الانتقام منها
بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً . يميناً انه ليخطر ببالي أحياناً اننى
اذا تزوجت - زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً ، سيان - فلربما أجبى
لامرأتى بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها . ولأقولنَّ
لها عندئذ : « يا صديقتى ، أنا أحبك ، ولكننى أريد بالاضافة الى ذلك
أن تحترمينى . اننى أحرص على هذا . اليك عشيقاً ! » . ألسنت على
حق ؟ ألسنت على حق ؟

كان بطرس بتروفتش يصغى اليه ضاحكاً ، ولكن دون أن يبدى كثيراً من الاهتمام ، حتى انه لم ينتبه الى الكلام الا قليلاً ، لأنه كان يفكر فى شىء آخر تماماً ، وقد لاحظ لينزياتيكوف ذلك آخر الأمر .

لقد كان بطرس بتروفتش يعانى اضطراباً شديداً ، فكان يفرك يديه ويمعن فى التفكير .

ذلك كله تذكره آندره سيميونوفتش فيما بعد ، وفهمه .

الفصل الثاني



علينا أن نحدّد ، على وجه الدقة ، الأسباب التي
 أنبتت في دماغ كاترين ايفانوفنا المختل فكرة
 مآذبة الجنازة هذه . لا بد أنها أنفقت على هذه
 المآذبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلاً
 التي أخذتها من راسكولنيكوف لانفاقها على احتفالات الدفن . لعل
 كاترين ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرة الى تكريم ذكرى الراحل
 تكريماً «لائقاً» ، حتى يعلم جميع المستأجرين ، ولا سيما أماليا ايفانوفنا ،
 أن «الراحل لم يكن أدنى قيمة» منهم ، بل ربما كان أعلى كثيراً ، وأنه
 ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن «يُبدل» بنفسه «حين يفكر فيه» .
 ولعلها كانت تنقاد خاصة «لزهو الفقراء» ذاك الذي يدفع كثيراً من
 البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب
 عاداتنا المتأصلة ، الى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون
 من مال ، حتى لا يكونوا «دون الآخرين» وحتى لا «يحكم عليهم»
 الآخرون . ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترين ايفانوفنا في ذلك
 الظرف بعينه ، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها ، قد
 أرادت أن تبرهن لجميع أولئك «المعوزين» الذين هم المستأجرون ، أنها
 امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل ، وأنها نشأت لتحيًا طرازاً من
 الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف ، وأنها تربّت في «منزل
 نبيل ، منزل ارسقراطي ، منزل كولونيل» ، وأنها اذن لم تُخلق لتتولى

بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد فى الليل • ان اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقراً ، وتستبد بأناس مهجورين ليس لهم أحد ، ولا يندر أن نرى هذه الاندفاعات تستحيل فى بعض اللحظات الى حاجات حقيقية ، حاجات ماسة قوية • ثم ان كاترين ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتي يُجندلن بسهولة : فمهما تكن الظروف رهيبة ، فلا شئ يمكن أن « يجهز » على عزيبتها وأن يهدم ارادتها • ثم ان صونيا كانت على حق حين قالت ان دماغ أمها قد أخذ يختل قليلاً قليلاً • الواقع أن الأمر لم يتضح بعد ، ولكن لا شك أن كاترين ايفانوفنا قد تحمّلت من المحن منذ بعض الوقت ، ولا سيما فى السنة الأخيرة ، ما لا بد أن يكون له أثر فى عقلها • ثم ان مرض السل يهيء المصاب به لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلة معينة •

لم تكن « الخمر » كثيرة جداً ولا متنوعة جداً ، ولم يكن هناك خمرة ماديرية ، فتلك مبالغة • ومع ذلك كان ثمة خمرة : نبيذ وفودكا وروم وبورتو • وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً ، ولكن مقاديره كانت كافية • وقد هيأوا ، بالاضافة الى حلوى الأرز التقليدية ، صنفين أو ثلاثة أصناف من الطعام (منها فطائر) أعدت فى مطبخ أماليا ايفانوفنا • وحُضّر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاي أو يحتسوا « البنش » بعد الوجبة • ان كاترين ايفانوفنا هى التى تولّت بنفسها شراء الأشياء ، يساعدها فى ذلك أحد المستأجرين وهو بولندى رث مسكين لا يعلم الا الله لماذا يسكن عند السيدة ليفكسل • ان هذا البولندى لا يكف عن السعى هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصة الى هذا الأمر) ؛ وهو فى كل لحظة ، بأى مناسبة وبغير مناسبة ، يخف الى كاترين ايفانوفنا ، ويلاحقها الى السوق ، ويغدق

عليها لقب « السيدة الليوتنانتة »* بغير حساب ، الى أن ضاقت به ونفذ صبرها عليه ، مع أنها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنها لولا هذا الرجل لضاعت . لقد كان من طبع كاترين ايفانوفنا أن تضفى أجمل الألوان على على أول شخص تلقاه ، وأن تفرقه بالمدح الى أن يشعر بحرج وخجل ، وأن تنسب اليه مزايا لا وجود لها في الواقع - ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مرائية - ثم اذا « بأوهامها تتبدد » ، واذا هي تخاشنه وتغلظ له القول ، واذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة . ان لها طبعاً مرحاً ميالاً الى التسامح ، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الاخفاق التي تلاقت عليها أخذت « تطالب » في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح ، وأن لا يجروء أحد أن يعيش على غير هذا النحو ؛ فاذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها . فهي بعد أن تكون قد هدهدت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأمنى وأسطع الأخيلى وأبهى الأوهام تأخذ ، في لحظة واحدة ، تلعن الأقدار وتشم الدهر ، وترغى وتزبد ، وتعصف وترعد ، وتخرب كل ما يقع تحت يدها ، وتضرب برأسها الجدران .

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا ، هي أيضاً ، على حين فجأة ، قيمة عظيمة وشأناً كبيراً في نظر كاترين ايفانوفنا ، لا يدري أحد لماذا ... فأصبحت كاترين تقدر آماليا قدراً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً ... ولكن لعل مرد ذلك الى المأدبة التي تريد كاترين أن تقيمها ، والى أن آماليا قد عرضت من تلقاء نفسها أن تشارك في اعداد هذه المأدبة : لقد تعهدت آماليا بنصب المائدة ، وتقديم المفرش ، وتأمين الصحون ، الخ ، وتعهدت باعداد الطعام في مطبخها . حتى ان كاترين ايفانوفنا نفسها ،

حين ذهبت الى المقبرة ، قد خولتها كل السلطات ، وفوّضتها في كل أمر ؛ والحق أن كل شيء قد أُعدَّ على أحسن وجه ، وهيت المائدة تهيّئة لا مأخذ عليها • صحيح أن الصحو والشوكات والسكاكين والكنوس الكبيرة والصغيرة ، والفناجين ، كانت مختلفة غير متجانسة ، من مصادر شتى وأنواع متباينة ، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين ، ولكن كل شيء كان في الساعة المحددة قد وُضع في مكانه ، حتى ان آماليا ايفانوفنا التي كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه ، والتي كانت تتحلى بشوبها الأسود وتضع على رأسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة ، قد أخذت تستقبل المدعوين ، عند عودتهم من المقبرة ، بشيء من الافتخار والاعتزاز • وهذا الاعتزاز ، رغم أنه مشروع ، قد ساء كاترين ايفانوفنا لا يدرى المرء لماذا ! فكانت كاترين تقول لنفسها : «لكننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا ! » • وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة • فكانت تقول لنفسها : « تُرى ألن تتباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت ، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والاحسان ؟ ان المائدة ، في منزل والد كاترين ايفانوفنا الذي كان كولونيلاً وكان شبه حاكم ، كانت تُعدُّ أحياناً لأربعين ضيفاً ، وما كان لامرأة مثل آماليا ايفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفنا أن تُقبل هنالك في المطبخ ! » • واشتد أزر كاترين ايفانوفنا بهذه الحاطرة ، فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شيئاً من الفتور والبرود • وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المساهمة في احناق كاترين ايفانوفنا : وهو أن المستأجرين الذين دُعوا الى الجنازة لم يكد يشترك أحد منهم في الموكب ، عدا البولندي الذي شيع جثمان المتوفى الى المقبرة • أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فان الفقراء والتافهين

وحدهم هم الذين حضروها ، حتى ان بعضهم قد جاء اليها بشباب هي خرق رثة وأسمال بالية : أى أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الاجمال شىء من أبهة . لكن المتقدمين فى السن وأهل الجد والوقار والمستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور . من ذلك مثلاً أن بطرس بتروفتش لوجين ، وهو الذى يمكن أن يقال انه أعلاهم قدراً وأرفعهم شأنًا ، لم يحضر المأدبة ، مع أن كاترين ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجميع (لآماليا ايفانوفنا وبوليتشكا وصونيا والبولندى) أن بطرس بتروفتش رجل من أبلى الناس وأكرمهم ، وأنه ذو صلات عالية ، وأنه غنى جداً ، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول ، وانه قد سبق أن استقبل فى منزل أبيها ، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعى من أجل أن تحصل على معاش تقاعدى كبير .

يجب أن نذكر هنا أن كاترين ايفانوفنا اذا اتفق لها أن أطرت شيئاً من الأشياء ، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة ، فانها تفعل ذلك دائماً مبرأة من المصلحة منزهة عن المنفعة ، لا يدفعها اليه أى حساب شخصى ، وانما هي تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة ، لا ترجو الا لذة مدح أحد الناس واضفاء قيمة كبيرة عليه .

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة ، امتنع كذلك عن حضورها — ربما من باب « الاقتداء به » — ذلك الوغد المشئوم ليزياتيكوف . « ماذا يظن نفسه ؟ نحن ما دعوناها الا شفقة عليه وبراً به ، نحن مادعوناها الا لأنه يسكن فى نفس الغرفة التى يسكن فيها بطرس بتروفتش الذى هو من معارفنا وأصحابنا ، فكان من المخرج لنا أن لا ندعوه . . . » . وهناك سيدة وابنتها (والابنة متقدمة قليلاً فى السن) لم تليسا الدعوة أيضاً . ان هاتين المرأتين ، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا الا منذ أسبوعين ، قد شكنا عدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من

غرفة أسرة مارمیلادوف ، ولا سيما حين كان المتوفى يعود الى البيت سكران ، وهذا أمر قد وصل الى مسامع كاترين ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا ، وذلك حين هددتها هذه ، أثناء تشاجرهما معها ، بأنها ستطردها من البيت هي وأسرتهما ، صارخةً بأعلى صوتها أنهم « يزعمون جبراً نبلاء لا يرقون هم الى مستوى نعالهم » • ولقد قررت كاترين ايفانوفنا ، عامدةً ، أن تدعو هاتين المرأتين اللتين « لا ترقى هي الى مستوى عليهما ! » ، وكانت تحرص على دعوتهما حرصاً خاصاً لأنها كانت اذا اتفق أن التقت باحدى هاتين المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار • قالت كاترين ايفانوفنا لنفسها : « بهذا تعرفان أننا نمضى بالنبل الى حدّ نسيان الاساءات والاهانات ، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترين ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف • • » وكانت تنوى أن تشرح لهما هذه الحقيقة على المائدة ، وأن تحدثهما كذلك عن منصب « الحاكم » الذي كان يحتله المرحوم أبوها ، وربما استطاعت كذلك أن تُسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعي لأن تشيحا بوجهيهما حين تلقياها ، وأن هذه الحركة حركة غيبة •

وقد غاب عن المائدة أيضاً رجلٌ ضخّم الجسم يقولون انه ليوتنان كولونيل (وهو في حقيقته كابتن محال على التقاعد) ؛ ولكن علم أنه « طريح الفراش » من فرط السكر منذ الليلة البارحة •

الخلاصة أنه لم يحضر المائدة الا هؤلاء : البولندي ؛ وموظف هزيل قمى يرتدى فراكاً وسيخاً وينشر رائحة كريهة ؛ ورجل آخر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى ، كان في الماضي يشغل وظيفة في ادارة البريد لا يدرى أحد ما هي ، وهناك مجهول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدرى أحد لماذا ؛ وقد جاء الى المائدة

ليوتنان متقاعد سكران لم يكن فى حقيقة أمره الا موظفاً فى ادارة التموين ، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً فى كل لحظة ، ولا يرتدى صديرة فصوصوا قلة الحياء وفرط الوقاحة ، يا للعار ! وقد جاء رجل آخر فجلس الى المائدة رأساً حتى دون أن يحيى كاترين ايفانوفنا ، وجاءت فى النهاية « شخصية » أخرى تلبس ثوب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً • ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن اخراج الرجل بجهود متضافرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندى • ثم ان البولندى قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهما سكنا عند آماليا ايفانوفنا فى يوم من الأيام ، ولا لقيهما أحد فى هذا المنزل يوماً على الأقل •

ذلك كله أزعج كاترين ايفانوفنا ازعاجاً شديداً ففساءت تقول :
« أمن أجل « هؤلاء » اذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها ؟ » •

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا الى العدول عن اجلاس الأولاد الى المائدة ، فلقد كان الأولاد يكادون يشغلون وحدهم كل الغرفة • لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة فى ركن بأخر الغرفة على صندوق، وأنجلس الولدان الأصغر ان على دكة ، وعُهد الى بوليتشكا ، بصفتها الكبرى ، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما ، « كما يفعل بأولاد أسر راقية » •

الخلاصة أن كاترين ايفانوفنا قد اضطرت ، راضية أو كارهة ، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس ، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة ، بل وبشئ من التعالى والعجرفة ، حتى لقد ألفت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة ، ثم دعتهم أن ينتقلوا الى المائدة وقد ظهرت فى هيئتها معانى الاحتقار والازدراء • وقد اعتقدت ، لسبب أو لآخر ، أن آماليا ايفانوفنا

هى المسئولة عن غياب المدعوين المرموقين ، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك ، فاستاءت أشد الاستياء ، وأضمرت أكبر الضغن . ان بداية كهذه البداية لا تبشر بخير .

• وجلس الجميع أخيراً الى المائدة •

كان راسكولنيكوف قد وصل في لحظة العودة من المقبرة تقريباً • فسعدت كاترين ايفانوفنا أقصى السعادة ، أولاً لأنه بين سائر المدعوين « الرجل المثقف الوحيد » الذى سيحتل بعد سنتين ، كما يعرف الجميع ، كرسى استاذ جامعتنا ؛ وثانياً لأنه ما ان وصل حتى بادى يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك فى الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير •

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترين ايفانوفنا ؛ فقد أجلسته الى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست الى اليمين) ، ورغم مشاغلا المتصلة من حيث هى ربة البيت ، ورغم السعال الرهيب الذى كان يقطع كلامها ويخفقها فى كل لحظة ، والذى كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين ، فانها لم تنقطع عن التحدث الى راسكولنيكوف ، وعن أن تفضى اليه همساً بكل ما كان يعتلج فى قلبها ، ولا سيما باستيائها الشديد من اخفاق المأدبة • على أن ضحكاً مجاهلاً كان يعقب ذلك الاستياء فى كثير من الأحيان ، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه ، وهو ضحك على المدعوين وعلى صاحبة البيت خاصة •

– ذلك كله انما سببه هذه المرأة الشريرة ! (كانت كاترين ايفانوفنا تقول ذلك وتومىء لراسكولنيكوف بحركة من رأسها الى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا) • انظر اليها ! انها تحمق بعينها ؛ هى تعلم أننا نتكلم عنها ، ولكنها لا تستطيع أن تفهم ، ان عينيها تخرجان من رأسها !

هو ••• هو ••• بومة حقاً ! ها ها ها ! هيء هيء هيء ! وما الذى تريد أن تبرهن لنا عليه بقبحتها هذه ؟ هيء هيء هيء ! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرنى أمام الملأ جميعاً بمظهر محميتها ، وأن تبين أنها انما تشرقنى اذ تحضر هذا العشاء ؟ لقد طلبت منها ، لاعتقادي بأنها انسانة لائقة ، أن تدعو أناساً محترمين ، وأن تدعو خاصة أولئك الذين عرفوا زوجى الراحل • فانظر بمن جاءتنى : لقد جاءتنى بمهرجين وصعاليك قذرين ! انظر الى ذاك الرجل الذى لم يغسل وجهه ! حقاً انهم لقطع حيوانات تمشى على قدمين ! وما قولك بهؤلاء البولنديين الصغار ؟ ها ها ها ! هيء هيء هيء ! ما من أحد سبق أن رآهم هنا ، لا ولا رأيتهم أنا هنا ، فى يوم من الأيام ! فلماذا اذن جاءوا ؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا جاءوا ؟ ما أعظم هدوءهم فى جلوسهم واحداً الى جانب واحد ! ما أظرفهم ! هيه ، يا « سيد » ! (كذلك نادى أحدهم فجأة ناطقة كلمة « سيد » باللغة البولندية) هل أخذت فطائر ؟ خذ مزيداً ، واشرب بيرة ، اشرب بيرة ! واشرب فودكا ! ألا تريد أن تشرب فودكا ؟ - انظر اليه ، لقد نهض بوثة واحدة ، وها هو ذا يحيى منحنياً انحناءً شديداً ••• انظر ••• انظر ! مساكين ••• لا بد أنهم جائعون جداً ! لا بأس ! فليأكلوا ! هم لا يحدثون ضجة على الأقل ••• ولكن ••• ولكن لا أكتمك أننى أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضة وهى لصاحبة البيت • يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادى صاحبة البيت فجأة بصوت عالٍ تقريباً) ••• اننى أنبهك منذ الآن الى أننى غير مسئولة اذا هم سرقوا ملاعقك ! وسُرت كاترين ايفانوفنا من قولتها هذه ، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً ، ثم عادت تومئ برأسها الى صاحبة البيت قائلة لراسكونيكوف : - انها لم تفهم ! فى هذه المرة أيضاً لم تفهم ! ما تزال فارغة الفم ، محملقة العينين ، جوالّة الطرف ! انظر اليها ، انظر ! هي بومة حقاً ،

يومة *** قلت لك انها يومة *** ولكن بأشرطة جديدة ! ها ها ها !! *

وهنا استحال ضحكها الى سُعال لا يطاق ، استمر خمس دقائق *
تلتطح منديلها بالدم ، وظهر العرق على جبينها كجبات اللؤلؤ ؛ أرت
راسكولنيكوف بقعة الدم فى صمت ، وما ان استردت أنفاسها حتى
دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة قانية وبلغت أقصى
الاضطراب :

— انظر مثلاً : لقد عهدت اليها بمهمة دقيقة جداً هي أن تدعو تلك
السيدة وابنتها * هل تعرف من أعنى ؟ فكان عليها فى مثل هذه الحالة أن
تتصرف بكثير من الكياسة والفن والحدق ، ولكنها لم تحسن التصرف ،
فاذا بتلك الحمقاء الأخرى ، اذا بتلك المخلوقة القروية *** ذلك أنها
ليست فى الواقع الا أرملة ميجر جاءت الى هنا تسعى الى الحصول على
معاش تقاعدى ، فهي تنتظر فى حجرات الدخول متقلبة متسكعة هنا
وهناك ، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ رغم أنها فى الحسين
من عمرها (هذا معروف) *** اذا بتلك المخلوقة لا تنازل أن تجيء ،
بل ولا ترسل كلمة اعتذار ، كما يليق بالمرء أن يفعل فى مثل هذه
الأحوال اذا كان على شئ من الأدب والتهديب ! وبطرس بتروفتش ،
اننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجيء هو أيضاً ! ولكن أين صونيا ؟
أين ذهبت ؟ آ *** ها هي ذى أخيراً ! أين كنت يا صونيا ؟ غريب منك
أن تكونى قليلة التقيد بالمواعيد حتى فى يوم جنازة أبيك * افسح لها
مكاناً الى جانبك يا روديون رومانوفتش * هذا مكانك يا صونيتشكا !
اغرفى لك طعاماً ! خذى سمكاً بالبالوظة ، فهذا أحسن الطعام * سنجيثك
بفطائر فوراً * والأولاد ، هل عُرف لهم طعام ؟ هل أصبتم من كل شئ *
يا بوليتشكا ؟ هيء هيء هيء ! طيب ، عظيم ! كونى هادئة عاقلة يا لينا !

وأنت يا كوليلا لا تهزز ساقيك هكذا ! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة • ماذا تقولين يا صونيتشكا ؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بطرس بتروفتش ، محاولةً أن تتكلم بصوت قوى حتى يسمع جميع الضيوف كلامها ، ومستعملةً أرقى التعابير ، حتى تلك التى كان يصطنع استعمالها بطرس بتروفتش ، بعد أن تُجملها مزيداً من التجميل أيضاً • وأضافت الى ذلك قولها ان بطرس بتروفتش قد رجاها أن تبلغ أمها أنه سيجيء متى أتحت له الفرصة ليتحدث فى الأعمال على انفراد ، وليتفق على الاجراءات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، النخ ، النخ ، ...

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدىء كاترين ايفانوفنا ، ويدغدغ غرورها ، ويرضى كبرياءها خاصة •

وجلست الى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيسته بسرعة ، ونظرت اليه نظرة مستطلعة • على أنها طوال ما بقى من وقت كان يلوح عليها انها تتحاشى أن تنظر اليه وأن تكلمه • كانت تبدو ذاهلة ، رغم أنها لم تحوّل عينيها عن كاترين ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها • ولم تكن صونيا ولا كاترين ايفانوفنا تلبسان ثياب الحداد ، لأنهما لا تملكان ثياب حداد : كانت صونيا ترتدى ثوباً كستنائياً قاتماً ، وكانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوباً من قماش هندي ذى خطوط داكنة ، وهو الثوب الوحيد الذى تملكه •

وقد أحدثت اعتذارات بطرس بتروفتش أحسن الأثر • فبعد أن أصغت كاترين ايفانوفنا الى كلام صونيا برصانة ووقار ، سألت عن صحة بطرس بتروفتش بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه • ثم لم تبطئ ، فأسرعت « توشوش » راسكولنيكوف قائلة بصوت قوى ان

رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بطرس بتروفتش لا يليق أن يقع بين أفراد قطع كهذا « القطيع العجيب من الناس » ، مهما يكن اخلاصه للأسرة ، ومهما تكن روابط الصداقة التي كانت تربطه بالمرحوم أبيها .
ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً :

– من أجل ذلك ترانى ، يا روديون رومانوفتش ، أشكر لك شكراً خاصاً أنك لم تحققر دعوتى ولم ترفض حضور مأدبتى رغم هذه البيئة وهذا الجو . وانى لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجى هى التى حملتك وحدها على أن تنفى بالوعد .

وهنا شملت المدعوين مرةً أخرى بنظرة فيها كبرياء ووقار ، ثم رفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس الى الطرف الآخر من المائدة « هل يريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو » . فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين . كان فاجر الفم ينظر حواليه فى كل جهة ، فكان ذلك يشير مزيداً من الضحك والمرح .

– يا للنسب الأبله ! انظر ! ولماذا جئ به الى هنا ؟

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف :

– أما بطرس بتروفتش فقد كنت دائماً أمحضه ثقة كاملة .

والتفتت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروعة ، وأردفت تقول صارخة :

– هو لا يشبه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتى ما كنَّ ليُقبلن عند أبى حتى خادمت فى المطبخ ، واللواتى اذا ارتضى زوجى الراحل أن يشرقهن باستقبالهن فانه ما كان ليفعل ذلك الا من فرط طيبة قلبه .

صاح موظف التموين قائلاً وهو يفرغ في جوفه كأس الفودكا
الثاني عشر :

- نعم ، كان يجب أن يشرب ... هذا صحيح ... كان يجب
مجالسة الزجاجة حباً كثيراً ! ...

أجاب كاترين ايفانوفنا باندفاع شديد :

- نعم ، كان لزوجي هذا الضعف ، ولكنه كان رجلاً طيباً نبلاً ،
يجب أسرته ويحترمها . ان عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت
تدفعه الى أن يثق بأناس فاسدين وأن يركن اليهم ... الله يعلم مع من
كان يعاقر الحمرة ... مع رجال لا يساوون نعلي حذاءيه ! تصور
يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا في جيبه ديكاً صغيراً من حلوى ! كان
لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كل ماخذ !

صرخ موظف التموين السابق يسأل :

- ديكاً صغيراً ؟ هل قلت ديكاً صغيراً ؟

أبت كاترين ايفانوفنا أن تتنازل فتجيبه ، وها هي ذى تفرق في
نوع من أحلام اليقظة ، وتتهدد ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

- لعلك تظن ، كما يظن جميع الناس ، أنني أسرفت في القسوة
عليه . ولكن هذا غير صحيح . لقد كان يعتبرني ، كان يعتبرني كثيراً ،
كثيراً . ما كان أنبل روحه وأطيب نفسه ! ولكم كنت أشفق عليه ، في
بعض الأحيان ! كان يتفق له أن يجلس في ركن من الأركان ، ويأخذ
ينظر الى من ركنه ذاك ، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أنني أود
لو ألعبه ، ولكني كنت أقول لنفسي : « لو دلتته فسوف يسكر من

جديد ، • لم يكن يمكن صدّه عن الشراب وردعه عنه الا باظهار شيء
من القسوة •

زأر موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديداً
من الفودكا :

نعم ، كان يُشدُّ له شعره ! حدث هذا مراراً !
أجابت كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة ، وهي تتجه الى موظف
التموين :

— ان أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم
فحسب ، بل يستحقون أيضاً أن يُستقبلوا بضربات مقشّة ! ولست أتكلّم
الآن عن الراحل ...

والتهبت البقع الحمر في وجنتيها مزيداً من الالتهاب ، وارتفع
صدرها ، ولم يبق الا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترين ايفانوفنا
شجاراً فاضحاً • وكان كثيرون يضحكون مقهقهين ، كان كثيرون يجدون
في ذلك لذة ومثّة • أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه ، هامسين له
بأشياء في أذنه • كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً •
بدأ الموظف كلامه فسألها :

— اسمحي لي أن أسألك عمّن كنت تتكلمين اذن ... على كل
حال ، لا بأس ... فما هذه كلها الا ترهات ! أرملة ، أرملة مسكينة !
أنا أغفر وأعفو وأصفح ! دعونا ...

قال ذلك وجرع كأساً أخرى من الفودكا •

ظل راسكولنيكوف جالساً يصغى بصمت واشمئزاز • لم يكد

يلمس الطعام الذى كانت كاترين ايفانوفنا لا تتقطع عن ملء صحنه به ، بل انه لم يتظاهر بأنه يأكل الا من أجل أن لا يزعجها • وكان يحدّق الى صونيا ولا يحوّل عنها بصره • ولكن صونيا كانت تزدد قلقاً وهماً . انها توجس ، هى أيضاً ، أن المأدبة لن تنتهى بسلام ، فكانت ترقب الاحتياج المتزايد عند كاترين ايفانوفنا ، خائفةً وجلّة • وكانت تعلم ، فيما تعلم ، أنها ، هى صونيا ، السبب الرئيسى للاحتقار الذى حمل المرأتين الجديديتين على أن ترفضاً دعوة كاترين ايفانوفنا • لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت الى حد الاستياء من توجيه الدعوة اليهما ، وتساءلت : « كيف يمكننى أن أجلس ابتنى الى جانب تلك «الآنسة» ؟ وكانت صونيا تقدّر أن كاترين ايفانوفنا قد وصل الى مسامعها شىء من هذا الكلام ؛ وان اهانة يلحقها أحد بصونيا لهى أشد وقعاً فى نفس كاترين ايفانوفنا من اهانة تلحق بها هى أو بأولادها أو بأبيها ، فهذه اهانة قاتلة ، وصونيا تعلم أن كاترين ايفانوفنا لن يهدأ لها بال قبل أن « تبرهن لهاتين المرأتين التافهتين على أنهما كلتيهما » ، الخ الخ ! وشاعت المصادفات ، بما يشبه العمد ، أن ينقل أحدهم الى صونيا صحناً فيه قلبان من لبّ خبز أسود يخترقهما سهم • فاحمرت كاترين ايفانوفنا غضباً ، وأسرعت تقول بصوت عال ان المسئول عن ارسال هذا الصحن ليس الا « حماراً سكران » ، لا أكثر ولا أقل •

وكانت آماليا ايفانوفنا ، من جهتها ، توجس أن نازلة ستقع ، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترين ايفانوفنا يهينها الى أعماق قلبها ، فمن أجل أن تغير الجوّ السيء الذى يسود الحفل ، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها فى نظر الناس فى الوقت ذاته ، أخذت على حين فجأة تروى أن شخصاً من معارفها اسمه « كارل ، وهو مساعد صيدلانى » ، قد استاجر عربة فى الليل ، فأراد الخوذى أن « يقتله » فأخذ كارل يتوسل اليه أن

لا يفعل ، وضَمَّ يديه باكيًا ، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يشب من مكانه . • وكان في نطق آماليا لكثة ألمانية واضحة ، فقالت لها كاترين ايفانوفنا ، وهى تبسم ، ان عليها أن لا تروى نوادر روسية • فازداد استياء آماليا ايفانوفنا ، فردت عليها تقول بلغة تخالطها ألفاظ ألمانية ، وتسودها لكثة ألمانية ، ان أباه البرليني كان « رجلاً خطير الشأن جداً ، وانه كان يتجول واضعاً يديه في جيبه دائماً » • ولم تنطق كاترين ايفانوفنا الساخرة صبراً ، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً ، فكان على آماليا التى نفذ صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر • وعادت كاترين ايفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة :

— يا للعجز الأنيقة ! أرادت أن تقول ان أباه كان يتجول واضعاً يديه في جيبه ، فاذا سمع المرء كلامها أمكن أن يظن أنها تريد أن تقول ان أباه كان ينبش جيوبه دائماً ! هـ هـ هـ هـ هـ ! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب فى بطرسبرج ، ولا سيما الألمان ، الذين يتقاطرون علينا من كل حذب وصوب ، هم جميعاً أغبى منا • انظر بنفسك : هل يمكن أن يروى أحد أن « كارل ، مساعد الصيدلانى ، كاد يشب قلبه من مكانه » ، وأن هذا الأبله قد « ضمَّ يديه باكيًا » ، بدلاً من أن يوثق الحوذى ؟ آه ! يا للغية الحمقاء ! هى تتخيل أن قصتها مؤثرة جداً • انها لا تدرك مدى ما فى هذه القصة من سخافة وبلاهة ! فى رأيى أن هذا الموظف السكّير أذكى منها كثيراً ! ان المرء يرى على الأقل أنه ترك كل عقله فى قاع كأسه ، أما الآخرون فهم جادون جداً ؟ يبلغ غاية الاضحاك • • • انظر كيف تسجل عينيها وتديرهما ! انها غاضبة ، انها غاضبة ! ها ها ها ! هـ هـ هـ هـ هـ !

واذا انشרכת كاترين ايفانوفنا هذا الانشراح ، أسرعت تندفع

فى سرد طائفة من التفاصيل ، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذى ستحصل عليه ، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النييلات فى مدينة « ت ... » التى ولدت فيها . ولم تكن كاترين ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا . لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً ، وأخذت تصف الحياة الرائعة التى ستعيشها وصفاً مسهباً . ولا يدرى أحد كيف وجدت بين يديها ، على حين فجأة ، « شهادة المديح » تلك التى سبق أن تحدث عنها المرحوم مارميلادوف الى راسكولنيكوف حين ذكر له فى أول لقاء بالحجارة أن زوجته كاترين ايفانوفنا قد رقصت ، فى يوم تخرجها من المدرسة الداخلية ، رقصة الشال ، « أمام الحاكم وشخصيات أخرى » . كان واضحاً أن الغرض من ابراز هذه الشهادة هو أن تثبت ان كاترين ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية ؛ ولكن كان الغرض من ابرازها أيضاً وخاصة هو أن تُخرس تينك المراتين الفاسدين اذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترين ايفانوفنا تنتمى الى أسرة نبيلة ، بل يمكن القول انها تنتمى الى أسرة ارسقراطية ، فهى ابنة كولونيل ، وهى أفضل كثيراً من « أولئك النسوة المغامرات اللواتى ازداد عددهن ازدياداً كبيراً فى الآونة الأخيرة » . وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدي المدعويين السكارى ، وذلك أمر حازرت كاترين ايفانوفنا أن تعرض عليه أى اعتراض ، لأن الشهادة كانت « تنص نصاً صريحاً » على أن كاترين ايفانوفنا هى فعلاً بنت مستشار قضائى ، أى بنت كولونيل تقريباً . وقد تحمست كاترين ايفانوفنا فأفاضت فى الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التى تنتظرها فى مدينة « ت ... » ، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم الى التدريس فى مدرستها ، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذى علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة فى المدرسة الداخلية ، والذى ينهى الآن أيامه فى مدينة

« ت... » ، ولا شك أنه سيقبل أن يدرّس في مدرستها بأجور معقولة. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا ، فقالت ان « صونيا ستذهب هي أيضاً الى مدينة ت... » ، وانها ستتعلم هنالك في أمور كثيرة » . ولكن حين قالت كاترين ايفانوفنا هذا الكلام ، خنق أحدهم ضحكة عند الطرف الآخر من المائدة . فتظاهرت كاترين بأنها لم تسمع الضحكة ، ورفعت صوتها لتعدد المزاياء الأكيدة التي تتحلى بها صونيا سيميونوفنا ، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا « جديرة بأن تساعدنا ، لما تمتاز به من رقة وعذوبة ، وصبر ودأب ، وتضحية وبذل ، ونبيل نفس وحسن تربية » . ثم ربت على خدي صونيا ، ونهضت تقبلها بحرارة مرة أولى فمرة ثانية .

واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً . ثم ما لبثت كاترين ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهي تقول « انها ليست مخلوقة بلهاء بأئسة محطمة الأعصاب ، وانها قد نفذ صبرها وبارحتها قواها ... وان المأدبة قد انتهت فليسكب الشاي ! » .

وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك في الحديث ، حتى ان احداً لم يستمع لها ولم يصنع الى كلامها ، فقامت في تلك اللحظة بمحاولة أخيرة . استجمعت شجاعته ووجهت الى كاترين ايفانوفنا ، رغم ما توجهه في قرارة نفسها من قلق وخشية ، ملاحظة هي من أعمق الملاحظات وأشدّها جرأة ، اذ قالت لها انه سيكون عليها في المدرسة الداخلية أن تعنى عناية خاصة بفصيل البنات (قالت كلمة الفصيل بالألمانية) ، و « أن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة » ، وان عليها كذلك أن لا « تدع لأية فتاة أن تقرأ روايات في الليل سراً » . وكانت كاترين ايفانوفنا نائرة الأعصاب مهددة القوى ، ناهيك عن ازعاجات المأدبة ، فسرعان ما انفجرت تتهجم على آماليا ايفانوفنا قائلة لها انها تقول « سخافات وحماقات » ، وانها لا تفهم شيئاً من شيء : فالاهتمام

بالغسيل هو فى مدرسة من المدارس الداخلية النيلة لا يقع على عاتق المديرية بل هو من اختصاص المحاسبة • أما قراءة الروايات فان الاشارة اليها هى فى حد ذاتها أمر غير لائق ، لذلك يحسن بآماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً •

اصطبغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستياء ، فقالت غاضبةً ان « نياتها حسنة » وانها لا تريد لها الا « خيراً كثيراً » رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أى مال (قالتها بالألمانية) من اجرة المسكن • فسرعان ما ردتها كاترين ايفانوفنا الى مكانها ، اذ قالت لها انها تكذب فى ادعائها أنها « تريد لها الخير » ، لأنها فى الليلة البارحة نفسها ، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة ، جاءت تعذّبها بمسألة أجرة المسكن هذه • وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا فى الردّ فقالت لها أنها « دعت السيدات ، ولكن تلك السيدات لم يجئن ، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلين دعوة سيدة غير محترمة » • فأسرعت كاترين ايفانوفنا تلحّ فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم ، لأنها هى نفسها غير محترمة • ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة ، فسرعان ما أعلنت أن « أباه البرلينى » (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً ، جداً ، وانه كان يمشى واضعاً يديه فى جيبيه ، وانه كان دائماً يزفر هكذا : بوف ••• بوف ••• ومن أجل أن تعطى عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك ، نهضت عن مكانها ودست يديها فى جيبيها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمه لكنها تشبه « بوف ، بوف » ، فكان جميع المستأجرين يضجون بضحك صاحب ، وكان يحلو لهم ، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين ، أن يحرضوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحريض •

طفع الكيل بالنسبة الى كاترين ايفانوفنا ، فسرعان ما أعلنت بصوت قوى يسمعه الجميع « أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها « أب » أصلاً ، وأنها ليست الا سكريرة فنلندية من بطرسبرج ، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طبخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً .

احمرت آماليا ايفانوفنا احمراراً شديداً وصاتت تقول : « ان كاترين ايفانوفنا هي التي قد لا يكون لها أب ، أما أبوها هي فقد كان يعيش ببرلين ، وكان يرتدى رديجوتاً طويلاً ، وكان ينفخ دائماً : « بوف ، بوف » ♦

قالت كاترين ايفانوفنا باحتقار « ان أصلها هي يعرفه الجميع وأن الشهادة التي قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هي نفسها بكلام مطبوع ان أبها كان كولونيلاً . أما أبو آماليا ايفانوفنا (اذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندي من بطرسبرج كان بائع حليب ، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً ، والدليل على ذلك أننا لا ندرى حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها الى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا » ♦

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته ، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعولت تقول : « ان اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا ، وان أبها كان اسمه يوحنا ، وانه كان عمدة مدينة ، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترين ايفانوفنا في يوم من الأيام » ♦

اصفر وجه كاترين ايفانوفنا اصفراراً شديداً ، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً ، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاسٍ ظاهره الهدوء : اذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرة واحدة أخرى « فقارنت بين أبيها التافه الذي لا قيمة له ، وبين أبيها هي ، فلتنزعن عنها قبعتها ولتدوسنها بقدميها » ♦ فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض في



آماليا ايغانوفا

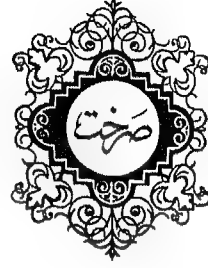
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

الغرفة طولاً وعرضاً ، وهى تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت ، وأن على كاترين ايفانوفنا أن « تخطي المسكن فوراً » • ثم أسرعت تجمع ملاعقها الفضية من على المائدة • وأعقبت ذلك جلبة لا توصف ، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك ، والأولاد أخذوا يبكون ؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترين ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا أشارت الى البطاقة الصفراء ، فما كان من كاترين ايفانوفنا الا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لانتفاذ التهديد الذى أعلنته بصدد القبة •

وفى تلك اللحظة فُتح الباب ، وظهر فى العتبة بطرس بتروفش لوجين فجأة •

توقف لوجين لحظة ، وألقى على الحضور جميعهم نظرة قاسية فاحصة ، فهرعت كاترين ايفانوفنا نحوه •

الفصل الثالث



كاترين ايفانوفنا تقول :

— بطرس بتروفتش ! أنت على الأقل ، أنجذنى ،
أعثنى ! أفهم هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق
لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيده من أسرة
كريمة أختي عليها الدهر ، وأن هناك محاكم لهذا الأمر ... سوف
أشتكى الى الحاكم العام بشخصه ... يجب أن تُسأل هذه المخلوقة عما
فعلت ! .. تكريماً لذكرى الاستقبال الذى استقبلك به أبى ... كن
حامياً لليتامى ...

قال بطرس بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترين ايفانوفنا
بحركة من يده :

— اسمح لى يا سيدتى ، اسمح لى ، اسمح لى يا سيدتى .
أنا لم أشرف بمعرفة أبىك فى يوم من الأيام ، وأنت تعلمين هذا حق العلم
... اسمح لى يا سيدتى ! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً) .
ولست أنوى أن أشارك فى مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا ... انا
انما جئت لأمر ... شخصى ، أنا انما جئت أطلب على الفور ايضاحاً من
ابنة زوجك صوفيا ايفانوفنا .. هذا هو اسمها ، أليس كذلك ؟ فاسمح
لى أن أمر ...

قال بطرس بتروفتش ذلك وترك كاترين ايفانوفنا واتجه الى
الركن المقابل من الغرفة ، حيث كانت صونيا •

تجمدت كاترين ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة • لم تستطع
أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بطرس بتروفتش أن أباه قد أكرم
ضيافته • انها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدّقها وتؤمن بها هي
نفسها • وهذه اللهجة التي تكلم بها بطرس بتروفتش ، هذه اللهجة
الخسنة ، الرسمية ، التي فيها احتقار وتهديد ، قد أدهشتها أيضاً • على
أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بطرس بتروفتش • ان « رجل الأعمال
الجاد » هذا يفوق سائر الحضور شأنًا ، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه
انما جاء لأمر خطير ، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه الى أن يغشى
هذه البيئة ، ولا بد اذن أن يقع حادث ما بعد قليل • وكان راسكولنيكوف
الى جانب صونيا فتتجى حتى يدع له أن يمر • وبدأ على بطرس بتروفتش
أنه لم يلاحظه • وبعد دقيقة ظهر ليزيانيسكوف في عتبة الباب هو أيضاً •
لم يدخل الغرفة ، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك ، حتى ليكاد يكون
مدهوشاً • وقد أصاخ بسمعه مصغياً ، لكنه ظل مدةً طويلةً يبدو عليه
أنه لا يفهم الأمر الذي يدور عليه الكلام •

قال بطرس بتروفتش يخاطب الجمع :

— اغفروا لي ازعاجكم ، غير أن القضية هامة خطيرة ؛ بل اننى يهمنى
أن تتجلى الأمور على رموس الأشهاد • يا آماليا ايفانوفنا ، أرجوك وألح
فى الرجاء أن تستمعى الى الحديث الذى سأجريه مع صوفيا ايفانوفنا ،
بصفتك صاحبة البيت •

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التي كانت مذهولة وكانت مروعة
مذعورة سلفاً :

- يا صوفيا ايفانوفنا ، بعد زيارتك فوراً افقدت ورقة نقدية قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة عند صديقي آندره سيميونوفتش ليزياتيكوف . فاذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن ، فقلتي لنا أين توجد ، فإن لك على عهد الشرف - وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول - أن تقف القضية عند هذا الحد ؛ والا كنت مضطراً أن أُلجأ الى اجراءات أخطر ... وليس لك عندئذ أن تلومي الا نفسك !!!

خيمَ على الغرفة صمت مطلق . حتى الأطفال الذين كانوا يكون سكتوا . وكانت صونيا واقفة ، شاحبة كأنها ميتة ، تنظر الى لوجين ولا تجد كلاماً تجيبه به . كان يبدو عليها أنها لا تفهم . وانقضت بضع ثوان .

سألها لوجين وهو يحدق اليها :

- هيه ؟ ما قولك ؟

فقلت صونيا أخيراً بصوت واهن :

- لا أعلم ...

- حقاً ؟ لا تعلمين ؟ لا تعلمين شيئاً ؟

كذلك سألها لوجين مكرراً ، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى ، ثم استأنف كلامه فقال بجفاء وخشونة :

- فكرى يا آنسة ، فكرى فى الأمر . أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكرى . اسمعى : لولا اننى واثق بما أقول ، موقن منه ، فانى بحكم تجربتى ما كنت لأجازف فأوجه اليه اتهاماً مباشراً الى هذا الحد ، لأننى سأحاسب أنا نفسى عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رموس

الأنسهاد اذا طهر أنه خطأ فحسب • ذلك أمر أعرفه • اننى فى هذا الصباح قد بعث ، لقضاء حاجات شخصية ، بضعة سندات ذات ربع ، قيمتها الاسمية ثلاثه آلاف روبل • ذلك هو الرقم المسجل فى دفترى • فلما عدت الى مسكنى - وان آندره سيميونوفتش شاهد على ذلك - أخذت أعد المال من باب التثبت والتحقق ، حتى اذا عدت ألفين وثلاثمائة روبل ، رتبها فى محفظتى ووضعت المحفظة فى الجيب الداخلى من ريدينجوتى • وبقي على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقدية ، منها ثلاث قيمه الواحدة مائة روبل • وفى تلك اللحظه دخلت أنت (تلبية لدعوتى) ، وطوال المدة التى قضيتها عندى ، كان يبدو عليك اضطراب شديد ، حتى انك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات • كنت تريد ان تخرجى - لا أدري لماذا ! - رغم أن محادثتى معك لم تكن قد انتهت • ان آندره سيميونوفتش يستطيع أن يؤكد هذا كله • وأغلب الظن أنك لن ترفضى أنت نفسك ، يا آنسة ، أن تعترفى بأننى أرسلت آندره سيميونوفتش فى طلبك لهدف واحد هو أن أتكلم معك فى الوضع المحزن الذى آلت اليه قريبتك كاترين ايفانوفنا (التى لم أستطع أن أشارك فى مأدبتها) ، وفى وسائل مساعدتها بتنظيم اكتاب تبرعات أو اقامة يانصيب أو شئ من هذا القبيل • وقد شكرتنى ، حتى ان الدموع تفرقت من عينيك (اننى أروى الأشياء كما وقعت ، أولاً لأذكرك بها ، وثانياً لأبين لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد محى من ذاكرتى) • ثم تناولت من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك اياها ، دليلاً على اهتمامى بقريبتك ، ومشاركة أولى منى فى مساعدتها • وهذا أيضاً قد رآه سيميونوفتش • وخلوت بعد ذلك الى آندره سيميونوفتش • وتحدث معه قرابة عشر دقائق • حتى اذا خرج عدت الى المائدة أنوى أن أرتب ،

على حدة ، المال الذى كان موضوعاً عليها ، وذلك بعد أن أعدّه مرة أخرى (كنت قد قررت ذلك من قبل) • فما كان أشد دهشتى حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فُقدت • افصلى فى الأمر بنفسك : لا يمكننى بأية حال من الأحوال أن أشك فى أندره سيمونوفتش ، حتى ان هذه الفكرة وحدها تُشعرنى بالخل والعار • لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت فى حساباتى ، لأننى قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد تبنت من صحة المجموع • لذلك ، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة ، ونظراً لاستعجالك الخروج ، ونظراً لكونك قد ظلمت واضعةً يديك على المائدة بضع لحظات ، ونظراً لوضعك الاجتماعى وما يخلقه من عادات ، فقد « أكرهت » ان صح التعبير ، أكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا شك أنها فاسية لكنها فى محلّها ولها ما يسوّغها • اضيف وأكرر أننى رغم يقينى « البديهى » الكامل أدرك أن القاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها • ولكننى لم أتردد دقيقة واحدة ، كما ترين ، بل ثارت نائرتى واستعرجت حنقى ، وسأقول لك الآن لماذا ثارت نائرتى واستعرجت حنقى : ان سبب ذلك هو عقوبتك الأسود يا آنسة ؟ كيف ؟ أأدعوك الى مسكنى ، وأهتم بقريبتك المسكينة ، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً منى فى مساعدتها ، فتكافئنى هذه المكافأة فى تلك الدقيقة نفسها ؟ لا ، حقاً ليس هذا حسناً ! ولا بد من أن تُلقّنى درساً ! فكترى فى الأمر ! ثم اننى أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك فى هذه اللحظة صديق خير منى) : تذكرى هذا ، والا أصبحتُ بغير رحمة أو شفقة • هل تعترفين بأنك

دمدمت صونيا تقول مذعورة :

— أنا لم أسلبك شيئاً • أنت أعطيتنى عشرة روبلات • ها هى ذى اننى أردّها إليك •

واستلت صونيا من جيبتها منديلاً ، واهتدت الى العقدة التى عقدتها
فيه ففصتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدتها الى لوجين •
قال لوجين ملحاً ، بلهجة اللوم والتقريع ، دون أن يتناول الورقة
المالية :

— ألا تعترفين اذن بالمائة روبل ؟
أجالت صونيا بصرها فيما حولها • كان الجميع ينظرون اليها بعيون
قاسية ، ساخرة ، مبغضة !+++ وألقت نظرة على راسكولنيكوف •
كان راسكولنيكوف واقفاً ، مسنداً ظهره الى الجدار ، عاقداً ذراعيه
على صدره ، يحدق اليها بعينين ملتئميتين •
وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة :

— يا رب !

قال لوجين فى رفق ، بل بصوت عذب :

— يا آماليا ايفانوفنا ، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة ، فأرجوك
بانتظار ذلك أن ترسلى أحداً ينادى الباب +++
قالت آماليا ايفانوفنا وهى تضرب كفاً بكف :

— يا اله الرحمة * ! كنت أعرف أنها لصة !

قال لوجين :

— ها +++ كنت تعترفين ذلك ؟ لا بد أن يكون هنالك اذن سبب
دعاك الى استخلاص هذه النتيجة ، واستخراج هذا الرأى فى الماضى !
فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا ، المحترمة جداً ، أن تتذكرى هذه الكلمات
التي قلتها الآن ، وقد قلتها أمام شهود على كل حال •

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية فى كل جهة من الجهات ،
وشمل الحفل كله اضطرابٌ كبير .

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول فجأةً وقد ثابت الى رشدها :
- كيف ؟

واندفعت مسرعةً نحو لوجين مرردة :
- كيف ؟ أتهمها بالسرقة ؟ أتهمها هى ؟ هى ، صونيا ؟ آه ...
يا للحقيرين ! يا للحقيرين !

وارتمت على صونيا ، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين
ككَلَابَةٍ . وتابعت كلامها تقول :

- صونيا ! كيف تجرأت أن تقبلى عشرة روبلات من هذا الرجل؟
يا لك من حمقاء ! يا لك من حمقاء ! رديّها اليه حالاً ، رديّها اليه حالاً ،
روبلاته العشرة ! خذ ...

انزعزت كاترين ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا ، فدعكتها
بيديها ، ورمتها فى وجه لوجين ، فأصابت كرتها عينه ثم تدرجت على
أرض الغرفة . فأسرعت آماليا ايفانوفنا تشيلها ، وغضب بطرس
بتروفش ، وصرخ قائلاً :

- أمسكوا هذه المجنونة !

وفى تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم،
عدا ليزياتيكوف ، السيدتين القادمتين من الأقاليم ، اللتين تسكنان هنا منذ
مدة قصيرة .

صاتت كاترين ايفانوفنا تقول :

— كيف ؟ المجنونة ؟ أنا المجنونة ؟ يا للأبله ! يا للموعد الشقى !
يا للرجل الدنى ! صونيا ، صونيا ، تسرق منه مالا ؟ صونيا ، سارقة ؟
ولكنها قادرة على أن تعطيك مالا يا أبله !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هسترية ،
وهتفت تقول وهى تركض الى اليمين والى اليسار مشيرة لجميع الناس
الى لوجين :

— أرايتم الى هذا الأبله ؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت :

— كيف ؟ أفأت أيضاً تدعين أنها سارقة ؟ يا للدجاجة الألمانية !
انظروا أيها الناس ، انظروا !

وعادت تخاطب بطرس بتروفتش فقالت :

— آه ... أنت ... أنت ... أجهلت أنها لم تترك هذه الغرفة
لحظة واحدة أيها النذل ، فما ان خرجت من عندك حتى جاءت تجلس
الى جانبى ؟ لقد رآها الجميع • جلست هنا ، الى جانب روديون
رومانوفتش ! فتشها اذن ! فما دامت لم تذهب الى أى مكان ، فلا بد أن
يكون المال معها • ابحث اذن ! ابحث اذن ! ابحث ! ولكن اذا
لم تجد شيئاً يا عزيزى فلتحاسبين على افترائك ! الى الامبراطور
سأشكوك ، الى الامبراطور ، الى القيصر الرحيم ! لأرتمين على قدميه
حالاً ، فى هذا اليوم نفسه ! أنا يتيمة ! سيسمحون لى بالدخول ! ماذا ؟
أنظن أنهم لن يسمحوا لى بالدخول ؟ أنت اذن مخطىء ! لسوف أصل
اليه ، لسوف أصل اليه ! آ ... كنت تعوّل على خجلها وحيائها ، على

وقتها وخفرتها ، أليس كذلك ؟ على هذا انما كنت تبني املك ! ولكنى ،
أنا ، لا أستحي يا عزيزى ! أنا عيناى ماء ! هيا فتش ! فتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك خارجة عن طورها وقد أخذت تهز
لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا *

قال لوجين :

— أنا مستعد * أنا مستعد لأن أحاسب *** ولكن هدنى روعك
يا سيدتى ، هدنى روعك ! انى لألاحظ حقاً أنك لا تستحين *** (هنا
أصبح كلام لوجين دمدمة) *** أمام الشرطة انما يحسن فى الواقع ان
*** رغم أن ههنا شهوداً يكفى عددهم ويزيد *** أنا مستعد ** ولكن
هذه مهمة محرجة بالنسبة الى رجل *** وذلك بسبب ** بسبب الجنس
طبعاً ** لىتنى أستطيع أن أطلب الى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى ***
رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة *** ليست هذه الطريقة **
ما العمل ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

— اختر من تشاء ! فليفتشها من يريد أن يفتشها ! صونيا !
اقلبى جيوبك أمامهم ! انظر ، انظر أيها الشيطان ! هأت ذا ترى أن
جيبها خال * أرايت ؟ واقلبى الجيب الآخر الآن ! انظر ! انظر !
أرايت ؟ أرايت ؟

ولم تكتف كاترين ايفانوفنا بقلب جيبي صونيا ، بل شدتهما شداً
عنيفاً لتظهرهما اظهاراً أوضح * فاذا بورقة صغيرة تثب عندئذ من الجيب
الثانى ، وهو الجيب الأيمن ، فترسم فى الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند
قدمى لوجين *

جميع الحضور رأوا الورقة ، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات •
ومال بطرس بتروفتش على الأرض ، فتناول الورقة باصبعين ، وفضّتها
على مرأى من الشهود كافة • انها ورقة مائة روبل قد طُويت ثمانى
طيّات • أجال بطرس بتروفتش يده فى جميع الاتجاهات حتى يتمكن
الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة •

أعولت آماليا ايفانوفنا تقول :

— سارقة ! لصّة ! اخرجى من هنا ! نادوا الشرطة ، نادوا الشرطة !
يجب ارسالهم الى سيبيريا ! اخرجوا من هنا !

وارتفعت صيحات من كل صوب • وكان راسكولنيكوف صامتاً
لا يحوّل بصره عن صونيا ، مع القائه نظرة سريعة على لوجين من حين
الى حين • وما تزال صونيا واقفة فى مكانها كأنها أصيبت بخبال ، حتى
انها لا تبدو عليها دهشة • وفجأة احرّ خذاها احمراراً شديداً ، وأطلقت
صرخة خفيفة ، وأخفت وجهها فى يديها • ثم صرخت بصوت ممزّق
يقطعه نسيج البكاء ، وهى تهرع نحو كاترين ايفانوفنا ، صرخت تقول :

— لا ، لست أنا ! ••• أنا لم آخذها ! • لا أعلم !

فاحتضنتها كاترين ايفانوفنا بذراعيها ، وضمتها اليها بقوة كأنها تريد
أن تجعل من صدرها متراًساً يحميها •

وصرخت كاترين ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع ، وهى
تهدهدها فى ذراعيها كما يهدّد طفل صغير ، وتقبّلها طائشة العقل ،
وتمسك يديها فتغرقهما لثماً :

— صونيا ! صونيا ! لست أصدق ! هانت ذى ترين أننى لا أصدق !
أأنت تسرقين ؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين ؟ يا رب ! •••

ثم صرخت تخاطبهم جميعاً :

- أنتم بلهاء ! أنتم بلهاء ! أنتم اذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبيل النفس ! أنتم اذن لا تعرفون أية فساة هي ! أهى تسرق ؟ هي ؟ ألا انها المستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه ، ألا أنها المستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه ، ألا انها المستعدة أن تهب لكم أنتم آخر قميص تملكه اذا كنتم فى حاجة اليه ! نعم ، هذه هي طبيعتها ! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة ، فلأن أولادى كانوا يتضورون جوعاً ! لقد باعت نفسها فى سبيلنا ! اه ...
يا زوجى الراحل ... يا زوجى المسكين الراحل ، هل ترى هذا ؟ هل ترى ؟ انظر الى مأدبة الجنازة هذه التى تقام لك ! رباه ! ولكن ما بالك لا تدافعون عنها أنتم ؟ ما بالكم تبقون جامدين كالمومياءات ؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون رومانوفتش ؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً ... ؟ انكم جميعاً لا تساوون خنصرها ، جميعاً ، جميعاً ، جميعاً ! هلاً دافتم عنها أخيراً ؟ رباه ! ...

كان لشهقات كاترين ايفانوفنا المسكينة ، المصدورة ، التى هجرها جميع الناس أثر قوى فى الحضور . ان هذا الوجه الحزين المخرب الضاوى من وجوه المصابين بداء السل ؟ وان هاتين الشفتين الياستين المدماتين ؟ وأن هذا الصوت الأجش الصافر ؟ وان هذا النسيج المتشنج الذى يشبه نسيج الأطفال ؟ وان هذه الضراعة التى فيها ثقة كثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس ؟ ان ذلك كله كان يبلغ من اثاره الشفقة وايلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثى لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه . وسرعان ما « رثى لحالها » بطرس بتروفتش على كل حال . قال يهتف بصوت يعبر عن الحماية والرعاية :

- سيدتى ، سيدتى ! ان هذا الحادث لا يتناولك فى شيء البتة ؟ مامن

أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ ، لا سيما وأنت توليت بنفسك قلبَ جيوبها ، فهذا دليل على أنك لم تراودك آية شبهة • اننى مستعد أتم الاستعداد ، نعم ، أتمّ الاستعداد ، لأنّ اتسامح اذا كان البؤس هو الذى دفع صونيا سيميونوفنا انصح التعبير • ولكن لماذا لم تشأى أن تعترفى يا آنسة ؟ لعلك كنت تخشين العار ؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى فى هذا الطريق ؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك ؟ ذلك أمر يُفهم تماماً • ولكن لماذا ، لماذا وضعت نفسك فى موقف كهذا الموقف ؟

وأردف بطرس بتروفتش يُشهد الحضور قائلاً :

— أيها السيدات والسادة ، اننى ، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة ، ما أزال مستعداً لأن أغفر وأصفح ، رغم الشوائم الشخصية التى وُجّهت الىّ !

والتفت الى صونيا ، فقال لها :

— نعم يا آنسة ، ليكن الحزى الذى أصابك الآن درساً يفيدك فى المستقبل • لن أتابع هذه القضية • أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد • يكفى هذا •

وبطرف العين أراد بطرس بتروفتش أن يلاحظ راسكولنيكوف ، فالتقت نظرتهما • كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة المتهبة تهمّ أن تسحق لوجين سحقاً •

ولم يبد على كاترين ايغانوفنا أنها سمعت شيئاً • كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجنونة • وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة؛ وقد أجهشت بوليتشكا باكية ، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذى يدور عليه

المشهد فهماً واضحاً) ، وألقت وجهها الجميل المنتفخ على كتف صونيا ،
مهتزة الجسم من النشيج •

— ما أنذل هذا !

كذلك قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب •
التفت بطرس بتروفتش • فكرر ليزياتيكوف قوله محدداً إليه
متفرساً فيه :

— يا للندالة !

أصاب بطرس بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة • لقد لاحظ
الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد) • تقدم ليزياتيكوف بضعة
خطوات • وقال مخاطباً بطرس بتروفتش وهو يقترب منه :
— وتجرؤ أن تشهدنى أيضاً ؟

— ما معنى هذا ؟؟؟ يا آندره سيميونوفتش ؟ عمَّ ؟؟؟ تتكلم ؟

كذلك دمدم لوجين متعثر اللسان •

أجابه ليزياتيكوف بعنف ، وهو ما يزال يحدق إليه تحديقاً
قاسياً بعينين تشبهان أن تكونا عمياوين :

— معناه أنك كاذب مفتر ؟؟؟ نعم ؟؟؟ هذا ما يعنيه كلامى !

كان ليزياتيكوف فى حالة غضب رهيب • ونظر اليه واسكولنيكوف
هو أيضاً ، كأنما يلتقف كلماته ويزنها وهى طائفة • وساد صمت
جديد • كان بطرس بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقربياً ،
ولا سيما فى الوهلة الأولى •

وبدا يتكلم فقال متلعثماً :

— اذا كنت تخاطبني أنا ... ولكن ماذا دهك ؟ أنت فى تمام عقلك ؟

— نعم .. أنا فى تمام عقلى ... ولكنك أنت ... نذل ! آه ...
ما أنذل هذا ! لقد سمعت كل شيء ، وتعمدت أن أنتظر لأفهم كل شيء ،
ذلك أننى حتى هذه الساعة ... كانت تبدو لى الأمور منطقية جداً ،
اعترف بذلك ! ... نعم ، لماذا فعلتَ هذا ؟ ... اننى لا أفهم !

— ولكن ما الذى فعلته ؟ هلا كففت عن الكلام بالغاز غية ؟ لعلك
سكران ؟ لعلك شربت ؟

— بل لعلك أنت الذى شربت ، لا أنا ، أيها الرجل الدنيء ! ثم
اننى لا أشرب فودكا أيضاً ، لأن هذا يخالف مبادئى . هل تتصورون
أنه هو نفسه ، هو الذى أعطى صوفيا سيميونوفنا ، بيديه ، ورقة المائة
روبل هذه ؟ لقد رأيته بعينى رأسى ، أنا شاهد ، وفى وسعى أن أحلف
على ذلك بأغلظ الأيمان !

وردّد ليزياتنيكوف يقول متجهاً الى الجميع والى كل واحد :

— هو ! هو ! هو !

أعول لوجين يقول :

— أنت مجنون أيها الغر ؟ لقد أقرت هى نفسها ، هى الواقفة
هناك ، بقربك ، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ منى الا عشرة
روبلات . وكيف كان يمكنى أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك ؟

ردّد ليزياتنيكوف يقول صارخاً :

— رأيتُ ما فعلته ! رأيتُ ما فعلته ! وأنا مستعد ، رغم أن ذلك
يخالف مبادئى ، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم ... لأننى

رأيتك تدس لها هذه الورقة خلسة • ولكننى ، لغيبائى ، اعتقدت أنك
تفعل ذلك من باب البر والاحسان • قرب الباب ، لحظةً كانت تودعك ،
حين التفت وتمدت لها يدك اليمنى ، دسست ورقة المائة روبل باليد
اليسرى فى جيبتها خلسة • رأيت ذلك ! رأيت ذلك !

شحب لون لوجين • وصرخ يقول بوقاحة :

— ما هذه السخافات التى تقولها ؟ كيف كنت تستطيع ، وأنت
واقف قرب النافذة ، أن تتعرف هذه الورقة ؟ ما هذا الا وهم ! •• ما هذا
الا وهم خلقتهم عينك الضيقتان الحسيران ! أنت تهذى !

— لا ، ليس هذا وهماً ! ورغم أننى وقفت بعيداً ، والحق يقال ،
فقد رأيت كل شيء ، رأيت كل شيء ! صحيح أن من الصعب على المرء
أن يميز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة • ولكننى بفضل
ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة انما كانت ورقة مالية بمائة
روبل ، اذ فى اللحظة التى أعطيت فيها صوفيا سيميونوفنا عشرة روبلات ،
رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأننى كنت
عندئذ بالقرب منك) ؟ ولأن فكرة ما قد مضت فى ذهنى حينذاك ،
فأننى لم أنس أن هذه الورقة كانت بيدك • لقد طويتها واحتفظت بها
فى يدك طول الوقت • ثم لم أفكر أنا بعد ذلك فى هذا الأمر التفصيلى ،
ولكنك حين نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى الى يدك اليسرى • وحين
فعلت ذلك كدت تسقطها على الأرض • فتذكرت ذلك الأمر التفصيلى
من جديد ، لأن تلك الفكرة نفسها قد مضت فى ذهنى مرة أخرى :
وهى أنك تريد أن تمن على صوفيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك •
لهذا أخذت أراقبك وأرصد حركاتك ، فرأيت أنك أفلحت فى أن تدس
تلك الورقة فى جيبتها ! رأيت ذلك ! رأيت ذلك ! وانى مستعد لأن
أحلف يميناً !

كان ليزياتيكوف كمن يختنق • وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب ، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب • غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً • واقرب الجميع من بطرس بتروفتش ، واندفعت كاترين ايفانوفنا نحو ليزياتيكوف •

— آندره سيميونوفتش ! لقد أخطأت الظن فيك ! دافع عنها ! أنت الوحيد الذى يدافع عنها ! هذه يتيمة ! ان الله هو الذى أرسلك لتساعدنا ! آندره سيميونوفتش ، يا عزيزى الطيب الشهم آندره سيميونوفتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك ، وارتمت تركم أمامه ، وهى لا تكاد تدرك ماذا تصنع !

زار لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب :

— سخافات ! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام : « نسيت ، تذكرت ، تذكرت ، نسيت ! » • ما معنى هذا ؟ فى زعمك اذن اننى دسست لها الورقة عمداً ••• ولكن لماذا ؟ ما عسى يكون هدفى من ذلك ؟ أى شى يجمع بينى وبين هذه ال •••

— لماذا ؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسى ، ولكن هذا لا ينفى أننى أقول الحقيقة ! اننى لم أخطئ فى شىء أيها الحقيق النذل ؛ اننى أتذكر أن فكرة قد راودتنى فى تلك المناسبة ، حين كنت أشكرك مصافحاً • لقد قلت لنفسى عندئذ : « لماذا دس لها هذه الورقة خلسة ؟ » • لا يمكن أن لا يكون غرضه من ذلك الا أن يخفى عنى عمله ، لعلمه بأن مبادئى تتعارض مع فكرة الاحسان الفردى ، الاحسان الذى لن يخفف عن أحد تخفيفاً جذرياً فى يوم من الأيام ؟ • ثم خطر ببالى أنك ربما كنت تشعر بحرج من اهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضورى ؟ ثم اعتقدت

أنك انما أردت أن تحدث لها دهشةً حين ستعثر في جيبها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو) • ولكنى قلت لنفسى بعد ذلك أيضاً انك تريد أن تختبرها وأن تمتحنها ، أى أن تعلم هل تجيء اليك شاكرة بعد أن تجد الورقة • وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك انما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان ، عملاً بالمبدأ القائل ان اليد اليمنى يجب أن تجهل •• الخ •• آه ••• ما أكثر الأفكار التى راودت ذهنى حينذاك ! ••• وقد قررت أن أفكر فى هذه المسألة على مهل ، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين اننى عارف بسرّك • وقد راودتنى عندئذ فكرة أخرى • تساءلت : « ماذا لو أضاعت صوفيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده ؟ » وذلك هو السبب الذى دفعنى أن أجيء الى هنا فأذكرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل فى جيبها • ولكنى ، أثناء الطريق ، دخلت على السيدتين كوبلياتنيكوف ، لأعطيها كتاب « العرض العام للمنهج الوضعى » * ، ولأوصيهما خاصةً بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً) ؛ ثم جئت الى هنا ، فانظر فى وسط أية قصة وقعت ! هل كان يمكن أن تخطر ببالى تلك الأفكار كلها ، وهل كان يمكن أن أجري تلك الاستدلالات جميعها ، لولا أننى رأيتك تدرس المائة روبل فى جيب صوفيا سيميونوفنا فعلاً ؟

حين أنهى آندره سيميونوفتش أقواله المفحمة وختمها بهذه النتيجة المنطقية شعر بتعب رهيب ، فكان العرق يقطر من جبينه • انه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وا أسفاه (وان كان لا يعرف أية لغة أخرى) ، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية ارهاق شديد ، حتى لكأنه أصيب بنحول وهزال • لكن حديثه أثّر تأثيراً خارقاً • لقد تكلم بدون تصنع

أو افتعال ، وكان كلامه مقنعاً مفجعاً ، فصدقه الجميع • وشعر بطرس بتروفتش أن الأمور لا تجري على ما يحب • فهتف يقول :

— أنا لا تهمنى المسائل السخيفة التي خطرت ببالك في قليل ولا كثير ! ليس هذا ببرهان • من الجائز جداً أن تكون قد رايت ذلك كله في حلم • وأنا أقول لك انك تكذب يا سيد ! أنت تكذب ، وانت تفترى على ، يدفعك الى ذلك حقدٌ شخصي ، فأنت تضرر لى الضعيفه لأننى لا أشارك آراءك الاشتراكية الملحدة • ذلك كل شيء !

ولكن هذه الحركة الدائرة لم تعد على بطرس بتروفتش بأى نفع • بالعكس : ارتفعت الدمدومات من كل جهة •

وصاح ليزياتنيكوف يقول :

— ••• هذا ما تريد أن تصل اليه ! أنت تكذب ! استدع الشرطة ، وسأحلف اليمين • ليس هناك الا شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه : ما الذى دفعه الى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء ؟ يا للحقير ! يا للنذل ! قال راسكولنيكوف بصوت قاس وهو يتقدم الى أمها :

— أنا أستطيع أن أشرح السبب الذى دفعه الى التورط فى مثل هذا الفعل • وانى لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً اذا لزم ذلك •

كان راسكولنيكوف يبدو حازماً • وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقوها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً ، وأن الحاتمة قد اقتربت • وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال متجهاً بالكلام الى ليزياتنيكوف رأساً :

— الآن فهمت كل شيء ! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكاية ان فى الأمر مكيده قدرة ما ، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها

أحد غيرى وسأكشف عنها لكم الآن ، لأنها أصل كل شيء . وأنت الذى أضأت لى الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا أندره سيميونوفتش . أرجوكم جميعاً ، جميعاً ، أن تصفوا الى . ان هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً الى لوجين) قد خطب فى الآونة الأخيرة فتاة

هى أختى آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوف . لكنه منذ وصوله الى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بينى وبينه شجار أثناء أول لقاء بيننا فطرده من مسكنى ، وذلك بحضور شاهدين اثنين . ان هذا الرجل شرير جداً لم أكن أعرف أمس الأول أنه يسكن فى غرفة مفروشة عندك يا أندره سيميونوفتش ، ولم أكن أعرف اذن أنه فى يوم تشاجرنا نفسه ، أى أمس الأول بعينه ، قد رأى أننى بصفتى صديقاً للمرحوم السيد مارمیلادوف قد أعطيت زوجته كاترين ايفانوفنا مالاً تنفقه على الاحتفال بالجنائز . ولكنه قد رأى ذلك فسرعان ما كتب الى أمى رسالة يبلغها فيها أننى قد وهبت كل ما أملك من مال ، لا لكاترين ايفانوفنا بل لصوفيا سيميونوفنا ، واصفاً هذه الفتاة بأحط النعوت أقصد واصفاً طبيعة علاقتى بها بأحط النعوت . وهو يهدف من ذلك طبعاً الى أن يحدث شقاقاً بينى وبين أمى وأختى ، عن طريق اقناعهما بأننى أتلف فى وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان نفسيهما منه فى سبيل سد حاجاتى . وفى مساء أمس ، أثناء مقابلة تمت بينى وبين أمى وأختى ، وقد حضر هذه المقابلة ، أظهرت الحقيقة مبرهنات على أننى انما أعطيت المال لكاترين ايفانوفنا ، لانفاقه على الاحتفال بالجنائز ، ولم أعطه لصوفيا سيميونوفنا ، التى كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كل حال ولكننى أضفت الى ذلك أنه ، هو بطرس بتروفتش ، بكل مزاياه ، لا يساوى خنصر صوفيا سيميونوفنا التى يقول فى حقها ذلك الكلام الدنىء ! ثم سألتنى هل أنا مستعد لأن أجلس صوفيا سيميونوفنا الى جانب أختى ،

فأجبت به بأننى قد فعلت هذا فى ذلك اليوم نفسه • وأغضبه أشد الغضب أن يلاحظ أن أمى وأختى لا تريدان أن تتشاجرا معى تصديقاً لنمائمه وافترائه ، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقاحات لا تغفر • ونشأت عن ذلك قطعة حاسمة بينه وبين أختى ، وطُرد شرّ طردة • ذلك كله حدث أمس • والآن اتبها : لو قد أفلح فى أن يبرهن اليوم على أن صوفيا سيميونوفنا سارقة ، لاستطاع أن يظهر لأمى وأختى أولاً أنه كان على حق حين اشتبه فى أمرها ، وثانياً أنه كان على حق حين غضب اذ علم أنى ساويت بينها وبين أختى ، خطيئته • جملة القول أنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل فى أن يحدث شقاقاً بينى وبين أسترى وفى أن يسترد حظوته لديها • ناهيك عن أنه بذلك ينتقم منى شخصياً ، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صوفيا سيميونوفنا يهمنى كثيراً • ذلكم هو حسابه كله ! هكذا أفهم أنا القضية ! هذا هو دافعه ولا دافع سواه !

بهذه الكلمات ، أو بهذه الكلمات تقريباً ، ختم راسكولنيكوف كلامه الذى كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين ، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه • ولكن راسكولنيكوف ، رغم المقاطعات ، تكلم بلمهجة حازمة هادئة ثابتة ، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شيء • وكان لصوته المختلج وبرته المقنعة وهيئته القاسية أثر شديد فى جميع الناس •

قال ليبرياتنيكوف مؤيداً بحماسة :

— هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر يقيناً ، لأنه سألتى ، منذ دخلت صوفيا سيميونوفنا الغرفة ، هل « أنت موجود ، وهل رأيتك فى عداد الذين دعتهم كاترين ايفانوفنا » • لقد جذبنى الى شق

النافذة ليلقى على هذا السؤال همساً • معنى ذلك أنه كان يحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً ! هذا هو الأمر تماماً !

كان لوجين صامتاً يتنسم باحتقار • لكنه كان شديد الشحوب • كأنه يفكر في الوسلة التي يخرج بها من المأزق • لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء ويخرج ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن كثيراً في تلك اللحظة : فلو خرج لكان معنى خروجه صراحةً أنه يعترف بصحة الاتهامات الموجهة إليه ، وأنه قد افترى على صوفيا سيميونوفنا فعلاً • ثم ان الحضور ، وقد سكروا ، أخذوا يتحمسون • وهذا موظف التموين يصرخ صرخة أعلى من صراخ سائر الناس ، رغم أنه لم يفهم كل شيء ، مقترحاً اتخاذ اجراءات تسيء الى لوجين كثيراً • هذا الى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى : لقد هرع أناس من جميع الغرف • البولنديون الثلاثة الصغار احتاجوا احتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية : « سيد حقير » ، ويجمعون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً •

كانت صونيا تصغى في جهد ، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم شيئاً هي الأخرى • لكنها خارجة من غيبوبة • كانت لا تحول عينيها عن راسكولنيكوف ، شاعرة أنه سندها الوحيد • وكانت كاترين ايفانوفنا تنفس في مشقة ، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء ، وكانت تبدو مرهقة الى أبعد حدود الارهاق • الا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبى الأوضاع ، فهي فاعرة الفهم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البتة • كل ما هنالك أنها كانت تحس أن بطرس بتروفتش في مأزق • وأراد راسكولنيكوف مرة أخرى أن يتكلم ، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل ، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحد ويحتشدون حول لوجين بالشتائم والتهديدات • ومع ذلك لم يفت هذا في عضد لوجين • واذ

رأى أن حملته على صوفيا سيميونوفنا خاسرة ، لجأ إلى الوقاحة عامداً •
قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور :

- اسمحوا لي أيها السادة ، اسمحوا لي ! أرجوكم أن لا تهددوني !
أؤكد لكم أن هذا لا يجدي ، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً !
لست بالصبي الغر ... بالعكس : أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن
أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم • لقد انفضحت السارقة ، وسأشكوها
إلى القضاء • والقضاء ليسوا عمياً ، ولا هم سكارى ! ... القضاء لن يثقوا
بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين ، ويتهماني
حقداً وانتقاماً ، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما ! نعم ، اسمحوا لي !
قال آندره سيميونوفتش :

- ألا فليخفف كل أثر لوجودك عندي على الفور ! هيئاً غادر غرفتي
حالا ، ولينته كل شيء بيننا ... آه ... حين أتذكر كم أرهقت نفسي
طوال خمسة عشر يوماً في أن أشرح له ...

- ولكنني قلت لك أنا نفسي منذ قليل ، بينما كنت تلح أنت على
بقائي عندك ، انني مباحر غرفتك حتماً • هناك شيء واحد أضيفه الآن :
هو أنك غبي أبله ! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك
الحسير • اسمحوا لي يا سادة !

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً • لكن موظف التموين لم يكن
يسمعه. بهذه الأذن ، ولم يشأ أن يخلو سبيله بهذه السهولة ، فتناول كأساً
عن المائدة فلوح بها ثم قذفها إلى جهة بطرس بتروفتش بكل ما أوتى من
قوة • غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً ، فأطلقت هذه
صرخات حادة ، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج تحت المائدة بعد أن
أفقدته هذه الحركة توازنه •

استسحب بطرس بتروفتش الى غرفته ، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل .

كانت صونيا ، الوجلة بطبيعتها ، لا تجهل أن من السهل على أى انسان أن يسبب ضياعها وهلاكها . وكانت تعرف كذلك أن أى انسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية اساءة تقريباً . ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن فى وسعها ، بطريقة أو بأخرى ، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة اذا هى عاملت جميع الناس وكل انسان بالتأنى والحذر ، والتواضع والمذلة ، والرفقة واللطف . فخاب الآن ظننها ، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الوقع فى نفسها . صحيح أنها كانت تستطيع ، مدعنةً مستسلمة ، ودون دمدمة تقريباً ، أن تحتمل كل شيء ، وأن تحتمل حتى هذا . غير أن « هذا » قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها ، فى الوهلة الأولى ، درجةً لا تطاق . فهى ، رغم انتصارها وتبرئتها ، ما ان زال رعبها الأول وما ان أفاقت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور ادراكاً صحيحاً ، حتى كان شعورها بأنها مهجورة واحساسها بالاهانة التى ألحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً ، فاذا هى تصاب بنوبة عصبية . ثم اذا هى تفقد صبرها فتوتلى هاربةً من الغرفة راکضةً الى مسكنها . حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً . وآماليا ايفانوفنا التى أصابتها الكأس لم تحتمل كذلك ضحكات الحضور ، فاستعر غضبها ، وأخذت تطلق صرخات مجنونة ، ثم اتجهت نحو كاترين ايفانوفنا تحمّلها تبعه كل شيء ، وتقول لها :

— ارحلى من بيتى ! اخرجى حالا ! الى الأمام ، سر !

كانت آماليا ايفانوفنا تقول ذلك وهى تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترين ايفانوفنا فتلقيه على الأرض •

وكانت كاترين ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهدودة القوى مهدمة ، محطمة ، فلما رأت صاحبة البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبت عن السرير وهجمت عليها • ولكن الصراع لم يكن فيه أى تكافؤ ، فكانت الألمانية تهز كاترين وترججها كأنها ريشة طائر •

— ماذا ؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صونيا افتراءات شيطانية ، فهى تهجم على أنا أيضاً ؟ كيف ؟ هل أرمى الى الشارع فى يوم وفاة زوجى ؟ أبعد أن تقبل ضيافتى ألقى الى الشارع مع اليتامى ؟ فالى أين يمكننى أن أذهب ؟

بهذا كانت تعمل كاترين ايفانوفنا مختنقة من خلال النسيج • وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناها :

— هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا اله السماء ؟ عمن عمك تدافع ومن عمك تحمى اذا لم تدافع عنا نحن اليتامى ، واذا لم تحمنا نحن اليتامى ؟ طيب *** لسوف نرى ! ان على الأرض قضاء ومحاكم ! نعم ، هناك قضاء ومحاكم ! سأنتجه الى المحاكم ، سأجد المحاكم ! حالاً ! فوراً ! انتظرى قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئة ! يا بوليتشكا ، ابقى مع الأولاد ! سأعود ! انتظرى فى الشارع اذا لزم الأمر ! سوف نرى هل فى هذا العالم حقيقة !

وألقيت كاترين ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من جوخ السيدات ، الذى تحدث عنه المرحوم مارميلادوف ، وشقت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى المبهثرين فوضى ، الذين كانوا لا يزالون

محتشدين فى الغرفة • واندفعت فى الشارع باكية ناشجة ، وهى تنوى على نحو غامض أن تمضى باحثه عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر •

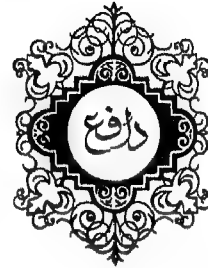
واستولى الرعب على بوليا ، فلطت فى ركن من الأركان قرب الصندوق ، مع الصغار المرتجفين المرتعدين ، وقد أحاطتهم بذراعيها منتظرة عودة أمها •

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب فى الغرفة ، وتطلق الصراخ بعد الصراخ ، وترعد ، وتلقى على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه • وكان المستأجرون يصرخون كل من جهته • فبعضهم يعلقون على الأحداث بطريقةهم ، وبعضهم يتشاجرون ويتشائمون ، وبعضهم يغنون •

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « والآن حان حينى أنا أيضاً • سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن ! »

واتجه نحو مسكن صوفيا •

الفصل الرابع



راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمساً قوياً ضدّ لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً شديداً وعذاباً أليماً • ولكنه شعر بعد تباريح الصباح برضى صادق وارتياح حقيقى لتغير مشاعره التى كان قد أصبح لا يطبق احتمالها ، بصرف النظر عن العاطفة التى دفعته الى التدخل مدافعاً عن صونيا • ثم انه لم ينس أنه على موعد وشيك مع الفتاة ، وهو موعد كانت فكرته تحدث له فى بعض الأحيان أشد أنواع القلق • كان «عليه» أن يبلغها أنه قتل اليزابت ، وكان يحس منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم ممض • وبحركة من يده ، أبعد هذه الفكرة عن ذهنه • لذلك فانه حين هتف يقول لحظة خروجه من عند كاترين ايفانوفنا : « سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن » كان ما يزال خاضعاً للأثر الذى أحدثه فيه انتصاره منذ هنيهة على لوجين • غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك : فانه حين وصل الى مسكن كابريتاؤموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة ، وشعر بخوف يستولى عليه ، فاحتار واضطرب ، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال العجيب : « هل يجب أن يقول لها من الذى قتل اليزابت ؟ » • وانما كان هذا السؤال عجيبياً لأن راسكولنيكوف كان يشعر فى الوقت نفسه أنه

عاجز عن كتمان هذا الأمر بل يشعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن يؤخر اعترافه هذا أى تأخير • كان لا يعرف ، بعد ، لماذا يستحيل عليه ذلك • وإنما هو « يحس » تلك الاستحالة احساساً فحسب ، وكان هذا الاحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً • ومن أجل أن يضع حداً لحواطره وتأملاته ، وهمه وقلقه ، فتح الباب بغتةً ولاحظ صونيا من مكانه فى العتبة •

كانت صونيا جالسةً ، واضعةً كوعها على مائدتها الصغيرة ، دافئةً وجهها فى يديها • فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبت الى لقائه كأنها كانت تنتظره •

اقترب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذى تركته صونيا • كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه ، كالبارحة تماماً •

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأةً بأن صوته يرتجف :

– هيه صونيا ! أرايت ؟ ان أساس الأمر كله انما « وضعك الاجتماعى والعادات التى يخلقها » • هل فهمت ؟

ارتسم الألم على وجه صونيا • وقاطعته تقول :

– لا تكلمنى خاصةً كما كلمتى أمس • أرجوك ، لا تفعل ما فعلته أمس • كفى تعذيباً !

وأسرعت تبسم ، مخافة أن يسوءه هذا اللوم •

وأردفت تقول :

– كانت حماقةً منى أن انصرفت • فما الذى يجرى الآن هناك ؟ لقد أردت أن أعود ، لكننى كنت أقدر طوال الوقت أنك •• قد تجبى ••

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت
وأن كاترين ايفانوفنا مضت « تبحث عن الحقيقة » في مكان ما *

هتفت صونيا تقول :

— آه ! رباه ! هيّا بنا حالاً ، فوراً !

وتناولت خمارها *

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حائقة :

— ما زلت كما كنت ! لا تفكرين الا فيهم ! هلاًّ بقيت معي قليلاً !

— لكن ... وكاترين ايفانوفنا ؟

— كاترين ايفانوفنا ستعرف كيف تهتدى اليك *

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أضاف يقول بحزن :

— ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت * فان لم تجدك هنا كنت
أنت المذنبة *

جلست صونيا وهى فريسة تردد أليم * وصمت راسكولنيكوف
مطرقاً الى الأرض يجتر فكرة ثابتة *

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر الى صونيا :

— لنسلّم بأن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر ... ولكن لو شاء
ذلك ، لو كان ذلك داخلاً في حساباته ، لاستطاع أن يرسلك الى السجن
لولا وجودى ووجود ليزياتنيكوف ، أليس كذلك ؟

أجابت صونيا تقول بصوت ضعيف :

— نعم !

ثم كررت تقول قلقةً وكأنها غائبة عن نفسها :

- نعم !

قال راسكولنيكوف :

- ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك *
أما ليزباتنيكوف فانه لم يكن قد رجع الا مصادفةً *.

صمت صونيا ولم تجب بشيء *.

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

- فماذا لو أودعت في السجن ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ هل
تذكرين ما قلته لك أمس ؟

ظلت صونيا صامتة * وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو
يحمل نفسه على الابتسام :

- كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلةً مرةً أخرى : « آه ...
لا تقل هذا الكلام ! اسكت ! » *

ولم تجب صونيا أيضاً ، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة :

- هيه ! أعودين الى الصمت ؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما
على كل حال ! اننى ليهمنى كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلى
« مسألة » من المسائل ... على حد تعبير ليزباتنيكوف (لكان
راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك ، وتابع كلامه ...) * لا ، لا ، انا
لا أتكلم جاداً * تخيلى يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً جميع نيات
لوجين ، وأنت كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترين ايفانوفنا
سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً ، هى والأولاد أيضاً ، وانك

ستعرضين أنت نفسك للانحدار (رغم أن هذا الأمر لا يهملك) ،
وكذلك بوليا . . . من جهة أخرى . . . لأن هذا الطريق هو الطريق
الذى يفتح أمامها فعلاً . تخيلى هذا كله ثم تخيلى أنه يتوقف عليك
أنت أن يبقى على قيد الحياة اما هذا واما أولئك ، أى اما لوجين مع كل
الدناعات التى يرتكبها واما كاترين ايفانوفنا ، فماذا تقررين ؟ أتختارين
موته أم تختارين موتها ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال .

نظرت اليه صونيا فى قلق . انها تحذر وراء هذه الكلمات الملتبسة
فكرة مخبأة تذكرها بشيء ما .

قالت وهى تثبت عليه نظرة فاحصة :

— كنت أوجس أنك ستلقى على سؤالاً من هذا النوع .

قال راسكولنيكوف :

— ليكون ذلك . فماذا تختارين ؟

سألته صونيا بنفور :

— لماذا تسألنى عن شيء لا يمكن أن يحدث ؟

— الأفضل اذن أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر فى

ارتكاب حقاراته . هذا مع ذلك رأى لا تجسرين أيضاً أن ترتثيه .

— ليس يخصنى أنا أن أنفذ الى أغراض « العناية الالهية » . . .

ولماذا تسأل عملاً لا نملك حق السؤال عنه ؟ ما جدوى هذه الأسئلة

الباطلة ؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قرارى أنا ؟ من

الذى نصبنى قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن ذا يجب أن لا يحيا ؟

جمعهم راسكولنيكوف يقول بلهجة كثية :

— متى تدخلت « العناية الالهية » فى الأمر ، لم يبق ما نقوله !

فهتفت صونيا تقول فى ألم :

— الأولى أن تقول لى ما تريد أن نقوله ، بغير لف ولا دوران !
انك ما تزال تجتر شيئاً ما • هل من الممكن أن لا تكون قد جئت الا
للتعذبنى ؟

ولم تطق صونيا صبراً ، فأخذت تبكى بكاءً مرّاً • فكان ينظر اليها
مكفهر الوجه حزيناً • وانقضت على ذلك خمس دقائق •

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب :

— نعم ، أنت على حق •

لقد تبدل راسكولنيكوف فجأة • ان لهجته التى كان فيها وقاحه
مقصودة وتحد متعمد قد اختفت • حتى لقد ضعف صوته • وتابع
كلامه فقال :

— لقد قلت لك أمس اننى لن أجيئك اليوم مستغفراً ، ومع ذلك
فاننى بدأت كلامى بالاستغفار تقريباً • فحين تكلمت عن لوجين وعن
العناية الالهية كنت لا أتكلم الا عن نفسى ، وكنت استغفر يا صونيا •

وأراد راسكولنيكوف أن يتنسم ، لكن تعبيراً عن العجز والتعب
تجلى فى تلك الابتسامة الصفراء • وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه •

وفجأة ، اجتاح قلبه احساسٌ غريب غير متوقع ، احساس بكره
عنيف نحو صونيا • فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روعه
هذا الاكتشاف ، فرفع رأسه بغتةً ونظر اليها محدقاً • ولكن نظرتة لم
تلتق الا بنظرة الفتاة التى كانت نظرة قلقه زاخرة بضراعة أليمة • لقد

كان فى تلك النظرة حب • وتبدد من نفس راسكولنيكوف كل احساس بالكره ، كما يتبدد حلم • لا ، لم يكن الأمر كما تصور ، لقد أخطأ فى فهم طبيعة العاطفة التى شعر بها • ذلك يعنى أن اللحظة الحاسمة قد وافت •

ومرةً أخرى دفن وجهه فى يديه ، وخفض رأسه • واصفر وجهه على حين بغته ، ونهض عن كرسيه ونظر الى صونيا ؛ ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية ، دون أن يقول كلمة واحدة •

كانت هذه الدقيقة تشبه كثيراً ، من ناحية الاحساس الذى شعر به ، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التى كان فيها واقفاً وراء العجوز ، بعد أن أخرج الساطور من الازليم ، وأحس أنه « لم يبق ثمة لحظة يضعها » • سأله صونيا مروعةً :

— ماذا بك ؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة • انه لم يكن يقدرّ أنه على هذا النحو « سينبثها » بالأمر • ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث فى نفسه فى تلك اللحظة •

اقتربت صونيا منه برفق ، وجلست على السرير بقربه ، وانتظرت دون أن تحوّل عينيها عنه • وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر •

أصبح الموقف لا 'يُحتمل • أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفرة كصفرة الموت • وتقبضت شفتاه فلم يستطع أن ينطق أية كلمة • استولى الرعب على صونيا • فقالت مرددةً وهى تبعد عنه قليلاً :
— ماذا بك ؟

فدمدم يقول كائنات استولى عليه الهذيان وأصبح لا يدري ماذا يقول :

— لا شيء يا صونيا • لا تخافى • حقاً ، متى فكّر المرء فى هذه الأمور أدرك أنها سفساف وترهات وحقايات !

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر إليها :

— لماذا جئت أعذبك أنت ؟ حقاً ، لماذا ؟ اننى لا أنفك ألقى على نفسى هذا السؤال يا صونيا •

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة ، ولكنه يعبر عنه الآن وهو فى حالة ضعف كامل ، فما يكاد يشعر بنفسه ، وما برح حسمه يرتجف بارتعاش متصل •

قالت صونيا متألمة وهى تتفحصه بنظرها :

... آه ... ما تعذب نفسك !

— ما هذه كلها الا سخافات ! اسمعى يا صونيا : (ان فكرة من الأفكار قد جعلت شفتيه تلم بهما ابتسامة صفراء) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس ؟

انتظرت صونيا قلقة •

— لقد قلت لك عند انصرافى اننى ربما كنت أودّعك الى الأبد ، ولكننى ان جئت ... فسأقول لك من الذى قتل اليزابت •

أخذت صونيا ترتعش من الرأس الى القدمين •

— فهأنذا أجيء لأقول لك من الذى قتل اليزابت •

تمتت تقول فى جهد ومشقة :

- كنت تتكلم جاداً اذن حين قلت لى أمس ***
- لكنها أسرع تـسألـه كأنها ثابت الى رشدها فجأة :
- فكيف عرفت من الذى قتلها ؟
- كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً • وكان وجهها يزداد شحوباً •
- قال راسكولنيكوف :
- أنا أعرف من هو القاتل •
- فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة • ثم سألتـه خائفة :
- وهل وجدوه ؟
- لا ، لم يجدوه •
- اذن كيف عرفت من هو ؟
- قالت ذلك بصوت مختنق ، بعد صمت جديد •
- التفت راسكولنيكوف اليها ، وأمعن فى النظر اليها • ثم قال لها وهو يرسم على شفـتيه تلك الابتسامة المصنوعة نفسها :
- احزرى !
- وكان تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كله •
- قالت صونيا وهى تبـتسم كطفلة :
- ولكنك •• ولكنك تخـب *** تخيفنى بهذا الكلام !
- تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر اليها ويتفرس فيها كأن عينيه مشدودتان اليها شداً لا فـكـاك منه ، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل بصره عنها :

— هذا يبرهن على أن بينى وبينه « هو » صداقة حميمة • ولقد كان لا يريد قتل اليزابت تلك ، وانما هو قتلها ••• مصادفةً ••• لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة في البيت ••• وجاء ••• وعندئذ ••• قتلها هي أيضاً •

وانقضت دقيقة أخرى مروّعة • كان كل منهما ينظر في الآخر •
سألها بفتّة وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس :

— ألم تحزري اذن ؟

همست صوتياً تقول بصوت لا يكاد يُدرك :

— لا ••• لا •••

— فكّررى !

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه اجساس مألوف جمّد قلبه • نظر اليها فكأنما هو يرى في وجهها ملامح وجه اليزابت • وتذكر تذكرًا واضحًا متميزًا تعبير وجه اليزابت في اللحظة التي اقترب فيها منها مشهراً ساطوره ، فتراجعت نحو الحائط واضعةً يديها امامها ، كالأطفال الصغار حين يخافون فيشتتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا • كذلك كان شأن صوتيا في تلك اللحظة • لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها ، وبذلك الاضطراب نفسه ، وبذلك الارتياح ذاته ، ثم رفعت يدها اليسرى فجأة فلمست صدره بأطراف أصابعها في رفق ، ونهضت عن السرير ببطء ، وابتعدت عنه رويداً رويداً ، وهي تحدّق اليه مزيداً من التجديد • وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف ، ارتسم هو نفسه تماماً • ونهض راسكولنيكوف مثلما

نهضت ، وأخذ ينظر إليها وهو يتسم ابتسامة « الاطفال » تلك نفسها تقريباً •

وهمس يسألها أخيراً :

— هل حزرت ؟

قال صونيا مرتاعة وهى تشفق شهقة رهيبة :

— يا رب !

وخارت قواها ، فسقطت على السرير دافئة وجهها فى الوسادة • ولكنها عادت تنهض بعد لحظة ، واقتربت منه ، وتناولت يديه ، وضغطتهما بأصابعها النخيلة ضغطاً كلابية • ثم استأنفت التحديق اليه • كانت تريد بهذه النظرة المكروبة أن تلتقط شيئاً من أمل • ولكن توقعها كان باطلاً • لم يبق أى شك • نعم ، ذلك هو الأمر ! وحتى فى المستقبل ، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة ، سيبدو لها غريباً عجيماً أنها رأت على هذا النحو ، دفعةً واحدة ، أنه لم يبق مجال لأى شك • ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل ، ومع ذلك فأنها ما ان قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست « هذا الأمر نفسه » حقاً •

قال لها راسكولنيكوف متوسلاً فى ألم :

— كفى يا صونيا ، كفى !

لم يكن قد قدّر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها ، ولكن « على هذا النحو » انما تم الاعتراف •

خرجت صونيا عن طورها ، ووثبت ، ولوت يديها ، ومضت الى وسط الغرفة • ولكنها سرعان ما عادت الى قربها ، فجلست بجانبه حتى

ليكاد كفتها يلتصق بكتفه + وكأن فكرة مباغته قد ومضت في ذهنها ، فاذا
هى ترتعش فجأة ، وتطلق صرخة ، وترتمى راكعةً أمام راسكولنيكوف ،
لا تدرى هى نفسها لماذا !

قالت :

— ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟

وارتمت على عنقه وضمته اليها ضمًا قويًا +

بدرت من راسكولنيكوف حركة تقهقر ، ونظر اليها وهو يتسم
ابتسامة حزينة +

— ما أغربك يا صونيا ! أتعاينينى بعد أن قلت لك « ذلك » الأمر ؟
أنت لا تعرفين ماذا تفعلين !

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته :

— لا ، لا ، ليس فى العالم كله الآن رجل أشتقى منك +

وأجهشت تبكى فجأة ، كأنما ألت بها نوبة عصبيّة +

ان عاطفة تجهلها صونيا منذ مدة طويلة تفرقها الآن كموجة غامرة ،
وتملأ قلبها رقة وحنانًا . لم تحاول صونيا أن تقاوم هذه العاطفة + وانبعجت
من عينيها دمعتان ظلتا معلقتين بأهدابها +

سألها وهو ينظر اليها فى أمل تقريبًا :

— ألن تتركينى اذن يا صونيا ؟

فصاحت صونيا تجيبه :

— لا ، لن ، لن أتركك أينما تذهب ! سأبتعد ، سأبتعد الى أى

مكان ! آه ... يا رب ! ... آه ... ما أشقاني ! ... لماذا ، لماذا لم أعرفك من قبل ؟ لماذا لم تأت قبل هذا الأوان ؟ آه ... يا رب ! ...

— لكننى أتيت مع ذلك •

— الآن أتيت ! ولكن ما العمل الآن ؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهى تعانقه من جديد :

— معاً ، معاً ! سوف أذهب معك الى المعتقل !

أصابته هذه الكلمات قلبه ، وعادت تظهر على شفتيه تلك الابتسامة نفسها التى تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعالٍ وكبرياء •

— ربما كنت يا صونيا لا أحب أن أذهب الى المعتقل •

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة • وبعد العاطفة الأولى التى غزت نفسها وهى عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الانسان الشقى المعذب ، عادت تستولى عليها فكرة القاتل الرهيبة المروعة • ان لهجة كلماته الأخيرة ، وهى لهجة تبدلت على حين فجأة ، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح • ونظرت اليه مشدوهة • كانت لا تعرف ، بعد ، شيئاً • كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث • والآن تنبجس هذه الأسئلة جميعها فى شعورها دفعة واحدة • ومرة أخرى عادت تشك : « أياكون هو قاتلاً ؟ مستحيل ... مستحيل ! » • ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول :

— ولكن ما هذا ؟ أين أنا ؟ كيف ، كيف أمكنك و « أنت ما أنت » أن تعزم أمرك على تلك الفعلة ؟ لماذا ؟

أجاب بلهجة مرهقة ، وكأنها ملتاعة :

— لأسرق • كفى يا صونيا !

لبث صونيا متجمدة خلال لحظة ، ولكنها هتفت تقول فجأة :

— كنت جائعاً ! فعلت ذلك لتساعد أمك ، أليس كذلك ؟

تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه :

— لا يا صونيا ، لا ... لم أكن جائعاً الى ذلك الحد . الواقع أنني كنت أريد أن أساعد أمي ... ولكن هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة ... لا تعذبنى يا صونيا .

ضمت صونيا يديها احدهما الى الأخرى . وقالت :

— ولكن هل يمكن ، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً ؟ رباه ! أهذه هى الحقيقة ؟ من ذا الذى يمكن أن يصدّقها ؟ وكيف ، كيف يُعقل أن تقتل لتسرق ، أنت الذى تعطى آخر ما تملك ؟

ثم صاحت تقول فجأة :

— وذلك المال الذى قدمته الى كاترين ايفانوفنا .. وذلك المال .. يا رب ! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً ...

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً :

— لا يا صونيا ... ذلك المال ليس مصدره هذا .. اطمئنى ! ذلك المال انما أرسلته الى أمي بواسطة تاجر ، وقد تلقّيته أثناء مرضى ، فى ذلك اليوم نفسه الذى أعطيتُه أمك ... رازومихين يعرف هذا ... هو الذى قبضه نيابةً عني ... كان ذلك المال مالى أنا ، مالى أنا حقاً .

كانت صونيا تصنى اليه جامدةً ، جاهدةً بكل قواها أن تفهم . وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حاملة :

— أما المال الآخر ... فأننى لا أعلم هل له وجود . لقد انتزعت

من عنقها *** محفظة نقود من جلد *** محفظة نقود ملأى ، محشوة ،
لكننى لم أفتحها *** لعل وقتى لم يتسع لفتحها *** أما الأشياء الأخرى
*** أزرار الأكمام وسلاسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود فى
آن واحد ، ومضيت أدفن ذلك كله فى فناء منزل بسارع ف ** ومايزال
كل شىء هناك ***

كانت صونيا تصغى بانتباه *

– ولكن كيف تقول انك قتلت « لتسرق » ، فى حين أنك لم تستول
على شىء ؟

كذلك سألته صونيا بسرعة شديدة ، محاولة أن تثبت بهذه
القشة *

قال راسكولنيكوف شارد الذهن :

– لا أدرى *** اننى لم أقرر بعد' أأستولى على ذلك المال أم لا **
ثم أضاف فجأة وقد عاد الى وعيه :

– يا له من سخف ، هذا الكلام الذى قلته الآن ، هه ؟

وومضت فى ذهن صونيا فكرة : « ألا يمكن أن يكون مجنوناً » ،
ولكنها أسرعت تبذل تلك الفكرة * لا ، ان فى الأمر شيئاً آخر ، ولكنها
لا تفهمه ، لا تفهمه البتة *

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الالهام :

– هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن ؟

وأردف يقول مشدداً على كل كلمة من كلماته ، ملقياً نظرات
ملغزة رغم أنها صادقة :

— لو أننى لم أقتلها الا بدافع الجوع ، فلربما كنت الآن «سعيداً» !
اعلمى هذا !

وهنف يقول بعد لحظة :

— ولكن فيم يعنيك أن أعترف بأننى أخطأت؟ فيم يفيدك أن تتصرى
على هذا الانتصار الأبله؟ آه يا صونيا ... أمن أجل هذا سعت اليك؟
أرادت صونيا مرة أخرى أن تقول شيئاً ، ولكنها لزمت الصمت .
قال راسكولنيكوف :

— اذا كنت قد ناديتك أمس ، فلأننى كنت لا أستطيع أن أنادى
أحداً غيرك .

سأله صونيا :

— ناديتنى الى أين ؟

— ما ناديتك لتقتلى أو لتسرقى . اطمئنى . ما ناديتك من أجل
هذا (كذلك ردّد وهو يبتسم ابتسامة مرة) ، فنحن مختلفان أحداً عن
الآخر اختلافاً كبيراً . هل تعلمين يا صونيا أننى لم أدرك الا الآن الى
أين ناديتك أمس . حين ناديتك أمس ، لم أكن أعرف الى أين أناديك .
والحقيقة أننى ناديتك لتحقيق هدف واحد ، الحقيقة أننى سعت اليك
لغرض واحد : هو أن لا تركبنى . قولى : أترضين أن لا تركبنى
يا صونيا ؟

شدت صونيا على يديه .

وهنف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية الكمد والحزن:

— لماذا ، لماذا ذكرت لها الأمر ؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة ؟

قال ذلك ونظر الهيا شاعراً بعذاب لا نهاية له • وتابع كلامه فقال:

— هأت ذى تنتظرين منى شروحا وتفسيرات يا صونيا • أنت هنا
تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات • اننى أرى ذلك • ولكن ما عسانى
قائلاً لك ؟ انك لن تفهمى من الأمر شيئاً • ولن تزيدى على أن تتألى
بسببى ! وأنت الآن تبكين ، وتقبّلينى من جديد • لماذا تقبلينى ؟ ألاأنى
لم أستطع أن أحتمل العبء ، فجئت أتخفف منه بالقائه على غيرى ؟
» تألى ، تألى أنت أيضاً ، فذلك يخفف عنى أنا » • ذلك هو لسان
حالى • أفستطيعين أن تحبى جباناً كهذا الجبان ؟

هتفت صونيا تسأله :

— ولكن ألسنت تتألم أنت أيضاً ؟

ومرةً أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرق قلبه لحظة • قال :

— صونيا ، ان لى قلباً شريراً ، انتهى الى هذا ، فيضىء لك أموراً
كثيرة • ولأننى شريبر انما جئت أيضاً • هناك أشخاص كان يمكن أن
لا يجيئوا • أما أنا فجبان • • • • • جبان ! • • • • • ولكن لا ضير ! • • •
ليس هذا هو الأمر الهام • وانما على الآن أن أتكلم ، ولست أدري بم
أبدأ •

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً • ثم هتف يقول من

جديد :

— هيه ! نحن مختلفان أحدهنا عن الآخر اختلافاً كبيراً ! مستحيل
أن نتفاهم ! لماذا ، لماذا جئت ؟ لن أغفر هذا لنفسى فى يوم من الأيام !

صاحت صونيا تقول :

- بل انك قد أحسنت اذ جئت ! الأفضل أن أعرف ! ذلك أفضل
كثيراً •

نظر اليها راسكولنيكوف بألم • ثم قال كمن يتابع فكرة :

- نعم ، هكذا جرت الأمور ، هكذا جرت حقاً • اسمعى كيف
جرت : لقد أردت أن أصبح نابوليون ، ومن أجل ذلك انما قتلت • فهل
فهمت الآن ؟ ...

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسذاجة واضحة :

- ل ... لا ... ولكن تكلم ، تكلم ، فسوف أفهم ، سوف أفهم
كل شيء » فى أعماق نفسى « ...

بذلك طالته صونيا ضارعة متوسلة •

قال راسكولنيكوف :

- سوف تفهمين ؟ طيب ... سنرى •

وصمت ، وفكر ملياً • ثم قال :

- اليك الأمر ! لقد ألقيت على نفسى فى ذات يوم هذا السؤال :
ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وُجد فى مكائى ، ولم يكن
أمامه فى بداية حياة المجد الذى حققه لا تولون ولا مصر ولا ممر
مونبلان ، وانما كان أمامه ، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة
الضخمة عجوزٌ حقيرة شريرة تافهة مرابية يجب أن يقتلها ليستولى على
المال الذى تخبئه فى صندوقها (فى سبيل تحقيق رسالته طبعاً ، هل
تفهمين ؟) ؟ نعم ، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك اذا لم يعرض له
أى معرج آخر ؟ أما كان سيشعر بشيء من الحياء والحجل لأن فعلاً
كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضخامة ... ناهيك عن الخطيئة ؟

أؤكد لك أن هذا « السؤال » قد أقضَّ مضجعي مدة طويلة ، الى أن أدركت أخيراً على حين فجأة (وقد أشعرنى هذا الادراك بالخرى) أن نابوليون ما كان له أن يحس بأيسر خجلٍ من هذا الفعل ، بل وما كان ليخطر بباله في أية لحظة من اللحظات أن هذا الفعل قد تعوزه العظمة والرفعة ، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذي يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل ... ولا شك في أنه ، اذا لم يعرض له أى حلٍ آخر ، كان سيقتل العجوز دون تردد ودون تفكير . هكذا خرجتُ أنا من التردد بين الاقدام والاحجام ، فقلت ... مقتدياً بذلك الرجل الذي هو «حجة» + نعم ، على ذلك النحو انما جرت الأمور . أبدو لك هذا سخيفاً مضحكاً ؟ نعم يا صونيا ، لعل أسخف ما في القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً !

ولكن صونيا لم تر في هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً + وها هي ذى تسأله بصوت فيه مزيد من الحجل والوجل ، بصوت لا يكاد يُسمع :

— بل حدثني ... رأساً ... مباشرة ... دون أن تضرب أمثلة !

فالتفت راسكولنيكوف نحوها ، ونظر اليها بحزن ، وتناول يديها ، ثم قال لها :

— أنت على حق يا صونيا + ما ذلك كله الا غباء ! ما ذلك كله الا ثرثرة ! فإسمعني : أنت تعرفين أن أمي كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً . وأختي التي نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطرت أن تعيش حياة خاملة كمرية + وكنت أنا أنتم دراستي ، لكنني وقد أصبحت لا أستطيع سدَّ حاجتي اضطرت ان أترك الجامعة + وهينى كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنتى عشرة سنة (في أحسن الظنون) فكل ما كان يجوز لى أن آمله هو أن أصبح أستاذاً أو موظفاً من الموظفين

يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقي درساً محفوظاً) • وفي أثناء ذلك تكون أمي قد أذابتها الهموم والأحزان ، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها . أما أختي فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً • ولماذا أخفق في حياتي هذا الاخفاق ، وأمرٌ بكل شيء مروراً عابراً ، وأسى أمي ، واحتمل الاهانات التي تنزل بأختي ؟ لماذا ؟ في سبيل ماذا ؟ في سبيل أن أبني أسرة جديدة بعد أن أدفن أمي وأختي ، فتكون لي زوجة ويكون لي أولاد ، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال ، بلا لقمة خبز ؟ لذلك قررت أن أقف المال الذي ساستولى عليه من العجوز ، قررت أن أقفه على دراستي ، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعذب أمي) • وكنت أريد أن أفعل كل شيء بمقياس ضخم ، أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية ، فأدخل حياة جديدة ، وأضمن لنفسى وضعاً مستقلاً كل الاستقلال ••• هذا كل شيء ! ••• ولقد أسأت صنعاً اذ قتلت العجوز طبعاً • ولكن هياً ، كفى هذا !

أتمَّ راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد • كان يبدو مرهقاً ، وكان خافضاً رأسه •

صاحت صونيا تقول حزينة :

— لا ، ليس هذا هو الأمر ، ليس هذا هو الأمر ، لا ، ليس هذا ، ليس هذا •••

— أرايت ؟ تقولين بنفسك ان الأمر ليس هو هذا • ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء ، وحدتك صادقاً مخلصاً • تلك هي الحقيقة !

— ولكن أية حقيقة هنا ؟

- اننى لم أقتل الا قملة يا صونيا ، قملة قدرة ، لا فائدة منها ،
ضارّة ، مسيئة !

- أتقول قملة وهى مخلوقة انسانية ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقى على صونيا نظرة غريبة :

- ولكننى أعرف أنها ليست قملة !

ثم أضاف :

- ثم اننى أكذب يا صونيا ، اننى أكذب منذ زمن طويل • أيضاً
ليس هذا هو الأمر ! أنت على حق ! لقد كان لفعلي بواعث غير هذه
البواعث ، غيرها تماماً • اننى لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا •••
أنا أشعر الآن بصداق شديد فى رأسى •

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارة محمومة • كان كمن
يهذى • وكانت تطوف بشقيقه ابتسامة قلقة • ومن خلال احتياجه ، كان
يلوح اعياء رهيب • أدركت صونيا مدى ما كان يقاسى من عذاب • وأخذ
الدوار يستولى عليها هى أيضاً • ثم انه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً •
صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء ، ولكن :
« كيف ؟ كيف ؟ يا رب ! » ولوت صونيا يديها حزناً وبأساً •

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره
قد جرت فى مجرى آخر على حين بغتة فصدمته وأيقظت نشاطه • فقال :

- لا يا صونيا ، ليس هذا هو الأمر • ليس هو هذا •• وانما عليك
أن تفترضى (نعم افترضى هذا ، فهو أصح) اننى انسان شديد التأذى ،
حسود ، منحط ، شرير ، حقود ، يحب الانتقام ، مهياً •• للجنون (أقول

كل شيء دفعةً واحدة ما دمت قد بدأت ؟ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن لاحظت ...) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردى كانت لا تتيح لى البقاء بالجامعة . ولكن هل تعلمين أننى ربما كان يمكننى مع ذلك أن أتابع دراستى ؟ كان يمكن أن ترسل الى أمى ما أنا فى حاجة اليه ، وكان يمكننى أيضاً أن أجنى بالعمل ما يكفينى طعاماً وكساءً وحذاءً . لا شك فى أننى كنت أستطيع ذلك . كان يمكننى أن أعطى دروساً ، فأتقاضى خمسين كوبكاً أجراً عن كل درس . وهذا رازوميخين ! لقد كان يحين من العمل رزقاً طيباً ! ولكننى شعرت بسخط ورفضت أن أعمل . نعم شعرت بسخط (هذه هى الكلمة الصحيحة) . فلبدت فى ركنى كما يلبد عنكبوت . لقد جئت الى مسكنى الحقيقى فرأيتة . ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر ؟ آه ... لشد ما كنت أكره ذلك المسكن الحقيقى ! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه . عن عمد انما كنت لا أريد أن أتركه . كنت أقضى فيه أياماً بكاملها ، لا أريد أن أعمل ، بل ولا أريد أن أكل . كنت أظل راقداً طوال الوقت . فان جاءتنى استاسيا بطعام أكلته ، وان لم تجبئى بشيء بقيت صائماً لا أطلب بطعام ، غضباً وحنقاً ! حتى اذا هبط الليل بقيت فى ظلام دامس لأننى لا أملك ما استضىء به . كنت أؤثر أن أبقى فى ذلك الظلام الحالك على أن أعمل فى سبيل أن أتمكن من شراء شموع . وبت كتبت بدلاً من أن أدرس . ودفاترى على المائدة غطتها طبقة من الغبار سُمكها سُمك اصبع . وما يزال هذا الغبار موجوداً الى الآن . كنت أؤثر أن أبقى راقداً أفكر وأتأمل . كنت لا أزيد على أن أفكر وأن استرسل فى الأحلام . لا داعى الى القول ان تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة ، وكانت متغيرة متقلبة متحولة ! ولكن بدأ يبدو لى عندئذ أن ... لا ، لا ، ليس هذا هو الأمر ! اننى لا أحكى الأشياء كما

حدثت • الواقع أنني كنت لا أنفك أتساءل حينذاك ، لعلمي بأن الناس أغبياء ، لماذا انا غبي مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم ؟ وادركت بعد ذلك ، يا صونيا ، أنه اذا وجب انتظار اللحظة التي يصبح فيها الناس أذكى ، فلا بد من اضاعة وقت طويل • ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً ، فالناس لن يتغيروا فى يوم من الأيام ، وما من أحد يملك أن يغيرهم ، فلا داعى الى اضاعة الوقت فى محاولة ذلك • نعم ، تلك هى حالهم ، وذلك هو قانونهم ••• نعم ••• القانون يا صونيا ، القانون ••• وانى لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوى النفس والعقل ، فذلك هو سيدهم ، ذلك هو مولاهم ! من كان يملك جرأة كبيرة ، فذلك هو الذى له الغلبة عليهم ! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره ، فذلك هو عندهم المشرع ! من كان يتمتع بأكبر جسادة ، فذلك هو الذى يهبون له جميع الحقوق ! هذا ما كان من قديم الزمان ، وهذا ما سيبقى الى آخر الدهر ! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة !

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا ، رغم أنه كان لا ينفك ينظر اليها أثناء كلامه • لقد استولت عليه الحمى • وكان يجتاحه نوع من اهتياج مظلم قائم (حقاً ، انه لم يتحدث الى اى انسان منذ مدة طويلة) • وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة كانت ايمانه وكانت قانونه •

وتابع راسكولنيكوف يقول بحماسة :

— لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب الا لمن يجرو أن يطاطىء ليتناولها • تكفى الجرأة : الجرأة كل شئ ! ووافقتى عندئذ ، لأول مرة فى حياتى ، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن فى يوم من الأيام ! لقد بدا لى واضحاً وضوح النهار ، على حين فجأة ، أنه ما من أحد قد تجرأ ، حين رأى بطلان العالم ، أن يمسك الشيطان

من ذيله ببساطة ، فيرسله الى جهنم ! أما أنا ، أما أنا *** فقد أردت أن أجرو ، فقتلت ! اننى حين قتلت لم أرد يا صونيا الا أن أجرو ! ذلك هو السبب الذى جعلنى أقتل !

صاحت صونيا تقول له متوسلةً وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

— اسكت ، اسكت ! لقد ابتعدت عن الله ، فضربك الله ، وأسلمك لأبليس ***

— قولى لى يا صونيا : حين كنت أبقي راقداً فى ظلام غرفتى اجتر أنواع الحواطر والأفكار ، فهل كان ابليس هو الذى يغوينى حينذاك ! قولى !

— اسكت ! لا تضحك أيها المجدف ! انك لا تفهم شيئاً ، لا تفهم شيئاً ! رباه ! انه لا يفهم شيئاً !

— اسكتى يا صونيا ، أنا لا أضحك البتة • أنا نفسى اعلم ان ابليس هو الذى كان يجرنى ***

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردّد بالحاح حزين :

— اسكتى يا صونيا ، اسكتى ! أنا أعلم كل شيء ! لقد همست لنفسى بهذا كله أثناء اضطجاعى فى الظلام *** لقد ناقشت هذا كله فى قرارة نفسى قبل الآن بأدق التفاصيل ! أنا أعلم كل شيء ، كل شيء ! وهذه الثروة قد بلغت من اتراعى نفسى بالسأم والضجر أننى أردت أن أئسى ، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا ، وأن أكف عن الثروة • هل تظنين حقاً أننى قد اندفعت الى ذلك الأمر منكس الرأس كائسان أبله ؟ ان العقل هو الذى كان يقودنى ، وذلك بعينه هو ما ضيعنى ! هل يمكن حقاً أن تظنى أننى كنت أجهل مثلاً أن مجرد القاتلى هذا

السؤال : « هل لي حق في السلطة أم لا ؟ » كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق ؟ أو هل تظنين أنني كنت أجهل أن القائي هذا السؤال : « هل الإنسان قملة ؟ » إنما يعني في الواقع أن الإنسان ليس قملة في نظري ، وأنه ليس قملة إلا في نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقي على نفسه ذلك السؤال ، وإنما هو يمضي الى هدفه قدماً لا يلوي على شيء ؟ لئن ظلمت أعدب نفسي طوال تلك الأيام كلها بالسؤال عن نابوليون أكان يقتل العجوز أم لا ، فإن معنى ذلك أنني كنت أشعر شعوراً واضحاً بأنني لست نابوليون . ذلك هو العذاب الذي عانيته يا صونيا ، والذي أردت أن أتخلص منه دفعةً واحدة . لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية ، أردت أن أقتل لنفسي ، لنفسي أنا وحدي ! أنني حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسي : أنني لم أقتل في سبيل أن أساعد أُمي ! لا ! لا ولا في سبيل أن أصبح محسناً الى الإنسانية بعد أن أملك وسائل الاحسان إليها . لا ، وإنما أنا قتلت لنفسي ، لنفسي وحدي ! وفي تلك اللحظة لم يكن بعينى كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين الى الإنسانية ، أم أنني سوف أقضي حياتي كالمنكبوت أصداد غيري في نسيج خيوطي وامتنص قواه الحية ! لا ولا كان المال هو ما أحتاج اليه ذلك الاحتياج كله وإنما كان احتياجي الى شيء آخر أنا أعرف هذا الآن ! افهمي عني يا صونيا : لو كان عليّ أن أعيد السير في هذا الطريق نفسه ، فقد لا أقتل . غير أن هناك شيئاً كان يغربني بمعرفته . كان هناك شيء يرفع ذراعي . كان عليّ أن أعرف عندئذ ، بأقصى سرعة ممكنة ، أأنا قملة كسائر الناس ، أم أنا رجل ؟ أأنا أستطيع أن أخطئ الحاجز ، أم أنا لن أستطيع ذلك ؟ أأنا أجرو أن أطايط فأتناول هذه القدرة ، أم أنا لن أجرو ؟ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك « الحق »

— الحق في القتل ؟ تملك الحق في القتل ؟

كذلك قالت صونيا وهي تضم يديها احدهما الى الأخرى •
صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يجيب :
— هيه ! صونيا ***

ولكنه عدل عن ذلك ، ولزم صمتاً فيه احتقار • ثم أردف يقول :

— لا تقاطعيني يا صونيا ! لقد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد : هو أن ابليس قد جرّني في أول الأمر ، ثم لم يفهمني الا بعد ذلك أنتى لم يكن من حقي أن اقترف الفعل الذي اقترفته ، لأننى أنا نفسى قملة كسائر الناس • لقد سخر منى واستهزأ بى ، ولهذا السبب انما جئت اليك الآن ، فأحسنى وفادة ضيفك يا صونيا ! أكنت أجيء اليك لولا أنتى قملة ؟ اسمعى : اننى حين ذهبت الى العجوز لم أكن أريد الا أن « أحاول تجربة » *** فاعلمى هذا !

— وقتلت !

— لكن كيف قتلت ؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل ؟ سأروى لك في ذات يوم كيف ذهبت الى هناك • هل العجوز قتلت ؟ لا بل أنا قتلت نفسى ! لقد أجهزت على نفسى ، دفعة واحدة ، والى الأبد ! أما العجوز فان ابليس هو الذى قتلها لا أنا !

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأةً وقد أصبح فريسة قلق لا يغالِب :

— كفى كفى يا صونيا ، دعيني ! دعيني !

ووضع كوعيه على ركبتيه ، وشدّ رأسه بين يديه ككماشة •

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم ، فأفلت من لسانها قولها :

- ما أشدَّ ألمك وعذابك !

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس :

- وما العمل الآن ؟ قولى ...

صاحت وهى تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأة بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممثلتين بالدموع :

- ما العمل ؟

ثم أضافت وهى تمسكة من كتفه ، فينهض هو من مكانه وينظر إليها بما يشبه الدهول دهشة :

- اذهب فوراً ، فى هذه اللحظة نفسها ، اذهب الى مفرق طرق ، فاسجد على الأرض من جديد ، واتجه الى جهات العالم الأربع جهة بعد جهة ، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك : « لقد قتلت ! » • عندئذ سيردُ اليك الاله الحياة • أتذهب ؟ أتذهب ؟

كذلك سأله مرتعشة من رأسها الى قدميها ، كأن نوبة عصية قد ألّت بها • وأمسكت يديه ، فضغطتهما يديها ضغطاً قوياً ، وتأمّلته بنظرة حارة •

ذهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة • وسألها مكفهر الوجه :

- أتريدى اذن أن أذهب الى المعتقل يا صونيا ؟ يجب أن أشى بنفسى ، أليس كذلك ؟

— الشيء الذى يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتكفر عن خطيئتك
وتفدى نفسك • ذلك هو ما يجب !
— لا ، لن اذهب اليهم يا صونيا !
صاحت صونيا تسأله :

— فكيف يكون فى وسعك أن تحيا اذن ؟ كيف يكون فى وسعك
أن تحيا ؟ أما يزال هذا ممكناً ؟ عجيب ! كيف يكون فى إمكانك أن تظل
تكلم أمك ؟ آه ... ما عسى تصيران اليه ؟ ما عسى تصيران اليه كلتاهما ؟
ولكن ماذا أقول ؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر ! لقد تركتهما ،
تركتهما ! آه ... يا رب ! اذن أنت تدرك هذا كله بنفسك ! كيف ،
نعم ، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر ؟ ما عسى تصير اليه الآن ؟
قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق :

— لا تكونى طفلةً يا صونيا ! ما ذنبى فى حقهم ؟ لماذا أثنى بنفسى
اليهم ؟ ما عسانى قائلاً لهم ؟ ليس هذا كله الا سراياً ... هم أنفسهم
يقتلون ملايين البشر ، ثم يستمدون من ذلك مجداً ! هم أوغاد وجبناء
يا صونيا ! لا ، لن اذهب ! ثم ماذا أقول لهم ؟ أقول لهم اننى قتلت
لكننى لم أجرؤ أن آخذ المال وانما خبأته تحت صخرة ؟ (كذلك أضاف
يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة) • ولكنهم سيضحكون عندئذ على ،
وسعدونى رجلاً أبله ، لأننى لم أجن من فعلتى نفعاً ... سيعدونى
أبله وجباناً ! لن يفهموا شيئاً يا صونيا ، لن يفهموا شيئاً ، انهم غير
جديرين بأن يفهموا شيئاً ... فلماذا اذهب اليهم فأسلمهم نفسى ؟ لا ،
لن اذهب ! لا تكونى طفلة يا صونيا !

قالت صونيا مرددةً متوسلةً مادةً نحوه يديها :

— لن تكون حياتك بعد الآن الا عذاباً متصلاً طويلاً ، عذاباً متصلاً طويلاً !

قال راسكولنيكوف قائم الوجه شارد الذهن :

— لعلنى اتهمت نفسى بما ليس فيها • لعلنى ما زلت رجلاً لا قملة •
لعلنى تسرعت فى اتهام نفسى •• سوف أكافح « مزيداً » من الكفاح •••
وظهرت على شفتيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء •
قالت صونيا :

— أتحمل ثقلًا كهذا الثقل ؟ طوال حياتك ، طوال حياتك ؟
فأجابها راسكولنيكوف كالبحر الهيثم شارد اللب :

— سوف أعتاد ذلك !

ثم أضاف يقول بعد دقيقة :

— اسمعى ! كفى بكاءً ! أن لى أن أصل من هذا كله الى أن أذكر
لك الواقع • لقد جئت أقول لك الواقع • لقد جئت لأقول لك اننى
ملاحق ، اننى مطارَد !

صرخت صونيا مروّعة :

— آه •••

فقال لها راسكولنيكوف :

— لماذا تصرخين ؟ ألم تريدى أنت نفسك أن أذهب الى المعتقل ؟
فما بالك تخافين الآن ؟ على أننى لن استسلم لهم ، لن أدع لهم أن يقبضوا
على ! سأظل أقارعهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بى شيئاً ! انهم



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساقوفا

لا يملكون قرائن واقعية • لقد تعرضت أمس لخطر كبير ، فحسبت أنني هلكت • ولكن يبدو أن الأمور قد سُوِّيت اليوم • ان كل دليل من أدلتهم ذو حدَّين • أعنى أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فأجعله لى لا على ، هل تفهمين ؟ وسأفعل ذلك ••• لأننى أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم ! لكنهم سيسجنوننى حتماً ! ولولا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعوني فى السجن منذ اليوم ؟ وما يزال من الجائز جداً أن أُسجن بسرعة • ولكن لا ضير يا صونيا ! سأقضى فى السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحي ••• لأنهم لا يملكون ولن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً ، أوكد لك ذلك ! ان الأدلة التى يملكونها لا تكفى لأن « تُلطخ » انساناً ! ولكن كفى كلاماً الآن ! انا انما قلت لك هذا كله لا لشيء الا أن تعلمى ••• أما أمى وأختى فسأحاول بطريقة أو بأخرى أن أهديء روعيهما وأن أطمئنهما • ان اختى تبدو الآن فى منجى من الفاقة والعوز ، وكذلك أمى اذن ••• هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك • ثم عليك بالحدز ! هل تزوريننى حين أودع فى السجن ؟

— سوف أزورك ، سوف أزورك !

كانا جالسين احدهما الى جانب الآخر، حزينين مهدَّمين ، كغريقين وجد كل منهما صاحبه على شاطئ مفقر بعد عاصفة • كان راسكولنيكوف ينظر الى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحُب الذى تغمره به • ومن الغريب أنه شقَّ على نفسه بل آلم نفسه فجأةً أن يحس بأنه محبوب الى هذا الحد •

حين ذهب الى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد ، وبأنها ملاذه الوحيد • وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل • ولكن ها هو ذا الآن يحس أنه أشقى مما كان من قبل • قال :

— صونيا ، الأفضل أن لا تجيئي الىَّ فى السجن •

لم تجب صونيا ، وكانت تبكى • وانقضت بضع دقائق • فاذا هى تسأله على غير توقع ، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بغتة :

— هل معك صليب ؟

فلم يفهم السؤال فى أول الأمر •

قالت :

— لا ، ليس معك صليب ، أليس كذلك ؟ خذ ، اليك هذا الصليب ، انه من خشب السرو • معى صليب آخر ، صليب من نحاس ، بقى لى من اليزابت • لقد قمنا بمبادلة ، أنا واليزابت : أعطتني صليها ، وأعطيها أنا مداليتي الصغيرة • سأحمل الآن صليب اليزابت ، وستحمل أنت هذا الصليب • خذه •• انه صليبي أنا ! صليبي أنا ! سنتألم معاً ، فلنحمل اذن صليينا معاً !

قال راسكولنيكوف :

— هاتى !

ولكنه لم يلبث أن سحب يده •

ثم أضاف يقول ليهدئها :

— لا الآن يا صونيا ! فيما بعد ! ذلك أفضل !

فقالت صونيا تردد بحماسة :

— نعم ، نعم ، ذلك أفضل ، ذلك أفضل ! سوف تحمل الصليب حين تسافر للتكفير • تجيئ الىَّ ، فأضع الصليب فى عنقك ، ونصلى معاً ، ونسافر معاً •••

فى تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات * ونادى صوت مهذب
مألوف يسأل :

— هل أستطيع أن أدخل يا صوفيا سيميونوفنا ؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مدعورة * وظهر فى فرجة الباب وجه
لينز ياتيكوف المضحك *

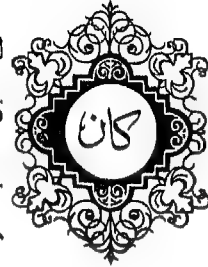
الفصل الخامس

ليزياتنيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة •

قال يكلم صونيا :

- جئت لأراك يا صوفيا سيميونوفنا •

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة :



- معذرة • كنتُ أتوقع أن أجذك هنا • أقصد لم يخطر ببالى شيء

♦♦♦ مما قد تظن ، وإنما أنا قدّرت أن ♦♦♦

وعاد يكلم صونيا فقال دفعة واحدة :

- جئتُ كاترين ايفانوفنا !

اطلقت صونيا صرخة • وتابع ليزياتنيكوف كلامه :

- أو على الأقل ذلك ما يبدو • أصبحنا هناك لا ندرى ماذا يجب أن نعمل • أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذى ذهبت اليه ، ولعلهم ضربوها أيضاً ♦♦♦ أو على الأقل ذلك ما يبدو ♦♦♦ لقد ركضت تسعى الى رئيس سيميون زاخارتش * ، فلم تجده فى بيته : كان يتقذى عند جنرال آخر ما • فذهبت الى هناك ، الى حيث كان يتقذى ♦♦ تصوروا ♦♦ ذهبت الى بيت ذلك الجنرال الآخر ♦♦ هل تصدقون هذا ؟ واستطاعت أن تستدعى رئيس سيميون زاخارتش • نعم ، اضطرته أن ينهض عن

المائدة ، أو على الأقل ذلك ما يبدو . وفى وسعكم أن تتخللوا التهمة !
 لقد طُردت طبعاً ، لكنها تروى أنها شتمته وأنها رشقته بشئ على
 رأسه . ذلك جائز جداً . حتى اننى استغرب أنهم لم يقتلوا . وهى
 الآن تروى هذه القصة لكل من يريدون أن يسمعوها ، ومنهم آماليا
 ايفانوفنا . غير أن من الصعب أن يفهم المرء عنها ، من فرط صراخها
 وتخطيها ! .. آه .. نعم .. هى تقول .. هى تصيح قائلةً انها ما دامت
 قد هجرها جميع الناس ، فستأخذ أولادها ، وستمضى فى الشارع تعزف
 على أرغن بارباريا ، وان أولادها سيفنون ويرقصون ، وانها ستغنى
 وترقص هى أيضاً ، وانهم سيستعطون الصدقات من المارة ، وانها ستقود
 الأولاد كل يوم الى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته ، وهكذا
 « سيعرف الجنرال ، على حد تعبيرها ، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف
 محترم يستجدون أكف الناس فى الشوارع » . وهى تضرب جميع
 أولادها ، والأولاد يكون . انها تعلم لينا أغنية « القرية الصغيرة » ،
 وتعلم الصبى الصغير الرقص ، وكذلك تعلم الرقص باولين ميخائيلوفنا* .
 ولقد مزقت جميع ملابسهم ، وأخذت تخطط لهم طاقات من طاقات
 المهرجين . انها تريد أن تحمل طشتاً تنقر عليه كما تنقر على آلة
 موسيقية . وهى ترفض أن تسمع شيئاً .. تصوروا ! هل يمكن أن
 تركها تفعل هذا !

كان يمكن أن يستمر ليزياتيكوف فى الكلام ، ولكن صوتها التى
 أوصفت اليه وهى تتنفس بمشقة كبيرة قد تناولت خمارها وقبعتها فجأة ،
 واندفعت الى خارج الغرفة تنهى ارتداء ثيابها فى الطريق . وخرج
 راسكولنيكوف وراءها ، وخرج ليزياتيكوف وراء راسكولنيكوف .
 قال ليزياتيكوف لراسكولنيكوف منذ أصبحا فى الشارع :

- لا شك في أنها فقدت عقلها • لم أشأ أن أروّع صوفيا سيميونوفنا ، لذلك قلت : « ذلك ما يبدو » ، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أى شك في أنها فقدت عقلها • يقال ان هناك درنات تنشأ في أدمغة المصابين بمرض السل ، فتورثهم هذا الجنون ! خسارة أنتي لا أعرف الطب • على أبني حاولت اقناعها ، لكنها لا تريد أن تسمع شيئاً !

- كلمتها عن الدرنات ؟

- لا عن الدرنات تماماً ، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها • لكننى أقول اتنا اذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعى الى البكاء ، فان هذا الشخص سيكف عن البكاء فوراً • هذا واضح • ماذا ؟ أليس من رأيك أنه سيكف عن البكاء ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- ما أسهل الحياة اذا صدق قولك !

- اسمح لى ، اسمح لى ! صحيح أن كاترين ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا • ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت في باريس عن امكان شفاء المجانين بواسطة الاقناع المنطقى وحده ؟ ان أستاذاً من الأساتذة هناك ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، وهو عالم من اكبر العلماء * ، قد رأى ان فى الامكان شفاء المجانين بهذه الطريقة • والفكرة الأساسية التى جاء بها هى أن المجانين ليس فيهم أية آفة عضوية ، فانما الجنون ضلال منطقى ان صح التعبير ، أى خطأ فى الحكم أو فساد فى الرأى • لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج ، فاذا هو ينجح فى شفائه شيئاً بعد شىء • ولكن لا بد لنا أن نتعرف بأن نتائج المعالجة

يمكن أن تكون موضع أخذ ورد ، ما دام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات « دوش » ، أو ذلك ما يبدو على الأقل ...

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الاصغاء منذ مدة . فلما وصل أمام المنزل الذى فيه بيته ، حيّاً ليزياتنيكوف بإشارة من رأسه ، وانعطف يدخل بوابة المنزل . فتحسّر ليزياتنيكوف ، ونظر حواليه ، ثم تابع طريقه .

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحقيقى ، وهناك وقف يتساءل : « لماذا جئت ؟ » . وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذى يغطى الجدران ، وعلى الغبار الذى يغطى كل مكان ، وعلى سريره . وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل ، كأن أحداً كان يغرس مسامير .

مضى راسكولنيكوف الى النافذة ، وارتفع على رموس أصابع قدميه ، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة . ولكن الفناء كان خالياً مقفراً ، وليس يرى المرء أحداً يغرس مسامير . وعلى اليسار ، فى جناح آخر ، كان ثمة نوافذ مفتوحة ، تُرى على أفاريزها أصص أزهار ، ويُرى من خلالها غسيل منشور فى الداخل على حبال ... لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب . فأشاح عنه ، وعاد يجلس على سريره .

انه لم يشعر فى يوم من الأيام ، فى يوم من الأيام ، بأنه وحيد الى هذا الحد من الوحدة . نعم ، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا ، لا لشيء الا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء . تساءل : « لماذا ذهبت أستجديها صدقة من دموعها ؟ ما كانت حاجتى الى تسميم حياتها ؟ يا للجن ! يا للحقارة ! » .

وقال فجأةً بلهجة جازمة : « سأبقى وحيداً . ولن تأتى لترانى فى السجن ! » .

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه ، وابتسم ابتسامة غريبة • لقد وافته فكرة لم تكن في الحسبان • قال يسأل نفسه : « أليس من الجائز أن تكون حالي في المعتقل أفضل حقاً ؟ » •

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدة التي قضاها في مسكنه يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والحواطر الغامضة • ولكنه يعرف أن الباب فُتح فجأةً ، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا •

توقفت آفدوتيا رومانوفنا في أول الأمر وتأملت واقفةً في العتبة ، كما تأمل هو صونيا منذ قليل • ثم تقدمت وجلست على كرسي أمامه في مكان الأمس نفسه ؛ وأخذ يتأملها صامتاً بنظرة شرهة تلتهمها التهاماً • قالت دونيا :

— لا تزعل يا أخي ، أنا ما جئت الا لدقيقة !

كان في وجهها وقار ورسانة ، ولكن بغير تجهم أو قسوة • وكانت نظرتها رائقة صافية ، وادعة هادئة • فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت اليه هي أيضاً بحب •

وتابعت الأخت كلامها فقالت :

— روديا ، أنا أعلم الآن كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ! لقد روى لي دمتری بروكوفتش كل شيء ، وشرح لي كل شيء ! انهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة • لقد قال لي دمتری بروكوفتش انك غير معرض لأي خطر ، وقال انك تخطيء اذ تضعم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة • ولست أشاطره رأيه ، فأنا أفهم حق الفهم أن يشير هذا تمردك ، وأن يختلف هذا التمرد آثاراً في حياتك

كلها • وذلك ما أخشاه حقاً • ولست أحكم على أنك تركتنا ، ولا أجرؤ
أن أحكم ، فأرجوك أن تغفر لى ما وجهته اليك من لوم • أنا أشعر بأننى
لو أصابنى حزن كحزنك لابتعدت عن جميع الناس كما تبتعد عنهم
أنت • لن أقصّ « هذا الأمر » على أمنا ، لكننى لن أنفك أحدثها عنك ،
وسأقول لها على لسانك انك لن تتأخر عن العودة إلينا • لا تقلق عليها ،
سوف أتولى أنا تهديتها وطمأنتها • ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها :
زرها ولو مرة واحدة ، تذكر أنها أمك • ولقد جئت الآن لأقول لك
(هنا نهضت دونيا) : اذا احتجت الىّ فى أى أمر من الأمور ، فتصرف
فى حياتى ••• نادنى فأجىء ! استودعك الله !

قالت دونيا ذلك ، ثم استدارت واتجهت نحو الباب •

قال راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها :

— دونيا ! ان رازوميخين هذا ، ان دمترى بروكوفتش رازوميخين
شاب ممتاز !

احمر وجه دونيا قليلاً • وسألته بعد دقيقة :

— وبعد ؟

— وبعد ، هو فتى نشيط مجتهد شريف ، قادر على أن يحب حباً
قوياً ، حباً صادقاً ••• استودعك الله يا دونيا !

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً ، ثم قالت وقد تنبّهت الى
الخطر فجأة :

— ولكن لماذا توصى به هذه التوصيات كلها ؟ أترانا نفترق الى
الابد ؟

— لا قيمة لهذا ••• استودعك الله !•••

قال ذلك ، وابتعد عنها ، ومضى الى النافذة . فانتظرت لحظة ، ونظرت اليه قلقه ، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌ وخوفٌ .

لا ، انه لم يشعر نحوها ببرودة في العاطفة ، حتى انه في لحظة من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها « كل شيء » ، مودعاً اياها ، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمدّ اليها يده ، وأضاف يحدث نفسه قائلاً : « في المستقبل ، قد ترمش حين تذكر اننى احتضنتها بذراعى ، وقد تقول لنفسها اننى سرق منها قبلتها » وأضاف يتساءل بعد بضع لحظات : « ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف ؟ لا ، لن تستطيع أن تحتمله . هي من أولئك اللواتى لا يمكنهن أن يحتملن مثل هذه الأشياء » .

وفكّر في صونيا .

وكان هواء طرى يهب من النافذة . وفي الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه . فتناول راسكولنيكوف قبعته فجأة وخرج .

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية ، لا ولا يريد أن يعبأ بها . ولكن جميع تلك الانذارات المتصلة وجميع تلك الأحوال النفسية ، كان لا بد أن يكون لها آثار . ولئن لم تصرعه الحمى حتى الآن ، فلعل مردّ ذلك أن القلق المستمر كان يجعله في حالة تنبه وتيقظ ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً .

لبث يضرب في الأرض على غير هدى . أخذت الشمس تغرب . انه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً . لم يكن في ذلك الحزن شيء من حدة ، وانما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدي ، نوع من تنبؤ بجميع السنين التى سوف يقضيها في غمٍ بارد كالصقيع ، غمٍ قاتل هو

شئ كالأبدية على مساحة من الأرض ليست أكبر من « موطىء قدم » •
كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الاحساس أقوى ما يكون عند هبوط
الليل خاصة •

دمدم يقول متذمراً : « هيّا امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات
ان استطعت وأنت تعاني من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفة لدى
غروب شمس ! ان فى الامكان أن تقودك هذه الحالة لا الى الاعتراف
لصوتها فقط ، بل الاعتراف لدونيا أيضاً ! » •

وسمع أحداً يناديه ، فالتفت ، فاذا ليزياتنيكوف يهرع اليه •
قال ليزياتنيكوف :

- اننى آت من عندك ! لقد كنت أبحث عنك ! تخيل أنها وضعت
مشروعها موضع التنفيذ مقتادةً أولادها ! وقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا
كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم ! انها تنقر على مقلاة ، وتجبر
الأولاد أن يغنوا ويرقصوا • والأولاد يبكون • انهم يتوقعون عند مفارق
الطرق وأمام الدكاكين ، ووراءهم يجرى جمهور كبير غبى • تعال !
سأله راسكولنيكوف قلقاً وهو يجرى وراءه :

- وصونيا ؟

- فقدت عقلها • لا أقصد أن صوفيا سيميونوفنا هى التى فقدت
عقلها بل كاترين ايفانوفنا • وصوفيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال •
ولكن كاترين ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً • نعم ، لقد جئت جنوناً
كاملاً نهائياً • ستُقاد مع الأولاد الى الشرطة • هأنت ذا ترى الأثر
الذى سوف يحدثه هذا • هم الآن على رصيف النهر ، قرب جسر
س • • • بعيد عن مسكن صوفيا سيميونوفنا ، على مسافة خطوتين
من هنا •

على الرصيف ، غير بعيد عن الجسر ، قبل منزل صونيا بعماريتين ، كانت تحتشد جمهرة من الناس فعلاً ، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبناتٍ يقفزون ويثبون .

ان صوت كاترين ايفانوفنا الأبحّ يُسمع حتى من الجسر . مشهد غريب فعلاً ، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذين يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء !

كانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوبها العتيق وشالها المصنوع من الجوخ ، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحت وتشوهت . وكانت في حالة جنون مطلق حقاً ، وكانت تلهث منهوكة مهدودة القوى . وكان وجهها ، الشاحب الهزيل من مرض السل ، يعبر عن ألم أقوى من الألم الذى يعبر عنه هذا الوجه عادةً (ان المصدورين يبدون فى ضوء الشارع أشد مرضاً مما يبدون مرضى فى منازلهم) . وكان احتياجها لا يهدأ ، بل يقوى ويستمر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة . فهى تندفع نحو أولادها ، فتصفهم وتقرّعهم وتعلّمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغي لهم أن يرقصوا وأن يغنوا وتشرح لهم ضرورة ذلك ، حتى اذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضربهم ؛ ثم هى تهرع الى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه . فاذا لحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدى ثياباً لائقة بعض الشيء ، أسرعت تشرح له الحالة التى آل اليها « أولاد أسرة نبيلة ، بل أسرة ارسقراطية » . واذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوحيين فوراً وأخذت تشاجرهم . وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رءوسهم ، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من الاستطلاع والفضول الى المرأة المجنونة وأولادها المروّعين . والمقلاة التى تكلم عنها ليزباتنيكوف لم تكن موجودة ، أو ان راسكولنيكوف لم يرها على الأقل ،

لكن كاترين ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صفقاً
 يديها الياسيتين ، محجرةً كولييا ولينيا على الرقص بينما تغنى باولين •
 وكانت تحاول فى الوقت نفسه أن تغنى هى أيضاً ، ولكن نوبة رهبة
 من السعال ما تلبث أن تقطع غناها ، فتحزن عندئذ حزناً شديداً ، وتأخذ
 تشتم المرض وتلعنه ، حتى لتبكي حسرة ولوعة • والشئ الذى كان
 يثير حقها خاصةً انما هو بكاء كولييا ولينيا وذعرهما • وكانت كاترين
 ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغنى الشوارع •
 فأما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطةً مع قطعة من
 قماش أحمر فكأنها طربوش وعمامة مما يضعه على رؤوسهم الأتراك •
 وأما لينا فان كاترين ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً
 حقيقياً من ثياب مغنى الشوارع ، قد اقتصرت على أن ألبت رأسها
 قلنسوةً منسوجةً بالابرة من صوف أحمر (بل قل طاقة المرحوم
 سيمون زاخارتش نفسها) ، وغرست فى القلنسوة بقية ريشة من ريش
 النعام الأبيض كانت تملكها فى الماضى جدة كاترين ايفانوفنا ، وكانت
 كاترين ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين فى صندوق أثراً من تراث
 الأسرة • وأما بولييا فهى ترتدى ثوبها الذى كانت ترتديه كل يوم ،
 وتدرك أن أمها قد جنت فتتظر اليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن ،
 ولا تبعد عنها شبراً واحداً ، مخفيةً دموعها ، ملقيةً على ما حولها نظرات
 قلقة • كان الشارع والجمهور يبان فى نفسها رعباً هائلاً •

كانت صونيا تسير وراء كاترين ايفانوفنا باكية ، وما تنفك تضرع
 اليها فى كل دقيقة أن ترجع الى البيت • ولكن كاترين ايفانوفنا لا تنسى
 عن عزمها ، ولا تلين قناتها ، فهى تقول لصونيا صارخةً بصوت متعجل
 وهى تسعل وتلهث :

- اتركينى يا صونيا ، اتركينى ! أنت نفسك لا تدرين ماذا تطلين

منى ! أنت طفلة ، أنت طفلة ! قلت لك اننى لن أرجع الى تلك الألمانية
 المسكينة ! ألا فيعلم جميع الناس بطرسبرج كيف صار الى استجداء
 الأكف أولادُ أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف ،
 حتى ليتمكن أن يقال انه مات أثناء أداء واجب وظيفته (لقد أفلحت
 كاترين ايفانوفنا فى أن تخلق لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به ايماناً
 أعمى) ! ألا فليرَ ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا ، ألا فليرَ ! أنت حقاً
 يا صونيا ! ما عسانا نفعل الآن من أجل أن نأكل ؟ لقد استغللتناك
 واستثمرناك بما فيه الكفاية ! لا أريد هذا بعد الآن !... روديون
 رومانوفتش ؟ أهذا أنت ؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف ،
 فهرعت اليه) أرجوك أن تفهم هذه الحقائق الصغيرة أننا لم يبق لنا أن
 نفعل شيئاً غير هذا ! ان العازفين على أرغن بارباريا يتوصلون الى جنى
 رزقهم ، ونحن سوف نعرفنا جميع الناس ، وسوف يرى جميع الناس
 أننا أسرة نبيلة مهجورة بائسة ، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه ،
 لترين هذا ! سنذهب كل يوم الى تحت نوافذه ، حتى اذا مر
 الامبراطور جثوث عند قدميه ، ودفعت هؤلاء الى أمام ليراهم ، وهتفت
 أقول له : « احمهم يا أبانا ! » + انه أبو اليتامى ، انه رحيب ... سوف
 يحبيهم ، لترين أنه سوف يحبيهم ! أما ذلك الجنرال التافه فسوف ...
 « لينيا ، انصبى قامتك » * ! وأنت يا كولييا ! ارقص من جديد ! ما لك
 تبكى ! انه ما يزال يبكى ! عجيب ! مم أنت خائف أيها الأحق الصغير ؟
 ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش ؟ ليتك تعلم مدى غباوتهم
 وبلاطتهم ! ما عسانى صائغةً بأولاد كهؤلاء الأولاد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكى
 هى نفسها (دون أن يوقف هذا سيلَ كلامها المتدفق الذى لا ينضب)
 وهى تريه الأولاد الذين كانوا سيكون *

حاول راسكولنيكوف أن يقنعها بأن عليها أن ترجع الى البيت ،
وقدّر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال
لها انها لا يليق بها أن تتجول فى الشوارع تجول العازفين على أرغن
بارباريا على حين أنها تتوق الى انشاء مدرسة داخلية للفتيات النبيلات !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقهة :

— مدرسة داخلية ! ها ها ها !! اسمعوا هذا الكلام !!

وأعقبت ضحكتها نوبةٌ سعال * ثم تابعت كلامها فقالت :

— لا يا روديون رومانوفتش ! هذا الحلم قد تبدد ! لقد هجرنا
جميع الناس ! وهذا الجرنال التافه ... هل تعلم يا روديون رومانوفتش
أننى ريمته بمحبرة على وجهه ، هى المحبرة التى كانت توجد فى حجرة
المدخل على المنضدة قرب الورقة التى يسجّل فيها الزوار أسماءهم ؟ لقد
سجلت اسمى انا أيضاً ، ثم ريمته بالمحبرة ووليت هاربة ! آه ! يا للجنّاء!
يا للحقراء ! ولكننى أصبحت الآن لا أهتم ... فسوف أجنى لهم رزقهم
بنفسى ، سوف أجنى للأولاد رزقهم بنفسى * لن أطايط رأسى لأحد !
لقد عذبتها بما فيه الكفاية (كانت كاترين ايفانوفنا تقصد صونيا) *
يا بوليتشكا ، كم جمعنا الى الآن ؟ أرينى ! كيف ؟ ألم نجتمع الا كوبكين
فقط ؟ آه ... يا للأوغاد ! انهم لا يعطوننا شيئاً ! انهم لا يزيدون على أن
يركضوا وراءنا مادّين لنا ألسنتهم استهزاءً ! انظر الى هذا المعتوه مثلاً :
ممّ تراه يضحك ؟ (وأومأت الى واحد فى الجمهور) ذلك كله سببه
كوليا ! فلأن كوليا غبى هذا الغباء كله انما يسخر منا الناس جميعاً ! مالك
يا بوليتشكا ؟ كلمينى بالفرنسية ! « كلمينى بالفرنسية ! » ! عجيب !
ألم أعلّمك الفرنسية ؟ ... انك تعرفين بضع جمل ... أننى لهم أن
يعرفوا أنكم تنتمون الى أسرة نبيلة وأنكم قد نشئتم تنشئة طيبة فلا شأن

لكم بغيركم من العازفين على أرغن بارباريا ، أنى لهم أن يعرفوا ذلك اذا لم تكلمينى باللغة الفرنسية يا بوليتشكا ؟ نحن لا نشد فى الشوارع أغاني مبتذلة ، وانما نحن نغنى أغنيات راقية ! ها ... نعم ... ما الذى سوف نغنيه الآن ؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا ، ونحن ... اسمع يا روديون رومانوفتش ، لقد توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذى سنغنيه : يجب أن نغنى شيئاً يكون فى وسع كوليا أن يرافقه برقصة ، ذلك أننا ، كما نستطيع أن تقدّر ، قد أخذنا على غير تهيو أو استعداد • ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور • وبعد ذلك سوف نذهب الى شارع نفسكى ، حيث يكثر الناس الذين ينتمون الى المجتمع الراقى فسرعان ما يلاحظوننا • ان لدينا لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » ، لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » وحدها ! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشار ! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى • فماذا يا بوليا ؟ هل عندك فكرة ؟ ليتك تستطيعين ، أنت على الأقل ، أن تساعدى أمك ! آه من الذاكرة ! ان الذاكرة هى التى تعوزنى ، ولولا ذلك لجرت الأمور من تلقاء ذاتها ، لولا ذلك لتذكرت ! لن نغنى مع ذلك أغنية « الفارس المتكىء على سيفه » ! * الأولى أن نغنى بالفرنسية أغنية « خمسة قروش » • لقد علمتكم اياها ، تلك الأغنية ! ثم ان الناس سرعان ما يدركون ، لأننا سوف نغنى بالفرنسية ، أنكم أولاد أسرة كريهة الأصل ، فيؤثر ذلك فى نفوسهم تأثيراً أكبر ! حتى ان فى وسعنا أن نغنى أغنية « مالبرو مسافر الى الحرب » ، لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم ، نعم للأطفال وحدهم ، تستعمل فى جميع البيوت الارستقراطية لنوم الأطفال •

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وأخذت تغنى :

مالبرو مسافر للحرب

لا يدرى متى يعود ...

ثم استدركت تقول : بل الأفضل أن نغنى « خمسة قروش »
يا كوليا ، ضع يدك على خصرىك ! أسرع ! وأنت يا لينا ، استديرى
فى اتجاه معاكس ! وسوف أرافقكما أنا وبوليا يصفق الأيدى :

خمسة قروش ، خمسة قروش

لانشاء أسرتنا ...

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً : كح كح كح !
وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال :

— اعدلى ثوبك يا بوليتشكا ! انه ينزلق عن كتفك ! علينا الآن أن
نحافظ على أحسن مظهر ، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة
نبيلة ! آه ... ما أكثر ما قلت ان صدر هذا الفستان ينبغي أن يكون
أطول ... ولكن نصائحك أنت يا صونيا هى التى أفسدت كل شئ :
« قصّروا ! قصّروا ! » فانظرى الآن ماذا كانت النتيجة : لقد تشوهت
هذه الطفلة ! ماذا ؟ هأنتم أولاء تستأنفون البكاء ؟ ما بالكم تعودون الى
البكاء أيها الأغنياء ؟ هيّا يا كوليا ! غنّ ! بسرعة أكبر ! أكبر ! أكبر !
أوه ! يا لك من ولد لا يطاق !

خمسة قروش ، خمسة قروش

— ماذا ؟ أجندى ؟ أيضاً ؟ ماذا تريد أيها الجندى ؟

كان شرطى من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور
بالفعل ! ولكن سيداً يرتدى بزة رسمية ومعطف ضابط ، سيداً هو موظف
كبير فى نحو الخمسين من عمره ، وقور المظهر مهيب الطلعة ، يحمل

عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الامر التفصيلي الأخير قد أبهج كاترين ايفانوفنا كثيراً وحدث في شرطى المدينة تأثيراً كبيراً) ، قد ظهر في تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترين ايفانوفنا ماداً إليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات . وكان وجهه يعبر عن شفقة صادقة . فتناولت كاترين ايفانوفنا الورقة ، وانحنت أمام الرجل بشيء من الأدب ، بل وبشيء من الاحتفال . وبدأت تتكلم فقالت متعالية :

— أشكرك يا سيدى . ان الأسباب التى أهابت بنا الى ... خذى المال يا بوليتشكا . هأت ذى ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بائسة أناخ عليها الدهر ... ان أمامك يا سيدى يتامى نبلاء ، بل يتامى يمكن أن تقول ان لهم قربي بأعلى الأسر الارستقراطية . ولكن ذلك الجنرال التافه الذى كان بسبيل التهام دراريج ... آه ... لقد ضرب الأرض بقدمه لأننى أرعجته ! قلت له :

« يا صاحب السعادة ، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش ، أنت يا من عرفته حق معرفته ، فان انساناً حقيراً بين الحقراء قد افترى على ينته في يوم موته نفسه » . أما يزال هذا الجندى هنا ؟ كن حامياً لنا يا سيدى (كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا مخاطبةً الموظف الذى اعطاها الروبلات الثلاثة) . لماذا يلاحقنى هذا الجندى ؟ ما باله يطاردنى دائماً ؟ لقد سبق أن هربنا من جندى غيره فى شارع مشتيانسكايا ... ماذا تريد أيها الغبى ؟

— لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا فى الشوارع ! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة !

— أنت الذى لا تلتزم حدود اللياقة ! أنا أفعل ما يفعله العازفون على أرغن بارباريا ! فما شأنك أنت ؟

— من أجل العزف على الأرغن ، لا بد من ترخيص ... أما أنت

فقد قررت أن تفعل ما تفعلينه دون الحصول على ترخيص *** فانت
تزعجين الناس وتعكرين صفوهم ! أين تسكنين ؟
أعولت كاترين ايفانوفنا تقول :

- ماذا ؟ ترخيص ؟ لقد دفنت زوجي في هذا اليوم نفسه ! أي
ترخيص تريد ؟

تدخل الموظف فقال :

- سيدتي ، سيدتي ، هدئي نفسك . تعالى . سأوصلك الى بيتك !
ليس هذا لائقاً هنا ، أمام الناس ! أنت مريضة !
فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

- يا سيد ، يا سيد ، أنت لا تعرف شيئاً ! سوف نذهب الى شارع
نفسكي ! يا صونيا ، يا صونيا ! ولكن أين ذهبت صونيا ؟ انها تبكي هي
أيضاً ! ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟
وصرخت فجأة تسأل :

- كوليا ، لينا ، الى أين تذهبان ؟ الى أين أنتما ذاهبان ؟

كان كوليا ولينا ، وقد رأيا الجندي الذي يريد أن يقبض عليهما
وأن يقتادهما الى مكان ما ، وروعتهما هذه الجمهرة المحتشدة من الناس
وهذه الحالات الجنونية في أمهما ، كانا قد تماسكت يداها وأخذتا
يركضان كأنهما على سابق اتفاق وتواطؤ . فلما رأتهما المسكينة كاترين
ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تئن وتثجج ، واندفعت تطاردتهما . انه
منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها
منقطعة أنفاسها . وأسرت صونيا وبوليا تركضان وراءهما .

- أرجعيهما يا صونيا ، أرجعيهما ! آه ! يا للأولاد الأغبياء !

يا للأولاد العاقين !... يا بوليا ! أدركيها ! اقبضي عليهما ! من اجلك
انما أنا ...

وترنحت كاترين ايفانوفنا فى ركضها وسقطت *
صاحت صونيا قائلة " وهى تميل عليها :
- انها مغطاة بالدم ! رباه !...

هُرِع الجميع ، وتحلقوا حول كاترين ايفانوفنا * وكان
راسكولنيكوف وليبزياتنيكوف أول المسرعين * وقد أسرع الموظف
أيضاً * ووراه وصل شرطى المدينة قائلاً فى تذمر : « أفصة جديدة ؟ »
ثم حرك يده بإشارة انزعاج ، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من
المتاعب *

قال الشرطى وهو يصرف المستطلعين الذين تجمعوا ينظرون :
- انصرفوا ! انصرفوا !
قال أحدهم :
- انها تموت *
وقال آخر :
- لقد فقدت عقلها *

وقالت امرأة وهى ترسم على نفسها اشارة الصليب :
- رأف الله بها * هل أُعيد الأولاد على الأقل ؟ ها هم أولاء
يرجعون ! ان الكبرى هى التى أدركتهم * يا للعفاريات !...
ولكن حين أُنعم النظر فى كاترين ايفانوفنا عُرِف أنها لم تُجرَح
لاصطدامها بحجر كما قدّرت صونيا ، فان الدم الذى صبغ بالحمرة أرض
الشارع انما تدفق من حلقتها *

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليزياتنيكوف :

- أنا أعرف ، أنا أعرف ، هذا مرض السل ! هكذا ينجس الدم من فم المريض ثم يخنقه . شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة : احدى قريباتي سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً من دم على حين فجأة . ما العمل ؟ سوف تموت ...

تضرعت صونيا قائلة :

- هنا ! هنا ! الى بيتي ! أنا أسكن هنا ، هنا ، في هذا المنزل ، العمارة الثانية ... فلتُنقل الى بيتي ، بسرعة ، بسرعة ! ... استقدموا طبيباً ... آه ... يا رب ! ...

كذلك كانت تقول صونيا متجهة بكلامها الى الحضور واحداً بعد واحد .

ودُبِّرَت الأمور بفضل جهود الموظف . حتى لقد ساعد الشرطي نفسه في نقل كاترين ايفانوفنا . صعدوا بها الى مسكن صونيا وهي شبه ميتة ، واضجعوها على السرير . كان الدم ما يزال ينزف ، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب الى شعورها شيئاً بعد شيء . ولقد دخل الى الغرفة ، عدا راسكولنيكوف وليزياتنيكوف ، دخل الموظف والشرطي . وكان الشرطي قد صرف الجمهور فلم يفلت منه الا بضعة فضولين صاحبوا كاترين ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً . ووصلت بوليا ممسكة كوليا ولينا اللذين كانا يرتجفان وبكيان . وهُرع من بيت كابرناؤموف أيضاً عدة أشخاص : كابرناؤموف نفسه ، وهو رجل أعرج أعور يصفى عليه شعر رأسه ولحيته المجعد تجعد شعر الحنْزير مظهرأ غريباً جداً ؛ وامراته التي يعبر وجهها عن ذعر مستمر متصل ؛ وعدد من أولادها ففرت أفواههم وجمدتهم الدهشة ؛ وظهر

بين المشاهدين أخيراً سفدريجاييلوف + فنظر اليه راسكولنيكوف في أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع ، فهو لا يتذكر أنه رآه بين الجمهور المحتشد في الشارع •

وتكلم الحضور عن استقدام طبيب وكاهن • وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طبيب ، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف ان مساعدات الطبيب أصبحت غير مجدية • وتعهّد كابرناؤموف أن يسعى الى الطبيب لاحتضاره •

وتحسنّت حالة كاترين ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك ، فالنزيف قد انقطع مؤقتاً • وألقت كاترين ايفانوفنا نظرة موجعة ، وان تكن ثابتة نافذة ، على صونيا التي كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين • وطلبت كاترين أخيراً انهاضها ، فأجلست على السرير مسنودةً من الجهتين •

دمدمت تقول بصوت ضعيف :

— أين الأولاد ؟ هل أرجعهم يا صونيا ؟ آه ••• يا لهم من بلهاء ! لماذا هربتُم ؟ آه •••

وغطى الدم شفيتها المصوّحتين من جديد • فأجلت عينيها على ما حولها • وقالت :

— آه ••• أهكذا تعشين اذن يا صونيا ! لم يتح لي أن آتي اليك قبل الآن مرةً واحدة !

ونظرت اليها بآلم •

— ماذا ؟ كاهن ؟ لا أريد ! ••• هل معكم روبل تضيعونه ؟ أنا لا ذنوب لي ! لا بد أن يغفر الله لي • ان الله يعلم كم تأملت ! فاذا لم يغفر لي ، فلا يغفر !

واستولى على كاترين ايفانوفنا هذيان ما فتىء يزداد اضطراباً •
كانت فى بعض اللحظات ترتعش ، وتنظر حوالىها ، فتعرف جميع
الأشخاص الذين يحيطون بها ، تتعرفهم خلال دقيقة واحدة ، ثم
ما تلبث أن تفقد صحوها وترتد الى هذيانها من جديد • وكان تنفسها
أبعج أجش ، وكان شاقاً أليماً ، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج
من حلقها •

وهفت تقول وهى تختنق لدى كل كلمة تنطق بها :
- قلت له : « يا صاحب السعادة +++ آه +++ سحفاً لآماليا
لودفيجوفنا هذه ! لينا ، كولى ، ضعا يدىكما على الحصرين ، واجعلا
رقصكما أسرع ، أسرع +++ انزلقا +++ انزلقا ! +++ عليكما بخطوة
« البسك » +++ اقرع كميك ! كن ولدأ رشيقاً !

*
لك ماس ولآلى •

- ماذا بعد ؟ ها +++ نعم +++ يجب الغناء كما يلى :

لك أجمل عينين

فماذا تريدن أكثر من ذلك يا فتاة !

- نعم ، ماذا تريدن أكثر من ذلك ؟ يا للغبى ما أسخف قوله !
ها +++ نعم +++ وهذا شعر آخر :

* تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان

- آه +++ لشد ما أحببت هذه الأغنية ! أحببتها حتى العبادة ، هذه
الأغنية ! هل تعلمين يا بوليتشكا ؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطيين ! ++
ذلك ما يجب أن نغنيه اذا أردنا الغناء ! ولكن ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟
لقد نسيت ! هلاًّ ذكرتمونى ! ذكرونى !



كاترين ايفانوفنا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كودساكوفا

كانت كاترين ايفانوفنا في حالة اضطراب شديد ، وكانت تحاول
أن تنهض • وأخذت أخيراً تغنى بصوت رهيب أبجّ مكسّر ، صارخة
مختنقة عند كل كلمة تنطق بها • وكان وجهها يعبر عن رعب ما ينفك
يزداد :

تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادي داغستان •••

وفي صدرى رصاصه

وأعولت تقول فجأة بصياح مزرق وهى تجهش باكية :

— يا صاحب السعادة ، كن حامياً لليتامى ••• تكرماً لذكرى
الاستقبال الذى استقبلك به سيميون زاخارتش ••• والذى يمكن أن
يوصف بأنه ارستقراطى •••

وانتفضت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد ثاب اليها شعورها وأخذت
تنفّس فى الحضور مذعورة • لكنها لم تلبث أن تعرفت صونيا ، فنطقت
تقول فى رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها :

— صونيا ! صونيا ! أنت أيضاً هنا ؟

أُنهضت كاترين ايفانوفنا من جديد •

صرخت تقول فى يأس وكره :

— كفى ! آن الأوان ! وداعاً ! لقد أجهزوا على الحصان القديم !

انه يفتس !

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة •

وعاد اليها شعورها مرة ثانية ، لكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة •
انقلب وجهها المصفر الى وراء ، وانفتح فيها ، وامتدت ساقاها فى تشنج ،
وزفرت زفرة عميقة وماتت •

أسرعت صونيا الى جثمانها ، فطوقتها بذراعيها متألمة ، وشدّت رأسها الى صدرها الناحل • وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبّلتها باكية ناشجة • ولم يدرك كولا ولينا ادراكاً واضحاً ما الذى حدث ، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع ، فارتضى كل منهما بين ذراعى الآخر، وففر فمهما وأخذوا يصرخان • كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرّجين ، فأحدهما على رأسه عمامة ، والأخرى على رأسها طاقية تزينها ريشة نعامة •

لا ندرى كيف وُجد « الدبلوم » موضوعاً على الوسادة قرب كاترين ايفانوفنا ، غير أن راسكولنيكوف قد رآه على كل حال •
ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة ، وأسرع ليزياتيكوف يلحق به •
قال :

— ماتت !

قال سفدريجاييلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف :
— روديون رومانوفتش ، عندى كلمة أريد أن أقولها لك • أمر مستعجل !

فسرعان ما تنحى له ليزياتيكوف عن مكانه وامحى مستخفياً ، غير أن سفدريجاييلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو اليه وأن يكلمه على انفراد • كان راسكولنيكوف متحيراً • قال سفدريجاييلوف :

— سوف أتولى جميع هذه الأمور ، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه • هذا يقتضى مالاً مهياً ••• هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام ، فتكون العناية بهم أحسن

ما تكون العناية ، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخسمائة روبل ، الى أن يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى يطمئن بال صوفيا سيميونوفنا كل الاطمئنان . وسوف أخرجها هي أيضاً من الحماة التي تعيش فيها ، لأنها فتاة طيبة ، أليس كذلك ؟ فستطيع أن تقول لآدفتيا رومانوفنا في أى وجه من الوجوه استعملتُ العشرة آلاف روبل .

سأله راسكولنيكوف :

— لأى هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله ؟

فأجابه سفدريجايلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة :

— هيه ! هيه ! يا لك من رجل قليل الثقة سىء الظن ! لقد قلت لك اننى فى غير حاجة الى هذا المال ! لماذا ترفض أن تصدّق أننى لا أتصرف الا بدافع الأنانية ؟ وكيف دار الأمر فان هذه (قال ذلك وهو يشير باصبعه الى الركن الذى ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملة ، لم تكن عجوزاً مرايةً ما . . . هياً قل لى : « هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته ، أم الأفضل أن تموت هي ؟ » . . . وبدون مساعدتى ، فان بوليتشكا مثلاً « ستكون مضطرة أن تسير فى هذه الطريق نفسها » . .

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شىء من « المكر » ، دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف .

اصفرّ راسكولنيكوف وتجمّد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التى قالها هو نفسه فى حديثه مع صونيا . وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجايلوف نظرة ضارية .

ودمدم يسأل بصوت مختنق :

— كيف +++ عرفت +++ هذا ؟

— أنا أظن هنا ، فى الجهة الأخرى من هذا الحاجر ، عند السيدة ريسليش + هنا شقة كابريتاؤموف ، وهناك شقة السيدة ريسليش ، وهى صديقة لى منذ عهد طويل ، صديقة من أخلص الصديقات + أنا جار من الجيران + هذا هو الأمر !

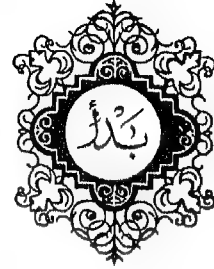
— أنت ؟

فضحك سفدريجايلوف وتابع كلامه فقال :

— أنا ، وأستطيع أن أؤكد لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمرك قد شاقنى كثيراً + ألم أقل لك اننا سنكون متفاهمين ! لقد تنبأت لك بذلك ! نعم ، لقد تفاهمنا ! لسوف ترى أننى رجل موادع مجارٍ مريح ! لسوف ترى أننى أمرؤ ما تزال الحياة معى ممكنة +

الجزء السادس

الفصل الأول



عندئذ عهدٌ جديدٌ غريبٌ في حياة راسكولنيكوف •
لكأن ضباباً قد سقط أمامه فجأةً ، فحبسه في عزلة
ثقيلة كتيّفة • حين تذكر راسكولنيكوف هذه
الفترة ، بعد زمن ، بعد زمن طويل ، قدّر أن

أنصحو ذهنه كان يغور في الظلام أحياناً ، وأنه استمر على هذه الحال الى
أن نزلت النازلة النهائية ، الا في لحظات قليلة • وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه
قد ضلّ حينذاك في أمور كثيرة ، ولا سيما في مواقيت بعض الأحداث
وفي مدتها على أنه حين استحضر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها
وأن يوضحها ، استعان بشهادة أشخاص آخرين ، فعلم بذلك أموراً كثيرة
عن نفسه • علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر ، أو كان يظن
هذا الحادث نتيجةً لحادث ثالث لا وجود له في الواقع ، وانما أشأه له
خياله • وكان يتباه في بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل
الى رعب هائل • ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق
بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة،
فهو غارق في خدر يشبه عدم الاكتراث الذي يعانيه بعض المحتضرين •
ويمكن أن نقول على وجه العموم انه يكون في مثل تلك الأيام كمن
يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعي حالته •
وهناك وقائع أساسية معينة كانت تثقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب

توضيحاً مباشراً • ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف ، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حالته الى نازلة رهية لم يمكن تحاشيها •

وكان يقلقه سفدريجاييلوف خاصة ، حتى يمكن القول ان انتباهه كله قد تركز على سفدريجاييلوف • فمذ اليوم الذي نطق فيه سفدريجاييلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهية التي لا بد أن ترعب راسكولنيكوف ، وذلك في غرفة صونيا ، لحظة وفاة كاترين اي فانونا ، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعي لأفكار راسكولنيكوف • ولكن راسكولنيكوف لم يسارع الى توضيح الأمور لنفسه ، رغم القلق الشديد الذي أخذ يعاينه • كان يتفق له في بعض الأحيان ، اذ يجد نفسه فجأة في حى ناء مقفر من أحياء المدينة ، جالساً وحده الى مائدة منعزلة في أعماق حانة حقيرة ، غارقاً في أفكاره ، لا يكاد يتذكر ما الذي قاد خطاه الى هذا المكان ، كان يتفق له على حين بفتة أن يخطر بباله سفدريجاييلوف ، فاذا هو تتجلى له حقيقة واضحة صارخة ، هي أن عليه أن يجرى حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة ، وأن يفرغ من هذا الأمر مرة واحدة • حتى لقد خيل اليه ذات يوم ، في مكان وراء الأسوار ، أنه ينتظر سفدريجاييلوف ، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء في هذا المكان • وفي يوم آخر ، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدري أين ، فلم يفهم ما الذي جاء به الى هنا ، ولا عرف كيف وصل الى هذا الموضع • ثم انه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي أعقبت وفاة كاترين اي فانونا قد أتيح له أن يلتقي سفدريجاييلوف مرتين ، وذلك في غرفة صونيا التي ذهب اليها لا لهدف الا أن يراها لحظة • وقد تبادل الرجلان بضع كلمات مقتضبة جداً ، ولكن تجنبا أن يمساً النقطة الأساسية ، فكان بينهما اتفاقاً مضمرأ على أن يلزما الصمت

فى هذا الموضوع الى حين • كان تابوت كاترين ايفانوفنا عندئذ ما يزال
فى غرفة صونيا • وكان سفديرجايلوف ينشط فى سبيل اتمام الدفن •
وفى اللقاء الأخير الذى تمّ بين الرجلين شرح سفديرجايلوف
لراسكولنيكوف أن المساعى التى شرع فى القيام بها من أجل أولاد
المتوفاة قد أثمرت ، فبفضل بعض العلاقات التى له ، استطاع أن يدخل
الأيّام الثلاثة فى مؤسسات مناسبة ، وكان للمال الذى أودعه لهم فضل
كبير فى ذلك ، لأن الأولاد الذين يملكون مالاّ يسهل قبولهم فى هذه
المؤسسات أكثر مما يسهل قبول الأولاد الذين لا يملكون شيئاً • وتكلم
سفديرجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك ، ووعده بأن يزور راسكولنيكوف
فى بيته قريباً ، وأسمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصيح « فهو فى حاجة
ملحة الى أن يكلمه فى بعض الأمور ... » ؛ وقد جرى هذا الحديث بين
الرجلين فى حجرة المدخل ، فكان سفديرجايلوف يحدّق الى
راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته بعد فترة من صمت يسأله :
- ولكن مالك يا روديون رومانوفش ؟ يبدو لى أنك لست فى حالة
طبيعية • صحيح أنك تصغى وتنظر ، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم !
هياً ، ينبغى أن تتحدث معاً بعض الشيء ! يؤسفنى أننى مشغول بشئون
غيرى وشئونى أنا الى هذا الحد !
ثم أضاف يقول فجأة :

- هيه ! جميع البشر محتاجون الى هواء ، الى هواء ، الى هواء قبل
كل شىء !

وتنحى بفتة حتى يفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين
كانا يصعدان السلم • انهما آتيان لاقامة صلاة الميت • لقد اتخذ
سفديرجايلوف الاستعدادات اللازمة لاقامة صلاة الميت هذه مرتين فى
اليوم بغير انقطاع •

تردد راسكولنيكوف لحظةً ثم تبع الكاهن الى عند صونيا • وكان
سفدر ريجاييلوف قد غاب •

وقف راسكولنيكوف على العتبة • وابتدأ القداس هادئاً مهيباً
حزيناً • كان الفتى يشعر بالموت منذ نعومة أظفاره • وكان احساسه
بحضور الموت يصطبغ عنده دائماً بنوع من رعب صوفى • وهو منذ مدة
طويلة لم يشهد قداس جنازة • والى هذا كله يُضاف الآن احساسٌ
بالاضطراب والرعب أشد ايلاماً •

نظر الى الأولاد • كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت • وكانت
بوليتشكا تبكى • ووراءهم كانت صونيا تصلى وتبكي برفق • قال
راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انها لم تنظر الى مرة واحدة في هذه
الأيام الأخيرة • انها لم تخاطبني بكلمة واحدة » • كانت الشمس تغمر
الغرفة بضياء قوى ، ودخان البخور يتصاعد الى السقف ، والكاهن يرتل
أدعيته • بقى راسكولنيكوف الى آخر الاحتفال فلما بارك الكاهن وودّع
منصرفاً ، ألقى على ما حوله نظرة غريبة • واقترب راسكولنيكوف من
صونيا بعد انتهاء القداس • فاذا هى تتناول يديه فجأةً وتميل برأسها على
كتفه • دُهِش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه • بدت له
هذه البادرة غريبة • تساءل : كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور ، كيف
لا تسمّر منه أى اشمزاز ؟ وكانت يدها لا ترتعش فى يده ! يا للتضحية !
هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل • لم تقل صونيا كلمة
واحدة • صافحها راسكولنيكوف وخرج • كان يشعر بارهاق فظيع
يجتاحه • فلو كان يستطيع فى تلك اللحظة أن يذهب الى مكان ما ، الى
أى مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة ، بعزلة مطلقة ، ولو دامت مدى الحياة ،
اذن لعدّ نفسه سعيداً • ولكن راسكولنيكوف كان فى هذه الآونة الأخيرة ،
رغم بقاءه وحيداً فى جميع الأحيان تقريباً ، لا يفلح فى الوصول الى

الشعور بالوحدة • كان يتفق له أن يخرج من المدينة ، وأن يسير في الطريق الكبير • حتى لقد توغّل ذات مرة في غابة • ولكن كلما كانت الأماكن أشدّ عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مستسر مقلق يربعه ، ويصايقه خاصة • فكان يسرع عندئذ عائداً الى المدينة ، فيختلط بالجمهور ، ويذهب الى « سوق العلف » ، فيشعر هنالك بشيء من الارتياح •

وكان ذات مساء في مطعم حقير فيه غناء ، فبقى يصغى الى الغناء ساعة كاملة ، وقال لنفسه انه مبتهج به ، ولكن قلقه عاد يحتاجه اخر الأمر ، فان شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهش قلبه ، وقال لنفسه فجأة : « هأنذا جالس أستمع لغناء ، فهل هذا هو ما يليق بى أن أفعله ؟ » • على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا ، وأن هناك مسألة يجب حلّها بغير ابطاء ، لكنه لا يستطيع أن يعبر عن هذه المسألة بكلام ، أو أن يترجمها بأقوال • كان كل شيء تشابك خيوطه كبة غزل : « لا • • الصراع أوّل ! بورفير • • • أو سفدريجايلوف • • • لأن أقوم بتحدّ آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا • • • نعم ، نعم ! » • قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً • وخطرت بباله دنيا وأمه ، فاذا هو يشعر برعب هائل ، لا تدري لماذا ! وفي تلك الليلة استيقظ قبل الفجر في غابة بجزيرة كرسstofفسكى* مرتعداً من الحمى • فعاد الى بيته قبل طلوع الشمس • وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات ، ولكنه استيقظ متأخراً • كانت الساعة حين استيقظ هي الثانية والنصف بعد الظهر •

فتذكر عندئذ أن دفن كاترين ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم ، فسرّه أنه لم يشهد الدفن • وجاءته ناستاسيا بغدائه ، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة • وكان ذهنه أنصر ، وكان يحس

أنه أهدأ مما كان فى الأيام السابقة ، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر .

وفُتِح الباب فى تلك اللحظة ، ودخل رازوميخين .

قال رازوميخين وهو يتناول كرسيًا ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف :

— هه ! انه يأكل . ما هو اذن المريض !

كان رازوميخين فى حالة احتياج شديد لا يحاول أن يخفيه . كان يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح ، ولكنه لا يتمجل ولا يرفع صوته . لكنه يسيّت نية لها صفة استثنائية جداً . وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال :

— اسمع ! لقد أسأتمونى فاذهبوا جميعاً الى جهنم ! ذلك اننى أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أننى لا أفهم من الأمر شيئاً البتة ! ولا يذهبن بك الخيال الى أننى سأحاصرك بالأسئلة . فلقد أصبحت لا أعبا بهذه الأمور كلها ولست أريد قط أن قد تكشف لى بنفسك عن جميع أسرارك ، فاذا أنا لا أصغى اليها . نعم ، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضى لشأنى ! وانما جئت الآن لهدف واحد هو أن اعرف أولاً بنفسى ، معرفة حاسمة ، أنت مجنون أم لا . ذلك أن هناك أناساً — ليس أمراً هاماً أن نسميهم — مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهب لأن تصبح مجنوناً . وانى لأعترف لك بأننى كنت أنا نفسى مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأى ، أولاً بسبب أفعالك السيخيفة بل الحسيسة (لا سيما وأنها لا تعليل لها) ، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك ، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه الا انسان شاذ أو دنيء أو مجنون . فأت اذن مجنون .

— هل رأيتهما منذ مدة طويلة ؟

— منذ لحظة • وأنت ؟ أنت لم ترهما مرةً أخرى منذ ذلك اليوم ،
 أليس كذلك ؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت ؟ هلاً قلت لى ،
 أرجوك ! لقد جئت الى بيتك ثلاث مرات • وأمك مريضة منذ الأمس
 مرضاً شديداً • قررت أن تجيء اليك ، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن
 تمنعها من ذلك ، لكنها لم تفعل • قالت : « اذا كان مريضاً ، اذا كان قد
 أصاب عقله اختلال ، فمن ذا ينجده اذا لم تنجده أمه ؟ » • عندئذ جئنا
 معاً ، لأننا لم نشأ أن نتركها وحدها • وفى الطريق ، فعلنا كل شئ فى
 سبيل أن نهدئها • ولكننا دخلنا فلم نجدك ! جلست هناك ، ولبثت
 جالسةً عشر دقائق ، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف الى جانبها
 لا نطلق بكلمة واحدة • بعدئذ نهضت وقالت : « ما دام يخرج فمعنى
 ذلك أن صحته حسنة ، وأنه نسي أمه • يترتب على هذا أنه لا يلقى بأمه
 بل عارٌ عليها أن تقف فى عتبة بابه تستجدى ملاطفاته استجداء
 الصداقات • • وعادت الى بيتها ، ثم لم تلبث أن اضطرت الى ملازمة
 الفراش • وهى الآن تعاني من الحمى ، وتقول : « فهمت ! ان وقته
 لا يتسع لغير حبيبته • • • » • انها تعتقد أن صوفيا سيميونوفنا حبيبته أو
 خليلتها أو خليلتك ، لا أدري ! فسرعان ما ذهبت الى بيت صوفيا
 سيميونوفنا ، لأننى كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقى •
 دخلت على صوفيا سيميونوفنا ، فماذا رأيت ؟ تابوتاً وأولاداً يبكون ،
 وصوفيا تجرّب على الأولاد ملابس الحداد • أما روديا فلا وجود له !
 عندئذ نظرت ، واعتذرت ، وخرجت ، ومضيت الى آفدوتيا رومانوفنا
 أروى لها ما شاهدت ! القصة اذن باطلة : لا حبيبة هنالك ولا شئ من
 ذلك ، ولعل كل ما فى الأمر أنك مجنون ! ولكن هاأنا ذا أراك تلتمس لحم
 بقر مسلوفاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين ! صحيح أن المجانين ياكلون
 هم أيضاً • • • ولكن لا • • • ما أنت بمجنون • • • رغم أنك لم تقل لى

كلمة واحدة ! ما أنت بمجنون قط ! اذن ... شيطان يأخذكم جميعاً ...
فلا بد أن فى الأمر سرّاً ، لا بد أن فى الأمر سرّاً ... وأنا لا أريد أن
اصدّع رأسى بأسراركم ! اننى لم أجدى إلا لأزعجك تخفيفاً عن نفسى
وأنا أعلم ماذا بقى على أن أفعل !

بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض .

سأله راسكولنيكوف :

— ماذا تنوى أن تفعل ؟

— أأصبح يهكم الآن أن تعرف ما الذى سأفعله ؟

— حذار ! انك تريد أن تقبل على شرب الخمر !

— كيف ... كيف حذرت هذا ؟

— لا يحتاج الأمر الى كبير ذكاء !

بقى رازوميخين صامتاً بعض الوقت ، ثم قال فجأة بحماسة :

— لقد كنت فنى ذكياً حصيف العقل على الدوام . لم تكن مجنوناً

فى يوم من الأيام ! نعم ، كلامك صحيح . سأقبل على شرب الخمر !
استودعك الله !

قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب . فقال له راسكولنيكوف :

— كلمت اختى عنك يا رازوميخين ، أمس الأول ، فيما أذكر .

فتوقف رازوميخين فجأة ، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو

يسأله :

— عنى أنا ؟ ... ولكن أين عساك رأيته ، أمس الأول ؟

يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً .

قال راسكولنيكوف :

- جاءت الى هنا ! وجلست في هذا المكان ! وتكلما !

- هي ؟

- نعم ، هي !

- ماذا قلت لها ؟ أقصد ماذا قلت لها عنى ؟

- قلت لها انك شاب ممتاز ، شريف ، مجتهد . لم أذكر لها انك
تحبها ، فذلك أمر تعرفه هي .

- تعرفه . . . هي ؟

- طبعاً . . . عليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً ، أينما
حطت رحاى وكيفما كان حالى ! أقول لك هذا لأننى أعرف مدى
ما تحمله لها من حب ، ولأننى مقتنع بطهارة عواطفك ونقاء مشاعرك .
وانى لأعلم أيضاً أنها ، من جهتها ، يمكن أن تحبك ، هذا اذا لم تكن
قد أحببتك وانتهى الأمر ! والآن قرّر : هل عليك أن تقبل على شرب
الخمير !

- روديا . . . اسمع . . . طيب . . . آه . . . وأنت ، الى أين تريد
أن تذهب ؟ اذا كان ذلك سراً ، فآكتمه ان شئت . ولكننى سأطلع على
السر آخر الأمر ! آ . . . انى لعلى يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون
سخافة من السخافات لا تصدّق ! وأنت قد اخترعت هذا كله ! مهما
يكن من أمر ، فأنت فتى رائع ، أنت أروع الفتيان !

قال راسكولنيكوف :

- ولقد أردت أن أقول لك أيضاً - لولا أنك قاطعتنى - انك كنت
على حق تماماً حين ذهبت الى أنه لا داعى الى محاولة اكتشاف تلك
الأسرار . دع هذا الأمر الآن . بالأمس قال لى أحدهم : ان المرء فى

حاجة الى هواء ، الى هواء ! وأريد الآن أن أذهب الى ذلك الرجل لأعرف ما الذى كان يعنيه بذلك الكلام !

كان رازوميخين واقفاً يفكر ، وقد عاد يستولى عليه القلق • ثم قال يحدث نفسه فجأة : « هو متأمر سياسى • لا شك فى ذلك وهو يوشك أن يقوم بعمل حاسم • نعم ، هذا هو الأمر • لا يمكن أن يكون الأمر غير هذا • ودونيا تعلم ذلك • » •

وقال وهو يقطع كلماته :

— اذن تجيء اليك آفدوتيا رومانوفنا ، وأنت تريد أن ترى ذلك الرجل الذى قال لك ان المرء فى حاجة الى هواء ، الى مزيد من الهواء دائماً • • • معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر • • •

بهذه الحملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامه على حدة •
سأله راسكولنيكوف :

— أية رسالة ؟

— لقد تلقت اليوم رسالةً أقلقتها كثيراً ، كثيراً جداً • أخذت أتكلم عنك ، فرجتى أن أسكت • ثم • • • ثم قالت ان من الجائز أن نفترق قريباً جداً • • • ثم شكرتني بكثير من الحرارة على أننى • • • لا أدرى ماذا ، وأخيراً مضت الى غرفتها فحبست نفسها فيها •

سأله راسكولنيكوف شارد الذهن :

— تلقت رسالة ؟

— نعم ، رسالة • ألم تكن تعرف ذلك ؟

وصمت الشابان كلاهما •

— أمستودعك الله يا روديون • أنا يا صاحبي • • • فى وقت من

الأوقات ... ثم ... استودعك الله ! نعم ، في وقت من الأوقات ...
دعنا من هذا ... استودعك الله ! آن لى أنا أيضاً أن ... لن أشرب .
ما الداعى الآن ؟

كان متعجلاً ، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى
فتحه فجأة من جديد ، وقال وهو يلقي نظرة متهرّبة الى جانب :

— بالناسبة ... فيما يتعلق بتلك الجريمة ... أنت تعلم حكاية
بورفير ... ومقتل المرأة العجوز ... ألا تتذكر ؟ ... لقد اكتشفوا
القاتل ... اعترف القاتل وقدّم جميع الأدلة • تصور أنه واحد من
أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسى أدافع عنهم ... هل
تتذكر ؟ وهناك شيء تفصيلي آخر : ان مشهد المشاجرة مع الرفيق ،
والقهقهات على السلم بينما كان الآخرون يصعدون ، ان ذلك كله انما
ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة ! يا للمكر ! يا للبديهة الحاضرة
والحيلة البارة ! لا يكاد المرء يصدّق ، ولكن الرجل أوضح هو نفسه
كل شيء ! لقد خدعنى فى أول الأمر عن نفسى ! انه يملك عبقرية المكر
والحيلة • على كل حال ، هذه أشياء موجودة ، فلا داعى الى الاسراف
فى الدهشة ! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع ؟ وأما أنه لم
يطلق صبراً فاعترف أخيراً ، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق • لقد
خدعنى على كل حال ! تصور كم تحمست لهم ودافعت عنهم !

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح :

— كيف علمت بذلك ؟ ولماذا يهملك هذا الأمر الى هذا الحد ؟

— لماذا يهمنى هذا الأمر ؟ يا له من سؤال ! ... ان بورفير هو
الذى أمدنى بهذه المعلومات ! ثم انه هو الذى أطلعنى على كل شيء
تقريباً •

— بورفير ؟

— نعم ، بورفير •

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً :

— ماذا *** ماذا قال لك ؟

— شرح لى الأمر شرحاً رائعاً ، شرحاً « سيكولوجياً » ، على نهجه

فى الشرح •

— هو نفسه *** شرح لك ؟

— نعم *** هو نفسه • استودعك الله ! سأقصُّ عليك شيئاً فيما بعد ، أما الآن فثمة عمل يجب أن أقوم به ، هناك • جاء وقت تصورت فيه أن *** ولكن ما الداعى الى هذا الكلام ؟ سأقول لك فيما بعد ! *** ما حاجتى الى السكر الآن ؟ لقد أسكرتنى أنت بغير خمر ! نعم ، أنا سكران يا روديا ، سكران من غير أن أشرب خمراً • هيّا ، استودعك الله • سأعود اليك بعد مدة قصيرة •

قال رازوميخين ذلك وخرج • وفيما كان يهبط السلم بخطى بطيئة كان يحدث نفسه بقوله : « هو متآمر سياسى ، حتماً ، حتماً • ولقد أقحم أخته فى الأمر • ذلك جائز ، بل جائز جداً ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى طبع آفدوتيا رومانوفنا • هما الآن يلتقيان فى مواعيد يضربانها ! ألم تُفهمنى هى نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الصغيرة والاشارات والملاحظات • نعم هذا كله يدل على أن تقديرى صحيح • والا فكيف نعلّل هذا التعقيد كله ؟ هه *** وأنا ظننت أن *** آه *** يا رب ! ما أكثر ما تخيلت أيضاً ! نعم ، كان ذلك ضلالاً ، ولقد آثمت فى حقه ! غير أن ذلك خطؤه هو أيضاً • لماذا شوّش فكرى ، ذلك المساء ، فى الدهليز ، تحت المصباح ؟ ها *** يا لها من فكرة دنيئة ،

خسيسة ، تلك الفكرة التي راودتني ! وما أعظم شهامة ذلك الفتى يقول
حين اعترف بكل شيء ! هكذا يتضح الماضي كله دفعة واحدة : مرض
روديا ، وأطواره الغريبة ، وحتى ما سبق هذه الفترة ، حين كان روديا
ما يزال في الجامعة فكان مظلم النفس ، مكتئب المزاج . ولكن ماذا تعني
الآن هذه الرسالة ؟ لا بد أن وراءها شيئاً ! من هو مرسلها ؟ أظن أنها
... هم ... سأخرج هذا كله الى النور ! » .

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا ، فأصبح قلبه كالجليد حين تذكر
ذلك . وتخلص من جموده ، وأخذ يمشى مشياً سريعاً يوشك أن يكون
ركضاً .

ما ان خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف ، فاقترب من
النافذة ، ومشى في الغرفة منتقلاً من ركن الى ركن ، كأنما هو قد نسي
أبعادها ... ثم عاد يجلس على السرير . وكأنه قد تبدل بدلاً تاماً :
عاد الصراع ... ما يزال هناك اذن مخرج . « نعم ، هذا مخرج يظهر
أخيراً ! » . حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً ،
مخنوقاً ، كأن قدراً قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع يقولوا عند بورفير ،
حتى ان مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه ، وقع عند
صونيا ولم ينته ، لم ينته البتة ، كما لعله تخيل . ولقد ظهر ضعف
راسكولنيكوف فانهيار انهاراً تاماً ، دفعة واحدة . ألم يعترف عندئذ ،
مع صونيا ، من أعماق قلبه ، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده
عبثاً كهذا العبء ؟ ... وسفدريجيلوف ؟ ان سفدريجيلوف لغز . ان
سفدريجيلوف يقلقه أيضاً ، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى
تماماً . لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجيلوف يمكن أن
يكون مخرجاً كذلك ؟ ولكن بورفير ؟ ذلك شيء آخر ! ...

« ها ... هكذا اذن ... بورفير نفسه هو الذي شرح لرازوميخين

اذن كل شيء ! شرح له كل شيء شرحاً « سيكولوجيا » • انه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلح بها ! • ولكن كيف أمكنه ، هو بورفير ، أن يصدّق ، ولو دقيقة واحدة ، أن يقولوا هو الجاني ، بعد المشهد الذي قام بيننا قبل وصول يقولوا هذا نفسه ، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له الا تفسير واحد ؟ •

كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع بينه وبين بورفير قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة ، ولكنها كانت تعاودته تنفّاً صغيرة ، فلو رآها كاملة في جملتها لما استطاع أن يحتملها •

« ان ما قام بينا من أحاديث ، وما جرى من حركات وإشارات ، وما تبادلناه من نظرات ، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة ، ان ذلك كله قد تمّ على نحو لا يمكن معه أن يكون يقولوا (الذي كشف بورفير عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يردّه عن اقتناعه • أضف الى ذلك أن رازوميخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات • • • معنى ذلك أن مشهد الدهليز تحت المصباح لم يفته تماماً ! وها هو ذا يهرع عندئذ الى منزل بورفير ! ولكن لماذا ضلّله بورفير على ذلك النحو ؟ ماذا كانت غايته من ذلك ؟ ماذا كان هدفه ؟ لا شك في أنه كان له هدف ، ولكن ماذا كان ذلك الهدف ؟ أية مصلحة له في أن يحوّل شبهات رازوميخين نحو يقولوا ؟ لا شك في أنه كانت له مصلحة ، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة ؟ ان زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح ، زماناً طويلاً مسرفاً في الطول ، لم نعرف خلاله أيّ أنباء عن بورفير • ان ذلك لا ينبىء بخير • • • » •

تناول راسكولنيكوف قبعته ، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره • هذه أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية ، طوال ذلك الزمان •

وقال يحدث نفسه : « يجب الانتهاء من سفدريجيلوف ، مهما كلف الأمر ، وبأقصى سرعة ممكنة • أظن أنه ، هو أيضاً ، يتوقع أن أذهب اليه بنفسى » • وفى تلك اللحظة ، انبجس فى قلبه المعذب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن فى تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين : سفدريجيلوف أو بورفير • ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك ، ان لم يكن فوراً فبعد حين • فكان يردد قائلاً لنفسه : « سوف نرى ، سوف نرى » •

ولكن ما ان اجتاز الباب المفضى الى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفير نفسه • كان بورفير يهيم أن يدخل عليه • دُهش دهشة شديدة ، ولكن دهشته لم تدم الا لحظة قصيرة • أمر غريب : انه سرعان ما رأى أن ميجى بورفير اليه أمر طبيعى لا غرابة فيه ، فلم تثر فيه رؤيته أى خوف تقريباً • ارتعش فى البداية رعشة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه • « لعل هذه هى الخاتمة ؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرة ، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه ؟ هل يمكن أن يكون قد تنصت على الباب ؟

صاح بورفير يقول له ضاحكاً :

— لم تكن تتوقع زيارتى يا روديون رومانوفتش ! لقد كنت انوى أن أجىء اليك منذ مدة طويلة • فلما مرت الآن عرضاً قلت لنفسى : « لماذا لا أصعد اليه ، فأزوره زيارة قصيرة ، مدة خمس دقائق ؟ هل كنتَ خارجاً ، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج • هل لك بسيجارة ؟

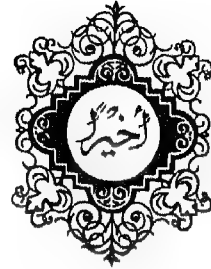
قال راسكولنيكوف وهو يقدم لזائره كرسيّاً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقاً :

— اجلس يا بورفير بتروفتش !

امّحت مشاعره السابقة دون أن تخلف وراءها أى ظل • انه
ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم
من المجرمين قطاع الطرق ، خلال نصف ساعة ، حتى اذا وضع المجرم
سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة •

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفير تماماً ، ونظر اليه مبهتاً •
فطرفت عين بورفير ، وأشعل سيجارة •
ودّ راسكولنيكوف من أعماق قلبه لو يصرخ قائلاً : « هيا ،
تكلم ، تكلم ! ما بالك لا تتكلم ؟ » •

الفصل الثاني



بدأ بورفير كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ
من دخانها نفساً ، فقال :

- تَباً للسجائر ، انها سم ، سم حقيقي ،
ولكنني لا أستطيع تركها . انني أسعل ،
وأشعر بحكاك في حلقى ، وألتهث ، واختنق . واذا أننى جبان فقد ذهبت
منذ أيام وستشير الدكتور ب . * الذى يظل يفحص المريض مدة نصف
ساعة على الأقل . فماذا قال الطبيب ؟ سخر منى فى أول الأمر ثم اخذ
يمعن فى جِسا وتسمعاً وتنصتاً ، ثم قال : « أنت يؤذيك التدخين . رثنان
متوسعتان » . كلام جميل ! ولكن كيف يمكننى أن أستغنى عن التدخين؟
وبماذا استعويض عنه ؟ اننى لا أشرب خمرأ ، وذلك مصدر البلاء كله .
ان مصدر البلاء كله هو أننى لا أشرب خمرأ . كل شئ نسبى كما ترى
يا روديون رومانوفتش .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزاً : « أتراه يريد أن
يستأنف شطارته ؟ » . وعادت الى خياله ذكرى لقائهما الأخير فجأة ،
فازدحمت فى قلبه العواطف التى كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء .

وتابع بورفير بتروفتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

- ثم اننى قد سبق أن جئت اليك مساء أمس الأول . كيف ؟ أكنت
لا تعرف ذلك ؟ نعم ، جئت الى غرفتك ، الى هنا . فكما حدث لى اليوم ،

كنت ماراً أمام المنزل ، فقلت لنفسي : « ماذا لو زرته زيارة قصيرة ؟ »
ثم صعدت ، فرأيت الباب مفتوحاً على سعة كلها • ونظرت ، وانتظرت
برهة ، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمي • أأست تغلق بابك
بالمفتاح أبداً ؟

اكفهر وجهه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهار • وبدأ على
بورفير أنه حزر ما يجول في فكره • وتابع كلامه فقال :

— أنا انما جئت لأبرر لك سلوكي يا عزيزي روديون رومانوفتش،
لأبرر لك سلوكي ! نعم ، ينبغي لي أن أبرر لك سلوكي وأن أعذر عنه!
وتابع يقول وهو يتسم ابتسامة خفيفة :
— ذلك واجب يقع على عاتقي ، ولا بد لي من الوفاء به •

قال ذلك وهو يضرب ركة راسكولنيكوف بيده ضربة تعبر عن
الألفة والمودة • ولكنه اتخذ هيئة الجد والهم في تلك اللحظة نفسها
تقريباً ، وخالط نظراته شيء من الحزن ، وذلك أمر استتبره
راسكولنيكوف كثيراً ، فانه لم يسبق له في يوم من الأيام أن لاحظ أو
تصور أن يكون لبورفير بتروفتش وجه كهذا الوجه •
وتابع بورفير كلامه :

— لقد وقع بيننا في المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون
رومانوفتش ! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا في المرة الأولى أيضاً ،
ولكن في ذلك الوقت ... على كل حال ، لا خير ! المهم أنك تعدني
في أغلب الظن آثماً جانياً في حقك • هل تتذكر كيف افترقنا ؟ كانت
أعصابك نائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان ... وأنا أيضاً كانت أعصابي
نائرة جداً وكانت ساقاي تصطكان • الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على
نحو يكاد يوصف بقلّة الأدب ، وكانت تموزه اللباقة والكياسة على الأقل •

ونحن مع ذلك من الناس المهذَّبين (الجنتلمان) ، حتى ليتمكن أن أقول
انسا من هؤلاء الناس قبل كل شيء ، وذلك أمر ما ينبغي أن ننساه !
نذكر المدى الذى بلغته الأمور ... لقد كان ذلك أمراً غير لائق البتة ...
يجب أن نعترف بهذه الحقيقة *

تساءل راسكولنيكوف مدهوشاً وهو يرفع رأسه وينظر الى بورفير
محملاً : « ماذا يريد منى ؟ ماذا يظننى ؟ » *

وتابع بورفير كلامه فقال وهو يحوّل رأسه ويفض بصره ، كأنه
لا يريد أن يدخل الاضطراب الى نفس ضحيته القديمة ، وكأنه يكره أن
يستعمل أساليبه العتيقة وشباكه المألوفة :

— أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعد الى الصراحة + نعم ، ان
امثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر + لقد جاء يقولوا
منذ أيام فوقّ بيننا ، ولولا ذلك لمضت الأمور الى حدود لا أدرى مداها !
وما قولك فى ذلك البائع الصغير اللعين الذى قبع وراء الحاجز يتنصت ؟
هل تتصور ذلك ؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي ، فأنا أعلم أن
الرجل قد جاء بعدئذ اليك أيضاً + غير أن الشبهات والشكوك التى قامت
فى نفسك كانت خطأ فى الواقع + فأنا لم استدع أحداً ، ولا اتخذت أى
اجراء + تسألنى لماذا لم أتخذ أى اجراء؟ فماذا أقول لك ؟ ان الأمر كله
كان قد قلب عقلى رأساً على عقب + كل ما فعلته هو أننى استدعيت البوابين
(لا شك أنك رأيتهم عابراً) + ان فكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت
فى ذهنى + ذلك أن اقتناعى يا روديون رومانوفتش كان قد تمَّ + وكنت
أقول لنفسى : « اذا فاتنى أمر فمن الممكن فى مقابل ذلك أن آقبض على
أمر آخر قبضاً كاملاً » + أنت يا روديون رومانوفتش شديد الاحتياج ،
بل أنت مفرط فى شدة الاحتياج + تلك سمة من سمات خلقت وقلبك
أعتر بأنتى أعرفها بعض المعرفة على الأقل + ولقد كنت أدرك طبعاً أن

المرء لا يرى فى كل يوم شخصاً يأتى فيفيض اليه بما نفسه دفعة واحدة •
 صحيح أن هذا يحدث ، ولا سيما حين يكون ذلك الشخص مرهقاً مهودود
 القوى ، ولكن هذه الحالة نادرة • لا ، لم تفتنى هذه الحقيقة • لكننى
 كنت أقول لنفسى : « لسوف يكفينى مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة ،
 صغيرة الى أبعد حدود الصغر ، صغيرة كل الصغر ، على شرط أن تكون
 واقعة محسوسة ملموسة تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكلوجية !
 ذلك أنه اذا كان هذا الرجل جانباً فلا شك أن فى امكاننا أن نتظر منه
 شيئاً محسوساً ملموساً • فمن حقنا اذن أن نأمل فى الحصول على نتائج
 هى أبعد ما تكون عن التنبؤ ! » • كنت أعود على طبعك يا روديون
 رومانوفتش ، على طبعك خاصة • وكنت أعقد عليك آمالاً كباراً !
 تتم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنه يلقى
 سؤالاً :

— فلماذا تقول لى هذا الكلام كله الآن ؟

ثم تساءل تأثها فى ظنون وتخمينات : « عمّ يتكلم ؟ هل يمكن أن
 يقع فى اعتقاده حقاً أننى برىء ؟ » •
 قال بورفير يجيبه عن سؤاله :

— لماذا أقول لك هذا الكلام ؟ انا انما جئت لأبرر لك سلوكى ،
 لأقوم بواجب مقدس • سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث ، أى
 كل قصة الخلاف بيننا جملة • انك قد قاسيت بسببى أشياء كثيرة
 يا روديون رومانوفتش • ولكنى لست شيطاناً رجيماً ، وانى لأدرك حق
 الادراك مدى الألم الذى لا بد أن يكون قد أحدثه هذا كله فى نفس
 انسان مثلك ، انسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء ، محب للسيطرة ،
 نافذ الصبر ••• نعم ••• لا سيما نافذ الصبر ! مهما يكن من أمر ، فأنا

أعدك أعظم انسان ، رغم أننى لا أنشأطرك جميع ارائك ، وهذا ما أحرص على أن أقوله لك بصراحة تامة ، دون لف أو دوران ، لأننى يهمنى كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشك . اننى ما ان عرفتك حتى شغفت بك . لعلك ستضحك مما أقوله لك ، ومن حقك أن تضحك . أنا أعلم أنك كرهتنى منذ أول نظرة ألقيتها علىّ ، بدون حق فى الواقع . مهما يكن من أمر ، فانى أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذى تركته فى نفسك ، وأن أبرهن لك على أننى ، أنا أيضاً ، انسان يفيض وجداناً وعاطفة . أقول لك هذا بصراحة تامة .

توقف بورفير عن الكلام برهةً فى وقار . وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه . فهو حين يتصور أن بورفير يظنه الآن بريئاً ، يحس فجأة برعب .

وتابع بورفير كلامه فقال :

- ربما لم يكن ثمة داعٍ الى أن أحكى لك كلَّ ما جرى ، بالترتيب ؟ حتى اننى أعتقد أن هذا غير مفيد ، وأنا أعتقد على الأقل أننى لن أفلح فى ذلك . فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرز ظروف المسألة ؟ فى الأصل سرت شائعات . من أين جاءت تلك الشائعات ؟ ماذا كانت تلك الشائعات ؟ من أى ناحية كانت تعنيك ؟ اننى أعتقد أنه لا داعى أيضاً الى أن أذكر لك ذلك . أما أنا شخصياً فان صدفة هى التى نبهتنى ، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث . ما هى تلك الصدفة ؟ أظن أن الأفضل ، هنا أيضاً ، أن ألزم الصمت . ان ذلك كله (أعنى تلك الشائعات ، وتلك المصادفات) قد ساهمت فى تكوين فكرة فى رأسى . أتعرف لك صراحةً - وعلى الانسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف ، أليس كذلك ؟ - أتعرف لك صراحةً بأننى كنت أنا أول

من وضعك موضع الاتهام • ان كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع ، لا قيمة لها البتة وليست تدل على شيء !

وقد أتيح لى أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذى وقع فى قسم الشرطة ، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات • والشخص الذى روى لى ذلك المشهد لم يكن أىّ شخص ، وإنما كان شاهداً رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً ، من جهة أخرى • وكان ذلك كله يشبه بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً يا عزيزى روديون رومانوفتش • فكيف لا تقوم فى ذهنى فكرة ما ، وكيف لا أسير فى اتجاه ما ؟ يقول مثل انجليزى : مائة أرب لا تصنع حصاناً ، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً • هذه هى الحكمة بعينها طبعاً ! ولكن أنى للمرء أن يقاوم الأهواء ! ذلك أن قاضى التحقيق ليس الا انساناً ••• وقد تذكرت أيضاً مقاتلك الصغيرة تلك التى كنت قد نشرتها فى مجلة ، والتى حدثتني عنها تفصيلاً حين زرتنى أول مرة • لقد سخرت منك عندئذ ، لكننى فعلت ذلك لأحكك على الادلاء بمزيد من الاعترافات • أعود فأقول انك قليل الصبر شديد الاحتياج يا روديون رومانوفتش • وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جانح الاندفاع كثير الجلد • لقد شعرتَ أنت بأشياء كثيرة ، نعم شعرت بأشياء كثيرة ••• وكنت أنا أقدر ذلك منذ مدة طويلة • اننى أعرف جيداً أمثال هذه الاحساسات ، فحين قرأت مقاتلك خيّل الىّ أننى سبق لى أن قرأتها • لا شك عندى فى أنك فى ليلى أرق وحمى ، فى ليلال كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عيفاً ويزخر بحماسة كان ينبغى لك مع ذلك أن تلجمها ، انما تصورت تلك المقالة ، أليس كذلك ؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب فى نفسه ••• ولئن سخرت من مقاتلك عندئذ ، فأننى أستطيع أن أقول لك الآن اننى أحببت كثيراً ، (حبّ هواية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النضرة المتأججة التى جرى بها قلمك •

صحيح انها كانت ملائ بدخان ، بضباب ، غير ان وترا كان يهتز في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان • وصحيح أنها كانت ملائ بنزوات خيال وتناقضات منطق ، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق ! صحيح ان فيها نوعا من صلف لا مسوَّغ له ، ومن تهوُّر يأس مستमित ، وصحيح انها قائمة ، قائمة جداً ، ولكن ذلك كله حسن ••• كنت قد قرأت اذن مقالتك ، ثم وضعتها جانباً ؛ لكنني حين وضعتها جانباً قلت لنفسي : « ان رجلاً كهذا الرجل لن يكتفى بهذا » • فقل لي من فضلك : كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات أن لا أندفع الى تلك النتائج ؟ أتراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن ••• ؟ أتراني أؤكد شيئاً ؟••• انتي لم أزد حينذاك على أن سجَّلت ملاحظات • ما الذي كان يضمه ذلك كله ؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، ربما لا شيء قطعاً ! معنى هذا أنني لا أستطيع أن أتباهى باندفاعاتي وحماساتي تلك ! وهذا يقولوا على ذراعيّ ، وهذه وقائع ملموسة تتناوله ••• انها وقائع رغم كل شيء ، هي وقائع شتت أم أبئت ! وعندئذ كان لا بد لي من العودة الى السيكلوجيا • ذلك انتي لا بد لي من الاهتمام به • ان القضية بالنسبة اليه قضية حياة أو موت ، أليس كذلك ؟ ربما سألتني لماذا أشرح لك هذا كله ؟ فاعلم اذن انتي انما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر ، ومن أجل أن تبرئني في قرارة نفسك وضميرك فما تحكم عليّ أو تدينني اذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خبت وشر • هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبيثاً أو شراً ، أؤكد لك ذلك • هيء هيء هيء • وأنت تقول لنفسك . « لماذا لم ييجيء الى مسكني يفتشه حينذاك ؟ » ، فاعلم أنني جئت ! هيء هيء ••• جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً • ولم أجيء بصفة رسمية ، ولكنني جئت • وفُتِّش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تنج منه أخفى زواياه وأركاناه • حدث هذا منذ أولى الشبهات ••• ولكن « دون

جدوى » * عندئذ قلت لنفسي : « الآن ، سيجيء هذا الرجل ، سيجيء من تلقاء نفسه ، وسيجيء في وقت قريب جداً . اذا كان هو الجاني فلا يمكن أن يجيء . لو كان الجاني شخصاً آخر غيره ، فان ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء ، أما هو فلا بد أن يجيء اذا كان جانياً . » هل تذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر ؟ نحن الذين دبّرنا هذا لنبت في نفسك الاضطراب ، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه . ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يكتموا غيظهم . أما زاموتوف فان الشيء الذي فجأة خاصة انما هو غضبك وتهورك . عجب أمرك : كيف يستطيع انسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجأة : « لقد قتل ! » ؟ حقاً ان في ذلك لاسرافاً . هذا تهور غريب ! ... وعندئذ قلت لنفسي : « اذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال » . نعم ، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك . وانتظرت . انتظرتك بكل ما أملك من قوى ، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زاموتوف ... والمصيبة كلها انما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين . كنت اذن أنتظرك ، فأرسلك الله الى ذات يوم ! لقد جئت ! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم ؟ ما كانت حاجتك الى المجيء ؟ وذلك الضحك المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت ، هل تذكره ؟

ذلك كله كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر . لقد حزرت كل شيء ! ولكن لولا أنني انتظرتك وأنا في حالة نفسية خاصة ، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أى دلالة . فانظر الى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً ! والسيد رازوميخين ، في ذلك اليوم ... أ ... والصخرة التي خُبِست تحتها الأشياء ! يخيل الى أنني أرى تلك الصخرة ، أراها في مكان ما ، في بستان من البساتين ... أليس عن

بستان انما تحدثت الى زامبوتوف أولاً ، وعندي بعد ذلك ؟ وحين اخذنا
نحلل مقالتي ، حين قمت انت بعرض ما تضمنته تلك المقالة من اراء ،
فان كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج : فواء كل قول من تلك
الأقوال كان يختبئ في نظري معنى مضمّر . نعم ، ياروديون رومانوفش ،
بهذه الطريقة انما وصلت الى تلك النقطة القصوى ، ولكنني حين وصلت
الى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسي ، كان لا بد أن أثوب الى
رشدي . قلت لنفسي : « الى أين أنا ذاهب ؟ » + ذلك أننا نستطيع ، اذا
نحن شئنا ، أن نفسّر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير كل
المخالفة ، بل مناقضاً له تمام المناقضة ، ولعل التفسير الجديد أن يكون
أقرب الى الاحتمال . نعم ، قد يكون أقرب الى الاحتمال ، انني أعترف
بذلك . لشد ما تعذبت ! قلت لنفسي : « لا ، لا ، ان أية واقعة تفصيلية
صغيرة تنفعني أكثر مما تنفعني هذه الاستنتاجات كلها ! » + لذلك حين
سمعت عن تلك القصة ، قصة جرس الباب ، رأيته أوشك أن أسقط ،
وسرت في جسمي رعشة . آ . . . هأنذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية
المنشودة ! لم يبق الآن شك في أنه هو الجاني . ولم أحاول عندئذ أن
أعمل عقلي وأن أفكّر . كنت لا أرغب في ذلك أية رغبة . وكنت
مستعداً لأن أدفع في تلك اللحظة ألف روبل في سبيل أن أراك « بعيني »
تسير مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، مع ذلك البائع الصغير الذي قذف
وجهك بذلك اللقب ، لقب القاتل ، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة
أن تسأله عن أي شيء ! وتلك الرعدات التي كانت تسري في ظهرك ،
وذلك الجرس الذي كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك ؟ فلماذا تستغرب مني
بعد هذا ، يا روديون رومانوفش ، انني لجأت الى تلك الطريقة التي
تعرفها ؟ ثم لماذا جئت الى في ذلك الأوان نفسه ؟ يميناً ان هناك شيئاً
كان يدفعك المجيء الى دفعاً . . . ولولا أن نيقولا قد قطع حديثنا . . .

هل تتذكر وصول نيقولا ؟ آه ... كان ذلك أشبه برعد مفاجيء ! نعم ،
 كأن الصاعقة قد نزلت عند قدمي * ولكن كيف استقبلت أنا ذلك ؟ لم
 يهزني الرعد ... لم تهزني الصاعقة ... لا بد أنك لاحظت ذلك *
 وبعد انصرافك ، حين أخذ يجب عن أسئلتى حول عدد من النقاط
 اجابات محكمة متوافقة تبلغ من الاحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً ،
 لم أشأ أن أصدق أقواله حينذاك * انظر الى مدى تأثير الفكرة التي تقوم
 في الذهن وتستقر فيه راسخة ! قلت لنفسى : « لا ، لا ، الى صباح غد ! *
 ان نيقولا لا شأن له في هذا الأمر كله ! »

قال راسكولنيكوف :

— قال لى رازوميخين منذ قليل ان اتهاك ينصب الآن على نيقولا ،
 وانك اقعت رازوميخين بأن ...

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه ، فان انفاسه قد
 اختنقت * كان يشعر بانفعال شديد واضطراب لا يغالب ، أثناء اصغائه
 الى حديث هذا الرجل الذي ينفذ الى سريره * وكان يخاف أن يصدق
 ما كان يقوله له هذا الرجل ، بل كان يرفض أن يصدقه ، ويحاول
 بشراهة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معاني محددة دقيقة *

وكانما أفرح بورفير بتروفتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه
 سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت ، فصاح يقول :

— السيد رازوميخين ! هـى هـى ! ذلك أن المسألة كانت هـى
 التخلص من رازوميخين : حيثما يتسع المكان لاثنين ، يكن الثالث زائداً !
 رازوميخين شيء آخر ، هو غريب عن هذا كله ! ثم انه قد جاء الى
 صاحب الوجه شحوباً ... ولكن دع السيد رازوميخين جانباً الآن ، كان
 الله معه ! أما عن نيقولا فهل يهكم أن تعرف أى نوع من الناس هو ،

أو كيف أتصوره أنا على الأقل ؟ هو قبل كل شيء طفل • انه لما يبلغ سن الرشد • ولست أدعى أنه خوَّاف جبان على وجه الدقة ، ولكن في وسعي أن أشبهه ••• بفنان ! هو ساذج • أى شيء يؤثر فيه • له قلب رقيق ، وله خيال أيضاً • ولقد تعلم في المدرسة • وهو يحسن الغناء والرقص • ويظهر أنه يجيد رواية قصص يسعى الناس إليه من بعيد ليسمعوها • وهو يضحك في كل مناسبة ، ويظل يشرب حتى يسقط كاليت من فرط السكر • ولكنه لا يشرب لأنه ميل الى السكر ، وانما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يغرون به كما يغرون بطفل ، فهم لا يرحون يصبون له خمراً ! لقد سرق منذ مدة ، ولكنه لم يدرك أنه سرق • قال في تفسير فعله : « تناولت ما كان ملقى على الأرض » فأنا اذن لم أسرق •• هل تعرف معنى « راسكولنيك » ؟ ان يقولوا فتى من هذا القبيل • على كل حال ، كان عدد من أفراد أسرته قد انتسوا الى ملة « الجوالين » ؟ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النسّاك في الأقاليم مدة سنتين • ذلك كله قد عرفته من نقولاً نفسه ومن أهل بلدته زارايك • أكثر من ذلك أنه كان يريد أن يفرّ الى الصحراء مصرّاً اصراراً شديداً • لقد كان متحمساً لللقى حماساً لا تصدّق ، فكان يقضى ليلته مصلياً متهجداً ، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءتها ••• الكتب القديمة ••• الكتب الحقيقية ! ••• ثم أحدث فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً • أصبح يحب الجنس الضعيف ، بل وأصبح يحب الحمرة بعض الحب أيضاً • واذ أنه شديد التأثر بالبيئة التي تحيط به ، فسرعان ما نسى شيخه • وأنا أعلم أن فناناً رسّاماً قد أخذ يهتم به ، ويعطيه دروساً • ولكن في تلك الآونة ، وقع ذلك الحادث المؤسف • استولى الخوف على الفتى في أول الأمر ، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب • ما حيلتنا اذا كان الشعب قد كوّن لنفسه مثل هذه الأفكار عن

قضائنا ؟ ان كلمه « المحكمة » وحدها ترهب وتلقى الذعر فى النفوس •
 ذنب من هذا ؟ آمل أن تستطيع المحاكم الجديدة رد الامور الى نصابها •
 نعم ، أسأل الله أن ••• على كل حال ، فقد وضع يقولوا فى السجن •
 ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت الى خياله هناك ،
 ولا شك أن التوراة رجعت تفعل فعلها فى نفسه ! هل تعرف يا روديون
 رومانوفتش مدى ما لفكرة « الألم » من تأثير فى بعض الناس ؟ ان هناك
 أناساً يحبون أن يتألموا لا فى سبيل شخص من الأشخاص فحسب ، وانما
 هم يحبون أن يتألموا وكفى ، لأن على المرء أن يتألم ، وأن يقبل الألم
 ويرتضيه ، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات • لقد عرفت فى الماضى
 سجيناً موادعاً مسالماً الى أبعد الحدود ، لبث فى السجن سنة بكاملها يتربع
 فوق المدفأة ليقراً التوراة فى كل ليلة من الليالى ، حتى بلغ من ذلك أنه
 فى ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير
 السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزّه أىّ استفزاز • ولكن
 كيف رمى السجين آجرته ؟ لقد رماها بحيث تسقط بعيدة عن هدفها
 مسافة متر على الأقل ، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذى كان يجب
 أن تتجه اليه • وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير
 السجن ! لقد ارتضى الرجل أن « يتحمل الألم » ! لذلك أرانى آميل الى
 الاعتقاد بأن يقولوا يستهدف شيئاً من هذا النوع ! بل اننى من ذلك لعلى
 يقين • يكفى أن تدقق فى الوقائع ! ولكن يقولوا لا يعرف أننى أعرف •
 ماذا ؟ أترأى لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كشعبنا أفراد
 خارقون الى هذه الدرجة ؟ أوكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد
 كثيرون • ان تأثير الشيخ فى يقولوا قد عاد يظهر الآن من جديد ،
 لا سيما فى اللحظات التى يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه • على كل
 حال ، سيجيء فيقص على كل شئ هو نفسه ! هل تظن أنه سيصير على

أقواله ؟ لترينَّ أنه متراجع عنها ! نعم ، اننى انتظر ، من لحظة الى أخرى ، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى • لقد أخذتني بنقولا هذا عاطفة ، فعكفت على التعمق فى دراسته • لقد استطاع فى بعض النقاط أن يضفى على أقواله مظهر المعقولة • واضح أنه كان قد فكر فى الأمر • ولكنه فى نقاط أخرى كان يتناقض • انه لا يعرف شيئاً البتة ، بل ولا يدرك أنه لا يعرف ! • • • لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجانى ! نحن ازاء قضية غامضة عجيبة كالحيال • ان هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذى نعيش فيه ، انها تحمل طابع عصرٍ اضطرب فيه القلب الانسانى ، عصرٍ يقول فيه بعضهم ، مستشهداً بأقوال كتاب ومؤلفين ، ان الدم « يطهر » ، عصرٍ لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعى الى الرخاء • نحن ازاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة ، وسمّته الآراء والنظريات ! ان الجانى قد استجمع للقيام بتجربته قدراً كبيراً من الجسارة ، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص ، حتى لكأنه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه • لقد نسى أن يعلق الباب وراءه ، ولكنه قتل ، قتل شخصين ، انقياداً لنظريته • وقد قتل ، لكنه لم يعرف كيف يستولى على المال ؛ وما استطاع أن يحمله معه ، انما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرة • ولم يكتف بأشكال القلق والخوف التى كان قد عاناها فى حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعاً قوياً على الباب ، وبينما كان الجرس يرن بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو فى حالة تشبه الهذيان ، فرجع الى البيت الحالى ليشعر مرة أخرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التى سرت بين كتفيه أول مرة • • • لنسلم بان ذلك نتيجة من نتائج المرض ، غير أن هناك شيئاً آخر : لقد قتل ، ولكنه يعتقد أنه انسان شريف ، وهو يحتقر الناس ، ويصطنع دور ملاك من الملائكة !

لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجاني ، لا يا عزيزي ، ليس هو نيقولا أبداً !

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مختنق وقد نفدت قدرته على الاحتمال :

— من ... الذى ... قتل ... اذن ؟ ...

فارتد بطرس بتروفتش الى وراء مستنداً على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله ، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه :

— من قتل ؟ سؤال عجيب ... الذى قتل هو « أنت » يا روديون رومانوفتش ...

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس ، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع :

— أنت الذى قتلت !

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً ، ولبث واقفاً بضغ ثوانٍ ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة . وطافت بوجهه حركات تشنجية .

دمدم بورفير بتروفتش يقول بنوع من العطف :

— ها هي ذى شفتك ترتجف كما ارتجفت فى المرة السابقة .

ثم أضاف بعد صمت قصير :

— أحسب أنك لم تفهمنى جيداً يا روديون رومانوفتش ، وذلك هو السبب فى أنك مدهوش الى هذه الدرجة من الدهشة . أنا انما جئت اليك لأقول لك كل شيء ، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً .

ثأناً راسكولنيكوف يقول كطفل ضُبط متلبساً بالجُرم :

— ما أنا الذى قتل !

فأجابه بورفير بلهجة رصينة فيها اقتناع :

— بل أنت الذى قتلت !

وسكت الاثنان • وأعقب ذلك صمت ، صمت غريب طويل ، دام عشر دقائق على الأقل • كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة ، وأخذ يبعثر شعره بأصابعه • وقد ظل بورفير بتروفتش جالساً ، هادئاً ، ينتظر • وفجأة نظر اليه راسكولنيكوف باحتقار •

قال راسكولنيكوف :

— تستأنف أساليبك يا بورفير بتروفتش ؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه ؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر ؟

أجابه بورفير :

— أوه ! لست الآن فى حاجة كبيرة الى أساليب ! لو كان ههنا شهود ، لاختلف الأمر طبعاً ، ولكننا نتحدث على انفراد فى خلوة ! أنت نفسك ترى أننى لم أجيء اليك لأنصب لك شباكاً واصطادك كآرنب ! انه ليستوى عندى الآن أن تعترف وأن لا تعترف ! فاقتناعى قائم على كل حال !

سأله راسكولنيكوف غاضباً :

— فلماذا جئت اذا كان الأمر كذلك ؟ اننى أطرح عليك هذا السؤال من جديد : اذا كنت ترى أننى أنا الجانى ، فلماذا لا تسجننى ؟

— هذا سؤال معقول فعلاً ، وسوف أجيبك عنه نقطةً نقطةً ، فأقول أولاً : انه ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن

— كيف لا يكون هذا في مصلحتك ؟ اذا كنت مقتنعاً فيجب عليك أن

— ما قيمة اقتناعي ؟ انه لا يقوم حتى الآن الا على افتراضاتي • ثم فيم أضعك هنالك « فترتاح » ؟ لو سجنك لأرحتك • انك تعرف الجواب ما دمت قد ألقيت السؤال • ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الصغير فقلت له : « أتراك ما تزال سكران ؟ من ذا الذي رأيته معك ؟ أنا لم أزد على أن عددتك سكريراً لأنك كنت سكران ! » ، فماذا يمكنني عندئذ أن أعرض ؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب الى العقل من روايته هو ، لأن أقواله لن تكون قائمة الا على السيكولوجيا وستكون أنت قد ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكرير مدمن حقاً ، فما من أحد يجهل ذلك • ومن جهة أخرى ، ألم أعترف لك أنا نفسي ، مراراً ، بأن هذه السيكولوجيا ذات حدين ، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأنًا وأبلغ خطراً • هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أى دليل وضعي عليك • طبعاً ، سأمر باعتقالك ؛ ورغم انني ، على خلاف السنن والأصول ، أعلن لك ذلك ، فأنني على خلاف السنن والأصول أيضاً ، أصرّح لك بأن اعتقالك ليس في مصلحتي • ذلك أولاً ، وأما ثانياً ، فأنني قد جئت من أجل أن

— من أجل ماذا ، ثانياً ؟

كان راسكولنيكوف يلهث • فأجابه بورفير :

— سبق أن قلت لك ! لقد جئت اليك من أجل أن أبرر سلوكي وأعتذر عنه ! ذلك حق لك على • لا أريد أن تعدني شيطاناً رجيماً ،

لا سيما وأنتى أضمر لك عاطفة طيبة صادقة ، صدقتَ أم لم تصدق !
 ينتج عن ذلك - وهذه هى النقطة الثالثة - انتى جئتَ اليك لأقترح عليك
 اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة مسبقة : انتى أشجعك على أن تتفقاً هذه
 الدمل ، فتمضى تعترف بأنك أنت الجانى + ذلك أنفع لك ، واجدى
 عليك ، وهو أنفع لى أنا أيضاً ، لأنه يخلصنى من هذا العبء ! ما قولك ؟
 أليس هذا الاقتراح صراحةً منى ؟

فكر راسكولنيكوف دقيقة ، ثم قال :

- اسمع يا بورفير بتروفتش + لقد قلت أنت نفسك ان كل ما تملكه
 من قرائن ضدتى لا يبدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً ، وأنت مع ذلك
 تتوق الى دليل رياضى + فما الذى يضمن لك أنك لست على خطأ ؟

- لا يا روديون رومانوفتش ، لست على خطأ + أنا أملك الآن
 دليلاً ، دليلاً اهتديت اليه منذ مدة + ان الله هو الذى أرسل الى هذا
 الدليل +

- أى دليل ؟

- لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش + ثم انتى أصبحت لا أملك
 حق التأجيل ، فسوف أعثقلك ، ولكن احكم على الأمر بنفسك : أنا الآن
 لا يهمنى القرار الذى قد تتخذه ، ومعنى هذا انتى انما أكلمك فى سبيل
 مصالحتك وحدها + شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك الى
 السلطات للاعتراف بفعلتك خير لك +

ضحك راسكولنيكوف ساخراً ، ثم قال :

- كلامك ليس مضحكاً فحسب ، بل هو أحق أيضاً + هبنى أنا

الجانى (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيم أمضى أشى بنفسى لكم وقد قلت لى أنت نفسك ان الإقامة هناك فى السجن هى « الراحة » ؟

- يا روديون رومانوفتش ، لا تسرف فى فهم ما أقوله لك فهماً حرفياً • من الجائز جداً أن لا تكون هى « الراحة » تماماً ! وما هذا الا نظرية خاصة بى ، وهل أنا فى نظرك حجة ؟ • • • ولعلنى أنا نفسى أخفى عنك فى هذه اللحظة شيئاً ما • انك لا تستطيع أن تطمع فى أن تتلقى منى جميع مساراتى وأن تستعملها على هواك ! أما النقطة الثانية ، أعنى الفوائد التى ستجنيها من الاعتراف ، فهى واضحة وضحاً تماماً فيما أظن • فكّر فى تخفيف العقوبة التى يمكن أن تناله ، فكّر فى هذا التخفيف وحده ! « مع أن شخصاً آخر قد نسب الى نفسه جريمة القتل ، وبلبل القضية كلها • • • » • على كل حال ، فان لك على عهداً أمام الله أننى سوف أعرف كيف أُلّف وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه ، حتى دون أن يخطر ببالك ذلك • سوف نخرّب كل ذلك الصرح السيكولوجى ، سوف أبدّد جميع الشبهات التى قامت ضدك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية ، وهى فى الحق كذلك • أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش • وسأحقق وعدى وأفى بمهدى •

خفف راسكولنيكوف رأسه • وبعد صمت طويل ، ابتسم من جديد ، ولكن ابتسامته كانت فى هذه المرة رقيقة أسيانة •

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفى شيئاً أمام بورفير :
- لست فى حاجة الى تسامحك !

فهتف بورفير يقول مندفعاً كأنما على غير علم منه :
- ذلك بعينه هو ما كنت أخشاه ! نعم ، أنا انما كنت أخشى أن لا تكون فى حاجة الى تسامحنا !

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة ؛ وتابع بورفير كلامه فقال :

- لا تحقر الحياة هذا الاحتقار ! ان الحياة ما تزال طويلة أمامك .
كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ الا انك
لصعب المراس حقاً !

- ما عسى يكون أمامي بعد الآن ؟
- أمامك الحياة ! أنت نبى ؟ ما أدراك ؟ ابحت تجد ! لعل الله
ينتظرك هناك . ولن يكون السجن أبدياً !

قل راسكولنيكوف وهو يتسم ابتسامة ساخرة :
- سوف يخففون عقوبتي !

- لعل خجلاً" بورجوازيًا هو الذى يمنك ، على غير علم منك ،
من أن تعترف بأنك أنت الفاعل ؛ ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا .

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار :

- لست أبالى بهذا كله !

ثم بدا عليه أنه يهيم أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس ، وهو يسوء
تحت عبء ألم كبير لا يستطيع اخفائه ! قال بورفير :

- لست تبالي ؟ انك انسان كثير الشك والارتياب ، فأنت تظن أنتى
أحاول أن أتملكك تملقاً فظلاً ؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة
الواسعة العميقة كلها ؟ أنت تفهم هذا القدر كله من شؤون الحياة ؟ لقد
تخيّل نظرية وهو يستحى أن يراها تخفق وتسقط ، أو أن يلاحظ على
الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جدة وأصالة ؟

ألا ان ما خرج من نظريتك لهو أقرب الى السوء فعلاً ! ولكنك لست
امرءاً سافلاً ضاع الى الأبد ! انت لست ذلك السافل ، لا ! ولكنك
تطرفت فمضيت الى الحد الأقصى على كل حال ! هل تعرف ماذا أعدك ؟
أنا أعدك واحداً من أولئك الناس الذين يؤثرون أن تتخضعهم الجراح على
أن يتحملوا الهوان ، والذين يمكن أن ينظروا الى جلالديهم مبسمين اذا
كانوا قد اهتموا الى ايمان أو اله ! فاهتد الى ايمان واله فتحيا ! انت
أولاً في حاجة الى تبديل الهواء منذ زمن طويل • ان الألم شيء حسن
هو أيضاً • فعليك بالألم ! تألم ! من يدرينا أن نيقولا ليس على حق اذ
هو يشد الألم ويبحث عنه ويسعى اليه ؟ انك ربيى - أنا أعرف ذلك -
ولكن لا تحاول أن تسرف في التحليل ، بل استسلم لتسيار الحياة دون
تفكير ، ودع عنك القلق ، فاذا بتسيار الحياة يضعك على الشاطئ ، فتقف
على قدميك • لا أدري ما هو الشاطئ الذى سيوصلك اليه التسيار ،
ولكننى مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستحيها • أنا أعرف أنك تعد
أقوالى هذه خطبةً محفوظة على ظهر القلب ، ولكن لعل هذه الأقوال
ستنتفع حين ستذكرها فى المستقبل ، وذلك أيضاً سبب من الأسباب
التي تحضنى على مخاطبتك • من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل
الا عجوزاً شمطاء شريرة • فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن
أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة • لذلك ربما كان عليك
أن تحمد الله وأن تشكره ! وربما كان الله ، على كل حال ، يدخرك
لشيء ما ، من يدريك ! فارتفع بقلبك ، وارتق بعواطفك ، ولا تكن
صغيراً جباناً ! هل العمل العظيم الذى يجب القيام به هو الذى يخيفك
حقاً ! لا ، لا ! عار ! أن تخاف من هذا ! لقد خطوت ، فحذار أن
تراجع ! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل • فافعل ما يوجبه
العدل • أنا أعلم أنك لا تصدقنى ، ولكن شهد الله أن الحياة هى التى

ستتصر ، وأنت سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك • اما الآن
فأنت لست فى حاجة الا الى هواء ، الا الى هواء !...•

سرت فى جسم راسكولنيكوف رعدة • وهتف يقول :

- ولكن من أنت ، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التى هى
أوضاع نبى ! من عليك أية ذرى هادئة تلقى الى بهذه المواعظ والحكم
والعبر المزعومة ؟

- من أنا ؟ أنا انسان محدود ، لا أكثر من ذلك • انسان لعله
حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين ، ولعله يعرف بعض
الأمور ، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود • أما أنت فشأنك شأن
آخر : ان الله قد هياك الحياة حققة (ولكن من يدري ؟ لعل ذلك أن
لا يكون الا ناراً كنار الهشيم ما تلبث أن تنطفئ !) فما خوفك من التغير
الذى سيطراً على حياتك ؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء انسان
له قلب قلبك ؟ ماذا ؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك
أحد ؟ ان الأمر ليس مرهوناً بالزمان ، بل هو مرهون بك • كن شمساً
فيراك جميع الناس • ليس على الشمس الا أن توجد ، الا أن تكون عين
ذاتها ! ما الذى يجعلك تبسّم ؟ هل الذى يحملك على الابتسام أنك
تجدنى شاعراً ؟ يميناً انك لتظن أنى أمكر وأراوغ وأنى أريد استدراج
ثقتك ! وربما كنت على حق ، هىء هىء ! أنا لا أسألك أن تصدق كلامى
يا روديون رومانوفتش ! ولعلك تحسن صنعاً اذا أنت لم تصدق كلامى
تصديقاً كاملاً فى يوم من الأيام • ان من عادتى أن لا أكون صادقاً صدقاً
تاماً ، أعترف بهذا ! ومع ذلك ، اليك ما أريد أن أضيفه : سوف
تريك الأحداث أنا انسان شرير أم أنا انسان مستقيم شريف •

- فى نيتك أن تعقلنى متى ؟

– أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين آخرين •
فكّر يا صديقي ، وادع الله • هذا من مصلحتك • أقسم لك على انه من
مصلحتك •••

سأله راسكولنيكوف وهو يتسم ابتسامة غريبة :

– فماذا لو هربت ؟

– ، لن تهرب ! قد يهرب فلاح ، وقد يهرب واحد من اشياح
النظريات الرائجة في هذا الزمان ، لأنه امرؤ يمكن أن يفرسوا فيه
عقيدتهم الى الأبد ؛ أما أنت فلا ، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريتك •
فعلام عساك تهرب ؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الهرب ؟
ما أقطع وما آلم الحياة التي يحياها هارب ! فللمرء اذا أراد أن يحيا ، لا بد
له من وضع مستقر ، ومركز محدّد ، ولا بد له من هواء يستطيع أن
يستشقه ! لتعودنّ ثانية اذا أنت هربت ! « انك لا تستطيع أن تستغنى
عنا » • اذا أودعتك في السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً ، فلسوف
تجىء في ذات يوم فجأة فتعرف • لسوف تندفع الى هذا على غير علم منك
تقريباً • تذكر هذا الكلام الذي أقوله لك • بل اننى لعلّ يقين من أنك
سوف تعزم أمرك على التكفير • أنت لا تصدقنى الآن • ولكنك سوف
تجىء ، لأنّ الألم شيء عظيم يا روديون رومانوفتش • لا يُدهشُكَ
أن تسمعنّى أتكلّم هذه اللغة أنا الرجل الذى أسمنته دعة العيش • اننى
أقول الحق فلا تسخر ! هذه فكرة عميقة أقولها الآن ! ان يقولوا على حق •
لا ، لن تهرب يا روديون رومانوفتش !

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته • ففعل بورفير بتروفتش مثل
ذلك •

– هل تريد أن تقوم بجولة ؟ ان المساء يبشر بليلة جميلة ، اذا لم

تهب عاصفة ... على كل حال ربما كان ذلك أفضل ، فان الهواء سيزداد
بهذا طراوة ...

قال راسكولنيكوف بلهجة جافة متعجلة :

— لا يذهبن بك الظن الى أننى أدليت لك اليوم باعترافات • انت
اسان غريب ، وأنا لم أصغ اليك الا من باب الفضول ، لكننى لم اعترف
لك بشئ • تذكر هذا !

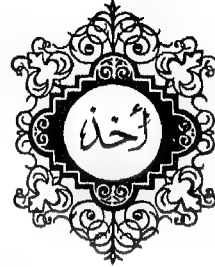
— طيب طيب ... دعك من هذا الكلام ... هذه أمور معروفة ...
لا ، لن أنسى ! انظروا كم يرتعش ! لا تقلق يا عزيزى • سنلتزم
رغبتك • تنزه قليلاً ، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود •

قال بورفير ذلك ثم أضاف خافضاً صوته :

— بالمناسبة : هناك رجاء أخير أود أن أتوجّه به اليك • هو رجاء
حرج بعض الشئ ، ولكن لا بأس : اذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف ،
لأننى لا أصدق أنك قد تعمد الى ذلك المخرج) ، أقول اذا اتفق فى
غضون الساعات الثمانى والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو
آخر ، أقصد على نحو خارق ، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذنى
على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة ، لكنها
واضحة : سطرين ، لا أكثر من سطرين ، لا أكثر من سطرين ، تقول
لنا فيهما أين توجد الصخرة • ذلك أبهى • • • هياً • • • الى اللقاء ...
أسأل الله أن يلهمك الصواب !

قال بورفير ذلك واستحب حائياً رأسه ، متحاشياً أن ينظر الى
الفتى • فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر ، بصبر نافذ ، اللحظة
التي يقدر أن قاضى التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً •
ثم غادر الغرفة مسرعاً •

الفصل الثالث



يبحث عن سفدريجاييلوف متعجلاً * انه يجهل
هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرجل * غير
أن هذا الرجل كان له عليه نوع من سلطان *
ومنذ أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد

الى الهدوء سيلاً ، وقد آن له أن يخرج كل شيء الى الضوء !
وفيما كان يسير ، كان يعدّ به خاصة هذا السؤال : هل ذهب
سفدريجاييلوف الى بورفير ؟

ولكن راسكولنيكوف كان يحيب عن هذا السؤال بقوله : اذا صدق
ظني ، فان سفدريجاييلوف لم يذهب الى بورفير بل انني لمستعد أن أقطع
يدي اذا كان سفدريجاييلوف قد ذهب الى بورفير * وفكّر راسكولنيكوف
مزيداً من التفكير ، واستعرض بخيال زيارة بورفير من جديد ، فانهى
الى هذه النتيجة : لا ، لم يذهب اليه ، لم يذهب اليه قطعاً !

ولكن اذا كان سفدريجاييلوف لم يذهب الى بورفير حتى الآن ،
فهل سينذهب اليه ، أم هو لن يذهب ؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريجاييلوف لن يقوم بهذه الزيارة ،
فى هذه الفترة على الأقل * لماذا ؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع
معرفة الأسباب التى تحمله على هذا الظن ، وهبه استطاع معرفتها ، هبه

نادراً على تفسير كل شيء ، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها •
صحيح أن ذلك كان يعذبه ، ولكن ذلك كان في الوقت نفسه ايسر
همومه • شيء غريب ، لا يكاد يصدق : ان مصيره الراهن ، المباشر ،
كان لايهمه الا قليلاً ، وكان هو لا يفكر فيه الا ذاهلاً • أمّا ما كان يعذّبه
حقاً فهو شيء آخر ، شيء أخطر شأنًا ، شيء خارق ، يخصه هو ولا
يخص أحداً سواه • وكان الى ذلك يحس بتعب روحي لا نهاية له ،
رغم أن دماغه كان في ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل في الأيام
السابقة •

ثم هل يستحق الأمر ، بعد كل ما حدث ، غناء السعي الى التغلب
على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التي لن تلبث أن تظهر في
طريقه من جديد ؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال في سبيل أن لا يذهب
سفدريجاييلوف الى بورفير ؟ هل من الضروري أخيراً أن يضع وقته في
دراسة رجل اسمه سفدريجاييلوف والمداورة والمخاتلة معه ؟

آه *** ما كان أشد سأمه وضجره وملله من هذا كله !***

ومع ذلك كان يبحث الخطى سعيًا الى سفدريجاييلوف • أليس معنى
هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً ، أنه كان ينتظر منه توجيهات ، أنه
كان ينتظر منه مخرجاً ؟ ان الغريق يتشبث أحياناً بقشة ! ألم يكن القدر
هو الذي يجمع بينهما ؟ أم أن غريزة خفية هي التي تقرب أحدهما من
الآخر ؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اعياءً وسأمًا وبأساً ؟ أم لعله
كان في حاجة لا الى سفدريجاييلوف ، بل الى شخص آخر ؟ الى صونيا ؟
ولكن لماذا عساه يذهب في هذه اللحظة الى صونيا ؟ ليستدر دموعها ؟ ثم
ان صونيا ترعبه : ان صونيا تمثل الحكم المبرم الذي لا رادّ له ، والقرار
الحاسم الذي لا رجعة عنه • لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار : فاما

أن يتبع طريقه هو واما أن يتبع الطريق الذى دلت عليه صونيا • لا ، لا ، لا ، انه فى هذه اللحظة خاصة لا يحسن انه قادر على أن يرى صونيا • أفليس الأفضل أن يجربّ حظه مع سفدرىجاييلوف ؟ ولم لا ؟ ثم انه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف ، فى قرارة نفسه ، أن سفدرىجاييلوف قد أصبح ، منذ مدة طويلة ، ضرورة له ، بمعنى من المعانى •

ولكن الأمر غريب حقاً : ماذا يجمع بين الرجلين ؟ ماذا فيهما من شبه ؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة • ثم ان فى ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً الى أبعد الحدود : لا شك أبداً فى أنه فاجر عاهر فاسق ، ولا شك أبداً فى أنه مراوغ مخاتل مكر ، بل ربما كان كذلك شمريراً الى أبعد حدود الشر ! • • • صحيح أنه يعتنى الآن اعتناءً شيطانياً بأولاد كاترين ايفانوفنا ، ولكن من ذا الذى يعرف الأغراض التى يهدف اليها من وراء ذلك ؟ ان لهذا الرجل دائماً نيات خفية !

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام ، رغم أنه حاول أن يطردها من شدة ما كانت تؤلمه • كان يقول لنفسه : « ان سفدرىجاييلوف لا يبرح يدور حولى ، وهو يدور حولى حتى فى هذه اللحظة • لقد اكتشف سفدرىجاييلوف سرى • وانه يبيّث نيات لدونيا • ألا يزال يبيّث لها هذه النيات ؟ إن المرء ليكاد يجب عن هذا السؤال بكلمة « نعم » على وجه اليقين • فماذا لو أراد سفدرىجاييلوف ، بعد أن عرف سرّى وأصبح له سلطان على ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا ؟

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى فى نومه ، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ فى يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه الى

سفدريجاييلوف ، فتشير فيه غضباً شديداً قائماً • هي أولاً تغيّر وضعه :
ان عليه الآن أن يكشف عن سرّه لدونيا ؟ وربما كان عليه أن يبادر الى
تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأى خطوة ليس فيها تعقل ! الرسالة !
ان دونيا قد تلقت رسالةً فى هذا الصباح نفسه • فمن ذا الذى يمكن ان
يكتب اليها من بطرسبرج ؟ (أهو لوجين حقاً ؟) • صحيح أن رازوميخين
يحرسها ، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً • فهل يجب عليه
أن يفضى بالحقيقة الى رازوميخين أيضاً ؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل !
وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة • وقال
يحدث نفسه جازماً : « على كل حال ، يجب أن أرى سفدريجاييلوف
بأقصى سرعة ممكنة • الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأنًا وأهون
خطرًا من جوهر القضية • ولكن ماذا لو كان فى وسع سفدريجاييلوف
أن يفعل شيئاً ، أن يتأمر على دونيا ؟ فى هذه الحالة • • • » •

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب فى أعقاب ذلك الشهر الطويل
من المعارك والانفعالات أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه
المشكلات ، والاجابة عن مثل هذه الاسئلة ، اللهم الا بكلمات باردة
يأسة كهذه : « فى هذه الحالة ، سأفعله ! » •

ان شعوراً ثقيلاً كان يجرّم على صدره ويهرقه من أمره • وقف
فى وسط الشارع ، وأجال بصره فيما حوله • أىّ طريق سلك ؟ أين
هو الآن ؟ كان فى شارع س • • • على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من
« سوق العلف » التى تجاوزها منذ قليل • ان الطابق الأول من مبنى
يقع على يساره ، هو حانة كله • جميع النوافذ مفتوحة على مصاريحها •
ومن كثرة الوجوه التى ترى عند النوافذ ، يقدّر المرء أن الحانة مملأى
بالناس • وهذه أصوات أغانٍ تصل من القاعة ، وأصوات زمارة وكمان
وطبل ، وصرخاتٌ حادة تنطلق من حناجر نساء •

همّ راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما الذى جاء به الى هذا المكان ، ما الذى اوصله الى شارع س . . . ! ولكنه ما ان همّ أن يقفل راجعا حتى لمح سفدريجاييلوف عند احدى نوافذ الحانة ، جالسا الى مائدة صغيرة وجليونه بين اسنانه . ان الدهشة التى احسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب . كان سفدريجاييلوف يراقبه ويتفحصه صامتا ، وكان يبدو عليه انه يريد أن ينهض ، كانه يحاول أن يتوارى قبل أن يرى ، وذلك أمر فجأ راسكولنيكوف ايضا . وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه ، وأخذ ينظر الى الجهة الأخرى واجما مفكرا ، مع استمراره فى النظر اليه ، بطرف عينه طبعاً . كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً . الأمر كذلك حقاً : واضح أن سفدريجاييلوف لا يريد أن يرى . لقد نزع جليونه من فمه ، وحاول أن يختبئ ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه ، وانه يرقبه ويرصده . عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذى جرى بينهما عند أول لقاء لهما فى بيت راسكولنيكوف ، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم . هذه ابتسامة مأكرة تظهر على شفتى سفدريجاييلوف وما تنفك تتضح . ان كلاهما يعرف أن الآخر يتجسس عليه . وانطلق سفدريجاييلوف يضحك ضحكة صاحبة آخر الأمر ، ثم يقول له من على نافذته :

— هيا ادخل ، ادخل اذا شئت ! أنا هنا !

صعد راسكولنيكوف الى الحانة . فوجد سفدريجاييلوف فى حجرة ضيقة جداً ، عند احدى النوافذ ، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول ما يقرب من عشرين مائدة ، باعة وموظفون وأناس من كل نوع يحسسون الشئ وسط صخب رهيب يحدثه المغنون الزاعقون بصوت واحد . وعلى مائدة سفدريجاييلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا وكأس نصف

ملأى * وكان فى هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن بارباريا ، وفتاة سمينة فى نحو الثانية عشرة من عمرها حمراء الحدين ربلة الوجنتين ترتدى تنورة مخططة مشمورة ، وتضع على راسها قبعة تيرولية (نسبة الى جبال التيرول) مزدانة بأشرطة ، ويصدر صوتها الأبح بأغنية عامية مبتذلة ، رغم صخب غناء الجوقة فى القاعة المجاورة * وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على أرغن بارباريا ****

قال سفدرىجاييلوف يقطع العزف والغناء منذ دخل راسكولنيكوف:

— هيا *** كفى !***

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً ، واتخذت وضع الاحترام ؛ وكان وجهها ، منذ قليل ، حين كانت تغنى سخافات المسجوعة ، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال *

نادى سفدرىجاييلوف :

— هيه ! فيليب ! هات كأساً !

فقال راسكولنيكوف :

— لن أشرب خمرأ *

— كما تشاء * ولست أنادى فيليب من أجلك أنت * اشربى

يا كاتيا * لم أعد فى حاجة اليك اليوم * تستطيعين أن تنصرفى *

قال لها ذلك وقد صبّ لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبل * فأفرغت كاتيا الكأس بعشرين جرعة صغيرة متتالية دون أن تفصل شفيتها عن الكأس ، كما تشرب النساء * ثم تناولت الورقة النقدية ، وقبّلت يد سفدرىجاييلوف الذى سمح لها أن تقبّل يده

وهو يُظهر أكبر الجد ، وخرجت يتبعها الصبي جاراً أرغنه . كان الصبي والفتاة قد جىء بهما كليهما من الشارع . ان سفدرينجايلوف ما كاد يقضى فى بطرسبرج هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحة والألفة والسيطرة . ان فيلب خادم القاعة هو أيضاً « صديق » حميم ، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة . وباب الحجرة يُقفل بالمفتاح ، فاذا كان سفدرينجايلوف فيها فكأنه فى بيته . ولعله كان يقضى فى هذه الحجرة أياماً بكاملها . أما الحانة القذرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية .

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

– كنت ذاهباً اليك ، كنت أبحث عنك . ولكنى لا أدرى ما الذى جعلنى أدور فجأة الى شارع س قادماً من « سوق العلف » . اننى لا أمر أبداً من هنا . وانما أنا انعطفت دائماً الى يمين « السوق » . فما ان دوت الى هذه الجهة حتى لمحتك ! شئ غريب !

– لماذا لا تقول انها معجزة ؟

– لأن من الجائز أن لا تكون الا مصادفة !

قال سفدرينجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

– غريب تفكير هؤلاء الناس ! مهما يكونوا مقتنعين بوجود المعجزات فانهم لا يعترفون بذلك ! أنت نفسك تقول ان « من الجائز » أن لا تكون الا مصادفة ! آه ما أجبنهم جميعاً اراء اعتقاداتهم نفسها ! لا تستطيع أن تخيل يا روديون رومانوفتش لست أقصدك أنت فأنت لك آراؤك الشخصية ، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية . حتى انك بهذا نفسه انما أثرت اهتمامى وأيقظت فضولى .

- بهذا وحده ؟

- هو كافٍ جداً !

كان واضحاً ان سفدرىجايلوف مهتاج بعض الاهتياج ، ولكن
اهتياجه لم يكن شديداً جداً : انه لم يشرب الا نصف كأس من خمره .
قال راسكولنيكوف :

- يخيل الى أنك جئت تزورنى حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن
يكون لى ما تسميه رأياً شخصياً •

- آ ••• نعم ••• حينذاك كان الأمر غير هذا تماماً ! لكل امرئ
طريقته فى التصرف • أما عن المعجزة فأقول لك : لا بد أنك كنت قائماً
فى هذين اليومين أو فى هذه الأيام الثلاثة ! لقد حدثت لك أنا نفسى
هذه الحادثة ، فاذا جئت اليها الآن رأساً فليس فى الأمر اذن أية معجزة •
لقد وصفت لك الطريق الذى يجب أن تسلكه ، وذكرت لك الساعات
التي تستطيع أن تجدنى فيها • ألا تتذكر ؟
أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً :

- نسيت !

- أصدّقك • ولكننى ذكرت لك ذلك مرّتين • فلا بد أن العنوان
قد انطبع فى ذاكرتك على نحو آلى ، فاذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق
على نحو آلى أيضاً ، دون علم منك • مهما يكن من أمر ، فانى حين
كنت أكلّمك فى ذلك اليوم ، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهم عنى • انك
لا تراقب نفسك مراقبة كافية يا روديون رومانوفتش • على اننى أعرف
أن كثيراً من الناس يكلمون أنفسهم بصوت عالٍ أثناء سيرهم • هذه
مدينة سكانها أنصاف مجانيين • لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع

الأطباء ورجال القضاء والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات
ثمينة ، كل فى ميدان اختصاصه • يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى
تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثير النفس الانسانية بمؤثرات غامضة مظلمة
حادة غريبة الى هذا الحد • أياكون مرد هذا الى مناخها ؟ ولكن لما كانت
هى المركز الادارى فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد • على أن
هذا ليس ما يهمنى الآن • وانما أردت أن أقول لك اننى قد سبق أن
راقبتك أكثر من مرة • فأنت حين تخرج من بيتك تخرج على الرأس
فما ان تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعد ذراعيك وراء
ظهرك ؟ وأنت حينئذ تنظر ، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك ، ثم
تأخذ تحرك شفتيك وتكلم نفسك ؟ بل يتفق لك أحياناً أن تحرك
يديك بإشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك ؟ ثم اذا أنت تقف فجأة فى
وسط الشارع ، وتلبث هنالك مدة طويلة • هذا غير مستحسن أبداً •
قربما كان هنالك أناس غيرى يلاحظونك ويراقبونك ، وأنت بهذا تسىء
الى نفسك وتعرض للخطر • أقول لك ذلك بصراحة • صحيح أن الأمر
لا يهمنى ، واننى لست من سيثيفيك ، ولكن لعلك تفهم عنى ••

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر اليه مستطعاً :

– أتعرف أنهم يلاحقوننى ؟

قال راسكولنيكوف مدهوشاً :

– لا ، لم أكن أعرف ذلك !

ددم راسكولنيكوف بمقطباً حاجبيه :

– فلا تتحدثن بعد الآن عنى !

– طيب ! لا تتحدثن بعد الآن عنك !

- قل لى : اذا كنت تجيى الى هنا لتشرب ، واذا كنت قد حددت لى هذا المكان مرتين لأوافيك فيه ، فلماذا اختبأت عني منذ قليل حين نظرت اليك من الشارع حتى لقد أردت أن تنصرف ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح *

- هىء هى ! بل قل لى أنت : لماذا ، فى ذلك اليوم ، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب ، ظلمت أنت راقداً على سريرك ، مغمضاً عينيك ، متظاهراً بالنوم ، مع أنك لم تكن نائماً البتة ؟ لقد لاحظت أنا ذلك واضحاً كل الوضوح !

- لعل هناك أسباباً *** تدعونى الى ذلك ، وأنت نفسك تعرف هذا *

- ولعل هناك أسباباً تدعونى أنا أيضاً ، رغم أنك لا تعرف ما هى تلك الأسباب *

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة ، وأسند ذقنه الى يده اليمنى ، وحدّق الى سفديريجايلوف ، وظل دقيقةً طويلةً يتأمل هذا الوجه الذى ما انفك يحثّره * انه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً : هو وجه أبيض ، أحمر ، له شفتان قرمزيّتان ولحية حمراء وشعر أشقر غزير ؛ والعينان زرقاوان جدّاً ، والنظرة ثقيلة مسرفة فى الثقل ، ثابتة مسرفة فى الثبات * ان فى هذا الوجه الوسيم الذى ظل شاباً نضراً رغم السنين ، شيئاً منفراً الى أبعد الحدود * وكان سفديريجايلوف يرتدى بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف ، ويتميز خاصةً بمقيصه الناصع البياض * وكانت احدى اصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصّع بحجر ثمين *

قال راسكولنيكوف فجأة يمضى الى هدفه رأساً وقد نفذ صبره :
- هل على حقاً أن أتحملك أنت أيضاً ؟ لعلك أنت أخطر البشر

حين تقرر أن تلحق بأحد ضرراً أو أذى ، ولكننى مع ذلك لا أريد أن أحاول الاحتماء منك • سوف أظهر لك على الفور أننى لا أقيم وزناً لشخصى الى الحد الذى تتصوره • اعلم أولاً اننى انما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة انك اذا كنت ما تزال تضرر لأختى تلك النيات نفسها ، وكنت تعوّل على استخدام السر الذى اكتشفته مؤخراً ، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعنى فى السجن • انى اذا قلت فعلت • هذا واذا كان هنالك شيء تريد أن تفضى به الىّ - اننى لأحس منذ مدة أنك تريد أن تقول لى شيئاً ما - فأسرع اذ قد يفوت الأوان بعد قليل !

سأله سفدرىجايلوف وهو يتفرس فيه مستطلعاً مستغرباً :

- ولكن ما الذى يحملك على هذا الاسراع كله ؟

فأجاب راسكولنيكوف نافذ الصبر مظلم الوجه :

- كل امرئ يعمل بطريقته الخاصة •

قال سفدرىجايلوف مبتسماً :

- أنت نفسك تدعونى الى الصراحة ، ثم اذا بك ترفض أن تجيبنى منذ أول سؤال ألقيه عليك • انك ما تزال تتصور أننى أبيّت مشاريع ، وأضمر نيات ، وهذا هو السبب فى أنك تنظر الىّ نظرة ريبة واشتباه • على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تاماً فيمن كانت حالته كحالتك • ولكن مهما تكن رغبتى فى أن أحيا على تفاهم ووافق معك ، فاننى لن أكلّف نفسى عناء ازالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك • ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء وأيم الحق • ثم اننى لا أتتوى البتة أن أتحدث معك فى أمور خاصة جداً •

ـ فلماذا تحتاج الىّ هذا الاحتياج كله اذا كان الأمر كما تقول ؟
ذلك أنك ما تنفك تحوم حولي ***

ـ لا لشيء الا لأنك امرؤ تشوق ملاحظته ، وتحلو مراقبته • لقد
فتنتني بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب • هذا كل شيء !
ثم انك أخو إنسانة شافتني كثيراً ؛ وطالما حدثني عنك تلك الاسانة ،
فاستنتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً ، فهل هذا
قليل ؟ هيء هيء هيء ! على أنني أعترف لك بأن سؤالك يبدو لي معقداً
تعقيداً شديداً ، فيصعب عليّ أن أجيب عنه • اليك هذا المثال : ألم تأت
أنت الى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم في أعمال؟
أليس هذا صحيحاً ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كذلك ألحّ سفدريجايوف وهو يتنسم ابتسامة مأكرة خبيثة • ثم
تابع كلامه :

ـ ألا فاعلم اذن أنني ، أنا أيضاً ، منذ كنت في القطار الذي أقلني
الى بطرسبرج ، كنت أعوّل عليك أنت نفسك ، وآمل أن تقول لي شيئاً
« جديداً » *** الخلاصة : كنت آمل أن أقترض منك شيئاً • نعم !
أنظر الى أي حد نحن أثرياء !

ـ أن تقترض مني ماذا ؟

ـ ماذا أقول لك ؟ أنا أعلم ؟ انك لترى في أية حانة حقيرة موبوءة
أقضى وقتي • انني أجد في هذا لذة • لذة ؟ لا *** هذه مبالغه • ولكن
لا بد للمرء من أن يقضى وقته في مكان ما *** حتى تلك المسكنة كاتيا
*** هل رأيتها ؟ ويا ليتني كنت على الأقل رجلاً شديداً النهم والشرهة
أو رجلاً محباً لأطياب الطعام ! ولكن انظر قليلاً *** هذا كل ما أستطيع
أن ألتهمه ***

قال ذلك وهو يشير باصبعه الى ركن المائدة التي تستلقى عليها ، فى طبق من معدن ، بقايا شريحة كريمة من لحم البقر مع البطاطس • وتابع كلامه يسأل :

— بالمناسبة ، هل تغديت ؟ أما أنا فانتى ما كدت أكل قطعة حتى اكتفيت • وأنا لا أشرب الحمر أيضاً • لست أشرب الا شمبانيا ، ولست أشرب من الشمبانيا الا كأساً واحداً تكفينى السهرة كلها ، عدا أن هذه الكأس الواحدة تصدّع رأسى • ولئن طلبت اليوم شمبانيا ، فلكى أنتعش قليلاً ، لأن علىّ أن أذهب الى مكان ما بعد برهة ؛ وهذا هو السبب فى أنك تجدنى على حالة نفسية خاصة جداً • منذ لحظة ، اختبأت كتلميذ صغير ، لأننى تخيلت أنك سوف تزعجنى ، ولكن أعتقد أن فى وسعى (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة • الساعة الآن هى الرابعة والنصف • هل يمكنك أن تصدّق ؟ يا ليتنى كنت شيئاً ما على الأقل • • • ليتنى كنت مالك أرض مثلاً أو ربّ أسرة أو حتى جندياً ، أو مصوراً ، أو صحفياً ، ولكن لا • • • لست شيئاً • • • لست شيئاً البتة • • • ليس لى أى اختصاص ! حتى اننى أضجر بعض الأحيان • حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لى شيئاً جديداً •

— ولكن من أنت ، ولماذا جئت ؟

— من أنا ؟ انك تعلم من أنا : أنا رجل من وجوه القوم ، قضيت سنتين فى سلاح الفرسان ، ثم تسكعت هنا ببطرسبرج ، ثم تزوجت مارتا بتروفنا وعشت فى الريف • تلك سيرة حياتى !

— أنت ، فيما أظن ، مقامر • أليس كذلك ؟

— مقامر ؟ لا • • • أنا غشاش لا مقامر •

— كيف ؟ هل غششت ؟

- نعم ، فعلت هذا أيضاً •
- فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً ، أليس كذلك ؟
- حدث هذا • وبعد ؟
- كان فى إمكانك على الأقل أن تقتل فى مبارزة ... ذلك أمر يفور له الدم •
- لن أعارضك ، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلتى فيه • أعترف لك بأننى انما جئت الى هنا من أجل النساء خاصة •
- أبعد دفن مارتا بتروفنا فوراً ؟
- نعم • ثم ماذا ؟ أى ضير تراه فى أن أتكلم عن النساء هكذا ؟
- بذلك أجاب سفدرىجاييلوف وهو يتنسم ابتسامة صراحة مفحمة • فقال راسكولنيكوف :
- تسألنى أى ضير أراه فى أن يعيش المرء حياة دعارة ؟
- حياة دعارة ! آآآ ذلك هو ما يحقنك • ولكن فلنمض فى مناقشة الأمر على منهج سليم : سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة • انى امرؤ أحب الثرثرة كما ترى • قل لى : لماذا يجب على أن أُلجم اندفاعاتى وأكبت رغباتى ؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن ؟ انهن شاغل على الأقل ...
- فليست آمالك كلها اذن الا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق ؟
- لنسلّم بأنها الدعارة أو الفسق ، ما دمت حريصاً على ذلك •
- اننى أحب الأسئلة المباشرة على كل حال • ان للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الانسانية ولا يخضع لنزوات الخيال ، شيئاً باقياً مستمراً فى الدم ، كجذوة متوهجة ، مستعدة فى كل لحظة لأن تلتهم ، لا تنطفئ فى وقت مبكر ، بل لا تقضى عليها السنون • ثم ان عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل ...

- ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنيء نفسك به • هذا مرض ، بل هو مرض خطر •

- آ ••• هذا ما تريد أن تنتهي إليه ! اننى أوافقك على أنه مرض ، كسائر الأشياء التى تتجاوز حدود الاعتدال • وحدود الاعتدال يتجاوزها الناس ، فبعضهم يتجاوزها بطريقة ، وبعضهم يتجاوزها بطريقة أخرى • وينبغي للمرء طبعاً أن يعتدل ، رغم أن هذا حساب دنىء • ولكن ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ ذلك أن الانسان اذا لم يتهياً له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن ينتحر • اننى أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً ، هذا عدا أن •••

- هل أنت قادر على أن تنتحر ؟

أجاب سفدريجايلوف متأففاً :

- يا له من سؤال !

ثم أضاف يقول متعجبلاً ، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذلك الذى كان قد اصطنعه الى ذلك الحين ، حتى أن وجهه قد تغير :

- أرجوك لا تكلمنى فى هذا الموضوع ! ••• اننى أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر ، ولكن ما حيلتى ؟ اننى أخاف من الموت ، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد • هل تعلم اننى أؤمن قليلاً بالغيبيات ؟

- آه ••• هو شبح مارتا بتروفا ! أما يزال يظهر لك اذن ؟

قال سفدريجايلوف :

- لندع هذا الأمر ! فى بطرسبرج ، لم يحدث هذا حتى الآن !

ثم هتف يقول حائقاً :

- على كل حال ، شيطان يأخذه ••• لا ، لا ، فلندع هذا الأمر ،

ولتتكلّم فى *** همّ *** نعم *** لم يبق لى الا قليل من الوقت ***
لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً * خسارة ! ذلك أن
هناك أموراً كثيرة كان يمكننى أن أنقلها اليك *

— أهى أمور تتعلق بامرأة أيضاً ؟

— نعم ، بامرأة ! *** حالة لا يتوقعها المرء أبداً *** حالة ليست
ما تظن ***

— أأنت لا تشعر اذن بثقل هذا الجو الذى تعيش فيه ؟ أليس يؤثر
فيك ؟ هل فقدت القوة على *** على أن تتوقف ؟

— ماذا ؟ أأنت تكلمنى عن القوة ؟ هه *** انك تذهلنى دهشة
يا روديون روماتشس ، رغم اننى كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون
هكذا ! أأنت من يكلمنى عن الفسق وعن جمال الفضيلة ؟ أأنت انسان
من نوع شيللر ، انسان مثالى ؟ صحيح أن هذا كله طبعى ، حتى أن
نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدهشة *** ولكنه مع ذلك يبعث على
الاستغراب * آه ** خسارة أننى لا أملك الا وقتاً قصيراً ! ذلك أنك من
أكثر الناس ايقاظاً للاهتمام ، واثارة لحب الاطلاع * بالمناسبة : أنت تحب
شيللر ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً *

قال راسكولنيكوف بشىء من الاشمئزاز :

— يا لك من مدعٍ متفاخر !

فأجاب سفدريجاييلوف وهو يضحك مقهقهاً :

— لا ، أقسم لك ! *** على أننى لا أنفى أقوالك * صحيح ***
أنا مدع متفاخر ! *** لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذى أحداً ؟
لقد قضيت سبع سنين فى الريف ، عند مارتا بتروفنا * لذلك فاننى ما ان

التق برجل ذكى مثلك حتى أرتمى عليه • نعم •• برجل ذكى ، بل
برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك • نعم ، اننى أسعد أكبر السعادة
بالتحدث معك قليلاً ، ناهيك عن أن نصف الكأس الذى شربته من الحمره
قد صعد الى رأسى ، غير أن هناك أمراً كان له كثير من ••• ولكننى أوثر
أن أسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه • الى أين أنت ذاهب ؟

كذلك قال سفدرىجايلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة
مرتاعاً •

كان راسكولنيكوف قد نهض • لقد أزعجه أنه جاء الى هذا المكان ،
وأحس باختناق فى صدره • انه مقتنع الآن أنهم الاقتناع بأنه أمام أحقر
وأدناً وغد حملته الأرض على ظهرها فى يوم من الأيام •

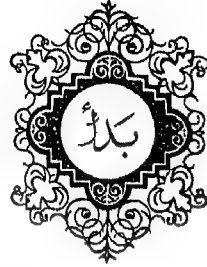
قال سفدرىجايلوف ملحاً :

– ابقى قليلاً ! لا تنصرف هكذا ! انتظر ! اطلب لنفسك ولو فنجان
شاي ! هياً اجلس ! أعدك بأن لا أكلّمك فى ترهات ، أقصد فى ترهات
عنى أنا ! اسمع ، هل تريد أن أروى لك كيف انقذتنى امرأة ، كما
تقولون أنهم بلغتمكم ؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول ، ذلك
لأن تلك المرأة هى أختك • هل أستطيع أن أروى لك ••• ثم ان هذا
سيتيح لنا أن نرجى الوقت •••

– قل ما تشاء ، ولكن آمل أن •••

– لا تقلق ••• اطمئن ••• ثم أن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن
توحى الا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة
والنفاهة !

الفصل الرابع



سفدر يجايلوف كلامه فقال :

— لعلك تعلم (ولقد ذكرت لك ذلك أنا نفسي
على كل حال) اننى قد أودعت فى السجن
لديون كانت علىّ + وكان المبلغ ضخماً لم يكن

فى وسعى أن أحاول سداذه اطلاقاً • لا داعى الى الافاضة الآن فى الكلام
على الطريقة التى اشترت بها مارتا بتروفنا حريتي • هل تعرف مدى السحر
الذى يمكن أن تستسلم له امرأة تحب ؟ • • • لقد كانت مارتا بتروفنا
امرأة شريفة مستقيمة ، ولم تكن بالغية الحماء ، رغم أنها محرومة من
أية ثقافة • فتصور أن هذه المرأة ، الشريفة الغيور ، قد ارتضت أخيراً ،
بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة ، أن تعقد معى نوعاً من ميثاق ظلت
متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة • يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر
سناً منى بكثير • وقد بلغت أنا من قلة الذوق ومن الصدق فى الوقت نفسه
اننى أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل علىّ أن أظل وفيّاً لها وفاءً
مطلقاً • فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها ، رغم أن صراحتي
قد أعجبتها بمعنى من المعانى فيما أعتقد • لقد قالت لنفسها : « معنى هذا
أنه لا ينوى أن يخوننى ما دام ينذرني سلفاً » ، وذلك هو الأمر الأساسى
فى نظر امرأة غيور • وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهى :
أولاً على أننى لن أترك مارتا بتروفنا قط ، بل أظل زوجها ؛ وثانياً على
اننى لن أغيب أبداً الا باذنها ؛ وثالثاً على اننى لن أتخذ خليفة ثابتة لها

صفه الخلية ؛ ورابعاً على أن تسمح مارتا بتروفا ، مكافأةً لى على ذلك ، بأن أغازل الحادامات ، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة ، وخامساً أن اتحاشى ، بمعونة الله ، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا ؛ وسادساً أن أكاشف مارتا بتروفا بالحقيقة اذا حدث ، لا سمح الله ، أن استولى على حب قوى . على أن مارتا بتروفا سرعان ما اطمأنت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة . انها امرأة ذكية ، فلم تستطع أن ترى فى الا رجلاً فاسقاً ماجناً ، عاجزاً عن أى حب صادق وهوى قوى . لكن الذكاء والغيرة شيان اثنان لا يتعارضان ، ومن هنا يأتى البلاء . ثم انك من أجل أن تحكم على أحد الناس حكماً حياًدياً ، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية ازاء البشر والأشياء التى تحيط بك . اننى أعتد على حسنك السليم أكثر مما اعتمد على أية ملكة أخرى . لعلك سمعت عن مارتا بتروفا سخافات كثيرة . والحق أنها كانت تتصف بكثير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً . ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك باننى اسف أسفاً صادقاً على الأحزان الكثيرة التى سببتها لها . ولكن يكفى هذا ، فيما أعتقد ، « تأبيناً » للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طراً . لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت فى أغلب الأحيان وأكظم كل غضب ، وكان هذا الوضع المهدب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه فى جميع الأحيان تقريباً . كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارتا بتروفا ، بل لقد كان يحظى برضاها واعجابها ، حتى أنها شعرت أحياناً باعتزاز بى . لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التى جرت لى مع أختك . كيف رضيت أن تجازف فتدخل الى منزلها فثاة جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة ؟ اننى لا أفسر هذا لنفسى الا بأن مارتا بتروفا امرأة سريعة التأثير والانفعال ، وأنها افتتنت بأختك . نعم ، لقد افتتنت بها حقاً . ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجرى معجى سيئاً بالنسبة

الى ، حتى اننى قررت - هل تصدّق ذلك ؟ - أن لا أرفع عيني نحو
أختك . ولكن أختك ، آفدوتيا رومانوفنا ، قامت هى نفسها بخطوة
الأولى ، هل تصدّق هذا ؟ وهل تصدقنى أيضاً اذا قلت لك ان مارتا
بتروفا قد مضت الى حدّ الغضب حين لاحظت أننى لا أكلّمها عن أختك
أبدأ ، وأننى استقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التى كانت
تسوقها لى عنها بغير انقطاع . لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذى كانت
تريد أن تصل اليه . وقد قصّت على أختك ، طبعاً ، كل ما أمكنها أن
تعرفه عني . لقد كانت لها هذه العادة السيئة ، وهى أن تروى أسرارنا
العائلية لجميع الناس وأن تشكوئى للملأ كافة ، فكيف يمكن أن لا تفعل
ذلك مع صديقة جديدة فتانة كأختك ؟ أغلب ظنى أنهما كانتا لا تتحدثان
الا عني ؛ ولا شك فى أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات
القذرة السرية التى كان الناس يتناقلونها عني بل اننى لأبرهن على
أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت !

- فعلاً ! حتى ان لوجين اتهمك بأنك كنت السبب فى موت طفل .
هل هذا صحيح ؟

أسرع سفدريجاييلوف يجب ممتعضاً :
- لا تحرك هذا الوحل كله ، أرجوك اذا كنت حريصاً
حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقائق ، فسأقص عليك خبرها
يوماً فى الوقت المناسب ، أما الآن

- وقد حدثونى أيضاً عن خادم لا أدري ما هو ، كان عندك فى
الريف ، وقالوا انك كنت أنت السبب أيضاً
قاطعه سفدريجاييلوف وقد فقد صبره فقداً واضحاً :
- أرجوك !

وتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحق متزايد :

- أنراه. هو بعينه ذلك الخادم الذى كان بعد موته يعود يملأ غليونك ؟ لقد قصصت على " أنت نفسك " ...

نظر اليه سفديرجايلوف بانتباه ، وخیل الى راسكولنيكوف أنه يرى ابتسامة خبيثة تلم بثلث النظرة سريعة كالبرق. ولكن سفديرجايلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب :

- نعم ، هو بعينه . أرى أنت أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله ؛ فلك على " ، عند أول فرصة ، أن أرضى فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك فى جميع النقاط . شيطان يأخذنى ! أرى أننى سأنتهى الى أن يعدنى جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً . فاحكم ، بعد هذا ، مدى ما أدين به لمارتا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة ! لا أستطيع أن أتنبأ قطعاً بالأثر الذى شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوى ، وكل ما أعلمه هو أننى سأستفيد . . . فرغم الكره الذى أحسست آفدوتيا رومانوفنا ازائى ، وهو كره طبيعى جداً على كل حال ، ورغم هيئتي المظلمة المتجهمة الكالحة عامة " ، فقد أشفقت على " أخيراً كما تشفق المرأة على اسنان ضائع ! وحين يمتلىء قلب فتاة « بالشفقة » ، انما تتعرض لأكبر خطر . فهى تريد حتماً أن « تنقذ » ، أن ترد الى الصواب ، أن تحيى ، أن تبعث . . . أن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعانى . وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير الى الشبكة من تلقاء نفسه ، وسرعان ما بادرت من جهتى الى اتخاذ احتياطاتى . . . يخیل اليك أنك تقطب حاجبيك يا روديون روماتش . أنت مخطئ : ان القصة كما تعلم ، قد اقصررت على سفساسف (أوه ! اننى أسرف فى شرب الخمر !) هل تعلم ؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك فى القرن الثانى أو القرن الثالث ، بمكان من الأمكنة يمكن أن

تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو والٍ في آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك
 اذن لكنت واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتي كن يتسمن
 حين كانت قضبان الحديد المحمى بالنار تمزق أنداهن ، ولكنك مضت
 تواجه التعذيب مواجهة من تلقاء نفسها • ولو قد ولدت في القرن الرابع
 أو في القرن الخامس لاعتزلت الناس ومضت الى صحارى مصر ثلاثين
 عاماً لا تغتذى الا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجد • انها لا تنتظر الا
 اللحظة التي ستمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها فى سبيل شخص
 ما ؛ بل انها لقادرة على أن تلقى بنفسها من النافذة اذا منعت من تلك
 التضحية بنفسها • لقد سمعت عن شخص اسمه السيد رازوميخين • انه
 فيما يبدو ، وكما يدل على ذلك اسمه * ، فتى ذكى عاقل لعله ابن أسرة
 من رجال الدين • فليسهر على أختك ، ليحطها برعايته ! الخلاصة :
 أحسب أننى فهمت آفدوتيا رومانوفنا ، وانى بذلك لخفور • ولكن المرء ،
 عند تعرفه الى شخص من الأشخاص ، يكون طائشاً بعض الطيش ،
 غيباً بعض الغباوة ، كما تعلم ••• فهو يرى الأشياء فى ضوء •• شخصى ،
 ولا يراها كما هى • ولكن لماذا هى جميلة ذلك الجمال كله ؟ ليس الذنب
 فى هذا ذنبى ! الخلاصة ••• اننى سرعان ما افتتنت بها افتناناً شهوانياً لم
 يكن لى حيلة فى دفعه • ان آفدوتيا رومانوفنا ذات خفر رهيب ، خفر
 لا عهد للمرء بمثله ، خفر لا يكاد يصدق العقل وجوده (لئن كنت أقول
 لك هذا عن أختك فلأنه « واقع » • نعم ، انها رغم ذكاها ، ورغم فكرها
 المنفتح جداً ، فتاة ذات خفر شديد ••• وهذا أمر قد يسىء اليها ويلحق
 بها أذى) • كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا * ، هى باراشا
 السمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التى جىء بها من قرية أخرى
 منذ برهة قصيرة ، والتى لم يسبق لى أن رأيتها فى يوم من الأيام قبل
 ذلك • كانت حلوة جذابة حقاً ، ولكنها كانت على جانب من الغباء

لا يصدق • فما أقبلت عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المنزل
بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة وجرسة • وفي ذات مساء ،
بعد العشاء ، دبّرت أفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدة في ممر
بين الأشجار بالحديقة فإذا هي « تطالبني جازمة » بأن أدع الفتاة المسكينة
مرتاحة وأن لا أضايقها • ولعل ذلك كان أول حديث يجرى بيني وبينها
في خلوة • وقد أسرعت أقطع على نفسي عهد الشرف بأن ألبي رغبتها
وأنفذ ارادتها ، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحي الحجل ،
أى عرفت كيف أمثل الدور فأحسن التمثيل • ومنذ تلك اللحظة تمت
بيننا لقاءات كثيرة في السر ، وحدثت مشاهد متكررة كانت في أثنائها
تمطرني بالمواعظ والنصائح والملاحظات ، وتضرع الى أن أغيّر حياتي ،
باكية ، نعم باكية ••• تصور ! هل تصدق هذا ؟ انظر الى أى مدى
يمكن أن يمضى حب الوعد والنصح ! وطبعى أنني حملت القدر تبعه
جميع أخطائي ، وصوّرت نفسي فى صورة رجل ظامئ الى الضياء ، ثم
لجأت أخيراً الى الوسيلة القصوى التى لا تخطئ هدفها من قلب المرأة
قط ، ولا تخيب الظن فيها أبداً ، بل تحقق غايتها وتؤثر فى جميع النساء ،
أعنى التملق بالمديح • لئن لم يكن فى العالم شئ أصعب من الصدق ،
فلا شئ فى العالم أسهل من التملق • فالصدق اذا اندس فيه عشر معشار
من كذب ، سرعان ما يخالطه نشار فتقع فضيحة • أما التملق فانه اذا كان
كذباً من أوله الى آخره ، يظل ساراً وممتعاً ، فالشخص يصغى اليه
شاعراً بلذته ان لم تكن لذّة سامية فهى لذّة على كل حال • ومهما يكن
التملق مفضوحاً فان نصف المديح على الأقل ينطلى على المدح • يصدق
هذا على جميع طبقات الناس فى المجتمع • ان فى وسعك أن تغوى بالمديح
أظهر فتاة فما بالك بغيرها ! لا أستطيع أن أتذكر - الا ويغلبنى الضحك
- كيف أغويت فى ذات يوم من الأيام امرأة مخلصّة كل الاخلاص

لزوجها وأولادها وفضائلها ... لكم كان ذلك مسلياً ، ولكم كان سهلاً ! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقته . وكان كل الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائماً انبهارى بفضائلها وعبادتي لعفتها ! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ ، وكنت اذا اتفق لى أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين ، ألوم نفسي أمامها على اننى انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة ، حتى لأتظاهر بأننى أعتقد أنها عارضت فى ذلك ، واننى ما كنت لأحصل منها على شئ .

اطلاقاً لولا أننى فاسد الأخلاق ، ولولا أنها فى براءتها وعفتها لم تستطع أن تكشف فساد خلقى فانقادت ببساطة وسذاجة دون أن تشبه أو ترتاب ، الخ الخ . الخلاصة اننى وصلت الى تحقيق غايتى وتنفيذ مآربى ، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفة طاهرة ، وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطئ الا عرضاً : لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك - وكنت على اقتناع تام بما أقول - أنها كانت تنشد اللذة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء . ولقد كانت المسكينة مارتابتروفا شديدة التأثير بالمديح ، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها ، ولو قد شئت لجعلتها تورثنى جميع أموالها وأملاكها ، حتى أثناء حياتها (اننى أشرب كما تشرب بالوعة وأتبه فى ثمرات) . آمل أن لا تؤاخذنى أو أن تحقد علىّ اذا قلت لك الآن ان تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا . ولكننى أفسدت الأمر كله بحماقتى وقلة صبرى .

لقد اتفق عدة مرات ، أثناء أحاديثى مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا فى إحدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عيى ، واشمازت اشمزازاً شديداً . الخلاصة أن لهيب الشهوة الذى كان يتوقد فى عيى بمزید من القوة يوماً بعد يوم ، مع مزید من الوقاحة فى الوقت ذاته ، قد أصبح كريهاً فى نفسها آخر الأمر . لا داعى الى أن أقصّ عليك

الأمر تفصيلاً • فلمهم أننا كففنا عن اللقاء • وارتكبت عندئذ غلطة جديدة • فقد طفقت أسخر أغلظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها ، وعادت باراشا تنال الخطوة ، ولم تكن باراشا فى هذه المرة وحيدة • الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم • آ • • • لو أنك رايت ، مرة واحدة ، يا روديون رومانثس ، كيف كانت تسطح عينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب ! صحيح أننى الآن سكران ، وأننى قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر ، ولكن ما أقوله لك إنما هو الحقيقة • أوكد لك أن تلك النظرات كانت تلاحقنى فى نومى • وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيف ثوبها ، وصرت أتوقع حقاً أن توافينى نوبة صرع من لحظة الى أخرى • ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام ، نعم ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام قط أن من الممكن أن أصير الى مثل تلك الحالة من الخروج عن طورى • وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه • فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك ؟ هل تخيل مدى السخف الذى يمكن أن يقود اليه الخلق ! اياك أن تتسرع فى عمل شيء حين تكون حائقاً يا روديون رومانوفتش ! اننى وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذنى اذا أنا استعملت هذا التعبير • • •) ، وأنها تعيش من عرق جبينها وكدّ يمينها ، وأنها تقوم باعالة أمها واعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجبيك من جديد ؟) ، قررت أن أقدم اليها كل ما أملك من مال ، وكان فى وسعى عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، على شرط أن تقبل الهروب معى ، ولو الى هنا ، الى بطرسبرج • فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حييت ، متى وصلنا ، ولوعدها بالسعادة والهناء وهلم جرا أبد الدهر ، فلقد بلغت من التحمس - صدقنى ان شئت ! - اننى لو أمرتنى أن أذبح أو أن أسمع مارتا بتروفنا من أجل أن أصبح زوجها هى ، لفعلت ذلك على الفور •

ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التي تعرف • ففي وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذي شعرت به حين علمت أن مارنا بتروفا قد جاءت بذلك الدعيّ الحقير لوجين تريد أن تزوجه أختك ، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعى أنا فى الواقع • أليس كذلك ؟ اليس كذلك ؟ أنت توافقنى على هذا الرأى ؟ أليس كذلك ؟ اننى ألاحظ على كل حال أنك أصغيت الىّ باتباه شديد ••• أيها الشاب الشائق •••

قال سفدرىجاييلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفذ صبره • فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التى شربها جرعات صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً ، لذلك قرر أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الظرف • لقد كان شديد الريب فى سفدرىجاييلوف كثير الحذر منه •

قال فجأة ليحنقة مزيداً من الاحناق :

- فأستطيع أن استنتج مما أفضيت به الىّ أنك بمحيثك الى بطرسبرج انما كنت تطمع فى أختى وتيسّت لها شيئاً •
أجابه سفدرىجاييلوف قائلاً :

- دعنا من هذا ، أرجوك ••• قلت لك ••• ثم ان أختك لا تستطيع أن تطيقنى ، فهى تكرهنى كرهاً شديداً •
- أما أنها تكرهك فأنا واثق بهذا • ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هى المسألة •

- أنت واثق بهذا ؟

قال سفدرىجاييلوف ذلك وهو يغمز بعينه ويتسم ابتسامة سخرية ثم تابع كلامه :

- انك على حق • انها لا تحبني ، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجري بين رجل وامرأته ، أو بين خليل و خليلته • هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين • هل في وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر الى "باشمئزاز" ؟
- استنتج من بعض كلمات حديثك وتلميحاته أنك ما زلت تضمر ، ازاء دونيا ، أهدافاً لست أصفها الا بأنها دنيئة !

- كيف ؟ أنا أفلتت مني كلمات وتلميحات من هذا النوع ؟
كذلك سأله سفدريجاييلوف وقد ارتاع ارتياعاً ساذجاً جداً ، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنت الذي نعت به راسكولنيكوف أهدافه •
قال راسكولنيكوف :

- بل انها ما تزال تفلت منك ! فلماذا ارتعت هذا الارتياح كله مثلاً ؟
نعم ، ما الذي يخيفك الى هذا الحد ؟

- أنا مرتاع ؟ أنا خائف ؟ خائف منك أنت ؟ ألا ان الأولي أن تخاف أنت مني « أيها الصديق العزيز » ؟ ما هذا الكلام الصياني ؟ على انني سكران ... أنا أدرك ذلك • انني أسرف في الكلام ، أسرف في الكلام كثيراً ... لعن الله الحمرة ! هيه ! أنت ! اعطني ماء !

قال سفدريجاييلوف هذا ، وتناول الزجاجاة فرماها من النافذة بغير تخرج • وجاءه فيليب بابر يق ماء •

واستأنف سفدريجاييلوف كلامه فقال وهو يبل منشفة ويضعها على رأسه :

- وهذه سخافات على كل حال •• انني أستطيع أن أسقط شكوكك كلها بكلمة واحدة • هل تعلم مثلاً انني سأزوج ؟

— سبق أن قلت لى هذا ؟

— سبق أن قلت لك هذا ؟ حقاً ؟ لست أتذكر • على كل حال ، لا شك أننى لم أقله جازماً ، لأننى لم أكن قد رأيت خطيبتى • وما كان الأمر حتى ذلك الحين الا فكرة أو مشروعاً • أما الآن فان لى خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً • ولولا شئون مستعجلة لدعوتك أن تصحبنى إليها ، لأننى أريد أن أطلب منك بعض النصائح • آ • • • لم يبق لى الا عشر دقائق ! خذ • • • انظر فى ساعتى • ولكن يجب أن أحكى لك • • ذلك أن زواجى حادثة شائقة فريدة فى نوعها • الى أين تمضى ؟ أما تزال تريد الانصراف ؟

— لا • • • الآن لن أنصرف •

— لن تنصرف ؟ سوف نرى ! نعم ، سأصطحبك الى هناك لأعزّك بخطيبتى ، ولكن لا الآن ، فالآن لا بد أن نفترق ، تمضى أنت يميناً وأمضى أنا يسرة • ان تلك المرأة التى تسمى ريسليش والتى أقيم عندها فى هذه الفترة ، لا شك أنك سمعت عنها ، أليس كذلك ؟ عجيب • • • ألم تسمع عنها ؟ تلك المرأة التى يقال انها هى السبب فى أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً فى وسط الشتاء • آ • • • ان تلك المرأة هى التى دبّرت الأمر كله • قالت لى : « لا شك أنك تضجر وتسام وأنت وحيد على هذه الحال ، فيجب أن تسرّى عن نفسك قليلاً » • والحق أننى امرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس • هل تظننى مرحاً ؟ أبداً • • • أنا سوداوى • لست أؤذى أحداً ، وأظل قابلاً فى ركنى ، ولكن يتفق لى أن أبقي ثلاثة أشهر صامتاً لا أفتح فمى بكلمة • ولقد كانت تلك القوادة ريسليش تخفى خطة وتبيت فكرة : كانت تقول لنفسها ان امرأتى القادمة سوف تضجرنى آخر الأمر ، واننى سوف أهجرها ، فتقع عندئذ بين يديها هى ريسليش ، فتجول بها هنا وهناك فى بيتنا أو فى بيته أرفع • قالت لى

ان للفتاة أباً عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرك ساقيه • وأضافت الى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة ، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف فى الاقاليم ولكنه لا يساعد ذويه ؛ وأن لها أختاً متزوجة لا توافيهم بشيء من أخبارها ، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كافٍ من الأفواه تطعمه ، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها ؛ وعلى أثر ذلك أخرجت الفتاة من الكوليج قبل أن تتمّ دراستها • وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر ، فيمكن عندئذ تزويجها ، أى يمكن أن أتزوجها أنا • وقد ذهبنا أنا وريسليش الى أهل الفتاة • مشهد مضحك • عرفتهم بنفسى : ملائكة ، أرمل ، أسرة نبيلة ، علاقات عالية ، ثروة طائلة • فما قيمة أن يكون عمرى خمسين عاماً ، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة ؟ من ذا الذى يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيل هو هذا الفرق فى السن ؟ أأست زوجاً مناسباً ؟ بل أأست زوجاً ممتازاً ؟ ها ها ها ! • • • ليتك رأيته وأنا أتحدث مع أبيها وأمها ! ان المرء ليدفع مالاً كثيراً ثمن رؤيته لهذا المشهد ! وظهرت الطفلة فجأة ، فانهجت تحيى الضيوف كما يفعل الأطفال • • • تصور أنها ما تزال ترتدى الثوب القصير ! انها برعم ورد حقاً ، يصطبغ خذاها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أطلعت على الأمر طبعاً) • لا أدري ما رأيك فى الفتيات الصغيرات • أما أنا فرأيت أن هذه السنين الست عشرة ، وتلك العيون الصغيرة التى ما تزال عيون أطفال ، وذلك الحجل ، وهذه الدموع التى تنسكب حياء وخفراً ، أن هذا كله أجمل جمالاً من كل جمال • ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة • شعر أشقر خفيف متموج ، شفتان مكتنزتان قرمزيان ، قدمان صغيرتان • عجيبة من العجائب ! • • • ولقد تعارفنا • ثم أعلنت أننى فى عجلة من أمرى ، لأسباب عائلية • لذلك تمت الخطبة

ففي غداة ذلك اليوم ، اى امس الاول • ومنذئذ أصبحت أجلسها على
ركبتى متى وصلت اليهم ، ثم لا اتركها ••• فيحمر خذاها من جديد
حتى لنصبح بلون الشفق عند الفجر ، واخذ ألتهمها بالقبل التهاما ! وأنها
تقنعها طبعاً بان الامور يجب أن تجري على هذا النحو ، لاننى ساصبح
زوجها • الخلاصة : لذة ما بعدها لذة ! ربما كانت حالة الخطيب هذه احلى
وأمتع من الحالة التى ستلوها ، أعنى حالة الزوج • فها هنا نجد « الطبيعة
والحقيقة » * كما يقال ! ها ها ! ••• لقد تحدثت معها مرة أو مرتين • ان
الصبية ليست بالغية البتة ، وانها فى بعض الأحيان تنتظر الى نظرة تشعل
حريقاً فى كيانى كله • هل تعلم ؟ ان لها وجهاً من نوع وجه « المادونا »
التي صورها رافائيل • ان « مادونا سكستين » لها وجه عجيب تماماً ،
وجه يعبر عن حزن يلمُّ به جنون غيبي ، ألم يخطف هذا بصرك ؟ فاعلم
اذن أن وجه خطيبتي فيه شيء من هذا النوع • وما ان تمت خطبتنا حتى
حملت اليها هدايا بألف وخمسمائة روبل : حلية من الماس ، وحلية
أخرى من لؤلؤ ، ومجموعة فضية من أدوات الزينة ، كبيرة بهذا الحجم ،
مع جميع لوازمها ••• فاذا بوجه « المادونا » الصغير يشرق ويزدهر •
ثم أجلستها على ركبتى ، ولعلنى بلغت فى ذلك من قلة التحرج أنها
احمرت احمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها • ولكنها لم تشأ أن
تفصح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال • وخرج الجميع
لحظة ، فاصبحنا وحيدين ، أنا وهى ، فاذا هى تبادر فجأة فتحيط عنقى
بذراعيها الصغيرتين وتقبّلنى (من تلقاء نفسها هذه المرة) ، وتحلف
لتكوننّ لى زوجة مطيعة طيبة وفية ، ولتسعدننى ، ولتقفن على هذا حياتها
كلها ، كل لحظة من حياتها ؛ ولن تطالبنى فى مقابل ذلك الا بشيء
واحد : « هو أن أحترمها ، أن احترمها فقط ، فهى لا تريد الا هذا ،
ولا تريد هدايا ! » • لا شك فى أنك توافقنى على أن سماع اعتراف كهذا

الاعتراف ، فى خلوة ، من ملاك صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ،
ترتدى ثوباً رقيقاً من قماش شفاف ، لها شعر مضمفور متدل على جبينها ،
وقد احمرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن ، وأخذت دموع الحماسة
تتألأ فى عينيها ، أقول لا شك فى أنك توافقنى على أن ذلك كله جذاب
مغري ! جذاب مغري ، هذا هو الوصف الصحيح ، أليس كذلك ؟ شيء
يستحق أن يدفع المرء ثمناً ، هه ؟ ... اسمع ... سنذهب الى خطيبتى ،
ولكن لا الآن !

— الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب فى السن وفى الثقافة يثير رغبتك
الشهوانية مزيداً من الاثارة ! هل من الممكن أن تفكر فعلاً فى الاقدام على
زواج كهذا الزواج ؟

— لم لا ؟ طبعاً أفكر فى ذلك ! لكل امرئ أن يفكر لنفسه ، وأقدر
الناس على خداع نفسه أنجحهم فى قضاء أيام سعيدة ! ها ها ! ولكن مابالك
قد أصبحت رجلاً فاضلاً على حين فجأة ؟ رافة بى يا عزيزى ، لأننى
امرؤ خاطيء مذنب ! هىء هىء هىء ! ...

— ولكنك عنيت بأولاد كاترين ايفانوفنا على كل حال ... كانت
هناك بواعث تدفعك الى ذلك ... الآن فهمت كل شيء !

قال سفدرىجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً :

— أنا أحب الأطفال كثيراً ويمكننى بالمناسبة أن أروى لك حادثة
غريبة ما تزال تجرى حتى هذه الساعة . لقد طفت بمختلف الملاهى
المبوءة فى العاصمة منذ وصولى أول يوم ... أسرع أطوف بها بعد
فراق سبع سنين ! لعلك لاحظت قلة حرصى على إعادة الصلة بينى وبين
أصحابى وأصدقائى القدماء . حتى ليمكننى أن أقول اننى أفر منكم

فرارى من الطاعون • يجب أن أقول لك اننى حين كنت أعيش فى الريف عند مارتا بروفنا كان يتتابنى ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التى يستطيع الانسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة ! تبأ لى ! الشعب هنا يسترسل فى السكر ، والشيبية المثقفة تذوب وتضيع فى احلام خيالية ونظريات عجيبة ، واليهود يهرعون من كل مكان يهبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وسائر الناس يستسلمون فى أثناء ذلك للفسق والمجون • اذن لقد أرسلت الى هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً • وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة : هو ملهى موبوء فظيع ، ولكننى أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشتمزاز • كان الراقصون مندفعين فى رقص « الكاكان » اندفاعاً محموماً مسعوراً قلما يرى المرء مثله فى هذه الأيام ، ولم تكن نرى مثله فى أيامنا أبداً • لقد تحقق تقدم فى هذا المجال أيضاً • وفجأة لمحت صبية لعلها فى الثالثة عشرة من عمرها ، ترتدى ثياباً لطيفة وتراقص سيداً جميلاً ، وأمامهما شاب آخر • وكانت أمها جالسة قرب الحائط تنظر اليها • هل تتخيل كيف كان الرقص ؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد • وهاهى ذى تحمر ، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكى • فيمسكها الراقص الجميل ، ويأخذ يدور بها ، ويقوم بألف حركة وحركة بذئثة ، والناس من حوله تضج بضحك صاخب • اننى فى مثل هذه اللحظات انما أحب جمهورنا خاصة ، حتى جمهور هذا النوع من ملاهى الليل • كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين : « مرحى ! مرحى ! لم يكن عليها الا أن ترفض المجيء الى هنا ! ليس هذا مكاناً للأطفال ! » • أما أنا فلم اكثر طبعاً • وسرعان ما حددت المكان الذى يناسبنى ، ومضيت أجلس قرب الأم • وبدأت أكلهما فقلت لها اننى انا أيضاً مارٌ بطرسبورج مروراً • وأضفت الى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم

فراصة تعرّفهم بمن يستحقون الرعاية والمداواة • وبعد أن أسمعتها أننى
أملك مالا كثيرا عرضت عليها أن أوصلهما هى وابنتها بعربة ، فقبلت
وأوصلتهما ، فرأيت مسكنهما (انه غرفة مؤنثة حقيرة كانتا قد نزلتاها منذ
وقت قصير حين وفدتا من الأقاليم) • وقالتا لى انهما تعدان زيارتى لهما
شرفاً عظيماً • وعلمت بعد ذلك انهما لا تملكان قرشاً ، وانهما جاءتا الى
بطرسبرج للقيام بمساعٍ لدى ادارة من الادارات • فعرضت عليهما
خدماتى ، وقدمت اليهما مالا • وعلمت عدا ذلك انهما بالمصادفة انما
وقعتا فى ذلك الملهى تلك الليلة ، فقد ظننا أنه مكان لتعليم الرقص •
وعرضت أن أساهم فى اتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية ، وتعليمها
الرقص خاصة • فسرعان ما قبل هذا العرض بفرح شديد ، وسرعان
ما قيل لى ان هذا شرف كبير ••• وما تزال علاقتنا قائمة ، وما تزال
زياراتى متتالية ••• سنذهب اليها معاً لتراها ان شئت ••• ولكن
لا الآن !

— كفاك ! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئزاز ، ايها
الانسان الفاسق ، المنحل ، المنحط !

— يا لك من شاعر ! يا لك من شيللر ! انظروا أين تختبئ
الفضيلة ! هل تعلم أن صرخاتك هذه تغرينى بأن أقصَّ عليك المزيد من
أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات ؟ هذه لذة
حقيقية !

دمدم راسكولنيكوف يقول مبغضاً حاقداً :

— نعم ، لا شك أننى أبدو سخيفاً مضحكاً ، فأنا كذلك فى نظر
نفسى !

ضحك سفدريجايلوف ملء حلقه ، ثم نادى فيليب ، فدفع الحساب ،
ونهمض لينصرف وهو يقول :

— نعم أنا سكران كفى حديثاً ! انها لذة حقيقية ! ..

صاح راسكولنيكوف يقول وهو ينهمض أيضاً :

— كيف لا تشعر بلذة كيف لا تكون لذة لرجل فاسق داعر
من طينتلك أن يقصّ مغامرات كهذه المغامرات وهو يحلم بمشاريع
شيطانية أخرى من هذا النوع ، وأن يقصّ ذلك على انسان مثلى ؟
هذا يؤجج رغبتك ، ويهيج نفسك ، أليس كذلك ؟

قال سفدريجايلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس في راسكولنيكوف :

— اذا كنت ترى هذا الرأى ، فانك اذن لمستهتر عظيم أو ان
فيك لاستعداداً لهذا • انك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء وأن
تصنع بها كذلك كثيراً من ولكن كفى ! يؤسفنى حقاً أن حديثنا كان
قصيراً هذا القصر كله ، ولكنك لن تفلت منى هكذا اصبر قليلاً

خرج سفدريجايلوف من الحانة ، وتبعه راسكولنيكوف •

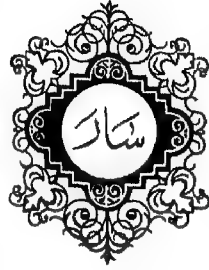
الحق أن سفدريجايلوف لم ينل منه السكر كثيراً • ان الشراب لم
لم يصعد الى رأسه الا لحظة قصيرة ، وكان ثملته يتبدد مزيداً من التبدد
شيئاً بعد شيء • كان هناك أمر هام جداً يشغل باله ، يشغل باله كثيراً ،
فكان يقطب حاجبيه ، وكان انتظار هذا الشيء يقلقه اقلاقاً واضحاً ، وينير
أعصابه • ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجايلوف قد غيّر

لهجته فى مخاطبته منذ لحظات ، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من الفضاظة
والسخرية •

واشتبه راسكولنيكوف فى أمر سفدريجايلوف ، فقرر أن يتبعه •
وصلا الى الرصيف •

— أنت تذهب يمناً وأنا أذهب يسرة ، اللهم الا أن يكون العكس !
المهم أن نفترق • الى اللقاء ، الى اللقاء ، سيسرنى أن أراك مرة أخرى •
قال سفدريجايلوف ذلك وسار يمناً فى اتجاه « سوق العلف » •

الفصل الخامس



راسكولنيكوف وراءه ، فصاح سفديريجا يلو فقول
ملتفتاً إليه :

— ما معنى هذا ؟ أظن اننى قلت لك ...

— معنى هذا اننى لن أتركك قيد أنملة ...

— ماذا ؟ ماذا ؟

وتوقف الاثنان ، وأخذ كل منهما يروز صاحبه بنظرة خلال

• دقيقة •

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

— بعد جميع الحكايات التى رويتها لى وأنت فى شبه سكر ، يحق
لى أن أتصور أنك لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلق بأختى ، بل وأن
هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك فى أى وقت مضى •
أنا أعلم أن أختى تلقت فى هذا الصباح رسالة • ولقد كنت أنت قلقاً
لا تستقر على حال • ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة
جديدة ، ولكن هذا لا يبرهن على شيء ، فأنا أريد أن أتأكد من الأمر
بنفسى •

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذى يريد أن يتحقق

منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك •

قال سفدرىجايلوف :

- ها ... هكذا ؟ أتريد أن أنادى الشرطة ؟

- نادها !

وتوقفا من جديد ، ومن جديد أخذ كل منهما يتفرس فى الآخر .
وأخيراً تغير تعبير وجه سفدرىجايلوف ، فانه حين رأى أن راسكولنيكوف
لم يخفف تهديده ، أسرع يصطنع هيئة تتم عن مرح ومودة وصداقة ،
وقال :

- ما أغرب أمرك ! لقد تعمدت أن لا أكلمك فى قضيتك ، رغم أن
الفضول ينهش قلبى نهشاً ... انها لقضية هائلة ! لقد آثرت أن أرجىء
الكلام فيها الى مرة أخرى ... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه
يفقد صبره وتشور أعصابه . تعال معى ان شئت ، ولكنى أنبّهك : ان
على أن أرجع الى البيت لحظةً لأخذ شيئاً من المال ، ثم أغلق الباب
بالمفتاح ، ثم أقفز راكباً عربة من العربات لأمضى الى قضاء السهرة فى
«الجزر» . فكيف تستطيع أن تتبغنى والحالة هذه ؟

- ان على أن أذهب الى عمارتك أنا أيضاً ، لا الى بيتك أنت ، بل
الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأعتذر لها عن تخلفى عن حضور الجنازة .

- لك ما تشاء . ولكن صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها . فقد
ذهبت بالأولاد الى بيت سيدة هى صديقة قديمة لى تدير ملجأً للأيتام .
لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعت لها مبلغاً من المال لصغار كاترين ايفانوفنا
الثلاثة ، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذى تديره . وقد قصصت عليها
كذلك قصة صوفيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفى شيئاً . فكان
الأثر الذى أحدثته فى نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف . وذلك
هو السبب فى أن صوفيا سيميونوفنا قد دُعيت الى أن تذهب فى هذا اليوم

نفسه الى البيت الذى نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من اجازتها منذ
برهة •

- سأذهب مع ذلك الى صوفيا سيميونوفنا •

- افعلى ما تشاء ، لكننى لن أصحبك • ما ذهابى الى هناك ؟ ثم
ها نحن قد أوشكنا أن نصل • قل لى : يخيل الى أنك انما تنظر الى
نظرة الريبة هذه لأننى كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن
أن ... أنت تفهم عنى ! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً ، أليس كذلك ؟
فهلا أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب !
- وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب ؟

قال سفدريجاييلوف وهو يضحك :

- ها ... اذن ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه ! على كل حال ، كان
سيدهشنى أن لا تثير هذا الموضوع ! ها ها ها ! ولكن الواقع أننى لم
أسمع الا بضع شذرات من جميع تلك المهازل التى كنت تقصها على صوفيا
سيميونوفنا ... وقد فاتتني خاتمة ذلك كله • قد أكون شخصاً متخلف
الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أى شىء • ولهذا نفسه انما أناشدك
الله يا صديقى أن تشرح لى ... أرجوك أن تنير عقلى على هدى مبادئ
العصر ...

- أنت تكذب ! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً !

- عجيب ! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أننى سمعت بعض الأشياء) •
لا ، ان كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تئن وتتوجع • ان شيلر
الذى يشوى فى نفسك يسبب لك اضطراباً فى كل لحظة • ثم أنت تريد
الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب ! فاذا كنت قاسياً الى هذا الحد ،
فهلم اعترف للسلطات وقل لها : « لقد ألفت بى مصيبة ، لقد وقع خطأ

صغير فى نظرياتي الفلسفية » • أما اذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن
أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رموس العجائز الصغيرات
اللواتى تقع عليهن يده ، فما عليك فى هذه الحالة الا أن تبادر فتهاجر الى
مكان ما ، الى أمريكا مثلاً ••• لا أدري ••• وانما يجب أن تفعل ذلك
بأكبر سرعة • اهرب أيها الفتى ! لعله لم يفت الأوان بعد • اننى أكلمك
صادقاً وأخلص لك النصيح • ماذا ؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر ؟
سأعطيك ما أنت فى حاجة اليه •

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز :

— لا يخطر هذا ببالى على الإطلاق •

— أفهم ذلك • ولا تكلف نفسك عناء الكلام ، فان لك أن لا تقول
شيئاً البتة • اننى أفهم المسائل التى تدور فى رأسك ••• هى مسائل ••
من نوع أخلاقى ، أليس كذلك ؟ أنت تساءل هل تصرفت التصرف الذى
يليق بإنسان ، بمواطن ؟ ولكن دع هذه المسائل ، انبذها ! فيم يمكن أن
تفيدك الآن ؟ هىء هىء هىء ! والا ، ما كان عليك أن تزج نفسك فى هذا
الأمر وأن تشرع فى عمل لست قادراً على المضى فيه الى النهاية • هيّا
هشّم دماغك ! لا تحب ذلك ؟

— لكأنك تحاول احناقى عامداً لأنصرف •

— غريب أمرك ! لقد وصلنا ، فما عليك الا أن تكلف نفسك عناء
صعود السلم ! ها هو ذا باب صوفيا سيميونوفنا • انظر • ليس فى بيتها
أحد • ألا تصدقنى ؟ اسأل اذن آل كابرنائوف • انها تترك لهم المفتاح
دائماً • وهذه هى « السيدة » كابرنائوف بنفسها على كل حال • ماذا ؟
(انها صماء قليلاً) • هل خرجت صوفيا سيميونوفنا ؟ فالى أين ذهبت ؟
ها قد سمعت أنها ليست فى بيتها وأنها لن ترجع الا فى ساعة متأخرة من

الليل • تعال اذن معى ، الى بيتى • كنتَ تريد أن تجيء الى فعلاً ،
 أليس كذلك ؟ فيها نحن فى بيتى ! ليست السيدة ريسليش هنا • انها
 لا تنقطع عن الحركة ، لكنها امرأة طيبة ، أؤكد لك ؛ وفى وسعها أن
 تفيدك كثيراً اذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل • انظر : هأنذا أخذ من
 مكتبى سنداً مالياً (وأنت ترى أننى أملك سندات كثيرة أخرى) ، غير أن
 السند سيبدل منذ هذا المساء نقوداً رنانة • هل رأيت ؟ لم يبق لدى وقت
 أضيعه • هأنذا أغلق مكتبى ، وأغلق باب الشقة ، وها نحن نهبط
 السلم • هل تريد أن نركب عربة ؟ انتى ذاهب الى « الجزر » كما تعلم •
 هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربة • انظر : هأنذا أخذ هذه
 العربة ، وأطلب من الخوذى أن يقودنى الى جزيرة ايلاجين • ماذا ؟
 أترفض ؟ أنت منهوك القوى ؟ هيا ••• لنقم بجولة صغيرة معاً ! أحسب
 أن المطر سيهطل ، ولكن لا ضير ، سترفع غطاء العربة •

كان سفدرىجايلوف قد استقر فى العربة • واعتقد راسكولنيكوف ،
 فى تلك اللحظة على الأقل ، أن شهبائه ليس لها ما يسوِّغها • فاستدار
 دون أن يجيب بشيء ، وسار فى اتجاه « سوق العلف » • ولو قد التفت
 الى وراء لرأى سفدرىجايلوف ينقد الخوذى أجره بعد مائة خطوة ، ويعود
 يمشى على الرصيف • ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى
 شيئاً ، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع • ان اشتمزاًزاً كان يدفعه
 بعيداً عن سفدرىجايلوف • هتف يتساءل رغم ارادته : « كيف أمكننى ،
 ولو خلال لحظة قصيرة ، أن انتظر شيئاً من هذا الانسان الدنيء الحقير !
 من هذا الوجد السافل المنحط ! » • ولكن الحقيقة هى أن حكم
 راسكولنيكوف على سفدرىجايلوف كان فيه شيء من تسرع وتعجل • ومهما
 يكن من أمر فان الجو الذى خلقه سفدرىجايلوف كان يصفى على
 سفدرىجايلوف شيئاً من شذوذ ، بل ويحيطه بشيء من السر • وظل

راسكولنيوف مقتنعاً بأن سفدريجاييلوف لن يدع أخته فى سلام • ولكن التفكير وإعادة التفكير فى هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف •

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل فى أحلام عميقة على عادته • حتى اذا وصل الى الجسر توقف قرب الافريز وأخذ يتأمل الماء ، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمله هو • كان قد قاطعها عند أول الجسر تماماً ، ولكن دون أن يلاحظها • وهذه أول مرة تلتقى فيها دونيا بأخيها فى الشارع على هذا النحو ، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً حين رآته ، وتوقفت لا تدري أتصاديه أم لا • ثم لم تلبث أن لمحت سفدريجاييلوف على حين فجأة ، متجهاً نحو « سوق العلف » بخطى سريعة ، وكأنه يسير محاذراً متخفياً ؛ ولم يدخل الجسر ، بل توقف على الرصيف ، متجنباً بعض التنحي ، حتى لا يراه راسكولنيكوف • كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة ، وهو يحرك لها يديه بإشارات فهمت دونيا منها أنه يحضها على أن لا تنادى أخاها ، وأن تتركه وشأنه ، وأن تلحق به هو •

وذلك ما فعلته دونيا : فها هى ذا تتجاوز أخاها ، دون أن تقول كلمة ، وها هى ذى تقترب من سفدريجاييلوف •

دمدم سفدريجاييلوف قائلاً لها :

- تعالى بسرعة ! لا أريد أن يعلم روديون رومانتش بموعدنا • اعلمى اننى خارج من حانة قريبة وافانى فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه الا بكثير من المشقة والعناء ! لا أدري كيف سمع بأمر الرسالة التى بعثت بها اليك ، وهو الآن يشبه فى أن هناك شيئاً ما • أرجو أن لا تكونى أنت التى بحت له ببعض الأسرار • ولكن اذا لم تكونى أنت ، فمن عسى يكون ؟ •••

قاطعته دونيا تقول :

— لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع ، فأصبح أخى لا يستطيع أن يرانا • لن أتبعك الى أبعد من هذا المكان • فقل لى كل شىء هنا • اننا نستطيع أن نتكلم فى الشارع •

— أولاً : لا يمكن أن يقال هذا فى عرض الشارع • ثانياً : ينبغي أن تسمعى أيضاً صوفيا سيمونوفنا • ثالثاً : هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها • أخيراً : اذا كنت ترفضين أن تجيئى الى بيتى فسوف أمتنع عن كل شرح ، وسوف أنصرف فوراً • هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سرّاً شائعاً جداً ، متعلقاً بأخيك الحبيب ، يوجد بين يدى •

توقفت دونيا مترددة ، ورشقت سفدريجاييلوف بنظرة نافذة ، فسألها سفدريجاييلوف هادئاً :

— ممّ تخافين ؟ ليست المدينة كالريف • ثم انك فى الريف قد أسأت الى أكثر مما أسأت اليك • لذلك •••

— هل أطلعت صوفيا سيمونوفنا ؟

— لا ، لم أقل لها كلمة واحدة ، حتى اننى لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن فى بيتها • ولكن أغلب الظن أنها هناك • لقد دفنت اليوم قريبتها ، فما هذا يوم زيارات تقوم بها • على كل حال ، لن أحدث أحداً فى هذا الأمر الآن ، حتى ليؤسفنى أننى أطلعتك عليه ، فان أقل طيش يساوى هنا وشاية • انظرى : هذا هو المنزل الذى أقطن فيه ، أماننا • والبواب يعرفنى جيداً • هذا هو يحيينى كما ترين • انه يلاحظ أن معى سيدة • وطبعى أن صورة وجهك قد نقشت الآن فى ذاكرته • وينبغى لهذا أن يطمئنك اذا كنت تخافين منى وتشكين فى • اغفرى لك هذه

الفاظظة فى .مخاطبتك * أنا هنا مستأجر عند مستأجرين ، وليس يفصلنى
عن صوفيا سيميونوفنا الا حائط ، فهى أيضاً مستأجرة عند مستأجرين *
الطابق كله مسكون ، فممّ خوفك ؟ ألا أن هذا الخوف لخوف طفلة
صغيرة ! أنا مخيف الى هذه الدرجة ؟

قال سفدرىجايلوف ذلك وهو يصطنع ابتسامة أراد لها أن تعبّر عن
الطيبة والسماحة ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حداً لا يستطيع معه
أن يحسن التمثيل * كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت أنفاسه مختنقة *
وكان يتعمد أن يتكلم بصوت قوى ليخفى اضطرابه المتزايد ، ولكن دونما
لم تلاحظ هذا الاضطراب * لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذى
يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة فى نظرها *

قالت بلهجة ظاهرها هادى ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً :
- رغم اننى أععدك رجلاً لا شرف له ... فانى لا أخاف منك
البتة * تقدمنى !

توقف سفدرىجايلوف أمام باب صونيا *

- اسمحى لى أن أسأل هل هى فى بيتها * لا ، ليست فى بيتها *
يا لسوء الحظ ! لكننى أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة * لئن تغيت ،
فما ذلك الا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام * فإذا لم
ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها اليك فى هذا اليوم ان رغبت فى
ذلك * هذا مسكنى ، وهاتان هما الحجرتان اللتان أحتلهما * وراء هذا
الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليش * والآن انظرى هنا ، سوف
أظهرك على وثائقى الأساسية * من شرفة نومى يفضى هذا الباب الذى
ترين الى غرفتين خاليتين كل الحلو ، معدّتين للتأجير * انظرى ... يجب
أن تتبهى اليهما أكبر الانتباه *

كان سفدرىجايلوف يشغل غرفتين مؤنتين واسعتين • أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتابة ، لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر ، لا فى أثاث الغرفتين ولا فى ترتيبهما ، رغم أنها كان يمكن أن تنبّه الى أن شقة سفدرىجايلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً ، يصل المرء إليهما لا من الممر رأساً ، بل باجتياز غرفتين خاليتين لصاحبة البيت • وفتح سفدرىجايلوف باباً مقفلاً بالمفتاح ، يقع فى آخر غرفة نومه ، فأرى دونيا المسكن الخالى المعدّ للتأجير •

وقفت دونيا عند العتبة لا تدري لماذا يدعوها سفدرىجايلوف الى أن تنظر ، ولكن سفدرىجايلوف أسرع يمدّها بالشروح فقال لها :

— انظرى هنا ، الى هذه الغرفة الثانية • لاحظى هذا الباب • انه مغلق بالمفتاح • وقرب هذا الباب يوجد كرسى • انه الكرسى الوحيد الذى يمكن العثور عليه فى هاتين الغرفتين • أنا الذى جئت به الى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب • ووراء هذا الباب مباشرة ، توجد مائدة صوفيا سيمونوفنا • لقد كانت جالسة الى هذه المائدة تحدث مع روديون رومانوش • فمن موضع جلوسى على هذا الكرسى ، فى هذا المكان نفسه ، ظلمت أنا أتصت الى حديثهما مساءين متتالين ، خلال ساعتين فى كل مرة • فعرفت بعض الأمور طبعاً • ما رأيك ؟

— تنصت على الباب ؟

— نعم ، تنصت على الباب • والآن فلنذهب الى غرفتى • هنا لا نستطيع أن نجلس •

قال سفدرىجايلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا الى الغرفة الأولى التى يتخذها صالوناً ، ودعاها الى الجلوس • وجلس هو الى الطرف الآخر من المائدة ، ولكن عينيه كانتا تسطمان بذلك اللهب نفسه الذى كان قد

روَّعَ دونيا ترويعاً شديداً في ذات يوم • ارتعشت دونيا ؛ ومرةً أخرى نظرت فيما حولها مرتابة • كانت لا تريد أن تظهر ارتياها ، غير أن حالة العزلة في شقة سفدريجاييلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً ، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة في الدار على الأقل ، ولكن كبرياءها صدَّتْها عن هذا السؤال • وكان قلبها على كل حال يعاني ألماً أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه في سبيل نفسها • وكان هذا الألم يعذبها عذاباً شديداً •

بدأت تتكلم فقالت وهى تضع رسالته على المائدة :

— هذه رسالتك • هل ما أوردته فيها ممكن ؟ انك تلمع الى جريمة ارتكبتها أختي • لا تحاول أن تهرب وأن تملص الآن • ان الماعك أوضح من أن تنكره • واعلم أنني حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التي لا أصدق منها حرفاً واحداً • ان افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن واحد • اننى أعلم كيف لُفِّت هذه الحرافة • لا تستطيع أن تقدم أى برهان على ••• لقد وعدتني بأن تبرهن : فتكلم اذن ! ولكن عليك أن تعلم سلفاً اننى لن أصدقك • لا ، لن أصدقك ! لا ، لن أصدقك !

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة ، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال في لحظة •

قال سفدريجاييلوف :

— ولكن اذا كنت لا تصدقيني فلماذا جئت الى بيتي وحيدة ؟ نعم ، لماذا جئت الى بيتي ؟ هل بدافع الفضول وحده ؟
— لا تعذبنى ! تكلم ! تكلم !

— لا شك فى أنك فتاة شجاعة • لقد ظننت أنك ستطلين من السيد رازوميجين أن يصحبك الى هنا • لكنه لم يظهر لا معك ، ولا حولك • لقد نظرت ملياً فلم أره • هذه شجاعة منك • أنت تريدين اذن أن تنقذى أخاك روديون روماتشس ! على كل حال ، فإن كل ما فيك عظيم ، رائع !
••• أما أخوك ، فماذا أقول لك عنه ؟ لقد رأيته بنفسك ، فما رأيك فى حالته ؟

— أرجو أن لا تكون حالته هذه هى الأساس الذى بنيت عليك اتهامك اياه !

— لا ، لا ، لم أبن اتهامى على حالته فحسب ، بل على أقواله أيضاً . على كل حال ، لقد جاء الى صوفيا سيمونوفنا مساهين متتالين ، فجلسا فى المكان الذى أريتك اياه • وهناك اعترف لها بكل شيء ، اعترافاً تاماً • انه قاتل • قتل العجوز المرابية التى كان قد رهن عندها أشياء ، وقتل اختها المتاجرة التى تسمى اليزابت والتى دخلت مصادفةً بينما كان يقتل العجوز • قتلها كليهما بساطور جاء به لافناذ جريمته • قتلها ليسرق ، وقد سرق • أخذ مالا ، وأخذ أشياء صغيرة !••• أنا انما أروى لك ما رواه هو نفسه ، كلمةً كلمةً ، لصوفيا سيمونوفنا التى تعرف وحدها السر والتى لم تشارك فى جريمة القتل أية مشاركة ، لا بالقول ولا بالفعل ، حتى لقد روعتها هذه القصة كما تروّعك أنت الآن • لا تخافى ! لن تنشى به !

تمتت دونيا تقول وقد ابيضت شفتاها ، واختنق صدرها :

— هذا مستحيل ! مستحيل ! ليس هناك أى سبب يدفعه الى ذلك ! ليس هناك أى باعث يحضه على ذلك ! ••• هذا كذب ! كذب فطيع !•••
— لقد سرق • هذا هو الدافع الوحيد • أخذ مالاً ومجوهرات •

صحيح أنه ، كما قال ، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك المجوهرات ، بل مضى يخبئ كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والمجوهرات جميعاً • ولكن السبب في ذلك هو أنه لم يجزؤ •••

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها واثبة :

— ولكن هل يُعقل أن يكون قد سرق ؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً ؟ انك تعرفه ، انك رأيته ، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً ؟

لكنها كانت تتضرع الى سفدريجايلوف • كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها •

— هناك يا آفدوتيا رومانوفنا أُلوف وملايين من أصناف السارقين : رب رجل يسرق وهو يدرك في قرارة نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً • وقد سمعت مرة عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد ، فمن يدري ؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود ؟ لو كنت في مكانك لدُهِشت دهشتك هذه نفسها ، ولو روى لى هذه القصة شخص آخر لما صدّقه • ولكنى لا أستطيع أن أكذب أذنّى • ان أخاك قد بسط لصوفيا سيميونوفنا كافة الدوافع الذى حضته على ارتكاب فعلته ، فأبت هى نفسها أول الأمر أن تصدّق ، ولكنها لم تملك أخيراً الا أن تصدّق ، حين رأت هيئته ••• فهناك الآذان ، وهناك الأعين أيضاً •

— وما هى تلك الدوافع ؟

— تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا • كيف أشرح لك ؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة التى تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل ••• فعلة شر واحدة فى مقابل مائة

فعل من أفعال الخير ! ثم ... أليس يشق على نفس فنى موهوب جداً ، زاهر بكبرياء لا حدود لها ، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله ، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ ؟ أضيفى الى ذلك حالة الحلق المرضى الناشء عن جوعه المزمن ، وعن سكناه فى حجرة ضيقة مسرفة فى الضيق ، وعن ارتدائه اسماً بالية وخرقاً ممزقة ، وعن شعوره بكل ما فى وضعه الاجتماعى من بؤس وشقاء ، بالإضافة الى وضع أمه وأخته . وهناك ، فوق ذلك كله ، الطموح ، والأنفة ، والغرور ، وربما عواطف طيبة أيضاً ... الله أعلم ! صدقنى أنتى لا أتهمه . ثم ان اتهمه ليس شأنى أنا . وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك - هى نظرية كآبة نظرية أخرى - تلك التى تذهب الى أن الانسانية تنقسم الى فئتين ، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفذاذ الحارقين أى الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلى أن لا يصدهم أى قانون من القوانين ، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم ، أى على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد ، الذين يتألف منهم القطيع ، الذين هم الغبار ! نظرية لطيفة كآبة نظرية أخرى ، أليس كذلك ؟ لقد فتنه نابوليون كثيراً ، أو قولى انه انقاد لاغراء ذلك الرأى الذى يرى أن العباقرة لا يكثرثون لحالات الظلم الفردية ، بل يتخطونها فلا يرتكبون بأمور هينة يسيرة . ولقد تخيل ، فيما يبدو ، أنه هو نفسه عبقرى ؟ أو قولى على الأقل انه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن . وقد تعذب كثيراً كذلك ، وما يزال يتعذب ، فهو يدرك الآن أنه ان استطاع أن يضع نظرية ، فلقد عجز عن المضى قدماً بلا تردد ؛ أى لقد أدرك أنه ليس عبقرى . وهذا الادراك أمر يشعر منه الفتى ، اذا كانت نفسه زاهرة بالكبرياء ، يشعر منه بمذلة كبيرة واهانة عظيمة ، ولا سيما فى عصرنا هذا ...

— وعذاب الضمير ؟ أأنت تنكر عليه اذن أى حسٍ أخلاقى ؟ أهو
 *** حقاً *** كما تصف ؟

— آه يا آفدوتيا رومانوفنا ! ان كل شيء قد اضطرب الآن واختل ***
 ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد فى هذا العالم يوماً * ثم ان الروس
 على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحبة كأراضيهم ، وهم ميّالون
 كثيراً الى الخيال والنزوة والفوضى * ولكن النفس الواسعة الرحبة تكون
 خطرة اذا لم يوهب لها شيء من عبقرية * تذكرى مناقشاتنا القديمة فى
 هذا الموضوع هناك ، فى الشرفة المطلة على الحديقة *** لقد كنت تعيين
 على سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان * من يذرى مع هذا ؟ لعله ، حينما
 كنا نحن نتكلم ، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعه * ان مجتمعنا
 المثقف لا يلمح بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا * بعض الناس يصنعون
 لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق ، من كتب قرأوها ، وبعضهم
 يستمدون أصباغ تقليد من بعض حكايات الماضى * ولكن هذا انما يصدق
 على العلماء ، وأكثرهم يبلغ من الحماسة أن رجلاً من رجال المجتمع
 الراقى يخلج من اقتفاء أثرهم واتخاذهم قدوة له * على أنك تعرفين
 آرائى : أنا لا ألوم أحداً * كل ما هنالك اننى أتحاشى أن أقحم نفسى
 فى شيء * لقد سبق أن تحدثنا فى هذا مراراً * حتى ان آرائى قد شرفها
 أن حظيت باهتمامك *** انك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا *

— أنا أعرف نظرية أخرى هذه * قرأت فى مجلة من المجلات مقالته
 عن الرجال الذين يباح لهم كل شيء * ان رازوميخين هو الذى جاءنى
 بتلك المجلة *

— السيد رازوميخين ؟ مقالة أخيك ؟ ولكننى كنت أجهل وجود
 مقالة كهذه المقالة * لا بد انها شائعة جداً ! *** الى أين أنت ذاهبة
 يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

— أريد أن أرى صوفيا سيميونوفنا • من أين يجب المرور للذهاب إليها ؟ لعلها عادت ! أريد أن أراها على الفور حتماً • يجب أن •••

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها ، فقد انقطع تنفسها فعلاً •

— لن تعود صوفيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل • هذا ما افترضه على الأقل • كان يجب أن تعود اما فى وقت مبكر جداً واما فى وقت متأخر جداً •••

— آ ••• الآن أرى أنك تكذب ! الآن أرى أنك تكذب ! أنت لم تزد على أن كذبت ! اننى لا أصدّق كلمة واحدة مما ذكرت ••• لا أصدّق منه كلمة واحدة !

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها •
ثم تهالكت على كرسي أسرع يقدمه اليها سفديريجايلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها •

— ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا ؟ عودى الى نفسك ! اليك ماء !
اشربى جرعة ماء !

قال سفديريجايلوف لها ذلك ، ورشّ وجهها بالماء ، فارتعشت وأفاقت •

فدمدم يقول بينه وبين نفسه مقطّب الوجه :

— ما أبلغ تأثير هذا الأمر فى نفسها •

ثم قال لها :

- هدئي روعك يا آفدوتيا رومانوفنا ! أنت تعرفين أن له أصدقاء •
سوف تنقذه ، سوف نخرجه من المأزق ! هل تريدان أن أساعده على أن
يجتاز الحدود ؟ اننى أملك مالا • وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت
له جواز سفر • لقد قتل ، نعم ، ولكن هدئي نفسك • ما يزال فى وقته
متسع لأن يقوم بأعمال خيرة كثيرة • ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً
عظيماً • ما بك ؟ ألا تشعرين الآن بتحسن ؟

- رجل شرير *** ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزئ !
دعنى ***

- الى أين أنت ذاهبة ؟ الى أين ؟

- اليه ! أين هو ؟ هل تعلم أين هو ؟ لماذا هذا الباب مغلق ؟ من
هذا الباب دخلنا ، فمالى أراه الآن مقفلاً بالفتاح ؟ متى أتيح لك أن
نقفله ؟

- لم يكن فى الامكان أن نسمع جميع الغرف ما قلناه ! وأنا
لا أسخر ولا استهزئ البتة ، حتى اننى سئمت من الحديث فى هذا الأمر
كله • غريب ! الى أين تريدان أن تذهبي ؟ أتراك تريدان أن تزجيه
فى السجن ؟ لو ذهبت اليه لاشتعل غضباً وحنقاً ، ولمضى يشى بنفسه !
اعلمى أنه مراقب منذ الآن ، وأنهم يتبعونه • لسوف تكشفان أمره مزيداً
من الكشف ! انتظرى *** لقد رأيته منذ قليل وكلمته • ما يزال فى
الامكان انقاذه • انتظرى • اجلسى • سنفكر معاً • من أجل هذا انما
دعوتك ، من أجل أن نتحدث فى خلوة وأن تعمق درس المشكلة • ولكن
هلا جلست !

- بأية طريقة تستطيع أن تنقذه ؟ وهل يمكن انقاذه ؟
قالت دونيا ذلك وجلست ، فجلس سفديجاييلوف الى جانبها ، وبدأ

يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه ، قال بما يشبه الدمعة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات :

— كل شيء متوقف عليك ...

فتراجعت دونياً بضع خطوات ، مذعورةً مرتجفةً • وكان سفدريجايلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين •

— أنت ... كلمة منك أنت ويُثَقَّد ! أنا ... أنا سوف أنقذه !
عندى مال ، ولى أصدقاء ! سأرحله فوراً ، وسأحصل أنا نفسى على جواز سفر • سأحصل على جوازى سفر ، واحد له وواحد لى • لى أصدقاء ... رجال قانون ... هل تريدون ؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت ، ولأملك ... ما حاجتك الى رازوميخين ؟ اننى أحبك مثلما يحبك • أحبك حباً لا نهاية له • دعينى أقبل حافة ثوبك ! دعينى أفعل هذا ، دعينى أفعل هذا ! أصبحت لا أطيق سماع حفيف ثوبك ! مرينى بما يجب أن أفعل فأفعل • سأفعل كل شيء ، سأفعل المستحيل ! أصدق كل ما تصدقنه وأومن بكل ما تؤمنين به ! أفعل كل شيء ، كل شيء ! لا تنظرى الى هكذا ، لا تنظرى الى هكذا ! هل تعلمين أنك تقتلينى •

أخذ سفدريجايلوف يهذى • ان شيئاً ما قد مسّه فجأة ، كأنه تلقى ضربة على رأسه • ونهضت دونيا بوثة • واندفعت نحو الباب ، وصاحت تقول وهى تهز الباب بكتلتا يديها :

— افتحوا ! افتحوا ! ألا فتحتم الباب ؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد ؟

كان سفدريجايلوف قد جلس ، وها هو ذا ينهض الآن وقد أملت ابسامة خيشة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان مترعشان •

قال بصوت خافت متقطع :

- ليس ثمة أحد • صاحبة الدار خرجت • تضيئين وقتك سدى
بهذا الصراخ • تثيرين أعصابك فى غير طائل •

- أين المفتاح ؟ افتح الباب ! افتح الباب فوراً ! فوراً ! يا لك من
جبان حقير !

- أضعت المفتاح ، ولا أعثر عليه !

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكأنها ميتة :

- آ ... هذا اغتصاب اذن !

وهرعت الى ركن من الغرفة ، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة
صغيرة كانت فى متناولها •

أصبحت الآن لا تصيح ، لكنها كانت مثبتة بصرها فى عدوها ترصد
بنظرة يقظة أيسر حركة من حركاته • وقد أصبح سفدرىجالوف
لا يتحرك هو أيضاً ، ولبت واقفاً أمامها فى الطرف الآخر من الغرفة •
كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه ، فى الظاهر على الأقل • لكن وجهه
ظل أصفر كما كان قبل ذلك ، وما تزال ابتسامته الساخرة مرسمة على
شفتيه • وقال أخيراً :

- لقد نطقت أنت بكلمة « الاغتصاب » يا آفدوتيا رومانوفنا • ولكن
إذا كان فى نيتى أن أغتصبك ، فلا بد أننى اتخذت احتياطاتى كما تقدرين •
ان صوفيا سيميونوفنا ليست فى بيتها • ولكى تصلى الى أسرة كابرناؤموف ،
يجب أن تتجازى خمس غرف هى الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح • ثم اننى
أقوى منك مرتين على الأقل ، هذا عدا اننى لست أخشى على شىء البتة ،
فلن يكون فى وسعك أن تذهبى لتشتكىنى • لن تريدى أن تفضحى

أخاك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ثم ان أحداً لن يصدقك على كل حال ، فلماذا تذهب فتاة منفردة الى بيت رجل وحيد ؟ فحتى لو ارتضيت ان تضحى بأخيك ، فلن تستطيعي أن تبرهنى على شيء . نعم ، انه لمن الصعب جداً أن تثبتى أن « اغتصاباً » قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا .

دمدمت دونيا تقول حانقة :

— جبان !

— قولى ما تشائين ، ولكن لاحظى اننى لم أقدم الا افتراضات . وأنا شخصياً أوافقك فى رأيك كل الموافقة : ان الاغتصاب دناءة وحطة . لكننى أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك أى تعذيب اذا . . . اذا أنت ارتضيت ، بمحض ارادتك ، أن تنقذى أخاك ، كما اقترح عليك . فانما أنت تخضعين عندئذ للظروف ، أو تخضعين للقوة اذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة . فكرى : ان مصير أخيك ومصير أمك بين يديك . أما أنا فسأظل عبدك المطيع . . . ما حيت . . . وسأظل أنتظرك هنا . . .

جلس سفدريجايلوف على الأريكة ، على مسافة ثمانى خطوات من دونيا . لكن دونيا أصبحت لا يساورها أى شك فى أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع . لقد كانت تعرفه حق المعرفة .

فها هى ذى تسل من جيبتها مسدساً على حين فجأة ، فتحشوه بالرصاص بسرعة ، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخى المسدس ، فينتفض سفدريجايلوف وينهض عن مجلسه ، ويصبح مدهوشاً ، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً :

— آ . . . هكذا اذن ! لا ، لا ، ان هذا يغير الموقف تغيراً تاماً ، ويقلبه رأساً على عقب . أنت بهذا تيسرين على الأمور كثيراً يا آفدوتيا

رومانوفنا ! ولكن أين وجدت هذا المسدس ؟ هل السيد رازوميين هو الذى *** ولكن *** عجيب *** هذا مسدسى أنا ! لطالما بحثت عنه ! ان دروس الرماية التى تشرفت باعطائك اياها فى الريف لم تذهب اذن سدى !

— ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد ، بل مسدس مارتا بتروفنا التى قتلتها ! لا شيء فى ذلك المنزل كان ملكك أنت ! لقد أخذت المسدس حين أخذت أشبهه فى نيائك وأدرك سفالتك * يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوة واحدة لقتلتك فوراً !

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدة صوابها ، وهى ممسكة بالمسدس متأهبة لاطلاق الرصاص *

قال سفدرىجايلوف وهو ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه :

— وأخوك ؟ على اننى انما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر !

— أخى ؟ أبلىغ عنه السلطات ان شئت ! لا تتحرك ، والا أطلقت الرصاص * لقد دسست لزوجتك السم فى الطعام ، أنا أعرف ذلك ، أنت نفسك قاتل !

— هل أنت على يقين من اننى دسست السم لمارتا بتروفنا ؟

— نعم ، أنت ! حتى لقد أملت الى هذا السم أمامى * وانى لأعلم أنك انما سافرت لتجىء به *** هيات كل شيء *** أنت القاتل ! *** لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقى !

— حتى اذا صح هذا ، فانك تكوينين أنت السبب *

— كاذب ! أنا أبغضتك دائماً ، دائماً !

— مهلاً مهلاً يا افدوتيا رومانوفنا *** أرى أنك نسيت كيف
كنت ، أثناء تمثيلك دور الواعظ ، تميلين على متلهفة النظرات • لقد
قرأت الحب في عينيك *** ألا تتذكرين ذلك العنديل الذي كان يغني
في ضوء القمر ذات مساء ؟

— كاذب ! كاذب ! مفترٍ نمائم !
كان الحق يشتعل في عيني دونيا •

قال سفدريجايلوف :

— كاذب *** لنسلم بانني كاذب ! على كل حال ، ما ينبغي للمرء
أن يذكر النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ***

وابتسم ، ثم أردف قائلاً :

— أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة *** فماذا
تتظرين ؟ أطلقى !

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجايلوف وقد اصفر لون وجهها
حتى لكانه وجه ميت ، وابيضت شفتاها وأخذتا تختلجان اختلاجاً قوياً •
كانت تنظر اليه بعينيها اللتين ترشقان شرراً ، وقد عزمت أمرها فهي ترصد
أيسر حركات الرجل •

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله في يوم من الأيام • ان اللهب الذي
كان ينبجس من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه احراقاً •
وتشج قلبه ألماً •

وتقدم سفدريجايلوف خطوة ، فانطلقت الرصاصة ، فلامست شعره
ومضت تضرب الحائط وراءه • فتوقف ، وأخذ يضحك في رفق وهذوء •

— وخزنتى النحلة ! انها تسدد الى الرأس ... ما هذا ؟ دم ؟
وأخرج منديله ليمسح خطأً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه
الأسير : لعل الرصاصة قد خدشت الجلد المغطى بالشعر •
خفضت دونيا المسدس ونظرت الى سفديريجايلوف • ان نظرتها
لا تعبر عن الذعر بقدر ما تعبر عن الانشدهاء • لكنها لم تدرك ماذا فعلت
ولا ماذا ما حدث !

قال سفديريجايلوف بصوت خافت ، مع ابتسامة حزينة :
— طاشت الضربة • هلاًّ أطلقت مرةً أخرى ! انى أنتظر ! والا
كان فى وقتى متسع لأن أقبض عليك قبل أن تشدّى الزناد مرةً أخرى •
ارتعشت دونيا ، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية ، وشهرته
على سفديريجايلوف من جديد • وقالت يائسة :
— دعنى ! يميناً لأطلقن مرةً أخرى اذا لم تتركنى ! يميناً ...
لأقتلنك ...

— وبعد ذلك ؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد
ثلاث خطوات ... ولكن ماذا لو أخطأتنى مرةً ثانية ، ما عساك فاعلة
حينذاك ؟ ...

قال ذلك وسطعت عيناه ، وتقدم خطوتين أخريين ، فضغطت دونيا
على الزناد ، ولكن الطلقة لم تخرج •
— لم تحسنى حشو المسدس ! لا بأس ! ما يزال عندك رصاصة •
أحكى وضعها ! سوف أنتظر •
كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر ، وينظر اليها بعينين

يتوهج فيهما لهيب ثقيل شهواني ، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم
♦ جنونى

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تنصرف ♦ « طيب ،
طيب ، فى هذه المرة ، وهو منها على بعد خطوتين فقط ، ستقتله فعلاً » ♦
بهذا حدثت دونيا نفسها ، ولكن ها هى ذى ترمى المسدس فجأة ♦

قال سفدرىجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه :
— رميته ؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل ، حمل ليس
مردّه الى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب ، فضلاً عن أن
ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة ، وإنما هو أحس أنه تخلص من شيء
آخر ، من شعور أشد ايلاماً وأحلك ظلاماً ، شعور لا يستطيع هو نفسه
أن يحدّده ♦

واقترب من دونيا ، وضمّ اليه قامتها فى رفق وهدوء ، فلم تقاوم ،
ولكنها نظرت اليه بعينين ضارعتين وهى ترتعش كورقة فى مهب الريح ♦
ودّ لو يقول شيئاً ولكن شفّته تقلصتا ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة
واحدة ♦

قالت له متوسلة بصيغة المخاطب المفرد :

— اتركنى !

فاختلج سفدرىجايلوف ان استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف
لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل ♦
سألها بصوت خافت :

— أأنت لا تحيننى اذن ؟

فحررت دونيا رأسها بإشارة النفى • فهمس يسألها يائساً :

— ولن ••• تستطيعى ••• أن تحيننى فى يوم من الأيام ؟

فأجابته هامسة :

— لا ، لن أستطيع ذلك فى يوم من الأيام !

نشبت فى نفس سفدرىجايلوف ، خلال لحظة من الزمن ، معركة خرساء رهيبة • كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل الى وصفها • وفجأة سحب يده ، واستدار ، وأسرع يتعد نحو النافذة ، ولبت هنالك جامداً لا يتحرك •

انقضت برهة أخرى •

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه ، فيضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا ، بل ودون أن يلقى عليها نظرة واحدة ، قائلاً لها :

— اليك المفتاح ! خذيه وانصرفى بسرعة !

كان ينظر الى النافذة فى عناد ، لا يحول بصره عنها مئنةً ولا يسرة •

اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح • فقال سفدرىجايلوف مكرراً ، دون أن يتحرك أو أن يلتفت :

— بسرعة ، بسرعة •

ولكن كلمة « بسرعة » هذه كان لها جرس رهيب !

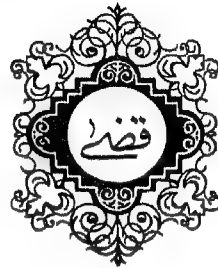
لاحظت دونيا ذلك • وتناولت المفتاح ، واندفعت نحو الباب ففتحته ،

وهرعت تخرج من الغرفة • فما هي الا دقيقة واحدة حتى كانت تجرى
كالمجنونة على طول القناة في اتجاه جسر س •••

لبث سفدريجايلوف أمام النافذة ثلاث دقائق • ثم التفت ببطء ،
ونظر حواليه ، ومرَّ يده على جبينه في رفق • ان ابتسامة غريبة تعقف
الآن شفته ، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة ، ابتسامة هي ابتسامة ألم كبير
ويأس شديد • وكان الدم قد جف على يده ، فنظر اليه نظرة تفيض
بغضاً ، ثم بلل خرقةً بالماء فمسح بها صدغه • ووقع بصره على المسدس
الذي كانت قد رمته دونيا فتدحرج على الأرض • انه مسدس صغير
للجيب ، من طراز قديم ذي ثلاث طلقات • ان فيه الآن طلقتين وكبسولة •
ما يزال يمكن استعماله مرة • فكَّر سفدريجايلوف لحظة ، ودسَّ
المسدس في جيبه ، ثم تناول قبعته وخرج •

الفصل السادس

السهرة حتى الساعة العاشرة في الحانات والمحلات
المشبوحة متنقلاً بينها • وعثر في مكان ما على
كاتيا • كانت كاتيا ما تزال تغني أغنياتها المألوفة
التي تتحدث عن « الطاغية الحقير »



الذي أخذ يقبل كاتيا

فسقاها سفدريجاييلوف وسقى صاحبها الصغير ، العازف على أرغن
بارباريا ، وسقى الحدم والمغنين ، واثنتين من صغار الموظفين جذبه اليهما
أن أنفهيهما معوجتين ، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً الى اليمين ،
وثانيهما كان أنفه منحرفاً الى الشمال ، فلفت هذا الأمر انتباه
سفدريجاييلوف وخطف بصره • وقاده الموظفان أخيراً الى حديقة ملاه ،
فدفع عنهما رسم الدخول وثمن الشراب •

كان في الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر لم يبق لها الا
ثلاثة أفرع ، وكان في الحديقة كذلك مبنى أطلق عليه اسم «فوكسهول»*
من باب التفتيح وما هو في حقيقته الا حمارة صغيرة يشرب فيها الشاي
أيضاً • ان في الحمارة عدة موائد صغيرة ، وكراسي خضراء ؛ وفيها
جوقة هزيلة من المغنين ، وألمانى بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من
مثل مهرج أحمر الأنف ، لكن وجهه يظل كالحلأ الى أقصى حد ،

لا يدري المرء كثيراً لماذا) ، وكانت مهمة الجوقة والألمانى تسليّة
الزبائن •

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك ، حتى
أوشك التشاجر أن يصير الى تماسك بالأيدى • واحتكم المتشاجرون الى
سفدريجاييلوف ، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم
موضوع التشاجر ، ولكنه لم يفلح فى ذلك من شدة صراخ هؤلاء
وأولئك • أغلب الظن فيما أشارت اليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد
سرق شيئاً من الأشياء واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً ، ولكن
السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه •
واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل «فوكسهول» ،
وقد تمّ تعرفها ، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة • فما كان من
سفدريجاييلوف الا أن دفع ثمن الملعة ، ونهض ، وغادر حديقة
الملاهى •

كانت الساعة تقترب من العاشرة • لم يشرب سفدريجاييلوف
خمرة طوال تلك السهرة ، وانما كان يكتفى بطلب كأس من الشاي ؛
وحتى هذا انما كان يفعل من باب التقيد بالشكل • وكان الحر أثناء ذلك
ثقيلاً وكانت السماء مكفهرة • وفى نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم
كبيرة من جميع أطراف الأفق ، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل
غزيراً كأنه السيول • كان الماء لا يتساقط قطرات ، وانما هو شلالات
تضرب الأرض • وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً ، فلا يكاد يستطيع
المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة ومضة • وابتل
سفدريجاييلوف بالماء حتى العظام ، ووصل أخيراً الى بيته ، فأغلق على
نفسه الباب ، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسنداته ، ومزق
بعض الأوراق ، حتى اذا فرغ من دسّ أمواله كلها فى جيبه ، بدا له

آن يبدل ملابسه ، لكنه بعد أن ألقى نظرة الى النافذة وأصاخ بسمعه الى هزيم الرعد وتساقط المطر ، حرك يده بإشارة تتم على عدم الاكتراث ، وتناول قبعته ، وخرج دون أن يغلق الباب وراءه ، ومضى الى صونيا رأساً ، فوجدها فى غرفتها ♦

لم تكن صونيا وحدها ، وانما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة ♦ كانت صوفيا سيمونوفنا تسقيهم شايًا ♦ واستقبلت سفدريجيلوف بصمت واحترام ، ونظرت مدهوشة الى ثيابه المبتلة ، لكنها لم تقل كلمة واحدة ♦ أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالب ♦

جلس سفدريجيلوف الى المائدة ، ورجا صونيا أن تجلس قربة ففعلت ، وتهيأت لأن تصغى اليه خجلة وجلة ♦

قال سفدريجيلوف :

— صوفيا سيمونوفنا ، ربما سافرتُ الى أمريكا ، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا ، لذلك جئتُ أتخذ بعض الاجراءات ♦ لقد رأيت اليوم تلك السيدة ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف ما قالته لك ، فلا حاجة الى أن ترويه لى (هنا حرّكت صونيا يدها بإشارة واحمر وجهها) ♦ ان لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً ♦ على كل حال ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير ، فان مستقبلهما مؤمن ؛ لقد توليت بنفسى دفع المال الذى يجب أن يثول اليهم ، وأخذت به ايصالات ♦ خذى ، اليك الايصالات ♦ بهذا تُسوّى المسألة ♦ واليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل ♦ هذه لك أنت ♦ أرجو أن يبقى هذا الأمر سرّاً بيننا لايعلم به أحد ، مهما تسمعى من كلام ♦ سوف تحتاجين الى هذا المال يا صوفيا

سيميونوفنا ، فان الحياة التى عشتها حتى الآن سيئة ، فلن تضطرى اليها
بعد اليوم •

تمت صونيا تقول :

— غمرتني بنعم وآلاء كثيرة ••• أنا ••• والأيتام ••• والمرحومة
أيضاً ••• وحتى الآن لم أشكر لك جميلك • لا يذهبن بك الظن
خاصةً الى أن •••

— رحماك ! رحماك !

وتابعت صونيا كلامها فقالت :

— أما هذا المال يا أركادى ايفانوفتش ، فأنى أشكره لك أجزل
الشكر ••• لكننى لست فى حاجة اليه • اننى وقد أصبحت وحدى
أستطيع أن أجنى رزقى • لا تحسبن هذا عقوقاً • وما دمت انساناً محسناً
الى هذا الحد ، فان هذا المال يمكن دائماً أن •••

— بل هذا المال لك أنت يا صوفيا سيميونوفنا ، وكفى كلاماً ،
أرجوك ! ليس فى وقتى متسع • لك أنت ، سيكون هذا المال مفيداً •
لا يملك روديون رومانتشس الا أن يختار أحد أمرين : فاما رصاصة
فى رأسه ، واما طريق فلاديمير * •

نظرت اليه صونيا مروعة وأخذت ترتجف • وتابع هو كلامه
يقول :

— لا تقلقى ! لئن كنت أعرف كل شيء ، فلأنه هو الذى روى لى
كل شيء ! ••• واذ كنت امرأة قليلة الثروة ، فلن أذكر لأحد شيئاً •
أنت أسديت له فى ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً ، هى أن يشى بنفسه
ويعترف بجريمته • وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله • ومتى حانت
ساعة الرحيل الى سيبيريا ، فسرحل اليها ، وستبعينه أنت ، أليس

كذلك ؟ فأنت اذن فى حاجة الى مال • سوف تحتاجين الى هذا المال من أجله هو ، هل تفهمين ؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأننى أعطيه هو اياه • ثم انك قد تعهدت لآماليا ايفانوفنا بأن تدفعى الديون التى لها على أسرتك • هذا سمعته بنفسى • ولكن لماذا يا صوفيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأنٍ أو تروء ؟ ان كاترين ايفانوفنا هى المدينة للألمانية ، لا أنت • فكان ينبغى لك أن لا تحفلى بهذه الألمانية وأن لا تكثرى لها • ما هذا أسلوب سليم فى الحياة ! على كل حال ، اذا استجوبوك فى يوم من الأيام - غداً أو بعد غد مثلاً - اذا استجوبوك عنى ، أقصد عن أمرى (وسيستجوبونك عن أمرى حتماً) ، فاياك أن تذكرى شيئاً عن زيارتى هذه خاصة ، واياك أن تتيجى لأحد أن يفترض أننى أعطيتك مالاً • والآن ، الى اللقاء !

قال سفدريجايلوف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً :

- تحياتى لروديون روماتش *** بالناسبة : اخزنى المال عند السيد رازومىخين الى حين الحاجة اليه • تعرفين السيد رازومىخين ، أليس كذلك ؟ تعرفينه حتماً ! انه فتى طيب شهم ! فاحملى اليه المال غداً ، أو ••• حين يأزف الوقت ! والى أن يأزف الوقت ، خبيته عن الأنظار •

كانت صوفيا قد نهضت هى أيضاً وشخصت بصرها اليه مذعورة • ودت لو تقول شيئاً ما ، ودت لو تطرح سؤالاً ، لكنها لم تجرؤ فى البداية ، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تتدبر أمر اللقاء السؤال • وقالت أخيراً :

— لكن .. لكن ... هكذا .. هكذا .. تخرج ... تحت هذا

المطر ؟

— هه ! هل يخشى المراء المطر اذا كان يتهيأ للسفر الى أمريكا ؟
استودعك افي يا صوفيا سيميونوفنا العزيزة • أتمنى لك أن تعيش
طويلاً ، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين • بالمناسبة : أبلغني السيد
رازوموخين تقديري • قولى له بالنص : ان أركادى ايفانوفتش
سفدريجايلوف يبلغك تقديره • لا تنسى •

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا فى جمود وذعر ، وقد استولى عليها
شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث •

وقد عُرف فيما بعد أن سفدريجايلوف ، فى ذلك المساء نفسه ،
بعد الساعة الحادية عشرة ، قد قام بزيارة أخرى ، زيارة بعيدة جداً ،
غير متوقعة أبداً • كان المطر ما يزال يهطل غزيراً • وها هو ذا ، فى
فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ، يدخل البيت الصغير الذى
يقطنه أهل خطيبته بالزقاق الثالث من فاسيلفسكى اوستروف عند ناصية شارع
نفسكى • كان مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً • لقد طرق الباب مدة طويلة ،
فتتحوا له آخر الأمر ، فأحدث ظهوره فى البداية اضطراباً كبيراً ؛ لكن
أركادى ايفانوفتش قد أوتى موهبة حسن الحيلة ولباقة السلوك وجمال
التصرف متى شاء ، لذلك فان الظن الأول الذى قام فى وهم أهل خطيبته
(وهو ظن لطيف ، فقد اعتقدوا أنه سكر فى مكان ما فأصبح لا يدرى ماذا
يفعل) ، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه • وبادرت أم الخطيبة ، المرأة
الحنون الشفوق العاقلة ، فجزّت مقعد الأب الهم الحرف العاجز حتى
صار قرب أركادى ايفانوفتش ، وسرعان ما أخذت تتحدث على عادتها
بالقاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (ان هذه المرأة لا تلقى فى يوم من الأيام

أُسئلة مباشرة : انها تبدأ بأن تبسم وتأخذ تفرك يديها ، فاذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادى ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذى ينوى تحديده للاحتفال بزواجه ، طفقت تسأل الرجل بكثير من الشوق والشراسة عن باريس ، وعن حياة المجتمع الراقى هناك ، ثم لا تصل الى فاسيلفسكى أوستروف والى ما يجب أن يحدث فيها الا رويداً رويداً . ولقد كان يمكن ، فى ظروف غير هذه الظروف ، أن يصغى سفدرىجايلوف الى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم ، لكنه بدا فى هذه المرة نافذ الصبر جداً ، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيته فوراً (رغم أنه كان قد أعلم ، منذ أولى الكلمات التى جرى بها الحديث ، أنها قد نامت) . فقال لها أركادى ايفانوفتش بدون لف أو دوران ان عليه ، بسبب ظروف طارئة استثنائية ، أن يغادر بطرسبرج الى حين ، وانه اذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل ، وأوراقاً مالية وسندات ، راجياً أن تقبلها هدية منه اليها ، وانه على كل حال كان ينوى منذ مدة طويلة أن يقدم اليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج .

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر ، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء فى منتصف الليل تحت وابل المطر . ومع ذلك لم يعترض أحد أى اعتراض . وحتى الأسئلة وصيحات التعجب المعهودة كانت فى هذه المرة معتدلة جداً ، على خلاف العادة . وتدقق الشكر فى مقابل ذلك حاراً عنيفاً ، حتى أن الأم العاقلة ذرفت فى سبيل الشكر دموعاً . ونهض أركادى ايفانوفتش ، وابتسم وقبل خطيته ، وربت على خدها فى رفق ولين ، وأكد مرة أخرى أن غيابه لن يطول : واذ لاحظ فى عيني الحطبية الصغيرة استطلاعاً طفيفاً جدياً فى آن واحد ، وتساؤلاً أبكم ، فكر لحظة ، وقبلها مرة أخرى ، وشعر فى الوقت نفسه بحسرة حقيقية لأنه قدّر أن الأم العاقلة ستخفى الهدية مقفلة عليها

بالمفتاح • وخرج آخر الامر ، تاركاً جميع من بالبيت فى حالة احتياج شديد خارق • وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرّر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً ، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدرىجايلوف رجل ذو سلطان ، رجل له أعمال وصلات ، وأنه على جانب عظيم من الشراء الطائل ، والله يعلم ما الذى خطر بباله لكنه قد عنّ له أن يسافر فسافر ، ثم عنّ له أن يهب مالاً فوهب ، فلا داعى الى التعجب والدهشة والحالة هذه • صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب ، ولكن أغلب الظن أن هذه خصلة من خصال الانجليز وعادة من عاداتهم • انها الشنوذ والتفرد ، أليس كذلك ؟ ثم ان أبناء المجتمع الراقى لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم ، فهم لذلك لا يتحرجون • حتى ان من الممكن أن يكون أركادى ايفانوفتش قد تعمد المجيء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً • ولكن ينبغى خاصة أن لا تقال كلمة واحدة لأى انسان عن هذه « المغامرة » ، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذى قد تنقلب اليه هذه الأمور كلها • ويجب اخفاء المال والاقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة ، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت فى المطبخ • نعم ، يجب خاصة أن لا يقال لأحد شيء • • • • • هست هست ! • • • ما من كلمة اذن ، لا لتلك الذبابة الصغيرة ريسليش ، ولا للآخرين ، وهلمّ جراً ، وهلمّ جراً • • • وظلوا يثرثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح • لكن الخطيئة مضت تمام قبل ذلك بكثير ، وهى تشعر بشيء من الدهشة وكثير من الحزن •

وفى أثناء ذلك ، عندما دقت الساعة منتصف الليل ، كان سفدرىجايلوف يجتاز جسر « • • • كوف » فى اتجاه « حى بطرسبرج » • كان المطر قد انقطع عن الهطول ، لكن الريح ما تزال تزجر • أخذ

سفدريجايلوف يرتعد من البرد ، ونظر خلال دقيقة من الزمن ، بنوع من الاستطلاع الخاص ، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم ، نظر الى المياه السوداء ، مياه نهر « نيفا الصغير » • لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو • فاستدار ، واتجه نحو شارع « س • • • » •

ظل سفدريجايلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة ، في ذلك الشارع الذى لا نهاية له ، وتعثرت قدماء بالرصيف الخشبي مراراً في الظلام ، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد في الجهة اليمنى من الشارع • انه حين مرّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح في مكان ما ، على اليمين ، فندقاً لا بد أن اسمه « فندق آندرينوبل » اذا صدقت ذاكرته • ان هذا الفندق هو في هذا الحى التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى في الظلام الدامس • هو مبنى طويل من خشب ، اسودّ من كثرة السنين التى تعاقبت عليه ، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدم الليل ، وكانت تلاحظ فيه حركة وجلية •

دخل سفدريجايلوف الفندق ، فالتقى في الدهليز بخادم بائس المظهر خلق الثياب ، فطلب منه غرفة • فبعد أن ألقى عليه الخادم نظرة ، هزّ جسمه ، وقاده فوراً الى حجرة صغيرة لا هواء فيها تقع في ركن تحت السلم عند آخر الممر • لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية ، فجميع الغرف مشغولة •

نظر الخادم الى سفدريجايلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة • فسأله سفدريجايلوف :

– هل عندكم شاي ؟

– يمكن أن نهيب لك شايًا •

— ماذا عندكم أيضاً ؟

— لحم عجول ، فودكا ، مقبّلات •

— جئني بلحم عجول وشاي •

سأل الخادم متردداً بعض التردد :

— ولست في حاجة الى أى شئ آخر ؟

— لست في حاجة الى أى شئ آخر ؟

فانصرف الخادم وقد خاب فأله •

حدثت سفدريجاييلوف نفسه قائلاً : « لا بد أنه محل مريب . كيف لم يخطر هذا ببالي ؟ آآآ لا شك أن هيئتي أنا أيضاً هيئة رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة في الطريق • ليتني أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل ! » •

وأشعل سفدريجاييلوف شمعة وفُتّش الغرفة تفتيشاً دقيقاً . هي حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة ، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة كقامة سفدريجاييلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها ، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قدر ومنضدة مدهونة وكرسی عتيق • أما الجدران فكانها من ألواح خشبية انفكت المسامير التي تربط بعضها ببعض ؛ وهي مغطاة بورق ملطخ مهترى ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميز فيه أى رسم ، ولا يكاد يرى منه الا لون أرضيته (الصفراء) • وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة ، شأن جميع الحجرات التي تقع تحت الأسطح ، غير أن السلم يمرُّ هنا فوق الزاوية المقطوعة •

وضع سفدريجاييلوف الشمعة على السرير ، وغرق في أفكاره وخواطره • غير أن دمدمة غريبة متصلة كانت تعلو في الغرفة المجاورة

وتصل الى حد الصراخ أحياناً ، فما لبثت أن استرعت انتباهه • ان هذه الأصوات لم تنقطع فى الواقع منذ دخل • أصاخ سفدرىجاييلوف بسمعه : كان هناك شخص يقرّع شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم ، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكى • ليس يميّز المرء الا صوتاً واحداً •

نهض سفدرىجاييلوف ، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة ، فسرعان ما أضاء شق صغير فى الجدار ، فاقترب سفدرىجاييلوف من الشق ونظر • الغرفة أوسع قليلاً من غرفته ، وفيها رجلان أحدهما أجعد الشعر محمر الوجه قد وقف متخذاً وضع الخطيب ، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه ، وأخذ يلطم صدره لاثماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقى تافه ليس له أى رتبة ، وليس له أى كرامة اجتماعية ، مذكراً اياه بأنه هو الذى أخرجه من الماء ، ففى وسعه أن يعود فيغطسه فى الماء متى شاء ، وان عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله • وكان الرجل الثانى الذى ينصب عليه هذا التقرير وهذا التأييب جالساً على كرسى ، وهينته هيئة رجل يودّ لو يعطس لكنه لا يفلح فى ذلك على أى نحو من الأنحاء ، وهو يلقي على الخطيب من حين الى حين نظرة مضطربة بلهاء • كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الاطلاق •

وعلى المائدة ، حيث كانت توجد شمعة ذائبة توشك أن تنطفىء ، كان يوجد أيضاً ابريق فودكا يكاد يكون فارغاً ، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة ، وخبز ، وخيار مخلل ؛ ورغم أن الشاى قد شُرب منذ مدة طويلة حتماً ، فان الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة •

تأمل سفدرىجاييلوف هذه اللوحة بانتباه ، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراث ، وعاد يجلس على السرير •

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاى ، لم يستطع أن يمتنع

عن سؤال سفدريجيلوف مرة أخرى أليس في حاجة الى شيء آخر ، فلما سمع جواب النفي من جديد انصرف أخيراً الى غير رجعة • وأقبل سفدريجيلوف على الشاي التماساً للدفع ، فاحتسى منه كأساً ، لكنه لم يستطيع أن يذوق اللحم ، فقد كان لا يشتهي أن يتناول أى طعام •

واضح أن الحمى كانت قد ألت به • وخلع معطفه وسترته ، واضطجع على السرير ، ومدّ على نفسه الغطاء • كان مستاءً ممتعضاً • « ان من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف » ، كذلك قال يحدث نفسه ، وضحك ساخرًا •

كان جو الغرفة خائفاً ، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً ، وكانت الريح فى الخارج تزمجر ، وكانت فأرة تخذش شيئاً من الأشياء فى مكان بأحد أركان الغرفة ، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة فئران وجلد على كل حال •

لبث مضطجعاً غارقاً فى أحلامه • كانت الحواطر تتعاقب فى خياله ، يطرد بعضها بعضاً • كان كمن يريد أن يتشبث بشيء ما فى الحيال بكل ما أوتى من قوة • قال يحدث نفسه : « لا شك أن تحت النافذة حديقة تهز الريح أشجارها فتهمهم ! آه ••• لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء العاصفة فى الظلام ! يا له من احساس كريه ! » • وفى هذه المناسبة تذكر مروره بحديقة بتروفسكى ، مشمئزاً • وتذكر عندئذ مروره بجسر « ••• كوف » على نهر « نيفا الصغير » أيضاً ، فأحس بتلك البرودة نفسها التى أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر • « أنا لم أحب الماء يوماً ، ولا فى مناظر الطبيعة » ، بهذا حدث نفسه ، ثم اذا بفكرة غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحك سخريه • قال يخاطب نفسه : « يخيل الىّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياع هذه كان ينبغى أن لا تثير اهتمامى اليوم وأن تدعى غير مكترث بها أى اكتراث ، فما بالى

أعنى بها أشد العناية ؟ ألا اننى لأشبه الحيوان الذى يهجمه اشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً مناسباً • • فى حالة كهذه الحالة ! لقد كان الأفضل أن أستمّر فى السير حتى أصل الى جزيرة بتروفسكى ! لكننى وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة ! هـى هـى هـى ! انى لأكاد أنشد الاحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة ! بالمناسبة : لماذا لا أطفىء الشمعة ؟ »

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها ، واذ لم ير ضوءاً فى شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال : « نام جيرانى ! هلمّى يا مارتا بتروفا ! الآن ، الآن انما ينبغي لك أن تجيئى شاكية ، فالظلام دامس ، والمكان مناسب ، واللحظة فريدة • ومع ذلك لا تجيئين اليوم ! » •

وتذكّر فجأة ، دون سبب ظاهر ، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصّح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا فى حماية رازومихين . قال يحدث نفسه : « حقاً • • • لا بد أننى قلت ذلك من باب التبجح ، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً ! انه لماكر ، هذا الفتى راسكولنيكوف ! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته • ولكى يصبح المرء ماكرآ كبيراً لا بد له من وقت ، لا بد له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات • وهو الآن « مسرف » فى حب الحياة • من هذه الناحية يتّصف جميع هؤلاء الناس بأنهم جبناء • ولكن ما بالى أهتم بهم ! ليذهبوا الى الشيطان ! ألا فليفعلوا ما يشاءون ، فذلك لا يعينى ! » •

وظل سفدرىجايلوف عاجزاً عن النوم • وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رآها منذ قليل ، فسرت فى جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة • قال يخاطب نفسه وقد تاب الى صوابه : « لا ، يجب على الآن أن أتخلص من هذا كله • يجب أن أفكر فى شىء آخر • مضحك أمرى • • مضحك : اننى لم أكره أحداً فى يوم من الأيام ، بل اننى لم تراودنى

رغبة قوية فى الانتقام قط • هذه علامة سيئة ! لا ولا أحببت يوماً أن
أتشاجر ، وأن أندفع وأتحمس ! هذه أيضاً علامة سيئة ... ولكن ما أكثر
الوعود التى بذلتها لها منذ قليل ! مع ذلك ، كان يمكنها أن تصنع منى
رجلاً آخر » •

وصمت سفدرىجايلوف وكزَّ أسنانه • وعرضت له صورة دونيا من
جديد ، تماماً كما رآها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب
فأرخت المسدس وهى تنظر اليه بعينها الواسعتين ... حتى لكان يمكنه أن
يمسكها مرتين لا مرة واحدة دون أن تستطيع اظهار أية مقاومة • لقد
عنى هو نفسه بأن يردّها الى ادراك الواقع ! وتذكر أيضاً أنه شعر فى تلك
اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرافة بها ، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً
شديداً • « سحقاً لهذه الخواطر ! ... يجب التخلص من هذا كله ! يجب
التخلص من هذا كله ! ... » •

وأخذ النعاس يدب الى جفنيه ، وأخذت رعدة الحمى تهدأ وتراى
له فجأة أن تحت الغطاء شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه • فارتعش ،
وقال : « آآآ ... لكأنها فأرة ! طبعاً ... لأننى تركت اللحم على المائدة ! »
كره كرهاً فظيعاً أن يكون عليه أن يكشف الغطاء عن جسمه ، وأن
ينهض ، وأن يتعرض للبرد • لكن شيئاً لأمس قدمه مرة أخرى ملازمة
كريبته مزعجة ، فرمى عنه الغطاء وأشعل شمعة • ثم مال ليتفحص السرير
وهو يرتجف من الحمى ، فلم يجد شيئاً • حتى اذا نفّض الغطاء ففزت الى
السرير فأرة على حين بغتة ، فأسرع يريد القبض عليها ، ولكن الفأرة
أخذت ، دون أن تغادر السرير ، ترسم خطوطاً متعرجة فى كل اتجاه ،
وتتصلص من بين أصابعه ، وتركض على ذراعه ، ثم اندست تحت المخدة •
فرمى المخدة على الأرض ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة نفسها بشىء يشب

عليه ، ويتنطط على طول قامته ، ويصبح فوق ظهره ، تحت قميصه •
 فارتعش سفدريجاييلوف ارتعاشة عصبية واستيقظ من نومه •
 كان لا يزال راقداً على السرير ، متكوماً تحت الغطاء • وكانت
 الريح ما تزال تهمهم تحت النافذة •

قال لنفسه غاضباً : « يا له من حلم وسخ ! » •
 ونهض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره الى النافذة « الأفضل
 أن لا أنام البتة » • على هذا حزن أمره • وكان يهب من النافذة هواء رطب
 بارد ، فشد سفدريجاييلوف الغطاء وتدثر به دون أن يبارح مكانه • ولم
 يشعل الشمعة • كان لا يفكر فى شيء ، ولا يريد أن يفكر فى شيء على كل
 حال • لكن الصور كانت تلاحق الصور فى خياله ، وكانت شذرات أفكار
 تتنازع فى ذهنه فوضى لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل • لقد أصبح
 فيما يشبه النوم • هل يرجع هذا الى البرد والظلمات والرطوبة والريح
 التى تزجر تحت النافذة وتهز الأشجار ؟ المهم أن أحلامه أخذت تتخذ
 أشكالاً غريبة ، وأخذت توقظ فى نفسه رغبة ، وكانت أزهاراً تتراعى له
 بغير انقطاع • هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره • نهار مضى ، دافئ ،
 يكاد يكون حاراً • هو يوم عيد النصر • منزل ريفى أنيق ثرى ،
 على الطراز الانجليزى ، ينتصب فى وسط مروج مزهرة ، وتحيط به
 أحواض موقوفة على زراعة الأزهار • نباتات متسلقة تتلفف فوق درجات
 مدخل المنزل غارقة تحت الورود • وعلى طول سلم كبير ، مضى نضير ،
 مغطى بسجادة فخمة ، تترتب أواني خزف صينية تضم أزهاراً نادرة •
 ولاحظ سفدريجاييلوف بوجه خاص ، على حواف النوافذ ، فى آوان
 ملأى بالماء ، باقات نرجسات بيض تميل على سيقانها الخضرة وتشر عبثاً
 نافذاً • كان سفدريجاييلوف يود أن لا يتعد عن هذه الأزهار ، ولكنه
 صعد السلم ودخل قاعة كبيرة عالية السقف • هناك أيضاً كانت الأزهار

منتشرة في كل مكان : على النوافذ ، قرب الباب الكبير الذى يطل على الشرفة ، وفي الشرفة نفسها • أرض القاعة مفروشة بعشب فواح أخضر نضر • مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها الى القاعة أنسام لطيفة • العصافير تغرّد تحت النوافذ • ولكن في وسط الغرفة ، فوق منضدة فرشت بغطاء من قماش الساتان الأبيض الذى يُستعمل للموتى ، كان هناك تابوت • ان التابوت منجّد بنسيج من ساتان نابولى السميك ، ومحفوظ بابزيم سميك ، أبيض اللون أيضاً • ان حبالاً من أزهار تطوّق التابوت من جميع الجهات • وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدى ثوباً من نسيج التول الأبيض ، قد عقدت ذراعيها على صدرها وشدت احداها الى الأخرى حتى لكأنهما منحوتتان في المرمر • غير أن شعرها المبعر ، الأشقر ، رطب مخضّل • وعلى جبينها اكليل من الزهر يطوّقه • ان وجهها الذى يظهر من جانب ، ويعبّر عن قسوة ، ويبدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً في مرمر أيضاً ، ولكن ابتسامتها شفتيها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له ، حزن ليس من الطفولة ، حزن كبير • ان سفديريجايوف يعرف هذه البنية • لم يكن الى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء ، ولا شموع مشتعلة ، وليست تُتلى عليها صلوات • ان هذه البنية قد انتحرت غرقاً • عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً ، لكن قلبها قد تحطم وهي في تلك السن : لقد سعت الى الموت ، لأنها وقعت ضحية اهانة روّعت ضميرها الى الأبد ، وملأت نفسها بعار لا يستحقه وجدان الطفلة ، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة اختنقت في الظلمات والبرد والجليد الذائب وزمجات الريح ***

استيقظ سفديريجايوف من نومه ، فترك سريره واتجه نحو النافذة ، واهتدى الى المزلاج ففتحها ، فاندفعت الى الحجرة الصغيرة هبة ربيع صنعت خدّه وصدره الذى لا يغطيه الا القميص ، صفقهما بما يشبه رذاذ تلج •

وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل رواد الفندق يقضون فيها أوقات بهجة ومسرة أحياناً ، فتُغنى فيها الأغاني ويُقدّم فيها الشاي على موائد صغيرة نهاراً • أما الآن فإن قطرات ماء تسيل على النافذة آتية من الشجيرات المحيطة ، وإن الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميّز إلا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمه •

لبث سفدريجاييلوف خمس دقائق ، ماثلاً الى أمام ، متكئاً بكوعيه على حافة النافذة ، محدقاً الى الظلام لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • وفيجأة ، فى وسط الظلمات ، دوّت طلقة مدفع أولى فنائية •

قال سفدريجاييلوف يحدث نفسه : « هذا هو الانذار ! المياه تعلو ، فما ان يطلع الصبح حتى تندفق فى الشوارع فيضانات تغرق الأقيّة • القتران ستطفو على سطح الماء ميتة • وتحت المطر والرياح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم الى الطوابق العليا ، وقد تبللت أجسامهم وانهدت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون ••• لكن كم الساعة الآن ؟ » •

وفيما كان سفدريجاييلوف يفكّر فى هذا ، اذا بساعة جدار فى مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق •

قال سفدريجاييلوف لنفسه : « آ •• بعد ساعة يطلع الصبح • فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار ؟ سأصرف حالاً • سأمضى قدماً الى جزيرة بروفسكى ، فأختار دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين القطرات ••• » وابتعد عن النافذة قليلاً ، فأغلقها ، ثم أشعل شمعة ، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعته ، ومضى الى الممر حاملاً شمعته ، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذى لا بد أنه نائم فى ركن من الأركان التى تودع فيها الأشياء البالية • كان سفدريجاييلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق • وقال يحدث نفسه : « هذه خير لحظة • لا يمكن اختيار لحظة أفضل » •

لبث يطوف في الدهليز الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقي بأحد . فلما همَّ أن ينادى اكتشف على حين فجأة ، في ركن مظلم ، بين خزانة قديمة وباب ، شيئاً غريباً ، شيئاً بدا له حياً . فمال على الشيء والشمعة بيده ، فرأى طفلة عمرها خمس سنين في أكثر تقدير ، ترتدى ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الحرق التي تغسل بها الصحون ، وهي ترتجف من البرد وتبكي . لم يظهر عليها زعر حين رأت سفدرىجايلوف ، ولكنها حدقت اليه بعينها السوداوين الكبيرتين مبهوتة . وكانت تشهق من حين الى حين ، كما يشهق طفل لبث يبكي مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء ، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينة . كانت الطفلة شاحبة الوجه مشعثة الهيئة ، وكان واضحاً أن البرد قد بلغ منها العظام . ولكن كيف أمكن أن تقع في هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت في ركن ولم تنم طوال الليل !

أخذ سفدرىجايلوف يستجوبها . فانتعشت الطفلة فجأة ، وأسرعت تتدفق في الكلام فتروى بلغتها الطفولية قصةً فحواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً .

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف ؛ وفي وسع المرء أن يحزر مما روته وقصته أنها ليست محبوبة ، وأن أمها (وهي طباحة تظل دائماً سكرى ، ولعلها طباحة هذا المحل) تروّعها وتضربها ، وأن البنت حين كسرت الفئجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة ؛ وأنها اضطرت أن تختبئ مدة طويلة في مكان ما من الحوش ، تحت المطر ، ثم استطاعت أن تتسلل الى هذا المكان خلصةً ، فاختبأت وراء الخزانة ، وقضت الليلة هنالك مرتعدةً من البرد مرتجفةً باكية .

تناول سفدرىجايلوف الطفلة بذراعيه ، وعاد الى غرفته فوضعها على سريره وأخذ يخلع لها ملابسها . كان حذاءها مقطعين ، مبتلين بالماء

ابتلالاً شديداً لكنهما قد نُقعا في غدير ليلة كاملة • ولم يكن لهما جوربان •

فلما فرغ سفدريجيلوف من خلع ملابسها عنها ، أرقدها ودثرها بالغطاء حتى العنق ، فما لبثت أن نامت فوراً • وما ان انتهى من هذا حتى عاد يفرق في أحلامه المظلمة وخوابره القائمة •

قال يحدث نفسه : « هذا ما كنت في حاجة اليه أيضاً ! أن أقحم نفسي في مثل هذه القصة ! يا للحماقة ! » • وتناول الشمعة مغتاظاً ليمضي باحثاً عن الحادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة • فلما همَّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة ، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها • رفع الغطاء محاذراً • كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً • لقد دثَّها الغطاء ، حتى ان خديها قد استردتا لونهما منذ الآن • ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطح انتقاداً مما يلاحظ في الأطفال الآخرين • فقال سفدريجيلوف لنفسه : « ان بها حمى » • لكنها قد شربت ، لكنها قد سُقيت كأساً من الخمر كبيرة مترعة • ان شفتيها الحمراوين تبدوان كالمحترقتين • « ماذا ؟ ما هذا ؟ » • لقد رأى سفدريجيلوف فجأة أن أهذاب الصبية ، الطويلة السوداء ، تختلج وترتعش كأنها تنفتح ، ورأى من تحت الأهداب نظرة مأكرة حادة ليست نظرة أطفال ، تتسلل اليه ، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنوم • نعم ، ذلك ما كان ••• وانفجرت شفتا الصبية عن ابتسامة ، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنها تحاولان كظم ضحكة • ولكن محاولة الكظم تنتهي ، فتنتطق الضحكة • انها ضحكة صريحة ، وقحة ، فيها تحدٍ واستفزاز ، تتفجر في وجهه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة • هو الآن وجه العهر والانحلال ، وجه وقح زايله الحياء ، وجه امرأة مثل « كاميليا » * مثل « غادة الكاميليا » ، وجه مومس تتعاطى البغاء

فى سبيل المال ، مومس فرنسية • وها هى ذى البنت ، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه ، ها هى ذى تفتح عينها ، وتلفه بنظرة غيفة محرقة ، فى غير تحفظ أو احتشام • ان عينها تناديانه ، وتضحكان ••• وان هناك شيئاً دنساً مسيئاً مهيناً فى هذه الضحكة ، وفى هاتين العينين ، وفى كل هذا الوجه الذى أصبح لا يعبر الا عن الرجس والعار • « وكيف ؟ أفى هذه السن ؟ أفى الخامسة من العمر ؟ » ، بهذا تتم سفدرىجاييلوف مذعوراً • ولكن ها هى ذى تدير نحوه وجهها المتقد ، وتمد اليه ذراعيها ، فيقول مروّعاً : « آه ••• يا للمعونة ! » ، ويشهر عليها ذراعه ••• ولكنه استيقظ من نومه فى تلك اللحظة •

كان لا يزال راقداً على سريريه متدثراً بالغطاء • ولم تكن الشمعة مشتعلة ، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ •

« كوايس طوال الليل ! » • كذلك قال سفدرىجاييلوف ، ثم نهض منتصباً على سريريه فى غيظ وحرق • كان يحس بأنه محطّم • انه يشعر بوجع فى جميع عظامه • وفى الخارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية • لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة • لقد نام مدة طويلة جداً •

وقام سفدرىجاييلوف ، فارتدى سترته ومعطفه اللذين ما يزالان مبتلين ؟ وبعد أن تلمس مسدسه فى جيبه ، أخرجه فثبت من الكبسولة ، ثم جلس ، وتناول دفترأ صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة • حتى اذا أعاد قراءة الأسطر التى كتبها ، رجع يسترسل فى أحلامه من جديد ، متكأً بكوعيه على المائدة • المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه • وقد استيقظ الذباب فهو يتهاف على قطعة لحم العجل التى لم يمسسها • ظل سفدرىجاييلوف ينظر الى الذباب برهة طويلة ، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التى كانت طليقة • ولكن لم يفلح فى ذلك رغم الجهود الكثيرة التى بذلها •

وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل ، فثاب اليه صوابه ،
وارتجف ، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة • فما هي الا
لحظة حتى كان في الشارع •

ان ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة • وسار سفدريجاييلوف على
أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة ، في اتجاه نهر « نيفا الصغير » •
كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت أثناء الليل ، وعن تخيل
جزيرة بتروفسكى ، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال
التي يتقاطر منها الماء ، ثم الدغل المقصود !... واعتاظ من ذلك فأخذ
يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره الى شيء آخر • لم يكن
في الشارع أحد من المارة ، ولم يكن فيه أية عربة • والمنازل الخشبية
الصغيرة ، الصفراء الفاقع لونها ، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة ،
قدرة المظهر كالحلة الهيئة •

أخذ سفدريجاييلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذوا فيه •
فاذا وقع بصره على لافتة دكانٍ من الدكاكين بين الحين والحين ، أخذ يقرأ
الكلمات مدققاً متفحصاً •

ها قد انتهى الشارع المبسطة أرضه بالخشب • لقد وصل
سفدريجاييلوف الى مبنى كبير من حجر • وهذا كلب صغير بشع يمر
أمامه قاطعاً الشارع ، واضعاً ذيله بين قائميه • وهذا رجل سكران حتى
لكأنه ميت من فرط السكر ، قد رقد على الرصيف عرّضاً ، لابساً معطفاً
سيكاً ، واضعاً وجهه على الأرض •

نظر سفدريجاييلوف اليه ثم تابع طريقه • وظهر له برج كبير على
شماله فجأة • فهتف يقول لنفسه : « آ... » وجدت المكان المناسب • علام
الذهاب الى جزيرة بتروفسكى ؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد

شاهد رسمى » • وكاد يبتسم حين خطرت بباله هذه الفكرة ، ثم انعطف
يدخل شارع « س ... » • هناك كان ينتصب المبنى الذى يعلوه برج* •
وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهره رجلٌ قصير القامة
متدثر بمعطف رمادى اللون من معاطف الجنود ، وعلى رأسه خوذة من
نحاس كخوذة آخيل • رشق الرجل سفدرىجايلوف بنظرة باردة تعبر
عن النعاس • ان فى وجهه تلك الكآبة الحاقدة الساخطة التى عمرها مئات
السنين ، تلك الكآبة التى تطبع فى كثير من المראה قسما ت وجوه جميع
الناس الذين ينتمون الى ملة اليهود • وتفحص كل من سفدرىجايلوف
وآخيل صاحبه مدة من الوقت فى صمت • ورأى آخيل أخيراً أن من غير
الطبيعى أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً ، أن يقف على بعد ثلاث
خطوات منه ، ويأخذ يحدق اليه ويتفرس فيه دون أن ينطق بكلمة • فقال
يسأله ، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك :

- هيه ! عمّ تبحث ؟

فأجابه سفدرىجايلوف :

- لا أبحث عن شىء أيها الأخ • صباح الخير •

- امض فى طريقك !

- هل تعرف أيها الأخ ؟ أنا مسافر الى الخارج ؟

- الى الخارج ؟

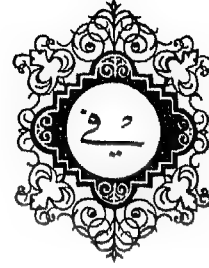
- الى أمريكا •

- الى أمريكا ؟

تناول سفدرىجايلوف مسدسه وحشاه • فرفع آخيل حاجبه •
وصاح يقول :

- ما هذا المزاح ؟ ليس هذا هو المكان ***
- ولماذا لا يكون هو المكان ***
- لأنه ليس هو المكان ***
- دعك يا صاحبي ، لا ضير *** هذا المكان مناسب مع ذلك • فإذا سئلت فقل اني سافرت الى أمريكا •
- قال سفدريجاييلوف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن •
فانبرى أخيل يقول له مندفعاً محملاً مزيدياً من الحملة :
- ممنوع هنا • ليس هذا هو المكان •
وضغط سفدريجاييلوف على الزناد •

الفصل السابع



ذلك اليوم نفسه ، عند المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ذهب راسكولنيكوف الى مسكن أمه وأخته ، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميخين في عمارة باكالايف . ان مدخل السلم يطل على الشارع . كان راسكولنيكوف يتقدم متردداً ، متباطئاً الخطو . ولكن ما كان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال ، فقد اتخذ قراره وعزم أمره . كان يقول لنفسه : « انهما ، على كل حال ، لا تعرفان شيئاً حتى الآن ، وقد ألفتا أن تعداني شاذاً . . . » . كانت ثيابه في حالة رهيبه ، فانه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل . وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والاجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . كان قد قضى الليل وحيداً ، لا يعلم الا الله أين ، ولكنه كان قد عقد العزم على انفاذ الأمر .

طرق الباب ، ففتحت له أمه . كانت دونيا قد خرجت . وكانت الخادمة نفسها غائبة في هذه الساعة . خرست بولشيرييا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر ، ثم أمسكت يده وقادته الى الغرفة . وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت :

— آ . . . هانت ذا أخيراً ! لا تزعل يا روديا اذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية . اننى أضحك . اننى لا أبكى . أتظن أننى

أبكى ؟ لا ، أنا سعيدة • ولكن هذه عادة سخيّة من عاداتى • دموعى تنسكب لغير سبب ••• منذ مات أبوك أصبحت أبكى لأنفسه أمر من الأمور • اجلس يا حبيبى ، لا بد أنك متعب ، أنا أرى هذا واضحاً ! آه ••• ثيابك متسخة جداً !•••

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماء !
فاندفعت بولشيريا ألكسندروفنا تقاطعه بقوة قائلة :

— لا ، لا ، لا يذهبن بك الظن الى أننى استجوبك ، على عاداتى القديمة المتعبة • اهدأ بالاً ، فأننى أفهم الآن كل شيء • لقد تعلمت عادات الناس هنا ، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك • وأيقنت أنه ليس من حقى أن أحاول معرفة أفكارك ، وأن أحاسبك • الله يعلم ما هى الخطط والشئون التى تملأ رأسك ، وما هى الحواطر التى ترهقك ، فهل يجوز لى أن أشدك من ذراعك وأسألك : « هياً ، هياً قل لى ، قل لى فيم تفكر ؟ » ما حاجتى الى هذه الثروة أخبط فيها خبط عشواء ! هل تعلم يا روديا ؟ أنا الآن أقرأ ، للمرة الثالثة ، المقالة التى نشرتها فى ••• فى تلك المجلة • لقد جاءنى بها دمترى بروكوفتش • فما ان رأيتها هى صحت أقول : آه ••• من فرط دهشتى ! قلت لنفسى : « ما كان أغباني وأشد حماقتى • هذا هو اذن ما يشغل باله • هذا يفسر كل شيء • كذلك هو شأن جميع العلماء • انه يدير فى رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها ، وأجىء أنا فأزعجه وأعدّبه ••• » • اننى أقرأ مقالاتك يا بنى ؟ فيها أشياء لا أفهمها طبعاً • ولكن لا غرابة فى ذلك ، فما أنا الا امرأة بسيطة •

— أرينى تلك المقالة يا أمى •

تناول راسكولنيكوف المجلة ، وألقى على مقالته نظرة عجلى •

فشعر ، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة ، شعر بتلك العاطفة الغربية ، بتلك العذوبة الحادة ، بتلك الجلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين) • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة • فبعد أن قرأ الأسطر الأولى ، تقطب حاجباه ، وانقبض صدره ، واحتنق قلبه بحزن رهيب • ان جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن الى ذاكرته دفعة واحدة • فيها هو ذا يرمى المجلة على المائدة بحركة اشمزاز ولوعة •

- مهما أكن غبية يا روديا فأنى أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف ، ان لم تصبح أعظمهم جميعاً بنجر استثناء ! • • • • • هه ! • • • • • ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون ! ها ها ها ! • • • • • لعلك لا تعرف هذا ، ولكنهم زعموا ، ودار في خلدكم ! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض ! مساكين ! أننى لهم أن بفهموا ما هو الذكاء ! ولكن ما بال دونيا ، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدق ذلك هي أيضاً ؟ • • • • • أهذا ممكن ؟ ان المرحوم أباك قد أرسل • • • انتاجه مرتين الى إحدى المجلات ، مرة شعراً (ما زلت أحتفظ بالدفتر ، وسأريك اياه يوماً) ومرة قصة (وقد رجوته أن يسمح لى بنسخها) ، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا له انتاجه ذاك • ولكنهم لم ينشروه ! هل تعلم يا روديا ؟ اننى منذ خمسة أيام أو ستة قد حزنت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن ؟ ولكننى أدرك الآن أننى كنت غبية فى هذه المرة أيضاً ، فلو قد شئت لئلت كل شئ دفعة واحدة بفضل ذكائك وموهبتك • ولكنك فى أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن ، لأنك مشغول عنه بأمور أهم شأناً •

— أليست دونيا فى البيت يا أمى ؟

— لا يا روديا ، انها تخرج فى أكثر الأحيان وتدعنى وحدى • لقد تلتطف دترى بروكوفتش فجاء يزورنى ويقضى بعض الوقت فى صحبتى • انه يكلمنى دائماً عنك • انه يحبك ، ويقدرك حق قدرك يا بنى • لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصرة فى حقى ، فلست ألوها ، ولكن لها طبعها ولى طبعى • وهى تخفى أسراراً صغيرة لا حصر لها ، تخفيها عني ولا تطلعنى عليها • أما أنا فلست أخفى عنكما أى سر • أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً ، وأنها كذلك تضمّر لى ، وتضمّر لك أنت أيضاً ، كثيراً من العاطفة والحنان • ولكنى لا أدري كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها • لقد أسعدتنى بمجيئك كثيراً يا روديا ، ولكن ها هى ذى قد خرجت فى الوقت الذى جئت أنت فيه ! سأقول لها حين تعود : « جاء أخوك فى غيابك ، فأين كنت خلال ذلك الوقت ؟ » • ولكن لا تدللنى كثيراً يا روديا : تعال الىّ ان استطعت ، فان لم تستطع أن تجىء فلا خير ، وسأتظرك على كل حال ، وسأعرف دائماً أنك تحبىنى ، وهذا يكفينى • سوف أقرأ مؤلفاتك ، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك ، وسوف تجىء أنت الىّ من حين الى حين • ما عساي أتمنى أكثر من ذلك ؟ هأنت ذا قد جئت اليوم لتواسى أمك ، انى أرى هذا واضحاً ، فهل يمكن أن أطلب المزيد ؟

• هنا أخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى فجأة •

— آه ... هأنا ذا أعود الى البكاء ! لا تنظر الىّ يا بنى ! ما أنا الا حمقاء !

ثم هتفت تقول وهى تنهض واثبة :

— آ ... ما بالى أظل جالسة هذا الجلوس ! عندنا قهوة ولا أقدم لك منها ... هذه أنانية المسنين ! حالاً ! حالاً ! ...

— أماء ! دعى هذا ! أنا ذاهب بعد لحظة ! ما من أجل ذلك جئت •
أرجوك ، أصغى الىّ !

اقتربت منه بولشيريا الكسندروفنا وجلة • فقال يسألها طافح القلب ،
دون أن يفكر ودون أن يزن كلامه :

— أظلمين تحبينى ، يا أماء ، كما تحبينى الآن ، مهما تسمعى عني ،
ومهما تعلمى من أمرى ؟

فأجابت الأم :

— روديا ، روديا ، ماذا بك ؟ كيف يمكنك أن تلقى سؤالاً كهذا
السؤال ؟ من ذا الذى يجرو أن يقول فيك سوءاً ؟ وهبّ أحداً قال فيك
سوءاً ، فإني لن أصدقك ؛ لن أصدق أحداً يجرو أن ... سوف أطرده
من يجرو ... سوف أطرده ...

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول :

— جئت لأؤكد لك أنني أحبتك دائماً ؛ وانه ليسرني أن نكون
الآن وحيدين ، وأن لا تكون دونيا هنا • لقد جئت لأقول لك بصراحة ان
عليك ، مهما يصعب من شقاء ، أن تعلمى أن ابنك يحبك أكثر مما يحب
نفسه ، وان كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتى وقلة
عاطفتى انما هو باطل • واني لن أكفّ عن حبك يوماً ... كفى هذا
الآن ، وانما أنا قدّرت أن علىّ أن أبدأ به ...

ضمّت بولشيريا الكسندروفنا ابنها صامتة ، وشدته الى صدرها ،
وبكت فى رفق • وقالت أخيراً :

— لا أدري ماذا بك يا روديا • كنت أقدر حتى هذه اللحظة أن كل
ما فى الأمر هو أنك قد ضقت بنا • ولكننى أدرك الآن أدراكاً واضحاً أن

آلاماً كبيرة تنتظرك ، وأن هذا هو السبب في حزنك • لقد أحسست بشيء من هذا احساساً غامضاً منذ مدة يا روديا • سامحني اذا أنا حدثتك في ذلك ، ولكنني دائمة التفكير فيه ، حتى أنه يؤرقني ويحرمني من النوم • كانت أحتك في هذه الليلة تهذي ، وتكلمت أثناء هذيانها عنك • ميّزت بعض الكلمات ، لكنني لم أفهم شيئاً • وظللت طوال الصباح كمن ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه ؟ نعم ، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث ، وها هو ذا الشيء الذي توقعته يحدث فعلاً ! روديا ! روديا ! الى أين أنت ذاهب ؟ ستسافر ، ستسافر ، أليس كذلك ؟

— نعم ، سأسافر •

— ذلك ما كنت أقدّرهُ ! ولكن في وسعي أن أسافر معك ، اذا كان ذلك ينفعلك • ودونيا أيضاً تحبك ، تحبك كثيراً ؟ ولتأت معنا صوفيا سيميونوفنا أيضاً اذا وجب ذلك ! انني مستعدة لأن أقبلها بنتاً الى • وسيساعدنا دمتری بروكوفتش في الاستعداد للسفر • ولكن الى أين تريد أن تسافر ؟

— استودعك الله يا أماء !

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها الى الأبد :

— كيف ؟ أفي هذا اليوم نفسه ؟

— لا أستطيع التأخر ••• آنا الأوان ••• يجب حتماً أن •••

— وأنا ؟ ألا أستطيع أن ••• أذهب معك ؟

— لا • ولكن اركعى وصلى لى ، فلعل الله يستجيب لصلاتك !

— دعنى أرسم عليك اشارة الصليب ، دعنى أباركك • نعم ، هكذا ، هكذا ! رباه ••• ماذا نفعل ؟

نعم ، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً بأن البيت خالٍ ليس فيه أحد ، كان سعيداً بأن يخلو الى أمه ، حتى لكأنه بعد جميع العذابات الرهيبة التي عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعةً واحدة ؛ فيها هو يرتدى على قدمي أمه فيقبلهما ، وها هما يبكيان كلاهما ويتعانقان . والأم في هذه المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقى سؤالاً . لقد أدركت أن ابنها يعاني أموراً فظيعة ، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد قليل ، فتحدد مصيره تحديداً حاسماً .

قالت ناشجة :

— روديا ، يا بني الحبيب ، يا أول ولد لي ، هانا ذى أراك الآن كما كنت في صغرك تماماً . كنت تجيء الىّ على هذا النحو نفسه ، فتطوقني ، وتقبلني ، بهذه الطريقة نفسها . وحين كان أبوك ما يزال معنا ، وحين كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة ، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك . وبعد أن دفنت أباك ، كم من مرة بكينا على قبره ، أنا وأنت ، متعاقبين كتعانقنا الآن ! لئن كنت أبكى منذ مدة ، فلأن قلبي — قلب الأم — قد أوجس أن شراً سيقع ، أن مصيبة ستزل . حين رأيته لأول مرة مساءً يوم وصولنا الى هنا حزرت كل شيء من رؤية نظرتك وحدها ، فسرعان ما ارتعش قلبي ؛ واليوم ، حين فتحت لك الباب ، نظرت اليك فلم ألبث أن قلت لنفسى : لا شك أن الساعة المشثومة قد حانت . روديا ، روديا ، أنت مسافر فوراً ؟

— لا .

— هل ستعود ؟

— نعم . . . سأعود .

- روديا ، لا تزعل ، أنا لا أجرو أن أسألك ، أنا أعرف أنني لن أجرو ، ولكن قل لى كلمة واحدة فقط : هل المكان الذى ستسافر اليه بعيد ؟

- بعيد جداً •

- ما الذى يدعوك الى هناك ؟ وظيفة ، عمل ؟

- ما يرسله الى الله ... ولكن صلى من أجلى !

واتجه راسكولنيكوف نحو الباب ، غير أن أمه تشبثت به ، ونظرت اليه محدقةً فى عينيه وقد عبّر وجهها عن يأس شديد ، وانقلبت سمعتها خوفاً وذعراً •

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء :
- كفى يا أماء !

- لست تسافر الى الأبد ، ليس كذلك ؟ لست تسافر الى الأبد بعد ،
أليس كذلك ؟ وسترجع غداً ، ألن ترجع غداً ؟
- سأرجع ، سأرجع ، أستودعك الله !
وانتزع نفسه منها أخيراً •

كان المساء ناعماً طرياً صافياً • لقد صبحا الجو منذ الصباح • وعاد راسكولنيكوف الى بيته • كان مسرعاً • كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس • وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً • فلما كان صاعداً الى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تتابعه بنظراتها • قال يسأل نفسه : « أياكون أحد عندي ؟ » • وتذكر بورفير مشتمزاً ممتعضاً • لكنه حين وصل الى غرفته وفتح الباب ، رأى دونيا • كانت جالسةً على الديوان ، غارقة فى تأمل عميق • وكان واضحاً

أنها قد انتظرتة مدة طويلة • وقف على العتبة • ان نظرتها المحدثّة اليه
الثابتة عليه تعبّر عن دعر هائل وحزن لا نهاية له • أدرك من هذه النظرة
وحدها أنها تعرف كل شيء •

سألها حائراً :

— أأدخل أم أنصرف ؟

فقلت :

— قضيت النهار كله عند صوفيا سيميونوفنا • كنا ننتظر كلاً •
وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي •

دخل راسكولنيكوف ، ونهاوى على كرسى ، مهدود القوى ،
وقال :

— أشعر بضعف ووهن يا دونيا ، اننى متعب جداً ، وأنا فى هذه
اللحظة خاصةً انما احتاج الى قواى كلها •

ونظر اليها نظرة ارتياب •

— أين كنت طوال الليل ؟

— لا أتذكر جيداً • لقد أردت يا أختى أن اتخذ قراراً حاسماً ،
ومضيت عدة مرات الى قرب نهر نيفا • هذا أتذكره • أردت أن أنهى
الأمر هنالك •••

وأضاف راسكولنيكوف يقول متمتماً وهو يلقى على دونيا تلك النظرة
المرتابّة نفسها :

— ولكننى ••• لم أعزم أمرى •••

— الحمد لله ! •• ليتك تعلم كم كنا خائفين ، أنا وصوفيا سيميونوفنا ،
من أن تفعل ذلك ! اذن ما زلت تؤمن بالحياة ! الحمد لله ! الحمد لله !

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة • وقال :

— كنت لا أؤمن بها ، ولكنى آمنت منذ قليل ، حين تعانقنا أنا وامي ،
وبكىنا • أنا لست مؤمناً ، ومع ذلك طلبت من أمي أن تصلى من اجلى
وأن تدعو الله لى • الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتسكا ! على كل حال ،
لست أفهم من الأمر شيئاً !•••

هتفت دونيا تقول مدعورة :

— كنت عند أمتا ؟ وقلت لها ؟•• هل جرؤت حقاً أن تقول لها ••

— لا ، لم أقل شيئاً ••• لكنها فهمت أشياء • لقد سمعتك تهذين
فى الليل • وانى لوائق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن • لا أدري لماذا ذهبت
اليها • أنا انسان سىء يا دونيا !

— أأنت انسان سيىء ، أنت الذى ترضى أن تقبل الألم ؟ ذلك أنك
تقبل الألم ، أليس كذلك ؟

— نعم ، الآن أقبله • اننى من أجل أن اتحاشى هذا العار ، اردت
أن أغرق نفسى يا دونيا • ولكنى حين ملت فوق مياه النهر ، قلت : ما دمت
أعد نفسى رجلاً قوياً فما ينبغى أن أراجع أمام العار • هذه كبرياء
يا دونيا ، أليس كذلك ؟

— نعم ، هى كبرياء يا روديا !

لكأن شعلة قد عادت تنقد فى عيني راسكولنيكوف المنطفئتين : كان
ما يزال يسره أن يكون ذا كبرياء !

وسأل أخته وهو يتسم ابتسامة رهيبة ويحدّق الى عينيها بنظرة ثابتة :

- قولى يا أختى ، هل تعتقدين أن الخوف من الماء وحده هو الذى صدّنى عن الانتحار غرقاً ؟

فهتفت دونيا تقول بمرارة :

- كفى يا روديا !

وساد الصمت دقيقتين •

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين • وكانت دونيا واقفة عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبّر وجهها عن ألم شديد • ونهض راسكولنيكوف فجأة • وقال :

- تأخرت • حانت الساعة • سأمضى أشئ بنفسى • ولكنى لا ادرى لماذا أشئ بنفسى !

فانحدرت على خدى الفتاة دموع كبيرة •

قال راسكولنيكوف :

- تبكين يا أختى ؟ ولكن هل تقبلين أن تمضى الى يدك ؟
قالت :

- هل يساورك شك فى هذا ؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضمّاً قوياً • وهتفت تقول وهى ما تزال تعانقه وتقبّله :

- أأست تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم ؟

فصاح يسألها فى سورة من غضب شديد :

- جريمة ؟ أية جريمة ؟ أيكون جريمة " قتل " قملة قدرة ضارة ، قتل " مرابية عجوز لا يحتاج إليها أحد ، مرابية تمتص دماء الفقراء ؟ الا ان قتلها ليمحو أربعين خطيئة ! لا أظن أن هذا الفعل جريمة ، ولا اريد أن أظهر منه وأكفر عنه . ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعى : « جريمة ، جريمة » ؟ نعم ، اننى وقد قررت أن أتحمّل هذا العار الذى لا طائل تحته ، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جبنى من سخف . ان الصغار والعجز وحدهما هما اللذان يدفعانى الى أن . . . وربما أضيف اليهما المنفعة . . . كما . . . كما كان يقترح على ذلك . . . بورفير !

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها كرب شديد :

- أخى ، أخى ، ما هذا الذى تقوله ؟

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره :

- دم يسفحه جميع الناس ، يجرى وسيظل يجرى على الأرض أنهاراً . . . نعم . . . يسكبها جميع الناس كالشمبانيا ، ومن أجله يتوج بعضهم فى « الكايتول » ، ويسمى بطلاً من الأبطال الذى أحسنوا الى الانسانية ! أنعمى النظر قليلاً واحكمى فى الأمر ! أنا قد أردت أن اصنع للبشر خيراً ، وكنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألوف الحسنات تعويضاً عن تلك الحماقة البسيطة . . . بل قولى عن تلك الخرافة البسيطة ، لأن الفكرة فى ذاتها لم تكن حمقاء الى الحد الذى يبدو الآن ، بعد ان أخفقت (نعم ان كل من يخفق يبدو غيباً أحق) . الخلاصة اننى رجوت بهذه الحماقة - ولنسلّم بأنها حماقة - أن أخلق لنفسى وضعاً مستقلاً ، أن أخطو خطوة أولى ، أن أحصل على موارد ، فاذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو مفيد ، عادل ، مرض . . . كل ما هنالك اننى منذ الخطوة الأولى قد ترنحت لأننى جبان . تلك هى الحقيقة ! وذلك هو السبب فى

أننى شقى : فلو قد نجحت لوضعوا على رأسى أكاليل النار ، أما الآن
فانهم يلقوننى الى الكلاب ...

— ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ! ما هذا الذى تقوله
يا أخى ؟

— صحيح أننى لم أراع الأشكال ، لم أراع الأشكال البديعة التى
توجيها قواعد الجمال . ولكن هل تعتقدن حقاً أن قذف القنابل على سكان
آمنين ، أثناء حصار ، أكثر مراعاة للأشكال البديعة وأكثر تقيداً بقواعد
الجمال ؟ ثم ان الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز ... اننى لم
أحسّ هذه الحقيقة فى يوم من الأيام كما أحسها الآن ، ولا عجزت فى
يوم من الأيام عن أن أفهم ما هى جرئيتى كما أعجز عن هذا الآن ! لم أكن
فى يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً منى فى هذه اللحظة ! ...

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه المخربّ الشاحب احمراراً
قائماً على حين فجأة . لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه
مصادفةً بنظرة دونيا ، فقرأ فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة أن
راسكولنيكوف لم يلبث أن تاب الى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه رغم
ارادته تقريباً . لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكينتين .
انه هو السبب مهما يكن من أمر ! ... قال :

— دونيا العزيزة ! اذا كنت مذنباً فاعفنى لى (رغم أن الغفران
مستحيل اذا كنت مذنباً) . أستودعك الله ! كفى مناقشة ! لقد آن الأوان
حتى لقد تأخرت ! لا تتبعنى ، أرجوك ! هناك زيارة أخرى يجب ان
أقوم بها ... وانصرفى حالاً وابقى الى جانب أمنا ، أرجوك ، اضرع
اليك ! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به اليك . لا تتركها لحظة واحدة .
لقد ودّعتها وهى على حال من القلق لا تستطيع أن تعطيقها ... فاما أن

تموت واما أن تُجنَّ • فابقي اذن بقربها ! وسيكون رازوميخين الى جانبكما ، لقد كلمته في الأمر ••• لا تبكي على ••• سأحاول أن اكون طوال حياتي شريفاً وشجاعاً ، رغم أنني قاتل • وقد تسمعين باسمي في يوم من الأيام • لن ألتخ شرفكم بالعار • سوف ترين • سوف أبرهن ••

وأسرع راسكولنيكوف يقول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذل تلك الوعود أن عيني دونيا قد التمع فيهما تعبير غريب :

– والآن ، الى اللقاء • لماذا تبكين هكذا ؟ لا تبكي ! لا تبكي ! انت لا تفرق الى الأبد ! ها ••• نعم ••• انتظري ••• نسيت ! •••

واقترب من المائدة ، فتناول منها كتاباً ضخماً غشاه الغبار ، ففتحه ، فسحب منه صورة صغيرة لوجه مرسوم بالألوان المائية على عاج ، كانت موجودة بين أوراق الكتاب • انها صورة بنت صاحبة البيت ، الفتاة التي مائت من الحمى وكانت في الماضي خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير • تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير المعبر المتألم ، ثم قبل الصورة ومدّها الى دونيا وهو يدمدم شارد الذهن :

– كثيراً ما كلمتها هي أيضاً عن « ذلك الأمر » • لقد بحث لقلبها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحقّقاً جهنمياً !

وأردف يقول لدونيا :

– لا تقلقي يا دونيا ! كانت لا تؤيد آرائي أو تحبّها أكثر مما تؤيدنيها أو تحبّذينيها أنت ! واني لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم ! ثم هتف يقول فجأة وقد عاد اليه عذابه :

– المهم ، المهم أن كل شيء سيتغير ، وأن الانفصال عن الماضي سيكون تاماً • نعم ، كل شيء ، كل شيء سيتغير ! ولكن هل أعددت نفسي لهذا ؟

وهل أنا أريده حقاً ؟ يقال ان هذه المحنة لازمة لى ، ولكن فيم هذه المحن
السخيفة كلها ؟ ما فائدتها ؟ ما جدواها ؟ هل سأكون أقدر على الفهم ،
حين أصبح ، بعد عشرين سنة من الاعتقال ، شيخاً مرهقاً هذه الألم
ودمّر العذاب وصار أبله معتوها ؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد
ذلك ؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة ؟ آه ... لقد أدركت حقاً أنني جبان
رعيدي حين ملت على مياه نهر نيفا في هذا الصباح عند الفجر !

وخرج الاثنان أخيراً . كانت دونيا تتألم كثيراً ، ولكنها كانت تحب
أخاها . وابتعدت . غير انها ما ان سارت خمسين خطوة حتى التفت الى
وراء لتتظر اليه . كان راسكولنيكوف ما يزال يرى . وحين وصل الى
ناصية الشارع التفت هو أيضاً ، فالتقت نظرتهما آخر مرة . لكنه حين
لمح أن أخته تنظر اليه حرك يده بإشارة تملل بل بإشارة غضب ، ليومئ
لها بأن عليها أن تتابع السير في طريقها . وأسرع يغيب هو أيضاً عند
منعطف الشارع .

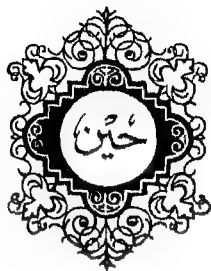
وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التملل أو الغضب التي بدرت
منه : « أنا شرير ! واضح أنني شرير ! ... ولكن لماذا تحبني أختي كل
هذا الحب ما دمت لا أستحقه ؟ آه ... لو كنت وحيداً ، لو لم يكن هناك
أحد يحبني ، « اذن لما حدث شيء من ذلك كله » ! والآن أود لو اعرف
هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من الاعتقال في السجن ،
هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً الى الحد الكافي الذي يجعلني أمضى الى
جميع الناس أذرف أمامهم الدموع ، وأعلن لهم أنني وغد ؟ طبعاً ، هذا
هو السبب الذي يحضهم على ارسالي الى السجن ؛ ذلك هو ما يريدون ...
آه ... اننى أراهم جميعاً يذهبون ويجيئون في الشوارع . انهم جميعاً
جبناء حقيرون أوغاد ، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون ! ومع

ذلك يكفي أن أحاول تحاشي السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فإذا هم مستاءون ساخطون ! آه ... اننى أكرههم ! أمقتهم ! ...

وغرق راسكولنيكوف فى خواطره وتأملاته ، فكان يتساءل : « كيف سأنتهى شيئاً فشيئاً الى الشعور بالمدلة أمامهم جميعاً على اقتناع منى بذلك؟ ولكن لم لا ؟ لا شك أن الأمر سيجرى هذا المجرى • ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة الى بلوغ هذا الهدف ؟ الماء يأكل الصخر • ولكن اذا صحّ هذا ، فعلام أحيا ، علام أحيا ؟ نعم ، علام أذهب الى هناك مع اننى أعلم منذ الآن أن كل شئ سيجرى على نحو ما أتنبأ ، لا على أى نحو آخر ؟ » •

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة • لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى السير •

الفصل الثامن



دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط . لقد انتظرتة صونيا طوال النهار وهي فى حالة قلق رهيب . انتظرتة مع دونيا . ان دونيا قد جاءت الى صونيا فى الصباح اذ تذكرت أن سفدرىجايلوف قال لها ان صونيا « تعرف » . لن نروى تفاصيل ، الحديث الذى جرى بين دونيا وصونيا ، ولن نتحدث عن الدموع التى ذرفتها ، وعن التفاهم الذى نشأ بينهما . وحسبنا أن نقول ان دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير : ان أخاها لن يكون وحيداً . فلها ، لصونيا ، انما أفضى بسرّه وباح بجريمته قبل أى شخص آخر ؛ وفيها ، فى صونيا ، انما التمس انساناً يركن اليه حين أحسّ أنه فى حاجة الى انسان يركن اليه . فهى التى ستتبعه اذن أينما ترسله الأقدار . لم تلق دونيا أى سؤال عن هذا الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث . حتى لقد كانت تنظر الى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا فى أول الأمر ، وخجلت منه ، وكاد يبكىها ، من فرط قوة اعتقادها بأنها أهون شأنًا وأحقر قيمة من أن ترفع عينها الى دونيا . ان صورة دونيا الرائعة الفاتنة ، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقائهما فى بيت راسكولنيكوف ، قد انحفرت فى نفسها الى الأبد صورةً من أجل وأروع ما رأت فى حياتها من صور جميلة رائعة .

ونفذ صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتتظر أخاها فى بيته . لقد بدا لها أنه سيذهب الى هناك أولاً . فلما خلت صونيا الى نفسها عاودها

الخوف الرهيب من أن يكون راسكولنيكوف قد ينتحر • وكانت دونيا ،
 هي أيضاً ، تخشى ذلك • ولكن كلاً منهما كانت قد ظلت تقنع الأخرى
 بأن هذا التصور ليس له مایسوغه وأن الأمر يستحيل أن يقع ، مستثنين
 في ذلك الى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها • لهذا كانتا هادئتين
 بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما • ولكن ما ان افترقا حتى أصبحتا
 كلتاهما لا تفكران الا في هذا • تذكّرت صونيا أن سفدریجایلوف قال
 لها أمس ان أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما : فلما سیریا واما
 ••• وكانت تعرف من جهة أخرى كبرياء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة
 عاطفته الدينية ، فكانت تتساءل قلقه أشد القلق : « هل يمكن أن يكون
 الخوف من الموت كافياً وحده لصدّه عن الانتحار وجعله يتشبّه بالحياة ؟ »

وكانت الشمس تميل الى الغروب في أثناء ذلك • وكانت صونيا
 واقفة قرب النافذة تحدّث الى الخارج حزينةً ملتاعة • ولكن جداراً
 مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن
 تراه العين من هناك • وأخيراً ، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين
 قد مات ، دخل عليها راسكولنيكوف •

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح ، ولكنها حين تفرست في
 وجهه ملياً اصفر وجهها فجأة •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

– هيه صونيا ! لقد جئت آخذ صلبانك ! ألم تأمريني أنت نفسك
 بأن أمضى أعترف على رموس الأشهاد ؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت
 أن أضع ذلك موضع التنفيذ ؟

كانت صونيا تنظر اليه مذهولة مبهوتة • لقد بدت لها هذه اللهجة
 غريبة • وسرت في جسمها رعدة باردة ، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة

أن كل شيء - اللهجة والكلمات - لم يكن الا تظاهراً وتصنعاً • لقد كان يكلمها متهرباً من نظراتها • وأردف يقول :

- اسمعى يا صونيا ، لقد وجدت أن من مصلحتى أن أتصرف هذا التصرف ، فإن هناك ظرفاً خاصاً يجعلنى ••• ولكن الامر يطول شرحه ••• ثم لا قيمة لهذا ••• ولكن هل تعلمين ما الذى يغيظنى ويخفقنى ؟ اننى أجنُ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفاة الاغبياء الوحوش يزدحمون حولى ويحيطون بى ويحملقون فىّ ، وحين أتصور جميع الأسئلة البلهاء التى سيلقونها علىّ والتى سيكون من واجبى أن اجيب عنها ؛ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيشيرون الىّ بأصابعهم ••• هه ••• هل تعلمين ؟ لن أذهب الى بورفير • لقد أزعجنى كثيراً • وانما سأذهب الى صديقى « بارود » • وبذلك أدهشه أشد دهشة • لا شك اننى سأثير فى نفسه دهشة كبيرة ! ولكن ينبغى أن أكون أكثر هدوءاً ، وقد أصبحت فى الآونة الأخيرة نائر الأعصاب ! هل تصدقين ؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختى بىدى مهدداً متوعداً ، لا لشيء الا لأنها التفتت تلقى علىّ نظرة أخيرة ! آه ••• انه لعار أن أكون فى مثل هذه الحالة العvisية ! اترانى هبطت الى مثل هذا الدرك الأسفل ؟ والآن ، اين الصليبان ؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو فى حالة سوية • كان لا يستطيع ان يستقر فى مكانه دقيقة واحدة ، ولا أن يركز انتباهه على أى شيء • كانت أفكاره تختلط فى أحاديثه وتشابك وتضطرب • وكانت يداه ترتجفان قليلاً •

سلّت صونيا صليبيها من علبة صغيرة دون أن تقول شيئاً : الصليب الخشبى المصنوع من خشب السرو ، والصليب النحاسى • ورسمت على

نفسها اشارة الصليب ثم رسمت اشارة الصليب على راسكولنيكوف ، ثم علفت صليب خشب السرو فى عنقه •

- يرمز هذا اجمالاً الى اننى أحمل صليبي ها ها ها
 كأننى ما تالت ألماً كافياً حتى الان ! ان الصليب الخشبى هو صليب ابناء الشعب ! أما الصليب النحاسى ، أى صليب اليزابت ، فانت تحتفظين به لنفسك • أرينيه ! اذن كانت اليزابت تحمله فى ذلك الأوان ! انا أيضاً أعرف صليبين من هذا النوع ، بل صليباً من فضة ووساماً • رميتهما فى ذلك اليوم على صدر العجوز • فانظرى ماذا يجب على أن أضع فى عنقى اليوم ! على كل حال أنا أقول سخافات ، وأنسى الأمر الأساسى اننى ذاهل اسمعى يا صونيا : لقد جئت لأبلغك نعم ، يجب أن تعلمى أنا لم أجيء الا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدر ان أقول أكثر مما سأقول) اسمعى : أنت التى حضضتى على أن افعل ما سأفعل •• سوف أنفذ ارادتك فأدخل السجن • ولكن ما بالك تبكين أنت أيضاً ؟ كفى كفى ! كفى بكاء ! آه لشد ما يؤلمنى هذا كله !

تأثر راسكولنيكوف تأثراً شديداً ، وانقبض صدره حين رأى صونيا تبكى • وتساءل : « وهذه ، لماذا تتألم هذه ؟ ماذا أنا عندها ؟ ما بالها تبكى ؟ ما الذى يجعلها تهتم بى كأنها أمى أو أختى ؟ ما الذى يحملها على ان تصاحبنى الى نهاية الشوط ؟ آه سوف تكون لى بمشابة المربية للطفل » •

تضرعت اليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش :

- ارسم اشارة الصليب ! صل مرة واحدة على الأقل !
 - اذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات ! سأفعله راضياً
 كل الرضى يا صونيا !

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً •

وها هو ذا يرسم إشارة الصليب عدة مرات • وتناولت صونيا شالها فغطت به رأس راسكولنيكوف • هو خمار أخضر من جوخ السيدات • لعله « شال الأسرة » الذى تكلم عنه مارمیلادوف • ومضت هذه الفكرة فى ذهن راسكولنيكوف خلصةً • ولكنه لم يلق أى سؤال • لقد بدا يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فظيعاً • وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً • خاف • وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا تنهياً لمصاحبتة •

صاح يقول لها غاضباً :

— ماذا تفعلين ؟ الى أين أنت ذاهبة ؟ ابقى ! ابقى ! سأذهب وحدى •

واتجه نحو الباب شبه زعلان • وتتمتع يقول وهو يخرج :

— أنا فى حاجة الى خفير ؟

بقيت صونيا فى وسط الغرفة • لقد أهمل حتى توديعها • نسيها منذ الآن • هنالك فكرة واحدة تثيره وترهقه • تساءل وهو يهبط السلم : « هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً ؟ أليس من الممكن أن أتوقف ، أن أنكص على عقبي ، أن أدبر الأمور ••• أن لا أذهب الى هناك ؟ » •

ومع ذلك واصل سيره • لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من التساؤل وأن ساعة التردد قد مضت • حتى اذا صار فى الشارع تذكر انه لم يودّع صونيا • وأنها بقيت فى وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ أن تتحرك مخافة أن تغضبه • فتوقفت لحظة • ولكن فكرة مباغتة وافته فى تلك اللحظة نفسها • كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافيه • تساءل قائلاً : « لماذا ذهبت اليها ؟ لقد قلت لها اننى انما جئت لها تنفيذاً

لمهمة يجب على أن أقوم بها ؟ ما هي تلك المهمة ؟ ليس هناك أية مهمة تدفعني الى زيارتها ! أبلغها أنني « ذاهب الى هناك » ؟ أكان هذا ضروريا ؟ أتراني أحبا ؟ لا ، لا ، غير معقول !... ألم أدفعها عنى منذ لحظة كما يُدفع كلب ؟ هل صليها اذن هو ما كنت في حاجة اليه ؟ آه ... لقد هبطت الى الدرك الأسفل ! لا ، لا ، وانما أنا كنت في حاجة الى دموعها . كنت في حاجة الى أن أرى رعبها وذعرها ، كنت في حاجة الى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق . كنت في حاجة الى أن أتثبت بشيء ما ، الى أن أكسب وقتاً ، الى ان أتأمل انساناً ! هذا ما كنت في حاجة اليه ، ومع ذلك تجرأت في يوم من الأيام فتخيلت أن مصيراً عظيماً يناديني اليه ، واعتمدت على نفسي فأقدمت على أمور كنتك الأمور ، أنا الذي لست الا انساناً حقيراً تافهاً جباناً ، جباناً ! » .

كان يسير على طول رصيف القناة . لم يبق بينه وبين الوصول الا مسافة قصيرة . لكنه حين وصل الى الجسر توقف لحظة ، ثم لم يلبث ان مضى يعبر الجسر ، فنأى بذلك عن طريقه ، واتجه نحو « سوق العلف » .

كان ينظر يميناً ويسرة بشراهة ، ويحاول أن يتفحص كل شيء من الأشياء متمعناً ، لكن اتباهه لم يستطع أن يتركز على أى شيء من هذه الأشياء . فكل شيء يتهرب منه ويغيب عنه . وخطرت بباله خاطرة : حدث نفسه قائلاً : « بعد شهر ، بعد أسبوع ، سيعبرون بى هذا الجسر ماضين بى الى مكان ما على عربة سجناء ، فأية نظرة سألقى على هذه القناة نفسها يومذاك ؟ هل سأذكر أنني رأيته على نحو ما أراها الآن ؟ وهذه اللافتة ؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها ؟ هذه كلمة « شركة » . فهل سأذكر هذه « الشين » ، هل سأذكر حرف « الشين » هذا ؟ واذا تلبت عيناى بعد شهر على هذا الحرف نفسه فهل سأنظر اليه كما أنظر اليه

الآن ؟ نعم ، ما عسى تكون احساساتى وأفكارى حينذاك ؟ أوه ... ما اتفه
وما أسخف هذه ... المشاغل ! ... لا شك أن هذا أمر غريب ...
(ها ها ها ... ماذا أيضاً ؟) اننى أرتد الى الطفولة ، فاصطنع أوضاعاً
أنظر اليها وأعتر بها • ولكن لا ، لماذا أخجل من نفسى ؟ أوه ... ما أكثر
التراحم والتصادم فى هذا المكان ! هذا هو ، الرجل السمين ذاك ...
لا شك أنه ألمانى ... هو الذى صدمنى ودفعنى • فهل يعلم أنه صدمنى ؟
وهذه المرأة العجوز التى تجر طفلاً وتستجدينى صدقة ، هل تظن اننى
أسعد منها ؟ طيب ... على كل حال ... على أن أنفجها صدقة ، هكذا ،
من باب اللعب ، على سبيل العبث ... حسن ، بقى لى خمسة كوبيكات !
تُرى من أين هما آتيان ؟ »

وقال راسكولنيكوف يخاطب المسئولة :

— خذى ، خذى ، أيتها الأم الطيبة !

فقالت المسئولة بصوت فيه بكاء :

— الله يحميك !

ودخل راسكولنيكوف « سوق العلف » • كان يشعر من ملامسة
كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس ، كان يشعر باحساس مزعج كربه
أليم ، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه الى حيث يحتشد الناس اكثف
احتشاد • كان مستعداً لأن يضحي بكل شئ فى سبيل أن يخلو الى نفسه ،
ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو
دقيقة واحدة • هذا رجل سكران يصخب ويعربد : انه يحاول أن يرقص ،
ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه • واجتمعت حوله جمهرة
من الناس • شقّ راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد ، ونظر الى
السكران بضع لحظات ، فاذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة •

ثم ما ان مضت دقيقة حتى كان قد نسي الرجل ، وحتى أصبح لا يراه ،
رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه . وانصرف أخيراً عن المكان الذي
كان فيه ، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف . ولكنه حين وصل الى وسط
الميدان حدث في فكره شيء ، وسرت في جسمه رعدة .

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة : « اذهب الى ميدان من الميادين ،
فسلّم على الشعب ، وقبّل الأرض لأنك أثمت في حقها أيضاً » ، وقل
بصوت عالٍ حتى يسمعت جميع الناس : اننى قاتل . »

فما ان دارت في ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الراس
الى القدمين . ان الآلام الرهيبة والتباريح الفظيعة التى عاناها فى الايام
السابقة ، ولا سيما فى الساعات الأخيرة ، قد بلغت من إرهاقه أنه استسلم
استسلاماً كاملاً لهذا الاحساس الجديد الشامل . اعتراه نوع من
نوبة عصبية . ان شرارة قد انبثقت فى نفسه فأشعلتها دفعة واحدة . ثم
استولى عليه حنان واسع فسالت دموعه على خديه . وتهالك على الأرض
حيث كان . . .

ركع فى وسط الميدان ، ثم سجد ، فقبّل الأرض الموحلة منتشياً
ثملاً سعيداً . ونهض ثم سجد مرة أخرى .

قال فتى على مقربة منه :

— هيه ! على أى شيء يقبض هذا ؟

وضجّ الناس من حوله بضحك صاخب . وأضاف بائع صغير ثمل
بعض الثمل :

— لا شك أنه مسافر الى القدس يا أصحابى ، فهو يودع أولاده ،
وطنه ، ويسلّم على الناس جميعاً ، ويهب قبلةً أخيرة للعاصمة الكبرى
سان بطرسبرج ، ولأرضها .

وقال ثالث :

– ما يزال فى ريعان الشباب !

وعقب رابع بصوت جازم :

– وهو من أسرة الكريمة •

وأضاف خامس :

– أصبح المرء لا يميّز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا أبناء
أسر كريمة !

هذه التعليقات المتفككة كلها أوقفت على شفتى راسكولنيكوف كلمتى:
« أنا قاتل » اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه • ومع ذلك
تحمل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء ، ومضى يسير فى شارع صغير
يؤدى الى قسم الشرطة ، دون أن يلتفت الى وراء • وفيما كان يمشى
عرضت لعينيه صورة ، ولكنه لم يدهش ، فانه كان قد تنبأ بأن هذا هو
ما سيحدث • انه حين سجد فى « سوق العلف » سجدة ثانية ، قد التفت
يسرةً فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة • كانت لحرصها على ان
لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبى كان قائماً فى الميدان ، ولكنها كانت
قد تبعته فى صعوده على « الرابية التى يعلوها صليبه » •

فى تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون
معه الى الأبد ، وأنها ستبعبه ولو الى آخر العالم ، ستبعبه الى أى مكان
يقوده اليه قدره • فاضطرب من ذلك قلبه ••• ولكن ها هو ذا يصل الى
المكان المحتوم •

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة • كان عليه أن يصعد الى الطابق
الثانى • قال لنفسه : « من هنا الى أن أصير فوق ••• » • وبداله أن هناك

زمناً طويلاً سينقضى قبل أن يصل الى فوق ، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال
يمكن أن توافيه ، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة •

السلم مملوء بالأقذار نفسها والقشور ذاتها ؟ والأبواب مفتوحة على
مصاريعها كما كانت فى المرة الماضية ؟ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة
العفونة والتفن • ان راسكولنيكوف لم يرجع الى هذا المكان بعد زيارته
الأولى له •

كانت ساقاه متخدرتين وكانتا تترنحان ، ولكنه ظل يتقدم • وتوقف
لحظة ليسترد أنفاسه ، وليسترجع رباطة جأشه ، من أجل أن يظهر بالمظهر
الذى يجب أن يظهر به « رجل » • ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به
من جهد فتساءل : « ولكن لماذا ؟ ما فائدة هذا ؟ ما دام يجب على ان
أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة او
بتلك ؟ بالعكس • • • فكلما كنت منفراً باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك
أفضل ! » • وفى تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفتش ،
الليوتنان « بارود » • فتساءل : هل يجب حقاً أن أذهب اليه هو ؟ الا
يمكن أن أتجه الى شخص آخر ؟ ولماذا لا أتجه الى نيكوديم فومتش ؟
وماذا لو عدت أدراجي فذهبت الى مفوض الشرطة ألقاه فى بيته ؟ ميزة
هذه الطريقة ، على الأقل ، أن الأمور تجرى عندئذ فى جو كأنه جو
أسرة ! • • • لا ، لا ، بل أتجه الى « بارود » الى الليوتنان « بارود » !
ما دام يجب على أن أشرب الكأس فلأشربها دفعةً واحدة !

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعى ما يفعل • فى هذه المرة لم يكن
هناك الا قليل جداً من الناس • لا أحد الا بواب ورجل من الشعب
ينتظران • شرطى الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه •
مرَّ راسكولنيكوف الى الغرفة المجاورة • وحدث نفسه قائلاً : « لعلنى

ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً * * هذا كاتب من القسم يرتدى
ردنجوتاً قد مال على مكتبة يكتب شيئاً ما * وهذا كاتب آخر مستقر فى
ركن * ليس زامبوتوف هناك ، ولا نيكوديم فومتشس طبعاً *

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه :
- ألا يوجد أحد ؟

- من تريد ؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً :

- آ آ آ آ آ آ آ آ لا حاجة الى أذنين ، ولا حاجة الى عيني
* * * غريزتى أنبأتنى بوجود رجل « روسى » * * * كما تقول الحكاية *
تحياتى واحترامى *

أخذ راسكولنيكوف يرتجف * ان الليوتان « بارود » الذى انجس
من غرفة ثالثة يقف الآن أمامه * حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً :
« هذه هى الأقدار * لماذا هو هنا ؟ » *

وعاد ايليا بتروفتشس يصيح ، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل
ومحتاج الأعصاب قليلاً :

- أأنت عندنا ؟ اذا كنت آتياً لعمل ، فالوقت مبكر جداً * أنا نفسى
انما * * * بمصادفة محضة ! * * * على كل حال ، اذا كنت أستطيع * * *
أعترف لك * * * نعم * * * كيف * * * كيف أنت * * * معذرة * * *
- أنا راسكولنيكوف *

- طبعاً ، طبعاً راسكولنيكوف ! هل تخيلت ، ولو لحظة واحدة ،
أننى نسيت * * * أرجوك ، لا تصدقنى اذا * * * يا روديون رو * * * رو * * *
روديونتشس ، أليس كذلك ؟

— روديون روماتش •

— نعم نعم نعم ، روديون روماتش ! روديون روماتش ! ذلك هو الاسم الذى كنت أحاول تذكره ! لقد سألت عن أخبارك مراراً ! اننى آسف حقاً — اعترف لك بذلك — للطريقة التى تصرفنا بها معك فى ذلك اليوم • وقد ذكروا لى فيما بعد ... لقد علمت فيما بعد أنك شاب اديب، بل وعالم ... وأنك تخطو خطواتك الأولى ان صحَّ التعبير • أى اديب وأى عالم لا يقوم بأمر فيها شيء من الشذوذ والتفرد فى بداية حياته الأدبية أو العلمية ؟ اننا ، أنا وزوجتى ، نشق الأدب ، حتى أن امرأتى تبلغ فى ذلك حد الوله والتدله !... الأدب والفن ! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت ، ولكن الشيء الهام هو ما يناله بالموهبة ، بالعلم ، بالعقل ، بالعقوبة ! ما قيمة قبعة مثلاً ؟ القبعة قرص أستطيع أن اشتريه من محل تسيمرمان ، أما ما هو تحت القبعة ، أما ما تغطيه القبعة ، فذلك لا أستطيع أن أشتريه !... أعترف لك بأننى قد تمنيت أن أذهب اليك ، لأعتمد لك ، ولكنى قدّرت أنك قد ... بالمناسبة : أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن ! وصلت أسرتك ، أليس كذلك ؟

— نعم ، أمى وأختى •

— لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك • انها فتاة مثقفة رائعة • اعترف لك بأننى آسف لاندفاعنا أنا وأنت ... كانت قصة مؤسفة ! ولكن لئن نظرت اليك نظرة اشتباه عند اغمالك ، فإن أسباب هذا الاغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً ! لقد كان ذلك منى نزقاً وتعصباً لا أكثر ! اننى أفهم استيائك ! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلِكَ ، أليس كذلك ؟

— ل ... لا ... وانما جئت ... لأسألك ... لقد كنت اتصور أننى سأجد زاميو توف •

— ها ••• نعم ••• أصبحتما صديقين ••• سمعتُ عن هذا ! ولكن زاميو توف تركنا ، فلن تجده بعد اليوم هنا ! نعم ، لقد فقدنا ألكسندر جريجوريوتش ••• منذ أمس ! قد تم استقالته ، حتى انه عند انصرافه قد بادلنا جميعاً كلمات خسنة • نعم ••• مضى فى قلة التهذيب الى ذلك الحد ••• انه صبى ، انه صبى ، انه طائش ! صحيح أن آمالاً كانت تعتقد عليه ، ولكن كيف السبيل الى الاتكال على شبابنا اللامع هذا ؟ انه يريد ، فيما يبدو ، أن يتقدم الى امتحان مسابقة ، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الثروة والمفاخرة ! ذلك هو امتحان المسابقة الذى يريد أن يدخله ! ليس هو مثلك ، أو مثل صديقك رازوميخين ••• فانك أنت قد اعتنقت رسالة العلم ، وما من اخفاق يمكن أن يحرفك عنها • جميع مباهج الحياة هى فى نظرك أنت باطل ••• « عدم » * ، أليس كذلك ؟ أنت ، أنت رجل زاهد متقشف ، أنت راهب ، أنت ناسك • المهم فى نظرك أنت انما هو القلم وراء الأذن ، وانما هو البحث العلمى • نعم ، ذلك هو فى نظرك الشئ • ال ••• وأنا أيضاً ، الى حد ما ••• هل قرأت « مذكرات » ليفنجستون ؟ *

— لا !

— أما أنا فقد قرأتها • ثم ان عدد الذين يعتقدون المذهب العدمى قد ازداد فى هذه الايام ازدياداً كبيراً ، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً • فى اى عصر نعيش نحن ؟ اننى ألقى عليك ذلك السؤال ! ولكن ما بالى أحدك أنت ••• أنت لست من معتقى المذهب العدمى ، أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة ، بصراحة •

— ل ••• لا •

— لا ؟ ولكن فى وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة • نعم ، لا تتحرج ، كلمنى كما لو كنت تكلم نفسك • العمل شئ • وال •••

شئ آخر • كنت تظن أننى سأقول : « الصداقة » ، أليس كذلك ؟ اذن
لقد أخطأ ظنك • ليست الصداقة هى ما أردت أن أشير اليه ، وانما اردت
أن أشير الى عاطفة الانسان والمواطن ، الى العاطفة الانسانية ، وكذلك الى
الحب الذى يحمله المرء للعلى القدير • صحيح أننى موظف حكومة ،
صحيح أننى شخص رسمى ، ولكن هذا لا يمنعنى من أن أشعر دائماً
بأننى مواطن ، بأننى انسان ، وأن أحسب حساب ذلك • اليك هذا المثال :
لقد تكلمت أنت عن زاميتوف • ولكن زاميتوف شخص يحدث صخباً
وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية فى أسوأ المحال سمعة لا لشيء الا
لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون ••• نعم ، ذلك هو
صاحبك زاميتوف ! أما أنا فأننى احترق نشاطاً وحماسةً ان صبح التعبير •
العواطف الكبيرة تلهبني ، ثم اننى أملك رتبة وأشغل منصباً • وأنا متزوج ،
ولى أولاد ! اننى أقوم بالواجب الذى يقع على عاتق انسان ومواطن ، أما هو
فهلاً قلت لى ما الذى يعمله ؟ اننى أحدثك حديثى الى رجل صقلته الثقافة
وسمت به • اليك هذا المثال أيضاً : لقد تكاثرت القابلات فى أيامنا هذه
تكاثراً تجاوز الحدود •••

نظر اليه راسكولنيكوف مبهوراً • ان جميع الكلمات التى قالها ايليا
بتروفتش - واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رنت فى
أذنيه رنين كلمات لا معنى لها • ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو
ما استطاع • وألقى على ايليا بتروفتش نظرة مستفهمة وهو لا يدري كيف
سيتهى هذا كله •

تابع ايليا بتروفتش الذى لا ينضب لكلامه معين ، تابع كلامه فقال :

- اننى أطلق هذا اللقب على هاته الفتيات ذوات الشعر المخصوص
لأنه يبدو لى موفقاً جداً ••• هى • هى •••! انهن يدخلن مدرسة الطب*،

ويتعلمن التشريح ، ولكن قل لى : أترانى اذا مرضت أدعو احدى هذه
الآسات لمعالجتي ؟ هى هى !...

انفجر ايليا بتروفتش ضاحكاً ، وقد رضى عن أقواله الحسنة وكلماته
الجميلة كل الرضى !
ثم تابع كلامه فقال :

- لنسلم بأن الدافع الى ذلك ظمناً الى التعلم والتثقف لا يرتوى ،
ولكن يخيّل الى أن على الانسان ، متى تعلم ، أن يتوقف ، أن يكف ..
فلماذا الاسراف والافراط ؟ لماذا تُهان شخصيات نبيلة ، كما يفعل ذلك
الرجل الثافه زامبوتوف ؟ أشخصٌ مثل زامبوتوف يهيننى أنا ؟ .. ثم تلك
الانتحارات التى تتكاثر ؟ .. يأكل أحدهم آخر قرش ثم ينتحر ! بنات ،
شباب ، شيوخ ! .. اليك هذا المثال : فى هذا الصباح نفسه ، أبلغنا أن
أن سيداً كان قد وصل الى هذه المدينة منذ مدة قصيرة ... هيه ! ...
نيل بافلتش ... يا نيل بافلتش ... ما اسم ذلك السيد الذى أطلق على
رأسه رصاصة عند ضفة النهر ... أقصد عند الضفة الأخرى من نهر
نيفا ؟

أجاب صوت أبخ غير مكترث ، صوت رجل فى الغرفة الأخرى ،
أجاب يقول :

- اسمه سفديرجايلوف .

فارتجف راسكولنيكوف ، وصاح يسأل :

- سفديرجايلوف ؟ سفديرجايلوف أطلق على رأسه رصاصة ؟

- هل تعرف أنت سفديرجايلوف ؟

- نعم ... أ ... أعرفه ... لقد وصل فى الآونة الأخيرة

فعلاً ! ...

- نعم ، فى الآونة الأخيرة ... كانت زوجته قد ماتت منذ حين ...
ثم ان هذا الرجل الذى كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من
مسدس فجأة ... وقد فعل ذلك فى ظروف فاضحة يستحى المرء حتى
أن ... لقد ترك بضعة كلمات فى دفتره قائلاً انه يموت مالكا كل عقله
فما ينبغي اتهام أحد بقتله . يقال انه كان يملك ثروة طائلة . ولكن كيف
عرفته ؟

- "عرفت ... "عرفت عليه ... لأن أختى كانت تعمل معلمة فى
منزلهم ...

- هه ... هه ... اذن تستطيع امدادنا بمعلومات عنه . اليس
تشبه فى أحد ؟

- رأيتُه أمس ... وكان ... يشرب خمرأ ... ولم أطلع على
شئ ...

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره
يسحقه سحقاً .

- لكأنك تصفر من جديد . لا شك أن الجو هنا خانق ...

تمتم راسكولنيكوف يقول :

- آن لى أن أنصرف . اغفر لى ازعاجك ...

- ولكنك لم تزعجنى البتة ! أنا فى خدمتك ! ثم انك قد سررتنى ؛
ويسعدنى جداً أن أقول لك ...

ومدَّ ايديا بتروفتش اليه يده .

جمعهم راسكولنيكوف يقول :

— كنت أريد ... فقط ... أن ... أن أرى زاميتوف ...

— فهمت ، فهمت ، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك ...

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يتسم :

— أنا سعدت بلقائك ... استودعك الله ...

وخرج مترجحاً • كان يشعر بدوار فلا يكاد يدرى اهو ما يزال منتصباً على ساقيه • وأخذ يهبط السلم ، متكئاً بيده اليمنى على الحائط • تراءى له أن بواباً فى يده سجل قد صدمه ليدخل الى قسم الشرطة ، وان كلباً كان ينبع فى مكان ما ، وأن امرأة كانت ترمى للكلب فطيرة لتسكته • فلما بلغ أسفل السلم دخل الفناء •

كانت صونيا واقفةً فى الخارج ، غير بعيد عن الباب ، صفراء كصفرة الموتى ، تنظر اليه مروعة منقلبة السحنة • وقف أمامها ، فتشجعت قسماً وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع ؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن يأس وارتسمت على شفتيها ابتسامة تيه وشروود •

توقف راسكولنيكوف لحظة ، فابتسم ، ثم قفل راجعاً الى المكتب الذى بارحه منذ قليل •

كان ايليا بتروفتش جالساً ينقّب بين أوراقه ، وقد وقف أمامه ذلك الشخص نفسه الذى صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلم • فما ان رآه ايليا بتروفتش حتى صاح يسأله :

— أهذا أنت أيضاً ؟ هل نسيت شيئاً ما ؟ ولكن ماذا بك ؟ ماذا أصابك ؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيئاً ، أبيض الشفتين جامد النظرة ،

واقترب من المائدة فأسند اليها إحدى يديه ، وأراد أن يقول شيئاً ما ، ولكنه لم يستطع ذلك • لم تسمع منه الا جمجمات لا تبين عن شيء • هتف ايليا بتروفتش :

— بماذا تحس ؟ هل تشعر بمرض ؟ هاتوا كرسيًا ، بسرعة ! خذ ، اجلس ، اجلس هنا ، هاتوا ماءً !

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قدّم اليه ، ولكنه لم يحوّل بصره عن وجه ايليا بتروفتش الذي دُهِش من ذلك أشدّ الدهشة • وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما الى الآخر وينتظر • وجيء بماء • بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— أنا الذي •••

— اشرب جرعة ماء !

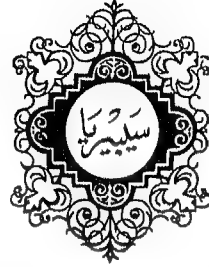
أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه باحدى يديه ، وقال بصوت خافت لكنه واضح متميز ، مع وقفات بين الكلمات :

— أنا الذي قتلت ، بضربات ساطور ، العجوز التي تقرض على رهن ، واختها اليزابت ، وأنا الذي سرقتهما •

لبث ايليا بتروفتش فاغر الفم ، وهُرع ناس من كل جهة • واعاد راسكولنيكوف الادلاء بافادته •

خاتمة

الفصل الأول



على الشاطئين المقفرين من نهر عريض ، تقوم مدينة هي أحد المراكز الحكومية بروسيا . ان في المدينة قلعة ، وان في القلعة سجنًا . وفي هذا السجن حبس ، منذ تسعة أشهر ، السجن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية ، روديون رومانوفتش ، الذي انقضت سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته .

لقد سارت اجراءات المحاكمة بدون مصاعب . كثر المجرم افادته بثبات ووضوح ودقة ، لم تتداخل الظروف في أقواله ، ولا حاول ان يخفف من شأن جرمه ، ولا هو شوه الوقائع ، أو أسقط منها شيئاً . حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه ، وأوضح سر «الرهن» - اللوح الصغير والصفحة المعدنية - ؟ وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها ، ووصف هذه المفاتيح ، ووصف الصندوق ؛ وعد بعض الأشياء التي كان يضمها الصندوق ؛ وأوضح أيضاً سر مقتل اليزابت ؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب ، وكيف جاء بعده الطالب ؛ وذكر الأقوال التي تبادلها كلاهما ؛ وقص كيف أنه ، هو القاتل ، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات يقولان ودمتري ، فاجتأ في الشقة الخالية ، ثم عاد الى بيته . وختم ذلك كله بأن عين صخرة موجودة في فناء أحد المنازل بشارع « ف . . . » ، قرب باب الفناء ، حيث عُثر على الأشياء والمحفوظة المسروقة . الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها في الظل

شئ • وقد دُهِشَ المحققون والقضاة دهشةً خاصة اذ علموا أن الجاني قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها ، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التي سرقها تذكرًا صحيحًا ، حتى لقد اخطأ في عددها • أما قوله انه لم يفتح المحفظة مرةً واحدة بل وانه يجهل المبلغ الذى تحتويه فقد لم بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبين أن المحفظة كانت تضم ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبكاً ؛ كما أن الأوراق المالية التي كانت فوق ، وهى أكبرها ، قد ساءت حالها من طول اقامتها تحت الصخرة •) • وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب فى هذه النقطة ، مع أنه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق من تلقاء نفسه • ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلّموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر فى المحفظة فعلاً ، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون ان يعرف ما تحتويه • غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد أُرْتُكبت الا فى نوبة جنون طارئة ، أى فى لحظة « مونومانيا » القتل والسرقة ، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة ؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون الموقت ، وهى النظرية التى يحاول بعضهم فى كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم فى هذه الأيام • ثم أن حالة الوسواس (الهيكونندريا) المزمع التى كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود ، جازمين قاطعين ؛ فمن هؤلاء : الدكتور زوسيموف صديقه القديم ، ورفاقه القدامى ، وصاحبة البيت الذى كان يقطنه ، والخدم • ذلك كله ساهم كثيراً فى تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم عادى ، قاتل أو سارق ، أى شبه على الاطلاق ، وأن شأنه شأن اخر ، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف • ولكن الجاني نفسه

لم يحاول أن يدافع عن نفسه ، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية
اشد الأسف • حتى اذا أُلقي عليه السؤال عن السبب الذي دفعه الى
القتل والسرقة ، أعلن بوضوح تام ودقة كاملة أن فقره ، وعجزه عن
الخروج منه ، ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة ، بمعونة ثلاثة
آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند المعجوز ، أن ذلك كان في الأصل
سبب كل شيء • ولما سئل عن الدافع الذي حدا به الى الوشاية بنفسه
والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوبة
مخلصة •

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة ، بل كان فيه غلظة
وفظاظة !•••

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه في جريمة كهذه
الجريمة ، وربما كان مرد ذلك الى أن الجاني لم يحاول أن يسوِّغ نفسه،
حتى لقد أظهر رغبة في اتهام نفسه مزيداً من الاتهام • ولقد نُظر بعين
الاعتبار الى جميع الظروف العجيبة الخاصة التي لا يست القضية • من ذلك
أن حالة المرض والعوز التي كان عليها المتهم قبل انفاذه لجريمته لم توضع
موضع الشك • كما أن عدم استفادة الجاني من المسروقات قد نُسب الى
الندامة وعذاب الضمير تارة ، ونسب تارة أخرى الى حالة قواه العقلية
التي لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة • وكان مقتل الزابت ، دون
عمد ، مثلاً على هذا الافتراض ودليلاً يدعمه ويؤيده : نحن هنا ازاء
رجل يرتكب جريمته قتل ، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً ! ذلك
كله بالاضافة الى أن الجاني قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه في
اللحظة التي اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الافادة الكاذبة
التي أدلى بها شخص مهووس مختل العقل (نيقولا) ، بل وفي اللحظة
التي لم يكن فيها أى دليل واضح يدين القاتل الحقيقي ، بل ولم تبق فيها

أية شبهة تحوم حوله • (لقد حافظ بورفير بتروفنش على وعده وبر
بعهده تماماً) • ذلك كله قد أسهم في حمل المحكمة على أن تسلّم للجاني
بظروف مخفّفة •

يضاف الى ذلك أن وقائع في مصلحة راسكولنيكوف قد انبجست
فجأة على نحو لم يكن في الحسبان البتة • فان الطالب السابق رازوميشين
قد استطاع أن يعثر - لا يدري أحد من أين - على شهادات ثبت صدقها ،
بأن القاتل راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد ، اثناء
دراسته بالجامعة ، على رفيق فقير مصاب بداء السل ، فقام بأوده وسدّ
حاجاته وخفّف عنه خلال ستة أشهر كاملة • حتى اذا مات رفيقه ذاك ،
اهتم راسكولنيكوف بأبيه ، وهو شيخ عاجز بقى وحيداً في هذه الحياة
(بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنده الوحيد) ، ثم
أدخله مأوى للشيخوخ ، حتى اذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة ، تكفل
راسكولنيكوف بنفقات دفنه •

هذه المعلومات كلها كان لها أثر في مصير راسكولنيكوف • وقد
شهدت صاحبة البيت الذي كان يقطنه راسكولنيكوف (وهي أم خطيبة
المتوفاة) ، شهدت من جهتها أن راسكولنيكوف ، حين كانوا ما يزالون
يسكنون في شارع « الأركان الأربعة » ، قد أنقذ ، أثناء حريق ، في ذات
ليلة ، طفلين صغيرين من مسكن شبّت فيه ألسنة النيران واشتعل ، حتى
أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعدة حروق • وقد جرى تحقيق
دقيق في هذه الواقعة ، فشهد بصدقها شهود كثيرون • الخلاصة ان كل
شيء قد ساهم في حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثمانى
سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط ، لأنه اعترف بجريمته
من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة •

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر في الدعوى • واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلها الى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة • لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل اليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى أفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة •

وكان مرض بولشيريا الكسندروفنا اصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الاضطراب الدماغى ان لم يكن كاملاً فهو يدعو رغم ذلك الى القلق • ان دونيا، حين عادت الى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة، قد وجدت أمها فى حالة حمى بالغة وهذيان شديد • فاتفقت مع رازوميخين فى ذلك المساء نفسه على الأجوبة التى ينبغى أن يجيبا بها بولشيريا الكسندروفنا متى سألتها عن ابنها، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر، سفر بعيد، سفر الى مكان على حدود روسيا، فقد كتّف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة • فما كان اشد دهشتها حين لم تطرح عليهما بولشيريا ألكسندروفنا أى سؤال، لا فى ذلك الحين ولا بعده، حتى انها، على خلاف ذلك، قد تخيلت هى نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتة؛ وقد قضت عليهما، وهى تبكى زيارة ابنها لها مودّعاً، وألمت فى هذه المناسبة، ببعض الاشارات والتلميحات، الى أنها وحدها على علم بطروف كثيرة خطيرة سرية، قائلة: ان لابنها روديا خصوصاً اشداء عتاة، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار • أما عن مستقبل ابنها، فانها لا تشك فى أنه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية؛ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح فى المستقبل « رجل دولة »؛ فان مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوى على ذلك • وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع، حتى لقد كانت تقرأها فى بعض الأحيان بصوت عال، وتوشك أن تنام معها

فى الليل • ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا فى ذلك الأوان ، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أى حديث عنه (وكان حرياً بهذا أن يشير شبهاتها طبعاً) • وأصبح رازوميخين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولشيريا ألكسندروفنا آخر الامر • حتى لقد كانت لا تشكو من أنها لا تتلقى أية رسالة من ابنها ، مع انها كانت قبل ذلك ، فى مدينتها الصغيرة ، لا تحيا الا على الأمل فى تلقي ابناها ابنها الحبيب روديون • ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيل الأخير ، وكان لها بمثابة انذار ، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذى حلّ بابنها ، وأنها لا تريد أن تسألها ، لحشيتها من أن تعرف شيئاً أظفح • ومهما يكن من أمر ، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولشيريا ألكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة •

وقد حدث للأُم مع ذلك مرتين أن وجّهت الحديث توجيهها ما كان للشبايب أن يحييا معه عن أسئلتها اجابة تامة دون أن يشير لها الى المكان الذى يوجد فيها روديا • حتى اذا جاءت الاجابات متحفظة مشتبّه وقعت الأُم فى حالة حزن رهيب • وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق ، وانتهت الى هذه النتيجة ، وهى أن التزام الصمت التام فى النقاط الحساسة أفضل وأسلم • ولكن أخذ يتضح مزيداً من الانضاح شيئاً بعد شيء أن الأُم المسكينه تشبه فى شيء ما ، فى شيء مروّع فظيع • تذكرت دونيا ، فيما تذكرت ، بعض أقوال أخيها • ألم يقل لها ان بولشيريا ألكسندروفنا سمعتها تهذى ، فى الليلة التى سبقت اللحظة الحاسمة من لقائهما الأخير ، بعيد المشهد الذى حدث مع سفدرىجايلوف؟ لم تسمع بولشيريا ألكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء ، ففهمت شبه فهم ؟ كثيراً ما أصبح يحدث ، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين دموع خرساء ، أن يتتاب المريضة انتعاش مرضى ونشاط هسترى ، فتأخذ

تتكلم عن ابنها ، وعن آمالها ، وعن المستقبل ، متدفقة تدفقاً سريعاً ، بغير توقف تقريباً !... وكانت أخيلتها فى بعض الأحيان عجيبة حقاً ! فكان الشبان يتظاهران بمشاركتها آراءها مواساةً لها ، ونسريةً عنها ، (ولعل موافقتها هذه على آرائها لم تكن تنطلى عليها) ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها اثرً الذى لا ينضب له معين .

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمتة .

وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف فى السجن كلما تمكن من ذلك . وكذلك كانت تفعل صونيا . وأزفت أخيراً ساعة الفراق . فحلفت دونيا لأخيها على أن الفراق لن يكون ابدياً . وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك . وقد ترسخت فى دماغ رازوميخين ، فى دماغه الفتى الفاتر المتحمس المندفع ، ترسخت ترسخاً قوياً ، فكرة المشروع الذى قام فى ذهنه ، وهو أن يرسى قواعد مصيره المقبل ، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية ، فيدّخر مبلغاً كافياً من المال ليمضى يقيم فى سيبيريا ، حيث الأرض غنية ، وحيث الأيدي العاملة ورعوس الأموال قليلة . فهناك سيستقرون ، بالمدينة نفسها التى سيكون فيها روديا ، وهناك . . سيدأون جميعاً حياة جديدة !

وبكى الجميع فى ساعة الفراق . كان راسكولنيكوف ، خلال الايام الأخيرة منموماً جداً ، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمه ، ويظهر قلقاً شديداً عليها . وكان يتعذب عذاباً قوياً يخيف دونيا وينذرهما بأسوأ العواقب . ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولشيريا ألكسندروفنا معرفة دقيقة ، أصبح قائم النفس مظلم المزاج . ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة ، فهو لا ييوح لها بما فى نفسه . وكانت صونيا ، بفضل المال الذى تركه لها سفدريجاييلوف ، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التى ستضم راسكولنيكوف . انهما لم ينجثا هذا الأمر معاً فى يوم من

الأيام ، ولكنهما يعرفان كلاهما أن الأمر سيكون كذلك • وفي اللحظة الأخيرة ، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة غريبة حين سمع التأكيدات الحارة من أخته ومن رازومихين عن المستقبل الجميل الذى ينتظرهم جميعا عند خروجه من السجن • لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً •
وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا •

بعد شهرين تزوجت دونيشكا رازومихين • وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً ، وكان يرين عليه جو الحزن • وكان بين المدعوين بورفير بتروفش وزوسيموف • وقد اكتسى رازومихين فى الآونة الأخيرة مظهر رجل قوى العزيمة ثابت الرأى • وكانت دونيا تؤمن ايماناً أعمى بأنه سيحقق جميع مشاريعه • وكان لا يمكنها ، على كل حال ، الا أن تؤمن بذلك : فان ارادة حديدية كانت تتجلى فى هذا الرجل • ولقد استأنف ، خاصةً ، متابعة دروس الجامعة لينهى دراسته • وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل ، وكانا كلاهما يتتويان حقاً أن يرحلا الى سيبيريا بعد خمس سنين • والى أن يحين ذلك الحين ، كانا يتكلمان على صونيا •

وقد باركت بولشيريا ألكسندروفنا زواج ابنتها ورازومихين وفرحت به ، لكنها سرعان ما سقطت فى حزن أشد وأسى أعمق وأكبر • ومن اجل أن يهيء لها رازومихين بضع لحظات من فرح قصصاً عليها قصة الطالب وأبيه العاجز ، وحكى لها حكاية الحريق الذى برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة اللهب • فكانت القصص تلقى بولشيريا ألكسندروفنا التى كان عقلها قد اهتز وأصابه اختلال ، كانت هذه القصص تلقىها فى نشوة تشبه أن تكون وجداً ، حتى أصبحت لا تتكلم الا عن هذا ، وحتى مضت فى ذلك الى حدّ استيقاف الناس فى الشارع لتقص عليهم هى أيضاً ••• (هذا رغم أن دونيا ترافقها حيثما تذهب) • أصبحت بولشيريا ألكسندروفنا تتجه الى أول انسان تلتقاء ، فى الشارع ، فى الدكاكين ،

فى أى مكان ، فتأخذ تكلمه عن ابنها ، وعن مقاتله ، وتأخذ تشرح له مسهبةً مفيضةً كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف انه اقتحم ألسنة اللهب أثناء حريق ، وهلمّ جرا . وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئها . كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة ، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع احد أسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها .

وقد اكتشفت بولشيريا ألكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين انقذهما روديا ، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر . وبلغ قلقها ابعاداً خطيرة فى النهاية . فهى تارة تنفجر باكية ناشجة ، وهى تارة أخرى تتكلم هارفة هاذية . وفى ذات صباح أعلنت فجأة أن روديا - وفقاً لحساباتها - عائد فى القريب ، فقد وعدّها - وهى تتذكر وعده - أنه سيرجع بعد تسعة أشهر .

وسرعان ما شرعت ترتب الشقة استعداداً لعودته ؛ فهيات له غرفتها هى ، ودلكت الأثاث ، وغسلت ، ومسحت ، وعلقت ستائر جديدة ، الخ . ولم تقل دونيا شيئاً ، رغم جزعها ، بل ساعدتها فى هذه الاستعدادات . وبعد أن قضت بولشيريا ألكسندروفنا ذلك النهار كله فى تخيل أشياء تبلغ غاية الجنون ، وفى البكاء والانقياد للأحلام ، مرضت فى تلك الليلة نفسها ، فما طلع الصباح حتى كانت فى حالة هذيان ، فقد اعترتها حمى حارة ، ثم ماتت بعد أسبوعين .

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصير الرهيب الذى آل إليها ابنها أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها ، وتفترض ابنتها .

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله الى سيبيريا . كانت

صونيا تكتب الى رازوميخين كلَّ شهر دون تخلف ، وكلَّ شهر ايضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج • وفى أول الأمر رأت دونيا ورأى رازوميخين أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى • ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك ؛ وأن من السهل عليهما أن يكوّنا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التى يعيش فيها أخوهما البائس • كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية ، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التى يحيها راسكولنيكوف فى المعتقل • كانت لا تقول شيئاً عن آماله ، وعن أحلامه المتصلة بالمستقبل ، لا ولا عن عواطفه الشخصية • كانت صونيا فى هذه الرسائل ، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية ، تذكر وقائع جرت له ، وتنقل أقوالاً قالها ، وتقدم تفاصيل عن صحته ، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التى عبّر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك ، وما كلّفها بأن تنقله اليهما ، النخ • وكانت هذه الأخبار كلها مفصلة ، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها ، ولم يكن من الممكن أن يحدث أى خطأ ، لأن جميع الوقائع كانت صادقة •

غير أن جميع هذه الأنباء ، ولا سيما فى البداية ، لم تحمل الى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة • كانت صونيا تبلغهما ان راسكولنيكوف لا يبرح قائم المزاج مظلم النفس صموتاً قليل الكلام ؛ وأنه لا يكاد يهتم بالأخبار التى تنقلها اليه كلما تلقت رسالةً منهما ؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب ، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثّر فى نفسه تأثيراً كبيراً ، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل •

وكانت صونيا تقول لهما أيضاً انه رغم انطوائه على نفسه دائماً ، يبدو

راضياً بحياته الجديدة بصدق واستقامة وبساطة ، وانه يدرك الوضع الذى هو فيه ، ولا يتوقع أن يتحسن مصيره فى مستقبل قريب ، وانه لا يراوده أى أمل فى غير محله (كما يحدث عادة للسجناء) ، وانه لا يدهش من شيء ، رغم ما هناك من تعارض وتناقض بين حياته الراهنة وحياته السابقة . وكانت تقول لهم ان صحته حسنة ، وانه يمضى الى الشغل دون تهرب أو تملص ، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة . وانه لا يكاد يهتم بأمر الطعام ، ولكن هذا الطعام ، فى غير أيام الأحاد وأيام الأعياد ، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هى صونيا ، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شيء من الشئ (أما فيما عدا ذلك ، فقد رجاها أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به ، وقال لها ان عنايتها به تنقل على نفسه وتضايقه) .

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه فى السجن يسكن مع السجناء الآخرين فى مهجع مشترك ، وأنها لم تدخل المبانى ، ولكن ظاهراً المبانى يدل على أن المكان ضيق قدر غير صحى ؟ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى بلباد ، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر ؟ وانه على كل حال ، اذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة الى هذا الحد ، لا يفعل ذلك التزاماً بفكرة سابقة أو تقييداً بمبدأ معين ، بل لأنه لا يكثرث للظروف المادية ولا يحفل بها .

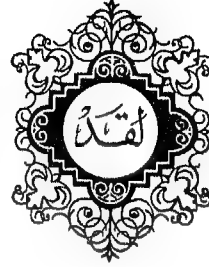
وكتبت صونيا بصراحة أنه ، فى أول الأمر خاصة ، لم يكن يعبأ بزياراتها ، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء ، ولا يفتح فمه بكلمة ، ويعاملها معاملة أميل الى الفظاظ . غير أن لقاءاتها أصبحت عادة له بعد ذلك ، وأوشكت أن تصبح حاجة ، حتى ان الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التى لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألم بها . انها فى أيام الأعياد تراه من وراء القضبان الحديدية ، أو تراه فى غرفة هيئة

الحرس التى يؤتى به اليها بضع دقائق • وأما فى الأيام الأخرى فانها تراء أثناء الشغل ، فى ورشات العمل ، أو فى مصانع الآجر ، أو فى المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايريتش * • أما عنها هى فلم تزدد على أن أشارت الى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها فى المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها ؛ وأنها تعمل فى الخياطة ، وأنها لقله الخياطات فى المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا تستغنى عنها • ولكن صونيا أسقطت أن تذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه ، بفضلها هى ، أن يحظى بشيء من العطف عليه ، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المראה ، وكانت الأشغال التى يُعهد بها اليه غير شاقة كثيراً ، الخ •••

ثم وصل النبأ الذى يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصبية فى الرسائل الأخيرة التى بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذى يقول ان راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين ، وان هؤلاء لا يحبونه كثيراً ، وانه يظل صامتاً ساعات بكاملها ، وان شحوبه يزداد شيئاً بعد شيء •

وكتبت صونيا أخيراً فى ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً ، وانه يعالج الآن فى مستشفى المعتقل •••

الفصل الثاني



كان مريضاً منذ مدة طويلة ، ولكن لا الاهوال
التي تشتمل عليها حياة السجين ، ولا الاشغال
الاجبارية الشاقة ، ولا الطعام الرديء ، ولا حلق
شعر الرأس ، ولا الأسماك البالية ، لا شيء من
هذا كله هو الذي حطّمه ! لا ، لا ، ان جميع هذه الأنواع من البؤس
والعذاب لا تعنيه في شيء ! بالعكس : لقد كان يرضيه أن يكون عليه ان
يعمل عملاً مضيئاً . انه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن
يتمتع ببضع ساعات من نوم هادىء مريح . أما الطعام الرديء ، أما حساء
الكربن ذاك الملىء بالصراصير ، فانه لا يهمه البتة . ألم يتفق له ، حين
كان طالباً ، في أول عهده بالحياة ، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام ؟ واما
ملايسه فقد كانت تكفل له الدفء ، وهى تلائم طراز الحياة الجديدة التي
يحيها ، فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ وأما الأغلال الحديدية ، فقد كان
لا يكاد يحسّها وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه مخلوقاً ؟
يخجل ؟ يخجل أمام من ؟ أمام صونيا ؟ ان صونيا تخاف منه وتخشاه ،
فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل ؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا (صونيا التي يتنقم منها
فيعاملها باحتقار وفظاظة) . ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزى
والعار لا يرجع لا الى أن شعر رأسه مخلوق ، ولا الى أنه مكبل
بالسلاسل ! ان ما كان يشعره بالخزى والعار ، وما كان يؤلمه ايلاًماً شديداً

حتى جعله مريضاً ، انما هو الجراح التي اصيبت بها كبرياؤه ! اه ...
 لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان في وسعه أن يشهم نفسه وان
 يدين نفسه ! لو استطاع ذلك اذن لكان يمكن أن يحتمل الحزى وان
 يحتمل العار ! ولكنه مهما تشدد قسموته في الحكم على نفسه ، فان ضميره
 المتصلب كان لا يجد في ماضيه أية خطيئة فظيعة ، اللهم الا أن تكون هذه
 الخطيئة هي أن « ضربه قد أخفقت » • صحيح أن هذا يمكن ان يقع
 لجميع الناس ، ولكنه كان يشعر بالحزى من أنه ضاع بمثل هذه العماوة ،
 بمثل هذه الحماسة ، بمثل هذا الانهيار ، ومن أنه خاصة مضطر ، هو
 راسكولنيكوف ، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعشى ، وأن يخضع امام
 « سخافة » هذا الحكم ، اذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة •

ان قلقاً لا موضوع له ولا غاية له في الحاضر ، وان تضحية متصلة
 غير منقطعة في المستقبل ، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض !
 فأية فائدة اذن في أن يقول لنفسه انه بعد ثمانى سنين لن يكون عمره قد
 تجاوز اثنين وثلاثين سنة ، وانه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته ؟
 علام يحيا ؟ ما هي الغاية التي ما يزال يستطيع أن يلاحقها ؟ ما هو الهدف
 الذى ما يزال يمكنه أن يسعى اليه ؟ ماذا يفيد وماذا يجديه أن يستمر
 فى الصراع والكفاح ؟ أيجيا من أجل أن يوجد ؟ ألا انه كان طوال حياته
 مستعداً لأن يضحي بوجوده ألف مرة فى سبيل فكرة ، فى سبيل امل ،
 بل وفى سبيل تحقيق نزوة ! ان الوجود فى حد ذاته لم يكن كافياً له فى
 يوم من الأيام ، وانما هو كان يطمع دائماً فى أكثر من ذلك ! ولعل عنف
 رغباته كان وحده السبب فى أنه ظن نفسه انساناً يجوز له ما لا يجوز
 لغيره •

ولو أن القدر قد اختار له الندامة - الندامة المحرقة التي تحطم
 القلب وتطرد النوم - الندامة التي تجعل صاحبها يفكر فى الانتحار شوقاً

أو غرقاً ، اذن لكان سعيداً كل السعادة ! ان ألم الدموع حياة ! ولكن
راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته •

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته ، كما غضب في الماضي
من أفعاله الشاذة الغبية التي قادت الى المعتقل • أما وقد أصبح الآن في
المعتقل ، وأصبح يستطيع أن يفكر في تلك الأفعال « بحرية تامة » ، فانه
لا يراها شاذة ولا سخيفة الى الحد الذي ترمى له قبل ذلك في اللحظة
المحتومة المشؤمة •

انه الآن يقول لنفسه : « هل فكرت في أغبي من تلك الأفكار والنظريات
التي تجري في هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم ؟ يكفي أن نواجه
الأمر بنظرة موضوعية واسعة متحررة من الأحكام السابقة اليومية حتى
ندرك أن فكرتي ليست غريبة الى ذلك الحد من الغرابة الذي قد يتوهمه
بعضهم ... ايه ايها الجاحدون ، أيها الفلاسفة التافهون ، لماذا تتوقفون
في منتصف الطريق ؟ غريب ! لماذا تبدو لهم فعلتي شاذة الى هذا
الحد ؟ لأنها جريمة ؟ ماذا تعني كلمة : جريمة ؟ ماذا تعني كلمة :
جريمة ؟ ان ضميري مرتاح • صحيح أن جريمة قد وقعت • صحيح ان
نص القانون قد اخترق وأن دماً قد سُفك • فإذا كان الأمر أمر تقييد
بنص القانون ، فاقطعوا رأسي ، ولنسكت ! ولكن يجب أن نذكر في هذه
الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا الى الانسانية ولم يكونوا قد
ورثوا السلطة وراثتها وانما استولوا عليها استيلاً ، كان ينبغي أن تقطع
رؤوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى • ان الفرق الوحيد بين هؤلاء وبينى
هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم ، فكان ذلك « مبرراً » لهم ، أما أنا فلم
أقدر على الصمود • اذن كان لا يحق لى أن أجزى لنفسى القيام بتلك
المحاولة • »

تلك هي الخطيئة الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها : وهى أنه لم يستطع أن يصمد ، بل مضى يشى بنفسه ويعترف بجريمتة .

وكان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال : لماذا لم ينتحر حينذاك ؟ لماذا ، حين مال على ماء النهر ، آثر أن يشى بنفسه ؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة ، يصعب التغلب عليه الى هذه الدرجة من الصعوبة ؟ ان سفدريجاييلوف الذى كان يخشى الموت مع ذلك ، قد استطاع أن ينتصر على حب الحياة هذا !

كان راسكولنيكوف يعانى من القاء هذه الأسئلة عذاباً شديداً ، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أوجس فى نفسه وفى اقتناعاته كذباً . انه لم يدرك أن هذا التوجس يمكن ان يكون علامة انعطاف مقبل فى حياته ، وبشارة انبعث جديد ، واستباقاً لتصوره الحياة فى المستقبل تصوراً آخر . وانما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريزة ، وعطالة الحركة ، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على تلك العطالة . وكان اذ يلاحظ رفاقه فى الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً ، ويظلون متعلقين بها تعلقاً شديداً . حتى لقد كان يبدو له أنهم يحبونها ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراراً طلقاء . ومع ذلك ما أقسى انواع العذاب ، وما أشد ضروب الآلام التي كان يعاينها بعضهم ! المتشردون مثلاً . . هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها ، فى نظرهم ، لشعاع من شمس ، لغابة متوحشة ، لنبع ماء بارد فى قرارة الأجراس (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين ، فاصبحت صورته تلازمه حتى لكانها صورة لقاء حب) ، لنبته عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع ، لطير يغرد فى الأدغال ؟

وأمن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الامعان ، فكانت تفجأ بصره ، وتثير دهشته أمثلةٌ أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً • ان في المعتقل أموراً كثيرة كانت تفوته ، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال • لقد كان يعيش غاضباً بصره خافضاً عينيه ان صح التعبير • كان النظر الى ما حوله يثير اشمئزازه • غير أن أشياء كثيرة أخذت تفاجئه ، فإذا هو ، على غير علم منه تقريباً ، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في خلدّه أو يخطر بباله قبل ذلك • ولعل ما أدهشه أكثر من أى شئ آخر هو الهوة الرهيبة ، هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها ، أعنى الهوة التي تفصله عن هؤلاء الناس • لكنهم ينتمون الى أجناس مختلفة • انهم ينظرون بعضهم الى بعض نظرة شك وعداوة • وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر ، ولكنه لم يتصور فى يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة •

وكان فى السجن أيضاً سجناء بولنديون نفّوا الى سيبيريا لجرائم سياسية • فكان هؤلاء ينظرون الى الآخرين نظرتهم الى رعا ، ويعاملونهم معاملة احتقار * ، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك فى هذا الرأى • ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعا كانوا من نواح كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم • وكان بين الروس أيضاً اناس يزدرون رفاقهم ، ولا سيما ضابط سابق ، ورجلان مثقفان • وقد ادرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً •

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد ، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته • حتى لقد انتهى بهم الأمر الى كرهه • لماذا ؟ ليس يدرى ! كان بعضهم ، وهم أشد اجراماً منه ، يحتقرونه ويستهزئون به ، ويجعلون جريمته محل سخرية وتفكه وضحك ! كان هؤلاء يقولون له :

— أنت سيد ! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات ساطور ؟ ليس هذا شأن سيد من السادة !

وفي الأسبوع الثاني من « الصوم الكبير » ، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه • فعل كما فعل الآخرون ، فذهب الى الكنيسة وصلى • ولكن مشاجرة شبت في ذات يوم دون أن يعرف لماذا • لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد ، وأخذوا يصيحون قائلين له :
— أنت ملحد ! أنت لا تؤمن بالله ! يجب قتلك !

انه لم يكلمهم في يوم من الأيام عن الله ، ولا عن الدين ؛ ولكنهم يريدون قتله بحجة انه ملحد لا يؤمن بالله • لم يعترض بشيء ، وصمت • ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسعوراً • فانتظره راسكولنيكوف هادئاً صامتاً • لم يحرك ساكناً ، لم يترشح من مكانه ، ولا اختلجت قسمة من قسومات وجهه • واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف في اللحظة التي هم فيها الرجل أن يفتك بالضحية ، فلو تأخر الحارس لحظة واحدة لسال الدم •

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلاً : لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها ؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم • وكانوا لا يلقونها الا في مناسبات نادرة ، أثناء العمل ، حين تسجي لتراه دقيقة واحدة • ومع ذلك عرفوها جميعاً ، وعرفوا جميعاً انها تبعته « هو » ، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن • وهى لا تهب لهم مالاً ، ولا تقدم اليهم خدمات خاصة • مرة واحدة ، في عيد الميلاد، حملت هدية الى السجن كله : فطائر صغيرة وخبزاً أبيض • غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شيء : أصبحت تتولى • عنهم كتابة رسائل الى أسرهم ، وتضع الرسائل في البريد • والى صونيا انما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة ، يعهدون بالأشياء أو

حتى بالأموال التي يريدون إرسالها اليهم ، بإشارة من السجناء أنفسهم • كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين إليها في بيتها • وكان السجناء ، اذا هي ظهرت في ورشات العمل لتتري راسكولنيكوف ، أو صادفت فريقيا منهم ذاهباً الى العمل، يرفعون لها طاقيتهم احتراماً ويحيونها جميعاً • كان هؤلاء الجفاة الغلاظ الذين دُمغوا بالدناءة يقولون للفئة الهزيلة النحيلة الضعيفة : « ماتوتشكا » ، صوفيا سيميونوفنا ، أنت أمنا الجنون الشفوق • • وكانت صونيا ترد على تحيتهم ، وتبتسم لهم ، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم • كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي ، فاذا مرت التفتوا يتابعونها بنظراتهم • كانوا لا يقولون فيها الا مدحاً ، كانوا يمدحون حتى ضآلتها • أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح • واذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً •

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها وأسبوعاً آخر • فلما أصبح في دور النقاة تذكر الأحلام التي راها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهذيان • لقد حلم ، طوال مدة مرضه ، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهية لا عهد بمثلها من قبل ، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا ؛ وأن جميع الناس سيهلكون الا قلة قليلة مختارة • ان طفيليات من نوع جديد قد ظهرت ، واختارت أجسام البشر مسكناً لها • غير أن هذه المخلوقات المكرو سكوبية كائنات مزودة بعقل و ارادة ؛ والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانين مسعورين ، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط ؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرأون من الخطأ ، في أحكامهم ، في نتائجهم العلمية ، في مبادئهم الأخلاقية والدينية • ان قرى ومدناً وأممًا بكاملها قد سرت إليها هذه العدوى ، وفقدت العقل • أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون ، لا يفهم

بعضهم عن بعض شيئاً ، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً ؛ كل واحد يؤمن بأنه الانسان الوحيد الذى يمتلك الحقيقة ، فاذا نظر الى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعقف يديه لوعة وحسرة . اصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغى أن يعد شراً وما ينبغى ان يعد خيراً . أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يبرئوا . أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يفهم . هم يجتمعون ليؤلفوا جيوشاً كبيرة ، فما ان يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق فى جميع الصفوف فتتحل الجيوش ، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض ، فيعض بعضهم بعضاً ، ويذبح بعضهم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً . فى المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار ، ويستنفر الشعب . ولكن من الذى يستنفره ؟ ولماذا يستنفره ؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً .

الرعب يستبد بجميع الخلق . المهن العادية هجرها أصحابها ، لأن كل واحد يعرض آراءه واصلاحياته ، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد . الزراعة أُهملت اهمالاً تاماً . هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك ، متعاهدين بأغلظ الأيمان على أن لا يفترقوا قط ، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا فى شيء لا يمت بأية صلة الى ما عقدوا النية على القيام به ، ثم ما يلبثون أن يأخذوا فى التراشق بالتهم ، ثم ما يلبثون أن يقتلوا فيذبح بعضهم بعضاً . وتشتعل الحرائق ، وتظهر المجاعة . كل شيء يصيبه الدمار ، وجميع الناس تقريباً يهلكون .

البلاء مايفتك يشدد قوة ويتسع مدى . ولا ينجو من البلاء الا عدد قليل من الناس : هم الأتقياء الأطهار ، المصطفون الأخيار ، الذين كتب عليهم ان ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة ، أن يجددوا الأرض ويظهروها . غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد فى مكان ، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم .

ان الشيء الذى كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهذيان
السخيف يترجّع فى ذاكرته ترجعاً أليماً ، وأن الانطباع الذى خلفته
تلك الأحلام لا يمحى الا ببطء .

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح . أصبحت الأيام دافئة مضيئة .
هى أيام ربيع حقاً . فتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هى نوافذ ذات
قضبان حديدية يحرسها خفير) .

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره الا
مرتين ، وقد اضطرت فى المرتين كليهما أن تطلب اذنًا بذلك ، فكان
يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً . لكنها كثيراً ما كانت تأتى
الى فناء المستشفى ، ولا سيما عند هبوط الليل لتتظر الى النوافذ من
بعيد ، ولتمكث فى الفناء بضع دقائق أحياناً .

ففى مساء من الأماسى ، وكان راسكولنيكوف قد أبلّ من مرضه
تقريباً وكان نائماً ، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة ، فإذا هو
يلمح صونيا تحت ، قرب الباب . كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً . فشعر
راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنة نفذت فى قلبه . فارتعش واسرع
ببتعد عن النافذة .

ولم تجيء صونيا فى غد ، ولا جاءت بعد غد . فأدرك راسكولنيكوف
عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر . وأُخرج أخيراً من المستشفى ، فلما عاد
الى السجن علم من السجناء أن صوفيا سيميونوفنا مريضة ، وأنها ملازمة
غرفتها لا ترحلها .

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً ، وأرسل يسأل عنها . فلم يلبث
أن عرف أن مرضها ليس خطيراً . وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتألم
من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت اليه برسالة كتبتها بالقلم الرصاص ، وفيها
تبّه بأن صحتها تحسنت كثيراً ، وأن مرضها لم يكن الا برداً بسيطاً ،

وأنها ستمضى تراه أثناء العمل في أقرب فرصة • فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موحجاً أثناء قراءته هذه الرسالة •

كان النهار في هذه المرة كذلك مضياً دافئاً • ومضى راسكولنيكوف الى العمل على ضفاف النهر في ساعة مبكرة من الصباح هي الساعة السادسة ، وذلك تحت سقيفة أعدَّ عندها فرن لطبخ الرخام • لم يرسل الى هذا المكان الا ثلاثة عمال من السجناء • فأما الاول فقد عاد مع المراقب الى السجن ليحجى بالأدوات ، وأما الثاني فكان يهسى الحطب للفرن • وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطئ وجلس على احدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر • ان المرء يرى ، من على هذه الضفة العالية ، مساحة واسعة • ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن • ان هناك في المرج الذي تغمره الشمس ، والذي يمتد على مدى البصر ، خيام ، بدو رحل تبدو للنظر اليها نقاطاً صغيرة سوداء • هناك الحرية • هناك يعيش بشر آخرون ، يختلفون كل الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا • هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر ابراهيم وقطعانه لما ينصرم بعد • كان راسكولنيكوف ينظر الى ذلك المشهد جالساً في مكانه جامداً على وضعه ، لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • لقد انزلق فكره نحو الاسترسال في الأحلام والاستغراق في التأمل دون أن يحس • أصبح لا يفكر في شيء ، واجتاح نفسه حزنٌ كبير •

وفجأةً وقفت صونيا أمامه • كانت قد دنت منه دون ضجة ، وهامى ذى تجلس الى جانبه • ان برودة الصباح لم تكن قد خفّت بعد • وكانت صونيا ترتدى معطفاً فقيراً ، وتضع الشال الأخضر • وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير • ابتسمت له في رقة ولطف ، مريحة الهيئة ، ولكنها على عاداتها لم تمدد اليه يدها الا خجلة وجلة •

كانت دائماً تمد اليه يدها على خجل ووجل ، وكانت فى بعض الأحيان لا تمدّها اليه البتة ، كأنما هى تخشى أن يدفعها عنه • كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور واستعاض ، وكان يبدو عليه دائماً انه يستقبل الفتاة باستياء ومضض • وفى بعض الأحيان كان يصصرُ على الصمت فى عناد طوال مدة الزيارة • وكانت صونيا فى بعض الأيام ترتعش امامه ، ثم تنصرف وفى نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة • أما فى هذه المرة فإن يديهما لم تحاولا أن تنفصلا • ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة ، ولم يقل شيئاً ، وخفض عينيه • كانا وحيدين • لم يكن يراهما أحد • كان الحارس قد ابتعد لحظة •

لا يدري راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث ، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقيه على قدمي صونيا • لقد ارتدى راسكولنيكوف على قدمي صونيا ، وبكى ، وضمّ ركبتيها الى صدره • ذُعرت فى أول الأمر ذعراً شديداً ، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى • ثم نهضت فجأة ، ونظرت اليه مرتجفة مرتعشة • ولكنها سرعان ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة • أخذت عيناها تشعان بسعادة لا حدود لها • لقد فهمت - وليس يخالجهما الآن فى ذلك أى شك - فهمت انه يحبها ، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية ، وأن تلك الدقيقة قد آن اوانها أخيراً •••

أرادا أن يتكلما ، ولكنهما لم يستطيعا • امتلأت عيناها دموعاً • كانا كلاهما أصفري الوجه هزيلي الجسم ؛ ولكن هاهو ذا فجر مستقبل جديد يسطع فى وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً الى حياة جديدة • لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً ، ان قلب كل منهما يفجّر فى قلب الآخر ينابيع حياة لا تنضب •

قررا أن ينتظرا وأن يدعنا • ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين

أخرى فى سبيريا • صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا تطاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود ! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً • هو يعرف ذلك • هو يحس ذلك بكيانه كله • وهى، أليست تحيا بحياته ، أليست حياتها من حياته ؟

فى ذلك المساء ، فى القاعة المقفلة ، فكر راسكولنيكوف فى صونيا وهو راقد على مضجعه • وبدا له ، فى ذلك المساء أيضاً ، أن جميع السجناء ، جميع أعدائه القدامى ، نظروا اليه نظرة جديدة ، وراوه باعين أخرى • لقد خاطبهم ، فأجابوه برقة ونعومة • هو يتذكر ذلك الآن ، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون : أليس يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم ؟

فكّر فى صونيا • فتذكر أنه قد عذّبها دائماً ، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً • تذكر وجهها الصغير الشاحب الذى نحل نحولاً شديداً ، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه • فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحبٍ لا نهاية له •

ثم ، ما قيمة تلك الآلام الماضية « كلها » الآن ؟ ان كل شيء ، حتى الجريمة التى ارتكبها ، وحتى الحكم الذى صدر عليه ، وحتى النفى الذى يقاسى منه ، ان كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاع الأولى ، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو • ثم ان راسكولنيكوف كان فى ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً ، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها ، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة : فانما هو يشعر باحساسات ، ولا شيء غير الاحساسات • لقد حلت الحياة محل الجدل ؟ وفى أعماق نفسه اصبح ينضج شيء آخر تماماً •

وكان تحت وسادته انجيل ، فتناوله بحركة آلية • كان هذا الكتاب

لصونيا ، وهو بعينه الكتاب الذى قرأت له فيه فى الماضى قصة انبعاث لعازر .
كان راسكولنيكوف يقدّر فى أول عهده بالسجن أنصونيا ستصدّع رأسه
بالكلام على الدين ، وأنها ستحدّثه عن الانجيل بغير انقطاع ، وأنها ستحاول
أن تفرض عليه كتباً دينية . فما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا
الموضوع فى يوم من الأيام ، لا ولا عرضت عليه أن تجيئه بالانجيل قط .
انه هو الذى طلب منها ذلك بعد مرضه ، فحملت اليه الكتاب دون ان تقول
كلمة واحدة .

وهو لم يفتحه فى تلك المرة ، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن
بسرعة كوميض البرق : « هل يمكن أن لا يكون ايمانها الآن هو ايمانى ؟
أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هى عواطفى
وأشواقى ؟ ... » .

وقد اضطربت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هى أيضاً ،
وألّمّ بها المرض مرة أخرى فى تلك الليلة . ولكن سعادتها كانت تبلغ
من القوة ، وكانت تبلغ من المباغلة ، أنها تكاد ترعبها ! سبع سنين ، سبع
سنين « فقط » !

ومرّت بهما فى البداية ساعات نشوة كانا فيها كمن يعد السنين
السبع أياماً سبعة . كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة
الجديدة لن توهب له بغير تضحية ، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً ، وأن
يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية ...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى ، قصة تجدد انسان شيئاً بعد شيء ، قصة
انبعاثه رويداً رويداً ، قصة انتقاله من عالم الى عالم آخر متدرجاً ، قصة
معرفة بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل .
هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة ، أما قصتنا التى نرويها
الآن فهى تنتهى هنا .

حواش

الصفحة

- ٨ ★ « وأنه ما من انسان ٠٠٠ » : وردت في النص باللاتينية
Nihil humanum ، وهي اشارة الى جملة تيرانس المشهورة:
«انا انسان ، فلا شيء مما هو انساني بغريب عني» .
- ١٢ ★ عهد « النقد المفيد » : الاشارة هنا الى مطلع الستينات من القرن
التاسع عشر بروسيا ، حين أخذت الجرائد تهاجم العادات
الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي ، في جو يسوده
شيء من الحرية . ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة
١٩٦١ ، نددت عدة صحف ، ومنها جريدة «الزمان» التي كان
يصدرها دوستوفسكي : نددت بسيد اسمه كوزليانينوف
ضرب بالسوط امرأة المانية في القطار .
- ١٢ ★ « الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة العصر » : في عام ١٨٦١
نددت المجلة الأسبوعية «العصر» ، (في رسالة من مراسلها
بمدينة برم) ، بالتمثيلية الابطائية الخليعة التي قدمتها سيدة
قرأت قصة بوشكين « ليالى مصر » التي يصف فيها غراميات
كليوباتره . وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة « العصر »
وتسفه تدخلها هذا . وقد شارك دوستوفسكي في تلك
المساجلات (في مجلته «الزمان») ، متهمكا على الصحفيين الذين
يأخذون مأخذ الجد أمرا تافها لا قيمة له .
- ١٥ ★ « أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعى لم تمسسنا بسوء » :
ان قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر فى ١٩ نيسان (أبريل)
سنة ١٨١٦ ، لم يهب للأقنان الذين أعتقهم الا الاراضى الصالحة
للزراعة التي كانوا يزرعونها هم ، أما الغابات والمراعى فقد
ظلت ملكا للسادة .
- ١٥ ★ « مطاعم دوسو » : هو فندق ومطعم فرنسي كان له صيت ذائع
حينذاك ، وقد أقام فيه دوستوفسكي زمنا . والحديث عن

- « الحلقات » اشارة الى مكان بجزيرة ايلاجين اسمه « الحلقة » ،
وهو محل ملاء ومباهج ولمذات شعبية •
- ١٦ ★ « يوناني صغير من نيبجين » : في عام ١٧٧٩ نزح عدد كبير من يونان القرم في عهد كاترين الثانية : الى مدينة نيبجين ، وهي مدينة صغيرة من مدن أوكرانيا لا تبعد كثيرا عن مدينة كييف • وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجارا أغنياء •
- ١٧ ★ « لأن خمرتي فسدت » : بالفرنسية في الأصل ، والمقصود بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل الى الشراب •
- ١٧ ★ « بيرج » : المائى كان يعلم رقص الباليه ويتعاطى الطيران بالمنطاد ، وقد نظم في بطرسبرج نزحات طيران بالمنطاد •
- ١٨ ★ « محطة مالايا - فيشيرا » : محطة تقطع على خط موسكو - سان بطرسبرج ، وتبعد عن العاصمة مسافة ١٥٠ كيلومترا •
- ٢٠ ★ « آنيسكا » : تصغير تحقيرى لاسم آنيسيا •
- ٢١ ★ « فيلكا » : تصغير تحقيرى لاسم فيليب •
- ٢٩ ★ من المعروف أن دوستويفسكى كان معجبا أشد الإعجاب بلوحة رافائيل « مادونا سيكستين » التى تأملها كثيرا بمدينة درسدن ، وكان يحتفظ فى حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها •
- ٢٩ ★ « عمارة فيازمسكى » : عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج كانت فيما مضى ملكا لأسرة الأمراء فيازمسكى • وهى فى العهد الذى تجرى فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جدا ، وتضم بيوتا مشبوهة وماوى ليليا •
- ٤٦ ★ ان اسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم الروسية ومعناها «العقل» • وهنا يتظاهر لوجين بنسيان الاسم ، ويحل محله اسم رازودكين ، المشتق من كلمة رازودوك الروسية ومعناها «الذكاء» •
- ٦٢ ★ « ضعيف » : وردت الكلمة بالالمانية فى الأصل Schwach ويجب أن يشار هنا الى أن مشروع رازوميخين الذى يدور عليه

- الكلام فى هذه المحادثة يعبر عن المتاعب التى لقيها دوستويفسكى نفسه من الناشرين ، وعن الحلم الذى كان يحلمه دائما وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه .
- ٨٩ ★ « أين الحديث عن قيام لعازر ؟ » : يجب أن نتذكر أن قاضى التحقيق كان قد سأل راسكولينكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر (الجزء الثالث ، الفصل الخامس) .
- ٨٩ ★ « الفرسخ السابع » : كان يوجد ، فى أوديدلنايا ، على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج ، مستشفى للمجانين ؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى ، كما يطلق اسم «العباسية» فى القاهرة على مستشفى الامراض العقلية الموجود فى حى العباسية بها .
- ٩٠ ★ « سترى الله » : اشارة الى الآيه الواردة فى انجيل متى «طوبى للأطهار ، لأنهم سيرون الله» (الاصحاح الخامس ، ٨) .
- ٩١ ★ انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر .
- ٩٧ ★ انجيل مرقس (الاصحاح العاشر ، ١٤)
- ١٠٠ ★ كان مفوضو التحقيق جزءا من الشرطة ، فلما صدرت قوانين الاصلاح القضائى فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر ١٨٦٤) ، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل .
- ١٠٩ ★ « ذلك واجب لا مفر منه » : بالفرنسية فى الأصل .
- ١١٠ ★ « فستتغير أسماءنا على الأقل » : اشارة الى قوانين الاصلاح القضائى المرتقب (راجع حاشية الصفحة ١٠٠) ، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخا هو تموز (يوليو) ١٨٦٤ .
- ١١٣ ★ « بعد معركة ألما راسا » : هى معركة ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٤ التى خسرها الجيش الروسى فانكفأ الى سيباستوبول أثناء حملة القرم .
- ١١٦ ★ اشارة الى بداية حملة ١٨٠٥ حين أفسد نابليون خطط «المجلس الحربى الأعلى (هوفكريسجرات) بالنمسا ، وأسر فى أولما الجنرال النمساوى ماك هو وجيشه . إن تلك الاحداث قد وصفها

تولستوى فى روايته الكبرى «الحرب والسلام» (الجزء الاول)
الذى بدأ نشره فى مجلة « الرسول الروسى » (كانون الثانى
وشباط - يناير وفبراير) عند بدء نشر الاجزاء الاولى من رواية
الجريمة والعقاب هذه .

١٣٢ ★ « بقساوسة ونواب » : من الأنظمة المتبعة فى بداية تحقيق
قضائى أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه اليمين ؛ ويؤتى
أيضا بنائب من نواب طبفته الاجتماعية ليعرف بهويته .

١٥٥ ★ « متجر كنوب أو المتجر الانجليزى » : متجران شهيران فى قلب
سان بطرسبرج تباع فيهما أدوات الترف الراقية .

١٥٧ ★ « يسمون تقديسين أو عديمين أو مصلحين » : كانت هذه الأسماء
الثلاثة تطلق على التيار الراديكالى السائد بين الشبيبة فى ذلك
الأوان . ومن المعروف أن اسم «العدمى» إنما أوجده تورجنيف
وكان قد استعمله فى روايته « الآباء والابناء » .

١٦٨ ★ « لقد مضينا فى اعتقاداتنا الى مدى أبعد ٠٠ » : ان ليبرياتنيكوف
يعرض هنا آراء بيزاريف (١٨٤٠ - ١٨٦٨) المتطرفة الموغلة فى
الراديكالية ؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبروليوبوف (١٨٣٦ -
١٨٦١) الذى كان كذلك راديكاليا جدا ، ويهاجم الناقد الكبير
بيلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) .

١٧٠ ★ « بل انه لأكبر كثيرا من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين » :
ان ليبرياتنيكوف يبالغ فى آراء بيزاريف وتلميذه زاييتسيف
اللذين كانا يدافعان عن مذهب المنفعة ، ويناديان بأن حذاء من
الحذاءين أنفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين .

١٨٥ ★ « السيدة الليوتنانه » : باللغة البولندية فى الأصل .

٢١٠ ★ بالألمانية فى الأصل .

٢٢١ ★ « العرض العام للمنهج الوضعى » : كتاب ظهر ببطرسبرج سنة
١٨٦٦ يضم ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين:
فيرشوف ، كلود برنار ، موليشوت ، تيودور بيدريت («الدماغ
والفكر») ، أدولف فاجنر (« ما يدل عليه الاحصاء من أن الافعال
التي تبدو حرة فى الظاهر إنما هى حتمية فى الواقع ») .

- ٢٦٣ ★ « سيميون زاخارتش » : هو مارميلادوف •
- ٢٦٤ ★ « باولين ميخائيلوفنا » : هي بوليتشكا •
- ٢٦٥ ★ لعل الاستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسى فرانسوا لوريه (١٧٩٥ - ١٨٥١) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للجنون» (١٨٣٨)
- ٢٧٣ ★ « لينيا ، انصبى قامتك » : بالفرنسية فى الأصل •
- ٢٧٥ ★ « الفارس المتكىء على سيفه » : هذه هى الكلمات الاولى من قصيدة « فراق » للشاعر الرومانسى باتيوشكوف ؛ وقد طنت القصيدة سنة ١٨١٤ ، وراجت راجا كبيرا •
- ٢٨٢ ★ « لك ماس ولآلى » : مطلع أغنية عاطفية من شعر هاينى •
- ٢٨٢ ★ « تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان » : مطلع قصيدة للشاعر ليرمونتوف عنوانها «الحلم» (١٨٤١) ، وفيها يرى الشاعر نفسه فى واد بالقوقاز ، يحتضر وحيدا •
- ٢٩٥ ★ « جزيرة كرستوفسكى » : جزيرة من أنأى جزر نهر نيفا •
- ٣٠٧ ★ «الدكتور ب . . . » • أغلب الظن أنه الدكتور سرجى بتروفتش بوتكين (١٨٣٢ - ١٨٨٩) ، وهو طبيب شهير فى ذلك الأوان •
- ٣١٣ ★ « دون جدوى » : بالألمانية فى الأصل •
- ٣١٦ ★ « الى صباح غد » : بالألمانية فى الأصل ، (Morgen früh) وهو تعبير ألمانى يستعمل بمعنى قولنا : « دعك من هذا الكلام ! لا أصدك ! » •
- ٣٥١ ★ « كما يدل على ذلك اسمه . . . » : كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت ، وكانت هذه الأسماء تستمد أحيانا من مزايا روحية ، فاسم دوبروليوبوف

يعنى « محب الخير » ، واسم زدرافوزميسلوف يعنى « السديد
الرأى » ، واسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم ومعناها العقل .

★ ٣٥١ « باراشا » : تصغير اسم براسكوفيا .

★ ٣٥٩ « الطبيعة والحقيقة » : بالفرنسية فى الأصل . ان سفديريجايلوف
يحب استعمال عبارات فرنسية ويكثر منها فى حديثه .

★ ٣٩٠ « فوكسهول » : كانت هذه الكلمة الانجليزية فى أول الأمر
اسما لضاحية من ضواحي لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية فى
القرن الثامن عشر . وقد أنشئت حدائق مشابهة لها فى القارة
الاوربية أطلق عليها هذا الاسم نفسه ؛ ومنها حديقة فى روسيا
قريبة جدا من محطة بأفلوفسك ؛ وقد أصبحت الكلمة فى نطقها
الروسي الآن (فوكسال) تعنى كل محطة من محطات السكة
الحديدية .

★ ٣٩٣ « فلاديمير » : العاصمة القديمة لروسيا فى القرن الثالث عشر
والقرن الرابع عشر ، وهى تقع شمال شرق موسكو . وقد
أصبحت الطريق الذى تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم
بالأشغال الشاقة ، للوصول الى سيبيريا ؛ وهكذا فان « طريق
فلاديمير » تعنى « المعتقل » .

★ ٤٠٨ ان رواية ألكسندر دوما « غادة الكاميليا » (١٨٤٨) والمسرحية
التي تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا راجعا كبيرا جدا فى
روسيا وأصبح اسم « كاميليا » يعنى البغى الراقية .

★ ٤١١ « المبنى الذى يعلوه برج » : هو ثكنة لرجال الاطفاء ؛ وخوذة
أخيل هى الخوذة التى يحمون بها رؤوسهم .

★ ٤٤١ « عدم » : باللاتينية فى الأصل nihil est ، اشارة الى
المذهب العدمى .

★ ٤٤١ « مذكرات ليفنجستون » : ان كتاب ليفنجستون « استكشافات
فى داخل أفريقيا الوسطى » قد ظهر بلندن سنة ١٨٦٥ . وقد
ترجمه الى الروسية وأصدره سنة ١٨٦٧ ، نيقولا ستراخوف
صديق دوستوفيسكى .

٤٤٢ ★ لم تكن مدرسة الطب بمدينة بطرسبرج إحدى كليات الجامعة ،
كما في المدن الأخرى ، وإنما كانت «أكاديمية للطب والجراحة»
مستقلة .

٤٥٨ ★ « على ضفاف نهر إيريتش » : ان هذا النهر الذي تقع على شاطئه
مدينة أومسك ، قد سبق أن ذكره دوستويفسكى فى كتابه
« ذكريات من منزل الأموات » .

٤٦٣ ★ الاشارة هنا الى السجناء البولنديين السياسيين الذين سبق أن
تحدث عنهم دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل
الاموات » . ألم يقل أحدهم ، وهو ميريكى ، ألم يقل عن المجرمين
العاديين : « اننى أكره قطاع الطرق هؤلاء ! » .

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الشامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١-
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢-
<u>المجلد الشافيف</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيوتشكا نزنوفنا	الأنبلة - ١-
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخارتشين	الأنبلة - ٢-
الجارة	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهرج	الشياطين - ١-
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢-
قصة في سبع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	المراهق - ١-
زوجة آخر، ورجل تحت السرير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	المراهق - ٢-
قرية ستيتانتشيكوفوسكانها	قصص
حلم العم	<u>المجلد السادس عشر</u>
<u>المجلد الرابع</u>	الأخوة كارامازوف - ١-
مذلولون مهانوف	<u>المجلد السابع عشر</u>
<u>المجلد الخامس</u>	الأخوة كارامازوف - ٢-
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الأخوة كارامازوف - ٣-
في قبوي	
قصة اليمعة	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
الشمس	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدي	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبائين" فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتربه ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وأدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
الكسندر في سولزنيف